فوزي عبده

زوجتي من الجن

فوزي عبده
زوجتي من الجن
بيلومانيا للنشر والتوزيع

فوزي عبده | Fawzi Abdo

روائي مقدسي لديه عدد من الروايات المنشورة وغير المنشورة، صدر له:



زوجتي من الجن






ISBN 978-9950-329-56-0


زوجتي
من
الجن

زوجتي من الجن

فوزي عبده



ببلومانيا للنشر والتوزيع



نوع العمل: رواية

اسم العمل: زوجتي من الجن

اسم المؤلف: فوزي عبده

تدقيق لغوي: مصعب أبو زيد

تصميم وإخراج: Design Studio

ISBN: 978-9950-329-56-0

الناشر: دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام: جمال سليمان

هاتف: (+20) 26061014

محمول: / (+20)1208868826 (+20) 1065534541

صفحة الدار على (فيسبوك) :

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

الطبعة الأولى 1440 هـ –2019 م

تنويه: ما ورد في الرواية يعبر فقط عن وجهة نظر كاتبها.

ملحوظة مهمة

كتبت هذه الرواية قبل سنوات طويلة، وللأسف سُرقت مسودة أوليّة لأجزاء منها ونُشرت في آلاف المواقع الإلكترونية وعشرات الصحف والمجلات الأسبوعية، المحزن في الأمر أن بعض اللصوص طبعوا مسودة الرواية عشرات المرات ونسبوها إلى أنفسهم، ولم يكلفوا أنفسهم حتى تصحيح الأخطاء اللغوية أو تنظيم فصولها أو تحريرها. كنت آمل أن يبدع أحد اللصوص ويكتب نهاية هذه الرواية، لكن الإبداع الوحيد كان في إضافة أسمائهم إليها. حالياً في الكثير من المكتبات نسخ مزورة مشوهة رديئة لا نهاية لها تحمل اسم "زوجتي من الجن" وأسماء اللصوص، علاوة على نسخ مزورة في قنوات (يوتيوب) وتطبيقات الهواتف الذكية. النسخة الأصلية صدرت عن دار ببلومانيا للنشر والتوزيع في القاهرة في العام 2019 وتحمل اسم كاتبها.

فوزي عبده

ذات مساء، بينما كنت أرنو إلى الفضاء، شدّني منظر نخلة تعانق السماء بأبهة وكبرياء، فأخذت أتأملها مطلقاً لخيالي العنان كي يحل على شريط طويل سريع يَطبع أمام عينيّ الحلم بالإفراج المرتقب ولقاء الأصدقاء والأهل.

مر الشريط كومضات سريعة، وفجأةً تجسدت إلى جانب النخلة فتاة حسناء ترتدي رداء أخضر ربيعياً، زاد من جمالها شلال شعرها الأسود المتموج الذي تدلى مسترسلاً حتى تجاوز خاصرتها... وحين أمعنت النظر في وجهها رأيت لوحة غاية في الجمال.

سبحان من أبدعها وأبدع رسم عينيها... هزت النخلة بيديها وراحت تدور حول جذعها برشاقة غزال. وفجأةً رفعت رأسها لتلتقي عيناي بعينيها السوداوين الواسعتين، فانساب سحرٌ خفق له قلبي، ثم انفرجت شفتاها راسمة ابتسامة ملائكية عذبة دخلت قلبي فملكته وتغلغلت في ثنايا روحي تاركة فيها أثر ما يفعل الخمر بمحتسيه. وفي لمح البصر وقبل أن يرتد طرفي استدارت نحو النخلة واختفت.

بقيت في مكاني أحدق إلى المكان نفسه، متسمراً شارد الفكر مذهولاً، ثم تحسست نفسي جيداً؛ فقد خلت أنني كنت في حلم جميل.

حاولت أن أقنع نفسي بأن ما رأيته لا يعدو كونه حلماً سيتلاشى حينما يحتل مكانه حلم آخر، ومع هذا أحببت الجلوس في ذلك المكان مستمتعاً بالبحث عن فتاة حلمي علّها تظهر ثانية. وبين الحين والآخر كنت أسرق من الانتظار لحظات حنين إلى الأهل والأصدقاء.

بقيت على هذه الحال خمسة أيام. وفي اليوم السادس وبينما كانت الشمس تميل إلى الغروب ظهرت بجانب النخلة. نعم، إنها هي، ذات الرداء الأخضر، جلست هذه المرة في حضن الأرض، وكأنها زهرة إلهية في معبد الجمال، تسارعت دقات قلبي حين رمتني بنظرتها الساحرة والابتسامة ترتسم على محياها كأنشودة عشق انتظرها القلب المعذب طويلاً ليروي ظمأه، لكنها سرعان ما اختفت ثانية، وكأنها تخشى عتمة الليل ووحشة السجن وهول الزنازين والخيام. عدت إلى واقعي، سجن وسجان، إخوة وأصدقاء ورفاق خلف القضبان، لكن السؤال بقي يلح عليّ:

- هل جننت حتى أعشق سراباً صنعه خيالي؟!

استسلمت إلى العلم والمنطق، وأقنعت نفسي بأن ذات الرداء الأخضر ليست سوى وهم، وأن ما رأيته لا يمت إلى الحقيقة بصلة. ومع هذا، فقد كان فكري وخيالي يسرح فيها حتى وجدت نفسي في نهاية المطاف أحلّق في خيوطٍ من نورِ جمالها الأخّاذ. آه، لقد أصبحت أسير فتاة حلمي. نعم، لقد أحببتها حباً لا يعرفه إلا من لمست شغاف قلبه أشعة الحب وسحره الذي لا ينضب.

حاولت مجدداً أن أمنع نفسي من التفكير بها فلم أجد إلى ذلك سبيلاً؛ لذا بت أتحايل على عقلي لأعيش معها حلمي الجميل، وأخشى أن يوقظني طنين بعوضة فيقطع شريط أحلامي ويمنعني من استحضار جمال عينيها وروعة ابتسامتها التي ارتسمت في مخيلتي.

مع توالي الأيام، أصبح أملي الوحيد أن تظهر من جديد. انقضى نصف عام من عمري وجاء معه موعد الإفراج، يوم الحرية الذي تتعطش إليه نفس الأسير... أصبحت حراً، ما أجمل أن يكون الإنسان حراً طليقاً كفراشة!

فجأة عصف بقلبي هاجس سريع بعد أن راودني شعور مليء بالأسى والمرارة، شعرت معه وكأن زهور الربيع تتساقط، انقبضت نفسي... لقد تذكرت الفتاة والنخلة، شعرت بمرارة من يفقد أعز شيء في حياته.

الجميع يحثني على الصعود إلى السيارة التي ستنطلق عائدةً إلى البلدة، وعلامات التعجب ترتسم على وجوههم، وكأنما يتساءلون ما بال الرجل؟ أيتوق إلى العودة للأسر؟! بدأت أتمالك نفسي بعد أن أحسست بما يجول في خواطرهم، فصعدت إلى السيارة جسداً دون روح. وبينما كنا في طريق العودة وعجلات السيارة تلتهم الطريق كانت السعادة تغمر أمي، والضحكات تغرق أختي سروة، أما أنا فلا أدري أين أنا.

بدأت ألملم شتات أفكاري وأستجمع قواي وألح على نفسي حتى تكف عن هذا الجنون، تصارعت الأفكار والمشاعر والأحلام والأخيلة، وفي خضم هذا الصراع المرير بدأت أشتم نفسي حتى تولد لدي شعور بأني أريد أن أصرخ "كفى أحلاماً". غمرني العرق جراء هذا الصراع لأصحو فجأةً على صوت أمي الملائكي:

– لماذا أنت حزين يا حسن؟

ابتسمت بمرارة، إنها أمي الحنونة، نهر العطاء وبحر الحنان.

- لست حزيناً يا أمي، كل ما في الأمر أنني متأثر قليلاً لفراق أصدقائي في الأسر.

بدأت أتجاذب بعدها أطراف الحديث مع أمي وشقيقتي حتى وصلنا إلى منبع الطفولة والذكريات، هناك ازدحم البيت بالمهنئين بعودتي سالماً معافىً؛ الأمر الذي جعلني أعود إلى طبيعتي.

مرت الأيام وبدأت أتغلب على مشاعري حتى تمكنت من السيطرة على نفسي مجدداً، بعد أن أقنعتها بأن ما عشته في الأسر لا يعدو حلم يقظة انتهى.

****

ذات يوم دُعيت عائلتي إلى حضور حفل زفاف، فرأيت أن بقائي في البيت وحيداً سيتيح لي أن أقرأ كتاباً بهدوء. لم أشعر بمرور الوقت إلا عندما بدأت خيوط الشمس تتسلل هاربة من النافذة تاركةً وراءها ظلاً لطيفاً مشوباً بالبرودة، وإذ بي أسمع همساً ناعماً هادئاً. لا إرادياً، التفت نحو مصدره طارحاً الكتاب أرضاً، وقد اضطرب قلبي وارتعش جسدي:

- يا إلهي!

هالة ضوئية تشبهها تماماً تقف شاخصة أمامي، العينان السوداوان الواسعتان والابتسامة العذبة الناعمة، والشعر الأسود الطويل. تسمّرت في مكاني، تسارعت أنفاسي:

- كيف حالك يا حسن؟ اعذرني لأن ظروفي لم تتح لي زيارتك مبكراً.

نعم، إنها هي، ارتعدت كل خلية في جسدي، وكأن صعقة ضربتني، ابتسامتها الساحرة تخترق صدري لتستقر في أعماق نفسي متفاعلةً مع كل خلجة من خلجات قلبي. لا أملك إلا الصمت وأنا هائم في محراب جمالها، كم هي جميلة! يا إلهي! مئات الأسئلة تدافعت، هل عدت إلى الدوامة نفسها؟ من هي؟ من تكون يا إلهي؟ أهي إنس أم جن؟... عيناي تحدقان بها ولا أريد أن تغيب عنهما لحظة؟ ما الذي جاء بها؟ لا أريد أن يرتد إلي طرف في حضرتها، لا أريد أن أفارقها... خفت أن تختفي وتتركني مجدداً... إن فعلت، ماذا سيحل بي؟ وما هي إلا لحظات حتى قالت بنغمة انسابت في أذني:

– الوقت تأخر وعلي المغادرة.

وقبل أن تصل آخر كلمة إلى مسامعي انشقت الأرض وابتلعتها. سمعت صرير الباب، فعرفت أن أمي وأختي قد عادتا، تجاهلتهما وأخذت أبحث عن حلمي في أرجاء المنزل. قاطعتني أمي بسؤالها:

– عمّ تبحث يا حسن؟

فأجبتها مازحاً:

– أبحث عن حلمي الجميل.

ضحكت سروة وهي تقول:

– سلامة عقلك يا حسن.

أعدّت أمي طعام العشاء وأصرت على أن أجلس إلى جانبها، وبدأت تحدثني بإيجاز عن العرس والصبايا وأنا شارد الذهن. أنهت حديثها وعدت لفتاة أحلامي التي أمست حقيقةً.

أعدت التفكير بها مرةً أخرى، أخذت أسترجع ما كنت أقوم به قبل أن تظهر، أيعقل أني غفوت وحلمت بما رأيت، يستحيل أن أكون قد غفوت، لا أريد أن أصغي إلى نداء العقل مرة أخرى. لا أريد تفسيراً يسرق حلمي الجميل. آه، كم هي طويلة هذه الليلة، صراع محتدم بين الفكر والعاطفة، بين العلم والخرافة، بين الواقع والخيال، وأخيراً انتصر العقل.

توالت الأيام وتعاقبت الليالي، لينقضي شهر بأكمله. وذات ليلة، بينما كنت جالساً في حديقة المنزل شارد الذهن جاء صوتها من بعيد:

– مساء الخير يا حسن.

ارتعش قلبي، نظرت إلى مصدر الصوت، فإذ بابتسامة عذبة لا تنتهي... سارت نحوي، اقتربت أكثر فأكثر حتى جلست إلى جانبي. لم أحرك ساكناً، راحت عيناي تتفحصانها، أقصد تتأملان سحرها الأخاذ. حاولت أن أتحدث، فلم أستطع، وكأن لساني فقد القدرة على الحركة، نظرت إليّ وكأنها تود أن تعيد الطمأنينة إلى قلبي. لم أكن خائفاً، في الحقيقة كانت السعادة هي من عقدت لساني. وأخيراً تمكنت من أسألها:

- قولي لي.

فأجابت بهمس عذب ضمّ كل الألحان والأنغام.

- أنا غادة، جئت لزيارتك، ولا وقت للإجابة عن أسئلتك.

وقبل أن أسالها إن كانت ستعود، ردت:

- سأعود قريباً!

اختفت فجأة وتركتني في حيرة من قدرتها على قراءة أفكاري وإجابتها عن أسئلتي قبل أن أنطق بها، لكنها غادرتني هذه المرة وقد تركت على الأقل اسماً أناديها به.

قطعت الشك باليقين في أن ما يحدث لي حقيقة، ومع هذا اليقين ازداد قلبي تعلقاً بها وازدادت روحي هياماً بجمالها. بدأت بعدها أنتظر الغد المشرق المبشر بالسعادة والهناء، فيكفيني منه أنني سأرى غادة.

انقضت الليلة وتبعتها ليال كثيرة، أمضي مساءاتها في حديقة المنزل علّها تجيء، وفي ليلة مقمرة، باغتني صوت أمي الحبيبة.

- أخبرني من تكون سعيدة الحظ التي سرقتك منا لأخطبها لك اليوم قبل الغد.

ابتسمتُ وابتسمتْ وتركتني لأحلامي.

- تصبحين على خير يا أمي.

ما إن استدارت أمي عائدة إلى البيت وتوارت عن ناظري حتى هبت نسمة صيفية ناعمة خفيفة تحمل معها صوتاً ملائكياً عذباً:

- من يشغل بالك يا حسن؟

التفتُّ إلى مصدر الصوت وكاد قلبي يقفز من موضعه. إنها غادة تجلس على حافة سور الحديقة تعانق ضوء القمر وتزيده جمالاً ودلالاً، اقتربت بخفة ريشة ناعمة تحملها نسمة صيفية، دنت لتجلس على كرسي قديم من القش، والنسيم يداعب شعرها الناعم، ثم قالت:

- لمَ أنت مذهول؟ هل هذه هي المرة الأولى التي تراني فيها؟ صحيح أنني أستطيع قراءة ما يجول في خلدك إلا أنني في شوق إلى سماع صوتك، لا داعي للحيرة، تكلم، أعلم أنك تريد أن تسألني من أنا!.

- نعم من أنت؟

وقبل أن أكمل جملتي، ضحكت ضحكة ساحرة جعلتني أعتقد أنني قلت دعابة، وما إن شاركتها ضحكاتها، حتى قالت:

- أترى، الأمر بسيط، أنا يا حسن من عالم غير عالمك.

- أهذا يعني أنك من الجن؟

ضحكت مجدداً ضحكةً جعلت روحي تنتشي من عذوبتها ثم قالت:

- أنا لست من عالمك، فلا أبي ولا أمي من البشر، ولأني ابنتهما فهذا يعني أنني لست من البشر.

حرت من تهربها من الإجابة، فسألتها وكان في سؤالي شيء من الإصرار:

- أجيبي فقط، هل أنت جنية؟ وكيف تستطيعين قراءة أفكاري؟

- أنا لست إنسية يا حسن.

احترت من إجابتها، وغصت في بحر مليء بالأسئلة... صمتتْ، وكان في صمتها شيء مريب. ثم عادت لتقول:

- بكل سهولة يا حسن، أستطيع معرفة ما يجول في خاطرك دون جهد أو عناء، ما دمت جزءاً من أفكارك. إن رغبت، سأعلمك كيف تقرأ أفكار غيرك.

عدت إلى السؤال نفسه لا شعورياً:

- من أنتِ؟ ومن أين أتيتِ؟ ومن تكونين؟

ردت بنغمة فيها شيء من السخرية:

- اسمي غادة، ولست من الإنس وأنا من عالم آخر غير عالمك.

- إذاً، أنت من الجن؟

- لست من الإنس، وأطلق علي ما شئت من مسميات.

ابتسمت ابتسامةً ساحرةً أشعرتني بأنني طفل صغير يشعر بالخجل حيال أسئلته التي يعتقد أنها لا تخلو من الحماقة والسخف. إذاً هي جنية، ولكن ما السبب الذي يكمن وراء عدم بوحها بجنسها وعالمها؟ رتبت أفكاري،

استعدت ذاكرتي، وغادة لا تزال تنظر إليّ. قلت في نفسي هي الآن تعرف بماذا أفكر، يا إلهي، كم أبدو سخيفاً وضعيفاً أمامها، فقالت:

– أنت لا تبدو سخيفاً يا حسن.

ضحكتُ، وقلت لها:

– أرجو أن تراعي الوضع الذي أنا عليه الآن.

امتزج كلامي بشيء من الضحك، فكلما جئت بسؤال أتتني الإجابة حاملةً المزيد من الحيرة. ثن قلت لها:

– ساعديني على فهم ما يجري، حتى أتخلص من حيرتي.

ابتسمت وقالت:

– تفضل ماذا تريد أن تفهم؟

– هل أنا في حلم جميل سأصحو منه بعد أن تغادري؟ أم بي مسٌّ من الجنون؟ هل أنت جنية؟ ماذا كنت تفعلين في سجن عسقلان؟ كيف يكون ذلك؟ كيف تظهرين فجأة ثم تختفين؟

– إذا كنت تريد أن أجيبك، ابدأ بسؤال واحد، وبعد أن أجيبك اطرح السؤال التالي.

– إذاً، فلنبدأ، هل أنا أحلم؟

– أنت لا تحلم، وإن أردت التأكد فقف على قدميك.

امتثلت لها وأنا أضحك من نفسي، طلبتْ أن أجلس فجلست، ثم وقفت، ثم جلست... ولو شاهدني أحد على هذه الحالة لظن أنني أصبت بنوبة جنون، سألتها:

- غادة، من أنت؟ ومن أين جئت، ومتى...؟

ضحكت، وبعد صمت قالت:

- اتفقنا على أن تسأل سؤالاً واحداً وتنتظر الإجابة وبعدها تسأل السؤال التالي.

أضفى هدوؤها على اللقاء جمالاً وسحراً فسألتها:

- هل أنت من رأيتها في السجن؟
- نعم، لأني أردت أن تراني، ولي هناك حكاية غريبة عشتها منذ الطفولة، وموجزها أن لتلك النخلة مكانة في قلبي، لذا لم تنقطع زيارتي لها منذ كنت طفلة. كنت آتيها بين الحين والآخر دون أن أعير أي اهتمام لما يحيط بها، حتى جاء ذلك اليوم الذي شاهدتني فيه، في تلك اللحظة نسيت نفسي وبعفوية اتصلت بأفكارك، ورأيت الفرصة مؤاتية فظهرت لك لتراني. آلمني أني لم أكن في نظرك أكثر من حلم. بعد خروجك من السجن تتبعت أثرك، وحينما سنحت الفرصة تسللت وزرتك في بيتك، ولكن لم يكن لدي وقت.

تنهدت منهيةً حديثها. وبدل أن يتضح الأمر اتسعت فجوة الحيرة، وتدفقت الأسئلة. وليت لساني انعقد ولم أنبس ببنت شفة، فقد قلت دون تفكير:

- أفهم من كلامك أن حبي للنخلة هو الحافز الذي دفعكِ إلى الظهور أمامي، أليس غريباً أن أكون الوحيد الذي لفت انتباهك من بين آلاف الأسرى القابعين في ذلك السجن؟ لقد كانوا يطوفون حول النخلة كل يوم، لا بد أن هناك من أحبها أكثر مني، ليس هذا

فقط، فمن بينهم العشرات الذين يؤمنون بوجود العفاريت والخرافات وقصصها التي لا تنتهي. لماذا لم تظهري لأي منهم واخترت الظهور لي أنا الذي لا يؤمن بالجن؟

انقلب كيانها وتلاشت الابتسامة التي لم تفارقها، وبدت عليها علامات الحزن والألم، ترقرقت الدموع في مقلتيها، وبحزن مزّق شغاف قلبي قالت:

– ليس لأحد القدرة على رؤيتي إلا إذا أردت.

ثم طأطأت رأسها لكيلا أرى الدموع في عينيها، وهي تقول:

– إياك أن تفكر في أن ظهوري فيه متعة لي، الأمر أصعب مما تتصور، فمن يظهر منا لأي إنسي يعرّض نفسه لمخالفة عقائدية في عالمنا، يترتب عليها عقاب عسير لن يتصوره عقلك.

أشاحت وجهها بخفة ماج معها شعرها الناعم لينسدل من جديد على ظهرها وكتفيها. أدركت أنها بهذه الحركة تمسح دمعة من عينيها سقطت على خدها على الرغم مما أظهرته أمامي من جلد، انتصبت وكأنها تريد الثأر لكبريائها:

– إياك أن تعتقد بأن الاتصال بالإنس أمر سهل، تأكد يا فيلسوف زمانك، أنك أكثر من غيرك إيماناً بوجود عالم آخر أو ما تسميه الخرافة، وتجهد فكرك في خلق المبررات والتفسيرات. لا أنكر أنني ارتكبت حماقة وسخافة سأدفع ثمنها غالياً، ويبدو أنني قد بدأت دفع ثمنها الآن.

– غادة، أنا آسف، لم أقصد الإساءة.

ترقرقت الدموع في مقلتيها مرة أخرى، وقالت بصوت متهدج:

– أنا التي يتوجب عليها الاعتذار.

– غادة، أرجوك أن تسامحيني، لم أقصد.

نظرت إليّ وإذ بدمعة ثمينة كأنها لؤلؤة تنساب على خدها... واختفت.

– غادة، غادة، غادة.

ناديت كمن يستحضر الأموات من القبور دون مجيب... اختفت وانفطر مع اختفائها قلبي، فقد كانت دمعتها الأخيرة أشبه بخنجر غمد في أحشائي. ذهبت تاركة ضميري يجثم على صدري.

يا إلهي، ما أسخفني! وما أحمقني! أيعقل أن يكون لي قلب ومشاعر وأحاسيس؟ كيف طاوعني قلبي أن أسيء إليها وأجرحها. أنا لا أستحق منها نظرة واحدة، فما بالك بدموع عينيها الجميلتين.

بكيت، وكانت هذه المرة الأولى التي أبكي فيها منذ زمن طويل، ذرفت دموعاً من أعماق قلبي... أعترف بأن قوتي انهارت وفلسفتي تبخرت وعنادي تحطم، فقدت توازني وسقطت على الأرض وغرقت في فراغ لا متناه، أين أنا؟

فتحت عينيّ بتثاقل فلم أر شيئاً، أغمضتهما وفتحتهما مرة أخرى، وإذ بالغشاوة تنقشع لأجد نفسي في غرفة بيضاء وحولي أطياف ترتدي لون الغرفة، وكل شبح يتمتم مع الآخر، أغمضت عينيّ لأطرد هذا الكابوس... ولكني بقيت أشعر بهم، وأخيراً استسلمت لهواجسي حتى كاد رأسي ينفجر، هل أنا في عالم الجن؟ هل من يحيطون بي هم شرموخ، ونجوف، وزليخة،

وشعشوع؟ بماذا يتهامسون؟ هل يقولون إن هذا الإنسي جرح كبرياء ابنتنا؟ ماذا سيفعلون بي؟ هل سيعلقونني من شعري؟ ربما سيضعونني في قدر كبير أو يمسخونني على هيئة قرد أو كلب أو حمار أو دجاجة! أنام وأستيقظ والكوابيس تلاحقني دون أن أقوى على الحركة.

وأخيراً، فتحت عيني لأتفحص الغرفة، فرأيت أمي نائمةً على الكرسي إلى جانبي. عاودني السؤال: أين أنا؟ ماذا يحدث؟ أتذكر الحديقة وغادة والدموع. تذكرت، لقد كنت في الحديقة مع غادة، حدثتها وحدثتني، أغضبتها وحزنت لذهابها. نعم، لقد تركتني ولكن أين أنا؟ تزاحمت الأفكار في مخيلتي، ووسط الزحام ظهر وجه حبي الجميل، عيناها لا تخلوان من بريق الحزن والشفقة، دنت حتى جلست إلى حافة السرير، حاولت النهوض فلم أستطع الحراك، شل جسدي باستثناء عقلي الذي يفكر فيها وعيناي اللتان تتأملان جمالها. ترفع يديها نحوي، تميل بجسدها المتناسق وصدرها المكتنز لينسدل شعرها الأسود كالشلال على صدرها ليلامس صدري ويفصل بيننا، تبعده برقة ودلال، يزداد ميلها نحوي وكأن بها شوقاً ولهفة لاحتضاني، تسارعت دقات قلبي... حاولت تحريك يدي فلم أفلح. اندفع شوق دفين لضمها بعنف ولكنني لا أقوى على فعل ذلك، لامست براحتيها الناعمتين جبيني ورأسي، ارتعش جسدي وسرت في عروقي رعشة لحقها تيار غريب جميل تمنيت أن يدوم طوال العمر، دنت بشفتيها مني وكأنها تريد تقبيلي، حاولت عدة مرات أن أرفع رأسي عن الوسادة لألثم شفتيها الورديتين، نفد صبري وأنا أحاول تقبيلها، وخلال انتظاري أن تقبلني،

داعبتْ شعري بأناملها ومسحت براحتيها حبات العرق التي تصببت من جبيني ونظرت في عينيّ حتى فقدت قدرتي على التركيز ثم طلبت أن أردد خلفها عدة كلمات من بينها اسمها.

عجزت عن الكلام ولكنها ألحّت. حاولت ثم حاولت إلى أن نجحت: "حبيبتي، أنت غادة، غادة...". رددت اسمها عدة مرات فشعرت بالطاقة تتدفق في جسدي. طلبت أن أنهض بهدوء ثم أغسل وجهي وأعود إلى السرير. ففعلت. ثم قالت إنها ستغادر لتعود لاحقاً.

بعد دقائق، أيقنت بأنني في غرفة بأحد المشافي، فقررت ألا أجهد نفسي في التفكير والتحليل لتفسير ما يجري. هأنا أنتظر لأعرف.

تقدم أحد الأطباء مني ووجّه إليّ العديد من الأسئلة. ومن خلال أسئلته أدركت أنني كنت في غيبوبة في المشفى منذ أسابيع. ففقدت هدوئي ولم أعد قادراً على ضبط انفعالاتي.

ومع هذا فقد كان كل ما يشغل بال الطبيب كيف استطاع جسدي أن يعود إلى الحركة بعد أسابيع من السكون، أما أنا فلم يستوعب عقلي ما يقوله الطبيب، كيف حدث هذا دون أن أحس بأي شيء؟ شعور عميق يلفه الصمت، عاصفة من الحيرة أخذت تطيحني.

عدت إلى البيت وبقيت أياماً محاطاً بالأقارب والأصدقاء والأسئلة، وأنا لا أملك الإجابة عن أي سؤال، لكن أكثر ما كان يؤلمني هو ما سببته لأهلي من عذاب، شعرت بأنني سبب شقاء هذه العائلة، وأنني عبء عليها. ليتني لم أفق من الغيبوبة أو مت. ماذا فعلت ليحدث لي كل هذا؟ أتذكر غادة

ويعتريني شعور بالغضب نحوها. فمنذ عرفتها والمصائب تحل عليّ واحدة تلو الأخرى، فهي سبب قلقي وعذابي، ولكني أحبها بجنون، ولكن لماذا تخلت عني وأنا في أمس الحاجة إليها؟ لماذا لم تأت لتساعدني وهي تملك القدرة على ذلك، لماذا يا غادة؟ وسط دوامة التفكير والهم والغم، ظهرت غادة وجلست إلى حافة السرير، وما إن رأيتها حتى امتزجت مشاعر السعادة بالغضب، فقالت:

- ما بك يا حسن؟ لم أعتد رؤيتك هكذا.
- لا شيء يا غادة.

قرأت أفكاري، فتلاشت ابتسامتها، ولم تتكلم، فلم أتمالك نفسي فعبرت عن غضبي، وقلت لها:

- أنت قادرة على قراءة أفكاري، وبالتالي تعلمين مدى عشقي لك! لماذا فعلت بي كل هذا وأنا الذي أحببتك، بل عبدتك، أيحصل لي كل هذا لأنني تهورت وسألتك بضع أسئلة غبية سخيفة؟

نظرت إليّ بعمق دون أن تجيب، كان صمتها يستفزني أكثر فأكثر، فقلت لها:

- هل تشعرين بالسعادة الآن؟ هل نلتُ عقابي المناسب؟

استفزها ما قلت فخرجت عن صمتها:

- أي أحمق أنت، ما ذنبي فيما حدث لك؟ لماذا تصر على إيلامي دائماً؟ هل عليّ أن أندم لعودتي لمساعدتك، حقاً أنتم البشر من أضعف المخلوقات ولكم طريقتكم الغريبة في تفسير الأمور، يا

لبراعتكم في إلقاء اللوم على الآخرين. يبدو أنه حان الوقت لتواجه نفسك الضعيفة، والحقيقة التي لن تسرك.

بحركة سريعة ومفاجئة اقتربت ووضعت يديها على رأسي وضغطت بإبهاميها على جبهتي، فشعرت بأن حر الدنيا بدأ يخرج من رأسي، وبصوت هادئ متقطع قالت:

– انظر في عينيّ، اتركني آخذك إلى البداية، انظر في عينيّ فقط.

فقدت قدرتي على التركيز ولم أعد أشعر بأي شيء، ثم رأيت حديقة منزلنا، رأيت شخصاً ملقىً على الأرض، إنه أنا، نعم أنا، رأيت نفسي ثم أمي تقترب محاولة إيقاظي... تصرخ حسن، حسن. تلحق بها سروة. يحملني الجيران! أُنقل في سيارة إلى المشفى، أطباء، ممرضات، أجهزة، فحوص... أرى كل شيء بوضوح، منذ لحظة وجودي في الحديقة وحتى صحوي من الغيبوبة، كيف كنت أرى نفسي ومن حولي لا أعلم؟ والأهم أنني كنت في أعماقي أرفض أن أستيقظ، وكأني أريد أن أبقى في غيبوبة إلى الأبد.

– هل علمت الآن ماذا حدث لك؟ ومن المسؤول عن ذلك؟ لم أتخل عنك على الرغم من سخافتك، ولكنني مهما بلغت من القدرة على التغلغل في أعماقك فلن أستطيع أن أدفعك إلى القيام بشيء لا ترغب فيه.

غرقت في الحيرة، كيف فعلت ذلك؟ ما هي القوة التي تملكها لتعيدني إلى الماضي لأحياه لحظةً بلحظة، لقد سمعت كل كلمة قيلت وتذكرت التفاصيل الدقيقة التي لا تستطيع ذاكرتي أن تحفظها؛ فسألتها.

- كيف فعلت هذا؟ هل عشقي لك هو ما أدخلني في هذه الحالة؟
- لا داعي لإرهاق تفكيرك، كفاك ما عرفت اليوم.
- غادة، أستحلفك بحبي لك وأنت أعلم مني به، أن تجيبي عن سؤالي.
- لو كنت أشك في حبك ما عدت أبداً. عشقك لي لم يكن سبب غيبوبتك، هناك أسباب أخرى لا تريد أنت الإقرار بها. سأجيبك عن السؤال الأهم، هناك طريقتان للعودة إلى الماضي، كل إنسان سليم العقل يستطيع العودة إلى الماضي متى شاء، الأصوات التي سمعها والصور التي رآها يستطيع العودة إليها كلها. لكنكم حتى الآن لم تستطيعوا اكتشاف الطريق الصحيحة إلى ذلك، ربما يكون ذلك أفضل لكم؛ لأن المئات منكم استطاعوا العودة إلى الماضي فعلقوا في اللحظة التي احتاجوا إليها.

سألتها:

- كيف شاهدت الماضي وعيناي مغلقتان؟
- الطيف.
- إذا كانت لدى الإنسان القدرة على العودة إلى الماضي فهل لديه القدرة على الذهاب إلى المستقبل؟

ضحكت وأشارت بيدها ساخرة:

- حان موعد نومك يا حبيبي، وسنكمل حديثنا لاحقاً.

غابت كلمح البصر ومع غيابها توشح الأفق بخيوط الشفق معلناً بزوغ الصباح. ألقيت نفسي على الفراش لأغط في نوم هانئ، لم أصح منه إلا في ساعات الظهيرة، بعد إلحاح أمي علي أن أستيقظ لأتناول الإفطار والدواء وأستعيد نشاطي وأجلس مع قريباتها اللواتي قدمن لزيارتنا لتقديم التهاني لخروجي من المشفى.

غسلت وجهي واستبدلت ملابسي وخرجت. بدأ الحديث بالسؤال عن صحتي، وانتهى بآخر أخبار فلانة وعلانة. خالة أمي (أم محمد) التي لم أرها سوى مرتين في حياتي، بدأت تروي لنا بعض القصص عن الجن، ومع أن حديثها لم يكن يخلو من السذاجة، فإني كنت أكثر منها سخفاً حينما سألتها عن علاقة الجن بالبشر. وحين انتهى اللقاء على خير، استفردت أمي بي لتسألني عن سر هذا الاهتمام بقصص الجن؟ فقلت لها إني كنت أحاول مجاملة خالتي. ولكن هيهات لجهاز الرصد المسمى (الأم) أن يمر على هذه الهفوة مرور الكرام.

انقضت الساعات وتجاوز الوقت منتصف الليل، حينها راودني إحساس جميل بأن حبيبتي تناديني، فركضت مسرعاً إلى غرفتي لأختصر تلك المسافة القصيرة وكلي أمل أني سألقاها...

غمرتني السعادة حينما رأيتها تقف متكئة إلى حافة النافذة تراقب النجوم، شعرها الأسود وثوبها الأبيض ونور القمر اجتمعت معاً في لوحة يعجز كبار الفنانين عن رسمها، تسمرت في مكاني لأعيش اللحظة، تمنيت لو

ضممتها إلى صدري لتسمع دقات قلبي... لكنني لم أجرؤ، ودون أن تلتفت إليّ قالت:

- أغلق الباب وتعالَ إلى جانبي يا حسن.

اقتربتُ منها وأنا أردد قول الشاعر دون وعي "جاءت معذبتي من غيهب الغسق*** كأنها الكوكب الدري في الأفق" امتدت أصابعي لتغوص بين أمواج شعرها الناعم، فتسارعت دقات قلبي، كم أتوق إلى ضمها. لم أجرؤ، استدارت نحوي وعيناها تحثاني على أن أتجرأ. ابتعدتْ عدة خطوات وقالت:

- تبدو أفضل حالاً اليوم يا حسن؟
- ما دمتُ أراك يا غادة، فسأكون بخير.
- ولكنك قبل أيام لم تكن كذلك؟
- دعيني من الأمس والماضي، ولنحيا الحاضر والمستقبل!...
- المستقبل يتحول إلى ماضٍ كل لحظة، ولا مستقبل دون أن يحدد الماضي معالمه، وهروبك من الماضي لن يأخذك إلى المستقبل.
- دعيني أمنح عقلي هذه الليلة إجازةً حتى لا يفكر في غيرك.
- ستفكر في غادة المستقبل أم غادة الماضي.
- أنت الحب والنور والأمل والمستقبل والحياة، أنت كل شيء يا حبيبتي.
- بعد مغادرتي سأتحول إلى ماض فهل ستفكر في الماضي.
- أنت الحاضر والمستقبل لن يسبقك الزمن أبداً.

- وإذا لم أكن فيه يا حسن؟
- غادة، أرجوك دعينا من هذا النقاش الذي يغص البال.
- أرأيت كيف تهرب من المستقبل؟ إذا كنت تهرب من الماضي لأنه لا يحوي ما تريد، وتهرب من المستقبل، فإلى أين ستهرب يا حسن؟
- السعادة يا حبيبتي، لحظات نقتنصها من الحياة وتتلاشى فور التفكير بأنها ستتلاشى.
- حسن، أنا خائفة عليك من الغد، فلا أدري إن كنت سأكون فيه أم لا، ولا أريد أن أكون سبباً في إيذائك.
- غـادة، ماذا يجول في خـاطرك وإلى أي شيء تمهدين؟
- أنا لا أمهد إلى أي شيء، ولكن كلما فكرت بك أشعر بأن من الأفضل أن تنتهي علاقتنا عند هذا الحد.
- أحبك يا غادة، أعشقك، ولا أريد أن أحيا من دونك.
- أنا أيضاً أحبك يا حسن.
- يا إلهي، ما أجمل كلمة "أحبك" حين تنطقينها، أعيديها مرةً أخرى ولتنتهي حياتي.

ألححت عليها، فضحكت وهي تقول:

- لكنني لا أريد أن تنتهي حياتك يا حسن، نعم أنا أحبك، ولكن هذا لن يغير من الواقع شيئاً، هذا الحب لن يجلب لنا سوى العذاب والألم، ولن يجمع بين عالمين يستحيل لقاؤهما.

لمعت فكرة فنطقها لساني فوراً:

- غادة، حبيبتي، لماذا لا نتزوج؟

أخذت تضحك حتى خشيت أن يغمى عليها من شدة الضحك، ومع هذا تمنيت أن تستمر ضحكاتها إلى الأبد، ثم قالت:

- هل تعي ما تطلبه يا حسن؟
- نعم، لماذا لا نتزوج يا غادة؟

صمتت وأخذت ترمقني بنظرات امتزج فيها التحدي والسخرية بالفضول والاستكشاف ثم قالت:

- أنت مجنون يا حسن.
- مجنون في حبك يا غادة.

شردت بخيالها وأطلقت العنان لأناملها تداعب ثنايا ثوبها الحريري تارة، وتعبث بخصلات شعرها المنثور على ثوبها تارة أخرى. وبصوت هادئ جديّ قالت:

- هذه الفكرة تتجاوز حدود الجنون!
- أهلاً بالجنون ما دمت أنت فيه يا غادة.
- كيف ستتزوجني؟
- أتزوجك مثل الناس كلهم.
- ولكني لست من الناس!
- أتزوجك على طريقة الجن.
- ولكنك لست من عالمي.

– لماذا تعقدين الأمور يا غادة؟

– أنت من يعقد الأمور بجنونك، أنا قد أوافق على أن أواصل التسلل إلى عالمك ولن أعارض إن تطورت الأمور أكثر، ولكن بعيداً عن جنون الارتباط الذي يخالف المنطق.

– غادة، ولكني أريدك أن تبقي معي دائماً.

– أو تظن أنك إن تزوجتني فإني سأبقى معك دائماً؟

– ولم لا يا غادة؟

– حسن، أنا لست إنسية لتمتلكها.

– أنا أحبك، وزواجي منك لا يعني أن أمتلكك.

– إذاً، ماذا يعني ذلك يا حسن؟

– بصراحة، يا حبيبتي، لا أجد الكلمات المناسبة لأعبر بها عن مشاعري، وافقي على الزواج مني وسأمنحك كل لحظة من حياتي.

– كيف سيتم الزواج؟

هنا تاهت الكلمات مني، فأنا أعرف أن الزواج عندنا نحن البشر عقد وشهود وحفل... ومراسم لا تختلف كثيراً بين ديانة وديانة وأخرى، أما عند الجن فكيف لي أن أعرف!

استغرقت غادة في التفكير قليلاً، وقالت والابتسامة تزين شفتيها:

– أتعلم يا حسن، إن أفكارك المجنونة تشدني.

فرحت كثيراً وشعرت بأن موافقة مبدئية برزت من بين ثنايا كلامها.

– إذاً، أنت موافقة؟

رمقتني بنظرة حادة تزامنت مع ابتسامة ساحرة لا تخلو من بعض الخبث، وبصوت ممزوج بالسعادة والتحدي قالت:

- مغامرة فيها تحد وجنون، ربما أفكر يوماً أن أخوضها لأغيظ أهلي.
- أرجوك الفظي هذه الأحرف (م و ا ف ق ة)، دعيها تمر من بين شفتيك.
- أنا (م و ا ف ق ة) على هذه المغامرة، وأشك في أن نهايتها ستكون سعيدة.

وما إن تحررت الأحرف من بين شفتيها وارتد صداها حتى اقتربت منها وأمسكت يديها، وقلت:

- حبيبتي، هل أنت حقاً موافقة؟
- نعم، أنا موافقة ولن أفوت فرصة لأثير جنون أختي وأمي.
- هل أنت جادة؟
- جادة، والآن ماذا سنفعل يا حسن؟

صمتت وراحت ترمقني بنظرات خبيثة والابتسامة لا تفارق شفتيها مستمتعة بالحيرة التي غمرتني، ماذا عساي أن أفعل الآن؟ ما أملكه من أفكار مقرون بعالم البشر. لم أتمالك نفسي من الضحك حينما تخيلت أني أطلب من والدتي أن تذهب إلى أهل غادة من الجن لطلب يدها.. تخيلت حماتي الجنية، ويا سلام حينما تغضب مني، ماذا ستفعل؟ أفكار مجنونة اجتاحت

خيالي وأضحكتني وما زالت غادة تنظر إلي بدلال وعيناها لا تخلوان من لفتات الأطفال البريئة والخبيثة، وبصوت ناعم ورقيق:

- آه يا حسن.

أخذت تضحك بسعادة، لا تخلو من السخرية متعمدة إحراجي ومنتظرة أن أعلن استسلامي، ثم قالت:

- بصراحة، طريقة الزواج في عالمكم جميلة ولن أمانع في تجربتها.
- غادة، أرجوك، دون مزاح.

ضحكت ثم قالت:

- طبعاً لا يمكن أن أتزوجك على الطريقة المتبعة في عالمك. سنتبع طريقة عالمي باستثناء التفاصيل التي يستحيل تنفيذها، ولتعلم جيداً أن ارتباطنا معاً فيه تحد لنظام عالمي وسيكون معقداً بمختلف تفاصيله.

قلت لها وقد فاض صبري:

- يا غادة، أنا أدرك كل شيء، وعلى استعداد لكل شيء.

لم يعجبها ما قلت، فردت:

- لا تتسرع قبل أن تفهم أنك إن ارتبط بي لن تتمكن يوماً من إقامة علاقة مع أي إنسية، وكذلك ستكون ملكي مثلما سأكون ملكك، والخيانة لا تغتفر، وسنتشارك كل شيء باستثناء الأمور التي لا نتحكم بها وتفوق قدرتنا كإنجاب الأطفال مثلاً، وهذا لن يحدث يوماً بسبب اختلاف عالمينا وتكويننا ولا تحكمه إرادتك أو إرادتي.

لم تمل من شرح القوانين والقيود التي تصاحب الارتباط، وقررت فجأة أن تغادر بعد أن نصحتني أن أعود عن فكرتي المجنونة أو أفكر بها جيداً قبل أن أتخذ القرار. تركتني في صراع، وحبي لها أقوى من أي منطق، أشرقت الشمس وغربت، وبزغ القمر وأفل، دون أن أتراجع عن قراري حتى برهة. انتظرتها أياماً حتى أطلت وأضاءت قلبي بنورها.

– غادة حبيبتي، سأتزوجك. ولو كان الثمن حياتي، فلا شيء أثمن من ابتسامتك.

أخذت تتأملني ثم قالت:

– أنت تقودني بحبك إلى أمر سيكون فيه هلاكي، ومع هذا فلست أخشى إلا من لحظة تشعر فيها بالندم على ارتباطك بي.

– غادة، يا روح الروح، لن أندم يوماً لأني اخترت الحياة. أنت الحياة، وإن أظلمت الدنيا فابتسامتك ستنير حياتي، سأنزع قلبي وأزرعك مكانه ومع كل دقة سأعلم أني حي لأنك نبضي، قيديني بقيود العالم وارتبطي بي في هذه اللحظة.

ابتسمت ثم قالت:

– على طريقة عالمك أم عالمي؟

– كما تشائين يا حياتي.

– ليكن يا حسن، فأنا لست أقل جنوناً منك.

اقتربت مني بخطوات واثقة، شبكت أصابع يدها اليسرى بأصابعي ثم قالت:

سأعلن عن رغبتي في الارتباط الأبدي بك وكذلك ستفعل أنت، الآن شد على أصابعي بقوة وكرر خلفي:

- تتشابك أصابعنا وتكتمل حواسنا ليتأكد ما نراه ونسمعه، وبإرادتنا الحرة نعلن رغبتنا في الارتباط الأبدي.

كررت خلفها ما قالت عدة مرات ومع كل مرة كانت تطلب مني ألا أسمح لها بسحب يدها حتى ندرك أن ما نفعله تدركه حواسنا كلها.

انتهينا من طقوسها الغريبة، خيّم جو من الصمت وأنا أترقب الخطوة التالية بفضول شديد. برقة نسمة هواء ورشاقة قطة تراجعت إلى الخلف خمس خطوات وألقت جسدها الذي فاضت الأنوثة منه على سريري فانزاح شعرها الأسود ليظهر ما أخفى من جسدها وثوبها الأبيض المتموج فوق أردافها. حينها أخذت عيناي تلتهمان بشراهة ذلك الجسد الصارخ بالأنوثة، اقتربت منها وأحطتها بذراعيّ وغمرت وجهي في شعرها وأخذت شفتاي تشقان طريقهما للوصول إلى شفتيها. تعترض أناملها الحريرية شفتي وعيناها تطلبان أن أتمهل، تزيح أناملها لتناديني عيناها، أقترب فتعيد الكرة، مثيرة جنوني قبل أن تحسم موقفها بطبع قبلة على سبابتها وإلصاقها بشفتي وهي تقول:

- أنا في شوق إليك، ولكن علينا أن ننتظر إلى ما بعد الارتباط.
- لم هذا التأجيل يا غادة؟
- هذا ليس تأجيلاً يا حسن، ولكن هكذا تجري الأمور في عالمنا.
- وما فعلناه اليوم يا غادة ماذا تسمينه؟

– لم نقم بشيء ملزم يا حسن، ما فعلناه هو الإعلان عن نيتنا الارتباط على طريقة عالمي، سنأخذ من الوقت ما نشاء للتفكير بالاستمرار فيه أو الانسحاب قبل الوصول إلى عهد الارتباط الأبدي.

قلت لها وقد بدا عليّ الضجر من هذه الطريقة المعقدة:

– لماذا هذا التعقيد وهذه الشكليات السخيفة يا غادة، خاصة أننا اتخذنا قرارنا ولن نتراجع عنه أبداً، دعينا من الشكليات ولنتمم زواجنا.

– تمردت على القوانين كلها في عالمنا، ولست نادمةً... ولكن عهد الارتباط حلم أي فتاة في عالمي ولن أستخف به. إن فعلت فسأشعر بأني مجرد طفلة صغيرة تبحث عن كل ما هو مثير وجديد، سواء كان ذلك الشيء عندك أو عند غيرك. أرجوك، أنا لست كذلك فلا تكرهني على شيء أكرهه.

شعرت بأنني سمحت لأنانيتي أن تمس مشاعرها فاعتذرت منها.

– لا عليك يا حسن، فلننس الموضوع ولنفكر بغدٍ خال من الهموم والأحزان.

تسامرنا وضحكنا، شعرت بسعادة أعجز عن وصفها حتى نطقتِ الكلمات التي تسرق مني الحياة كل مرة.

– سأغادر الآن وأعود قريباً.

اختفت كالعادة، لم أعرف السر الكامن وراء اضطرارها للمغادرة. شغلت نفسي بعد الساعات والأيام في انتظار عودتها، ومع انتهاء اليوم الرابع اعتراني شعور غريب بالخوف من أن هناك من يراقبني، وبعد صراع مع القلق غفوت فغزتني الكوابيس لأفيق مذعوراً، فوجدت غادة تجلس إلى جانبي وتداعب شعري وتهمس:

- لا تخف يا حبيبي.

أمسكت يدها بقوة لأطرد الخوف الذي اعتراني، لألمح في عينيها حزناً ممتزجاً بالقلق، ارتعبت أكثر.

- اجلس يا حسن، أريد أن أتحدث إليك.

جلست إلى جانبها وهي تنظر إليّ نظرة حزينة ترافقها ابتسامة مصطنعة، لتزيل آثار القلق الذي خيّم علي، ثم قالت بصوت هادئ:

- حسن، حبيبي، لقد علم الكاتو بأمرنا.
- الكاتو... وما هو الكاتو؟
- الكاتو ذراع السلطة التنفيذية في عالمنا.
- هل تقصدين أن الكاتو هم الجن.
- حبيبي، لا أريد أن أخوض في نقاش حول المسميات، هم حرس عالمنا والمسؤولون عن تنفيذ القانون.
- كيف علم الكاتو بعلاقتنا، وكيف علمتِ أنهم علموا؟
- لقد زار الكاتو بيتنا، وأخبروا أمي بعلاقتي معك، وطلبوا الإذن بالتحقيق معي، لقد أخبرتك سابقاً أن أمرنا سيكشف عاجلاً أم

آجلاً، لا يمكن إخفاء شيء لفترة طويلة دون أن يكتشفه الكاتو. للأسف، لقد وصلوا إليك وعلموا كل شيء عن علاقتنا منك أنت يا حسن.

- مني، كيف؟ لم أحدّث أحداً عن علاقتنا، لم أر أو جلس أو أتحدث مع جن أو كاتو أو غيرهم.
- للكاتو أساليبهم الخاصة بالاتصال بالبشر، يكفي أن يقترب منك أحدهم ويغذي خيالك بأي كلمة تدفعك إلى التفكير بي حتى يتمكنوا من قراءة كل ما سيمر في تفكيرك في تلك اللحظة.
- لكن يا غادة، أنا فعلاً لم أجلس أو أتحدث مع جن أو كاتو.
- أنا آسفة يا حسن، لم أتوقع أن يكتشفوا أمرنا بهذه السرعة، توجب عليّ أن أعلمك كيف تستطيع التمييز بين الإنس والكاتو.

حاولت أن أتذكر من جلست معهم، لكن دون جدوى، فقد جلست مع الكثيرين... سألتها:

- بأي شكل يظهر الكاتو؟
- يظهرون بشكلهم الطبيعي سواء أكانوا رجالاً أم نساءً، وبإمكانهم أن يرتدوا الصورة التي ترسمها لهم في خيالك.

ارتعبت من الفكرة، ولكني ضبطت أعصابي فسألتها:

- وماذا يستطيع الكاتو أن يفعلوا بي.
- إن تمكن منك الخوف فهم قادرون على فعل أي شيء.

ابتسمت لتعيد الثقة إليّ ثم قالت:

– لكن بسهولة يمكنك أن تواجههم، فهم يستمدون قوتهم من ضعفك فقط، وأنا واثقة بأنك ستهزمهم شر هزيمة إن اقتربوا منك.

لم تشد كلماتها الأخيرة وخاصة اقترابهم مني من عزيمتي بل أغرقتني في الخوف، سألتها كمن يبحث عن طوق نجاة:

– هل تستطيعين عمل شيء للتخلص من هذه الورطة؟

– ظهوري السريع واختفائي وقراءة أفكارك ليست بالأمر الخارق، أنا لا شيء أمام قوة الكاتو، ومن يخضع لقوانينهم يستحيل عليه مواجهتهم، ولكن أنت شيء آخر، بإرشاد مني تستطيع أن تواجههم بسهولة حتى أن الأمر سيكون مسلياً لك.

تحاول طمأنتي وتزيدني خوفاً، فإن كانت تخشاهم فمن أنا لأواجه من يظهر ويختفي متى شاء. يا إلهي، أي ورطة أنا فيها... رمقتني بنظرة غاضبة ثم قالت:

– خوفك هذا سيقضي عليك وعليّ قبل أن يحدث شيء بعد، لم أتصور أنك سترتعب إلى هذا الحد، تمالك نفسك قليلاً وسأعلمك كيف تواجههم.

– كيف يا غادة، كيف؟

– انتصارك على خوفك، قد يكون الخطوة الأولى نحو هزيمة الكاتو.

حاولت أن أتمالك أعصابي وأهدئ من روعي، تذكرت ما قاله المتنبي

غَيرَ أنّ الفَتى يُلاقي المَنَايَا *** كالِحَاتٍ وَلا يُلاقي الهَوَانَا

وَلَوَ أنّ الحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ *** لَعَدَدْنَا أضَلّنَا الشّجْعَانَا

وَإذا لم يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدٌّ*** فَمِنَ العَجْزِ أنْ تكُونَ جَبَانَا

– ماذا علي أن أفعل؟ اعذريني، فأنا لم أتعلم في المدرسة كيف أواجه الكاتو؟

– أولاً يجب أن تعلم أن الصورة التي رسمتها في خيالك أنت أو البشر عن طبيعة عالمنا وقوته خاطئة. الكاتو لا يمتلكون قوة مادية ولا يستطيعون تعذيبك أو قتلك أو نقلك من مكان إلى آخر. وعليه، فإن الخوف من عالمنا مبني على الصورة الغبية التي رسمها خيالكم على مر السنين، نحن عاجزون عن بناء القصور لكم وهدمها في دقائق، ولن يخرج أحدنا من مصباح يوماً، ولكن لا بأس إن استمتعتم بأفكاركم الساذجة.

برزت عضلاتي وعادت إليّ الشجاعة، فقد وجدت أن خوفي لا مبرر له من عدو لا يملك إلا الوهم والخيال. حبيبتي قرأت أفكاري فعلقت ساخرة:

– جميل أنك استعدت شجاعتك بعد أن شعرت بضعف خصمك، وأتمنى أن تحافظ على هذه الشجاعة، ولكن عليك أن تفهم أن الكاتو لا يعتمدون في حروبهم على المادة، حينما يخوضونها ضد إنسي، وإنما يخوضونها عبر أفكاركم، والجنون أسلوبهم المفضل مع البشر. صحيح أن الكاتو لا يستطيع أن يقتلك، ولكنه يستطيع أن يحملك على قتل نفسك بإرادتك. وهم بارعون بشل تفكيرك وإيهامك بأي فكرة، وإن تمكنوا منك فستكون نهايتك وبعدها نهايتي. أفهمت يا حبيبي؟

لم أفهم كل ما قالته غادة وقتها، ولكن كونت فكرة لا بأس بها عن أسلوب الجن أو الكاتو في القضاء على البشر، فما دام الجن لا يستطيع فعلاً كما كنت أتخيل أن يحرقني أو يقتلني أو حتى أن يعلقني من شعري، فهو لا يستحق أن أخافه أو حتى أن أفكر فيه. سرني أنهم أضعف مما كنت أتصور، وسألتها:

- أنت يا غادة، ماذا سيفعلون بك بعد أن خرقت قوانينهم؟
- الكثير الكثير يا حسن، سأكتشف هذا لاحقاً، فلكل مخالفة عقابها الخاص، حالياً ستسلب حريتي بالكامل وأشك في أن أختي ستتدخل هذه المرة لإنقاذي، خاصة بعد أن تجاوزت الخطوط الحمر بعلاقتي بإنسي والتخطيط للارتباط به.

فاجأتني بضحكة مجنونة مليئة بالتحدي والشجاعة ثم قالت:

- أنا يا حبيبي لم أترك قانوناً إلا وخرقته، وليحدث ما يحدث، فلن يهمني شيء، قلبي لم يصنع من منطقهم حتى يحب وفق أهوائهم.
- غادة، لماذا لم يعاقبوك حتى الآن إن عرفوا عنك كل شيء؟
- لن تصدق.
- ما هو الشيء الذي لن أصدقه يا غادة؟
- أنا صغيرة، ولا يجيز القانون عقابي حتى أبلغ السن القانونية، سينتظرون ذلك بشوق.
- أنت صغيرة؟
- نعم، أنا صغيرة يا حسن.

- كم عمرك يا غادة؟
- مقارنة بأعماركم، أبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً.
- خمسة وعشرون عاماً وتقولين صغيرة!
- نعم، في عالمنا ما زلت في سن المراهقة.
- كم يجب أن يكون عمرك حتى يستطيع الجن عقابك يا غادة؟
- أبلغ السن القانونية فور زواجي أو حينما يصبح عمري ثلاثون عاماً.
- هل أفهم أن سلطة الجن ستنتظر خمس سنوات، إذا لم تتزوجيني حتى يستطيعوا عقابك؟
- كلا، لن ينتظروا خمس سنوات ولا حتى سنة واحدة، الكاتو لديهم مائة طريقة للتحايل على قوانين عالمنا، ولن يعجزوا عن إيجاد طريقة لإيقاعي في شركهم، ومهما عرفت عن طرقهم وأساليبهم فلن أعرف إلا القليل، وبزواجي منك يا حسن أكون قد بلغت السن القانونية، وإن استطاع الكاتو أن يفرق بيننا فهذا معناه نهايتي ونهايتك.
- لا تخشي يا حبيبتي، فلن يفرق بيننا أحد، ثقي بأنني قادر على خلق المثل الحقيقي لهزيمتهم، ولا داعي للخوف منهم أو التفكير بهم.
- تمهل يا حبيبي، لا تنجرف بثقتك حد الغرور. صحيح، أنني لا أريد أن تخاف من الكاتو ولكني أيضاً لا أريد أن تستهتر بقوتهم.

- غادة يا حياتي، لقد علمت عن الجن ما يكفيني لأتمكن من مواجهتهم، ولن يخيفوني بعد اليوم.
- أتعتقد أنهم سيعجزون عن إخافتك؟
- نعم، لن يخيفوني.

لم يتلاش صدى كلماتي حتى اهتزت الأرض من تحتي وأخذ كل ما حولي يتأرجح ويسقط على الأرض، ففقدت توازني وتساءلت إن كان زلزال ضرب البيت؟ أم أن بركاناً انفجر تحته؟ أخذت أركض نحو الباب لأنجو بحياتي دون أن أجده، شل الخوف حركتي، ظننت أنني هالك لا محالة، لحظات واختفى كل شيء وكأنه لم يكن. أخذت غادة تضحك، وتطمئنني، فسألتها:

- ماذا حدث؟
- هل خفت مما حدث؟

استفزتني سخريتها فرددت عليها غاضباً:

- كيف لا أخاف وأنا أرى البيت ينهدم فوق رأسي ورأس أهلي. هل كان علي أن أرقص من الفرح؟

فقالت بسخرية:

- لم لا، دعني أرَ إن كنت تجيد الرقص.

يا إلهي، كم استفزتني ابنة الجن هذه، ضبطت أعصابي وسألتها:

- من فعل هذا يا غادة؟

ودون مبالاة قالت:

- أنا يا حبيبي، أمازحك فقط.

يا إلهي، إن كان هذا مزاحاً فكيف يكون الجد؟

- غادة، حبيبتي، ألم تخبريني أن الجن يعجز عن إلحاق الأذى بالبشر لأنهم لا يملكون الخواص المادية لذلك؟
- ألا تلاحظ أنك تتصرف كالأطفال، انظر حولك، هل حدث شيء ملموس يستدعي منك هذا الخوف الذي تملكّك وأفقدك القدرة على التفكير، هل تهدم البيت فعلاً؟ هل تحرك شيء من مكانه، أنا فقط غذيت أوهامك وضخمتها، وعقلك تكفل بالباقي. ليكن هذا درساً صغيراً لك، إن استطعت أن تفهمه تكون قد تعلمت سراً آخر من أسرار الكاتو الذي لن يعجز أن يعزز أوهامك، ويجعلك تظن أن العالم سينهار فوق رأسك. حبيبي هذه خدعة صغيرة فقط تعلمتها من أختي وأنا صغيرة فلا تستهتر بقدرة خصمك ولا تستهن به، فالكاتو قادر على إغراقك بأنواع الوهم كافة ومعركتك معه ستكون من أصعب المعارك. والآن يا حبيبي، سأتركك وعليك أن تتوقع كل شيء قبل حدوثه والسيطرة على مخاوفك وألا تسمح لها أن تحتل حيزاً في عقلك حتى لا تغرق وتغرقني معك، سأعود قريباً لنكمل عهد الارتباط إلا إن كنت قد غيرت رأيك، وحينها سأتفهم ذلك، إلى اللقاء يا حبيبي.

اختفت غادة بعد أن لقنتني درساً لن أنساه طول عمري، فقد أدهشتني من قدرة الجن على فهم عقولنا نحن البشر، وتساءلت ماذا كان سيحدث لو أننا توقفنا عن اكتشاف القمر والنجوم وركزنا على فهم عقولنا أولاً؟ كم هي

عظيمة حبيبتي! أعشق هدوئها وجنونها وسخريتها ومنطقها. كيف ستكون حياتي من دونها؟ مرت لحظات على رحيلها وأنا أكاد أجن اشتياقاً لها، خيم عليّ الخوف من ألا تعود، فإن حدث ذلك فسأغرق في عتمة لن تنيرها شموس الكون.

كم دقيقة سأعد في انتظار عودتها، أعلم أن الثواني ستتباطأ، وهذا ما حدث فعلاً، فقد مر أسبوع وأنا في انتظارها كألف شهر، يا لسعادتي وفرحتي وشوقي على الرغم من قسوة الانتظار، هل هناك أقسى من أن تحصي لحظات انتظار الحبيب وعودة الروح لتسكن الجسد، سمعت طرقات خفيفة على باب غرفتي فعلمت أنها أمي تتبهني قبل الاقتحام، اقتربت وجلست بجانبي وقالت:

- ألا تلاحظ أنك قد بالغت باختلائك بنفسك وامتناعك عن تناول الدواء، من هذه التي أشغلتك؟ حدثني عنها.
- ما الذي سيسرك لأحدثك عنه يا أمي؟
- صفها لي، لا بد أنها جميلة جداً لتتمكن من سرقة قلبك وعقلك يا حسن؟

تساءلت إن كانت أمي هي الأخرى قد تعلمت قراءة الأفكار فمازحتها:

- إنها القمر يا أمي.

ابتسمت وعرضت على أن تحضر لي ما أشربه فعلمت أنني تورطت وأنها لن تعتقني قبل أن أصفها لها وأحكي لها عن تاريخ عائلتها، سترهقني بلعبة التخمين، فقررت أن أتراجع قبل أن أغرق وأغرقها في الأكاذيب.

لحظات وعادت تحمل كأس عصير، كان واضحاً أنها أعدته مسبقاً، ناولتني إياه قائلة اشرب بالهناء والشفاء يا حبيبي، قربته من شفتي، وقلت:

- السم من يديك يا ست الحبايب سيكون فيه الشفاء.

لم أقصد بما قلت إلا مجاملتها، ولكنها فاجأتني حين سحبت الكأس من يدي وألقت به أرضاً، وأخذت تبكي، فسألتها:

- ماذا أصابك يا أمي، هل أنت مريضة؟

- أنا خائفة عليك يا حسن.

سألتها عن سر خوفها فصعقني ردها:

- من الجنية التي لا تفارقك يا حسن؟

أذهلني سؤالها، وكانت المفاجأة حين أخبرتني أنها تعرفت إلى امرأة مؤخراً، وأن لها ابناً بعمري سكنته جنية وأصابته بالجنون حتى وجدت الطريق لعلاجه، حينها أدركت أمي أن هناك تشابهاً بين حالتي وحالة ابنها، فلما علمت تلك المرأة بما أصابني تطوعت أن تحضر العلاج الشافي لتسقيني منه، لكن قلب الأم دفعها في اللحظة الأخيرة لمنعي من شربه.

لم أرغب في أن أطيل الحديث حتى لا أثير قلقها، ربما كانت هذه المرأة من الكاتو، وربما هي مجرد جاهلة أخرى. تساءلت ماذا كان سيحدث لي لو أني شربت العصير.

عدت من جديد لأعد الدقائق مرةً أخرى في انتظار الحبيبة، لم أنتظر طويلاً هذه المرة حتى أطلت واستحوذت عليّ، فلا شيء بوجودها يشغلني، لم أسألها عما حدث قبل دقائق مع أمي ولكنها بادرت:

- لقد كنت موجودةً وتفاجأت أيضاً، لا أستطيع الجزم مثلك إن كان هذا من فعل الكاتو أم مصادفة فقط، ولكن لا غرابة أن يستخدم الكاتو البشر للنيل منك فهذه مسألة متوقعة، وطرقهم كثيرة للسيطرة على البشر، أنا سعيدة لأن ما حدث لم يترك تأثيراً كبيراً كما كان يحدث في السابق، وهذا مؤشر على استيعابك لكل جديد قد يفاجئك به الكاتو في المستقبل.
- نظرت إليّ ونظرت إليها، وفي اللحظة نفسها نطقنا بالكلمات نفسها:
- لن نجعلهم يفسدون علينا هذا اليوم...

ضحكنا حتى ننسى مخاوفنا ثم قالت:

- حبيبي، بعد ساعات سنكون قد اقتربنا من تحقيق أجمل فكرة مجنونة في عالمينا، سننطق معاً عهد الارتباط وننثر حروفه على الحد الذي يلتقي فيه اليوم بالغد ويلامس فيه الماضي الحاضر، وبعدها سآخذك إلى حديقتي السرية التي اعتدت الهرب إليها في طفولتي ولم أبح بسرها لأيّ كان، أنت فقط من ستشاركني إياها، والآن أسرع لتصل إلى المكان الذي منه فقط بإمكاني أن أصحبك معي.

أطلعتني على الموقع الذي سألاقيها عنده، والمدة التي سأقضيها بصحبتها. اختفت وانشغلت بالبحث عن طريقة أبرر فيها غيابي لأهلي، حتى لا أثير قلقهم. ادعيت أني سأرافق أصدقائي في رحلة لعدة أيام، لم يخف عليّ أن

سروة لم تصدق ما قلت، وحمدت الله أن أمي قد ذهبت للنوم، وإلاّ لكنت في ورطة، انطلقت في طريقي، ولم يكن الوصول إلى نقطة اللقاء بالأمر الهيّن. حين وصلت كان المكان موحشاً، وما كنت لآتي إليه في مثل هذه الساعة من الليل لأي سبب كان. أطلقت لخيالي العنان، وبدأت روحي بالهيام، شعرت باقترابها حتى أني رأيتها في خيالي ترتدي ثوباً لونه مزيج من الأحمر والزهري والأصفر والأرجواني، أو أنه لون آخر لم أعهده من قبل، ثم ظهرت وامتزج الخيال بالواقع.

اقتربت وأمسكت يدي، ثم أخذنا نسير ونحن نراقب النجوم، حتى وصلنا إلى كهف كأنه ظهر فجأة من العدم، وقبل أن أسألها ضحكت، وقالت:

- لا تتفاجأ فهذا النوع من الكهوف لا يراه البشر بسهولة، حتى أنا ما كنت لأراه، ولكنني تسللت إلى مكتبة أختي ووجدت الخرائط التي تقود إليه، وعبره فقط بإمكاني أن أصحبك إلى حديقتي السرية، وإن شعرت بالنعاس فبإمكانك أن تنام فيه بأمان. ضحكتُ وقلت:
- بوجودك لن يزورني النعاس أبداً.

أشارت إلى القمر ثم سألتني:

- هل هناك ما هو أجمل منه ليكون شاهداً على ارتباطنا.
- وجه حبيبتي أجمل.
- انظر إلى النجوم واختر من بينها نجمة.
- وهل سنصعد إليها يا حبيبتي؟

ضحكت وضربتني بكفها مداعبة ثم قالت:

– هيا، اختر نجمة لتكون رمزاً لحبنا وارتباطنا، وأطلق عليها الاسم الذي تحب.

بحثت بين النجوم واخترت واحدة قد أتمكن من تمييزها بسهولة، فأشرت إليها وقلت:

– سأسميها غادة.

وبعد أن ضحكت قالت:

– عليك أن تختار للنجمة اسماً غير اسمينا.

اخترت اسماً آخر فلم يرضها، أخذت أفكر، ثم اقترحت عليها أن نطلق على نجمتنا اسم مرح، فضحكت بسعادة، وقالت:

– لقد اخترت أحب الأسماء إلى قلبي. آه، لو تعرف صاحبة الاسم ما أنا فاعلة الآن.

– ومن تكون؟ وماذا ستفعل؟

– هي أختي الكبرى، لن تؤذيني ولكنها ستجرني من شعري فقط، أما أنت فستطعمك لسمك البحر، والآن تذكر موقع نجمتنا لتساعدك مستقبلاً على الاتصال بي.

خلعت من يدها اليسرى سواراً من قماش غاية في البساطة نقشت عليه عدة أحرف وأرقام غريبة، وقدمتها لي وطلبت أن أضعها حول يدي اليسرى، ثم وضعت سواراً مشابهاً حول يدها اليمنى. ثم سرنا نحو الكهف دون أن تنشغل عيني عنها، اقتربت وتركت خطوة واحدة تفصل بيننا. طلبت أن

أنظر في عينيها السوداوين اللتين لم أر أجمل منهما، ولم أرهما بمثل هذا الجمال من قبل. دار بيننا حوار صامت فقدت على أثره الشعور بجسدي وكل ما حولي، وخاطبتني بعينيها:

- لقد حان موعد لقاء اليوم بالغد، سننتظر لحظة ونتلو معاً عهد الارتباط الذي سيحولنا إلى واحد، والأحرف التي سننسج بها عهدنا هذا إن لم تنبع من أعماقك ممزوجة بالحب النقي فلن يكون لها معنى، والآن حانت اللحظة، لنطلق العنان لأرواحنا لتنطق:
- أنا غادة بنت نازك، بنت الجن.
- أنا حسن بن صفية، ابن الإنس.
- بشهادة القمر أقسم.
- بشهادة القمر أقسم.
- بروحي وخيالي وجسدي.
- بروحي وخيالي وجسدي،
- مدركةً مُجلّةً معاني الارتباط.
- مدركاً مُجلاً معاني الارتباط.
- أعاهد حسن ابن الإنس.
- أعاهد غادة بنت الجن.
- أن أكون له روح جسده.
- أن أكون لها روح جسدها.
- ولهيب ناره.

- ولهيب نارها.
- البداية والنهاية.
- البداية والنهاية.
- أضيء له الحياة إذا اقترب ليلها، وأظله إذا سطعت شمسها.
- أضيء لها الحياة إذا اقترب ليلها، وأظلها إذا سطعت شمسها.
- أزيل الغم وأجلب السرور وأكون له ثمر الروح، وأحبه حباً لا يزول، حب الأرض للمطر، والعتمة للقمر.
- أزيل الغم وأجلب السرور وأكون لها ثمر الروح، وأحبها حباً لا يزول، حب الأرض للمطر، والعتمة للقمر.
- أهبه جسدي وروحي متى شاء، كيف شاء إلى أبد الآبدين.
- أهبها جسدي وروحي متى شاءت، كيف شاءت إلى أبد الآبدين.
- أضع يدي اليسرى.
- أضع يدي اليمنى.
- بيدك اليمنى، وهذا عهدي لن أنقضه.
- بيدك اليسرى، وهذا عهدي لن أنقضه.
- أنا زائلة والعهد باق.
- أنا زائل والعهد باق.

وبعينيها السوداوين الممتلئتين بالسعادة خاطبتني:

- أنا لك حبيبي، مثلما أنت لي، اترك روحك تعانق روحي وتعال لنتذوق معاً طعم قبلتنا الأولى.

ضممتها إلى صدري وكانت القبلة، ومعها فقدت الأرض جاذبيتها وحلقت روحي وطافت، وليت الزمن تجمد لأعيش تلك القبلة إلى الأبد. أفقت من ثمالتي لأجد نفسي في مكان لم أر له مثيلاً حتى في الخيال وزادته روعة تانك الشفتان اللتان لم أرتو منهما، وقبل أن أسال، أجابت:

- نحن يا حبيبي، في روضتنا الجميلة.
- سبحان الله! ما أجمل هذا المكان!

سبحان من سواه، جميل في صنعه بديع في خلقه، أخذت أتفحص المكان مفتوناً بأشجاره الخضراء الباسقة وجذوعه الضخمة العتيقة الموغلة في عمق الزمن. كل ما أراه يسحر العقل، الماء والورد والشجر، والأغصان التي تشابكت تاركة فتحات تطل منها النجوم وكأنها تسكن قممها، لم أصحُ من دهشتي إلا على صوت حبيبتي:

- تعال يا حبيبي، لأريك ما لم تره في حياتك كلها.

تشابكت يدانا ثم سرنا، ومع كل خطوة كنت أشاهد ما يذهل العقل، لم أتخيل أن هناك شيئاً يمكن أن يشغلني عن حبيبتي حتى غمرتني روعة المكان. توقفت غادة وطلبت أن أغمض عينيّ وأهيئ نفسي لمفاجأة، أمسكتني من يدي بعد أن أغمضت عينيّ وسارت بي إلى أن توقفت، لامست شفتاها شفتي قبل أن تطلب أن أفتح عيني.

- يا إلهي، أيعقل أن تكون هذه الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين؟

أقف أمام ما يشبه بحيرة صغيرة يتصاعد وسطها بين الفينة والأخرى بخار كثيف ينتشر عالياً ليتحول إلى سحاب يغطي أجزاءً منها ثم سرعان ما يتبدد، وتتكرر العملية كل عدة دقائق، وعلى أطرافها تفجرت سبعة ينابيع ترتفع مياهها أمتاراً وعند تلاقيها يرتفع الماء ثم يهبط بهدوء إلى مركز البحيرة.

لم أقاوم فكرة أن ألقي نفسي في البحيرة لأتوحد مع هذه اللوحة الساحرة. فشدتني غادة إلى الخلف، قائلة:

– ماذا تفعل يا مجنون؟ ستحرق نفسك إن اقتربت من المكان الخطأ.

الفضول كان أقوى من التحذير، فمددت يدي إلى الماء لأختبر صحة ما قالت، وما إن لمسته حتى صرخت من شدة الألم، هل هذا ماء جهنم؟ رمتني غادة بنظرة شامتة، لكنها سرعان ما أشفقت عليّ وأخذتني إلى جانب آخر من البحيرة، وطلبت أن أغرق يدي في مائها، فلم أجرؤ خشية أن أكتوي بنارها مرة ثانية، أخذت تهز رأسها ساخرة، وقالت:

– أيها الشكاك، ألا يدفعك فضولك لتكتشف صحة قولي، انظر إلى يدك وقرر بسرعة قبل أن يفوت أوان شفائها.

ضرب العناد أطنابه وبقيت متردداً خائفاً لا أجرؤ على مد يدي، فقالت غادة:

– لا تخف، الماء هنا بارد، فأسرع قبل أن يفوت أوان شفاء حروقك.

شل الألم تفكيري وبقيت مكاني فاقتربت وضمتني إلى صدرها وطوقتني بذراعيها وقربت شفتيها من أذني وهمست "أيها الحبيب الشكاك"، ودفعت

جسدها إلى البحيرة وسحبتني معها لأغوص في البحيرة معها، كان الماء بارداً منعشاً، طلبت أن أسبح وأتبعها باتجاه أحد الينابيع، وحين اقتربت أمسكت يدي ووضعتها حيث يصب الينبوع ماءه، فإذ به كالثلج، تجمد الدم في عروقي. يا إلهي، ما أشد برودة هذا الينبوع. أخذت تمسح يدي براحتها، وفجأة شعرت بالآلام تنسل من يدي، خرجنا من الماء وقد اختفى الألم، أوضحت لي أن ثلاثة من الينابيع يتدفق منها ماء بركاني، وأربعة يتدفق منها ماء بارد، وحينما تلتقي في البحيرة تتوازن حرارة الماء، وحذرتني من الاقتراب منها مباشرة. فسألت باستغراب:

- هل نحن على الأرض أم على كوكب آخر؟
- نحن على الأرض يا حبيبي.
- أقصد، هل نحن في عالمك أنت؟
- عالمي يا حبيبي على الأرض أيضاً وليس على كوكب آخر، لو سألت أين نحن، لأجبتك نحن في حدود الظلال، حيث يلتقي عالمانا، هذا المكان ليس بالسر العظيم فأي كائن من عالمينا يمكنه الوصول إليه إن وجد الطريق. وقبل أن تسأل لماذا لا تعرفون بوجوده؟ سأخبرك أن الأرض أكبر وأوسع مما تعتقدون، وهناك الكثير الذي ينتظر اكتشافه، وعالمكم الثاني، أقرب إلى هذا المكان منا.
- هل هناك عالم ثالث.
- كيف تعتقد أننا نلتقي معاً إن لم...

- أكملي، لماذا توقفت؟
- "إن لم" قصة طويلة، يكفيني ما أعرفه عن عالم زوجي البدائي الذي يأبى أن يتطور إلا نحو الأسوأ، وعلى الرغم من هذا فلا بد أن أحبه ما دمت قد تزوجت أحد أغبيائه.
- ألن تكفِّي عن إهانة عالمي؟
- وهل قول الحقيقة يعد إهانةً يا حبيبي؟

غرفتُ ماءً ورشقتها به فانحنت بدلال، اقتربت لتقبلني، إلا أنها باغتتني بدفعة ألقت بي إلى البحيرة، فطلبت مساعدتها لأخرج، أمسكت يدي ولكنها سحبتني لأغرق في البحيرة، سبحت كحورية وخرجت من طرف البحيرة الآخر ملقية نفسها على العشب، تجمد الزمن وأنا أتأمل ذلك الجسد الممشوق الملفوف بثوب أبيض مبتل التصق به وكأنه لا يريد فراقه، والأزهار تحيط به كأنه جزء من لوحة رسمها ألف فنان عظيم حتى اكتملت. اقتربت منها واستلقيت بجانبها أتوق إلى جسدها وأخشى أن أبعد عينيّ عنها.

أشارت إلى نخلة صغيرة بين أشجار باسقة تبدو كطفلة مدللة بين عائلتها، وأخذت تروي لي حكاية اكتشافها هذا المكان مصادفةً حين هربت من بيتها أول مرة وهي في العاشرة من عمرها. فسألتها لماذا هربت من البيت، فأجابت:

- لم أهرب بما للكلمة من معنى، ولكني أردت أن أزور إحدى الحكايات التي كنت أسمع الكبار يروونها في عالمي، المهم أنني

زرعت هذه النخلة، واعتقدت بأنها بحاجة إلى رعايتي فمكثت قربها عدة أيام أترقب نموها، مر الوقت دون أن أشعر به، وحين قررت العودة ضللت الطريق، وجدت نفسي أسير في عالم غريب، أرى فيه الجميع دون أن يراني أحد، فأخذت أبكي، لم أكن أعرف في ذلك الوقت أنني في عالم البشر وأنهم ببساطة لا يتعمدون تجاهلي، أخذت أراقبهم، وإن أعجبني أحدهم سرت خلفه إلى بيته، وحينما أدركت أن لا أحد يستطيع رؤيتي وجدت الأمر مسلياً. كنت في أغلب الأوقات أضحك كالبلهاء وأنام وأصحو في بيوت البشر، لكن حظي السيئ أقصد الجميل جداً، قادني إلى تلك النخلة المحاطة بالأسوار وسط ذلك البيت الكئيب الذي لا يسكنه سوى الرجال، جلست قرب النخلة وغفوت، وحينما صحوت لم أعرف كيف أخرج من ذلك المكان الكئيب، أخذت أقضي وقتي بين اللعب حول النخلة والبكاء اشتياقاً لعائلتي... حتى اقترب شخص غريب الهيئة وجلس بجواري. وقال لي: "لا تخافي يا بنيتي لن يؤذيك أحد". ثم سألني عما أفعله هنا؟ فأخذت أبكي ثم حكيت قصتي، فطمأنني، ودلني على طريق العودة إلى عالمي. سرت بالاتجاه الذي وصفه، ولكن الفضول شدني لأقضي المزيد من الوقت بين البشر وذلك ما لم يتحقق، بعد أن قبضوا علي وأعادوني إلى عائلتي، وحين أخذوا يؤنبونني على ما فعلت، اختلقت حكاية بلهاء واحتفظت بسر هذا المكان دون أن أخبر أحداً عنه، وحينما تناسوا

هربي الأول، صرت أغتنم كل فرصة لألعب هنا وأسبح ثم أعود قبل أن تتفطن عائلتي إلى غيابي، كبرت في هذه الحديقة ولم أفوت أي فرصة للتجسس على أفراد عائلتي، تعلمت الكثير عن عالم البشر، وأنه يمنع على الصغار أن يعرفوا شيئاً عن عالمكم، إلا أنني اكتشفت الطريق التي توصل إليه دون المرور بعالم الأرواح والمتاهات الكثيرة، ومن يومها لم أتوقف عن زيارته، ولم أعلم أن القدر كان قد أعدني للقائك والتمرد على قوانين عالمنا، وأن أحبك وأرتبط بك وأصحبك إلى هذا المكان الذي لم أبح بسره لأحد.

أنهت حديثها، ثم سألتني:

- هل أنت جائع؟
- أنا أتضور جوعاً لجسدك.
- سأطعمك ما هو أشهى.

سرنا معاً على أطراف البحيرة الصغيرة، فأخذت تقطف من ثمار الجنة وتقدمها لي، وقد ارتسمت على محياها ابتسامة ماكرة.

- هل تريد المزيد؟
- لقد نلت كفايتي.
- لم تأكل بعد.

أخذت تقطف ألذ الثمار وتطعمني إياها من بين شفتيها، حينما أتذوق شفتيها تبتعد بسرعة، ثم تكرر العملية وتسألني:

– هل اكتفيت؟

– لا، ما زلت أتضور جوعاً.

لم تتوقف عن ملاعبتي وإثارة جنوني، وكلما اقتربت أكثر تبتعد، وبعينيها تقول "اصبر قليلاً". مرت ساعات طويلة ونحن نضحك ونلعب ونتنقل من شجرة إلى أخرى، ومن ينبوع إلى آخر، حتى أعلنت استسلامي، فاستلقيت على العشب واستلقت بجانبي ومالت بجسدها المكتنز على جسدي تاركة نهديها يستقران على صدري، قربت شفتيها من شفتي... وقبل أن تلتقي الشفاه عادت بشفتيها إلى الخلف، تاركة شعرها الحريري يدغدغ وجهي، وبحركات مثيرة قربت شفتيها ثم أبعدتهما.

أمسكت بين أصابعها ثمرة توت حمراء ناضجة، قربتها من شفتيها، رشفت عصارتها لتسقيني من فمها نبيذاً معتقاً، تعيد الكرة مرة أخرى، فقدت صوابي فألقيت القبض على شفتيها ورشفت رحيقها، ولاحقت ما سال من عصير على عنقها، طاردت ما هرب مني وشق طريقه إلى نهديها ليستقر على بطنها الرخامي، أرتشف كل قطرة، وأعود بشفتي باحثاً عن كل أثر مر بين نهديها وشفتيها الملتهبتين بنار الشوق، بقيت أروّضها وأبحث في جسدها عن سر الكون وجنون الطبيعة.

نادتني آهات شفتيها، فلبيت النداء واعداً نهديها الثائرين أن أعود بعد لحظات فقد كان لا بد من أن أمر على عنقها التي حاولت أن تلهيني عن لقاء شفتيها، فوعدتها بالعودة، وحين بدأت شفتاي تلثمان أطراف شفتيها طار صوابهما فأخذتا ترويان ظمأي بشهدهما، ويداي تعبثان بحرية في

جسدها الذي أخذ يتلوى بين ذراعيّ كسمكة خرجت من الماء، تبعدني عنها ثم تشدني إليها، فقد بدأ جسدها يتمرد ويتحدى صبري ويدعوني إلى الكف عن المقدمات لكن شوقي الحبيس منذ سنوات دفعني إلى أطيل الضم والعناق، تاركاً تواقيع الحب والشوق على عنقها وصدرها إلى أن خطت بأظفارها نهاية اللقاء.

أفقت على زقزقة العصافير وكأنها تعزف لحن الخلود، مددت يدي باحثاً عن حبيبتي، فلم أجدها، نظرت حولي فرأيتها تخرج من الماء كحورية تركت لشعرها الطويل المبتل مهمة إخفاء مفاتن جسدها العاري، اقتربت مني وقبلتني، ثم قالت "هذا يومك الأول يا حبيبي، فهل أنت سعيد؟". ضممتها بقوة وأخذت أقبلها باحثاً عن كلمات كل حرف فيها بحجم نجمة لأصف لها سعادتي، أرخيت ذراعيّ لأحررها من عناق لا أريد أن ينتهي. استلقت بجانبي، وأخذنا نتأمل معا سحر الطبيعة على أنغام العصافير وخرير الماء. عدنا للهو والضحك واكتشاف ما يحيط بجنتنا الصغيرة.

مر اليوم الأول والثاني كلمح البصر، في اليوم الثالث ابتعدنا عن البحيرة لاكتشاف كل جديد. انشغلت حبيبتي بمطاردة أرنب أبيض إلى أن أمسكت به، فركضت إليّ مسرعةً والسعادة تسبقها، قدمت الأرنب؛ فتهيأت لوجبة لذيذة من الشواء، وحين قرأت غادة أفكاري احمرّت وجنتاها وتفجر الغضب من عينيها، كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيهما مثل هذا الغضب، ثم سألتني:

- ماذا تنوي أن تفعل بالأرنب؟

أيقنت أنني ارتكبت خطأً ما. فقلت:

- لا شيء.

ضمت الأرنب إلى صدرها وصرخت في وجهي:

- أنت متوحش وكاذب كبقية البشر، ألم تكتف بكل الثمار؟ ألم تكتف بهذا الطعام. لماذا تريد أن تنهي حياة هذا الأرنب المسكين؟

تفاجأت من ردة فعلها، فصمت، تركتِ الأرنب ليذهب في حال سبيله واقتربتْ مني، وألقت رأسها على صدري وطوقتني بذراعيها وقالت:

- حبيبي، أرجو ألا تكون سبباً في إنهاء حياة كائن، أرجوك.

وعلى الرغم من أنني اعتقدت بأنها بالغت كثيراً في ردة فعلها، فقد كنت حريصاً على ألا أسمح لهذا الأرنب أن يفسد سعادتنا، وبهدوء حاولت أن أوضح لها أن الإنسان يأكل الأرانب والطيور والأبقار والجمال... ولم أكن أتوقع أن يفجر تبريري غضبها مرةً أخرى، فقد بدأت تشتم البشر بمختلف أنواع الشتائم دون أن تنسى أن تصفهم بأقذع الصفات.

- ألا يكفيكم أيها البشر ما تنُبت الأرض، لماذا تفترسون الكائنات الأخرى، بعد أن تنقرض ماذا ستفعلون؟ هل ستأكلون بعضكم البعض؟ أي وحوش أنتم؟

راودني شعور سيئ تجاه هذه المخلوقة الصغيرة. تساءلت لماذا تحمل في داخلها كل هذا الحقد على البشر؟ لماذا أحبتني وأنا منهم؟ التقت عيوننا فأشاحت وجهها، ثم أحنت رأسها خجلاً، وكأنها شعرت بحجم الإهانات التي وجهتها لي، وفجأة أخذت تبكي وهي تقول:

- أنا آسفة، آسفة، آسفة.

حضنتها لأخفف عنها محاولاً أن أتناسى كلماتها الجارحة وما تركته من أثر في نفسي ثم سألتها:

- لماذا تكرهون البشر وتحتقرونهم إلى هذه الدرجة؟

حاولت أن تتهرب من الإجابة، ومع إصراري، أجابت:

- نحن لا نكره البشر، وإنما نكره أسلوب حياتهم، لا تلمني على ذلك، أرجوك، أنتم اعتدتم قتل كل ما هو جميل ولن تتوقفوا حتى تقتلوا روح هذه الأرض.

اقتربت وقبلتني، ورجتني أن أسامحها على نوبة غضبها. دون أن تدري أن قلبي بات أسير حبها وألا خيار أمامه إلا أن يرضخ لهذا الملاك! أمسكت يدها وأخذنا نتمشى بين الأشجار، أحضنها، أقبلها، أداعبها. تمازحني وتلقي نحوي الثمار، تهرب فألاحقها وأمسكها، نضحك ونلهو، والوقت يسير بسرعة، الساعة تصبح دقيقة، والدقيقة ثانية. ونسير والسعادة تغمرنا...

أثناء تنقلنا، لفت انتباهي قط أسود يرمقني بنظرات أثارت فضولي وأضحكتني في الوقت نفسه، أمسكت غادة وهي منشغلة بشم رائحة وردة لألفت انتباهها إلى القط ونظراته السخيفة فالتفتت والابتسامة تعلو شفتيها، وما إن رأت القط الأسود حتى انقلب حالها، ودب فيها الذعر، أمسكت ذراعي وأخذت تركض وتسحبني هي ترتجف كطفلة صغيرة فاجأها مسخ، فجاريتها وأخذت أركض معها، حتى استنفدت طاقتي، فصرخت فيها:

- كفى يا غادة، كفى، أخبريني مما نهرب؟

نظرت خلفي فرأيت القط يسير خلفنا. ثم رأيت قطاً آخر وآخر وآخر، الأعداد تتزايد واللون الأسود يجمعها. هنا دب الرعب في قلبي فلم أنتظر إجابتها وشددتها وأخذت أركض، وكلما نظرت إلى الخلف رأيت أعداد القطط تتزايد حتى غلب اللون الأسود على الأرض والأشجار، آلاف بل عشرات الآلاف من القطط السود تحيط بنا من كل جانب.

اكتسى كل شيء باللون الأسود، وصلنا إلى بحيرتنا فسحبتني غادة من يدي وحثتني على الغوص، إلا أنني ترددت خشية الغرق، لكن خوفي دفعني إلى الغوص معها. غصت معها وبعد دقيقة شعرت بالاختناق، اقتربتْ وقبلتني لتمدني بالهواء، ثم أخذت تسحبني من نفق إلى آخر في عمق البحيرة. كانت تعرف طريقها جيداً، بقينا على هذه الحال وقتاً يصعب تقديره، إلى أن أخذنا نصعد من جديد عبر فجوة ضيقة، وما إن خرجت حتى أدركت أننا داخل كهف، فاستلقيت على أرضه، فألقت رأسها على صدري، أخذتُ أداعب شعرها، وأنا أسألها:

- ماذا حدث يا غادة؟
- إنهم الكاتو يا حسن، لقد اكتشفوا مكاننا، وجاؤوا للقبض علينا. القطط السود ما هي إلا عيون تساعدهم في كل شيء، أين ما وجدت دلت على وجودهم.
- لماذا غصنا في البحيرة؟

- غوصنا في البحيرة أبعدنا كثيراً عن طريق العودة، وأدخلنا إلى موقع يتداخل فيه عالم البشر مع عالم الجن، الرقعة التي كنا فيها تقع بين عالمينا وقد تمكن الكاتو من الوصول إلينا عبر اقتفاء أثري.
- ماذا سنفعل؟
- علينا العودة سريعاً إلى الكهف الذي تركتك فيه.
- وكيف تركتني فيه؟
- لا يهم ما قلته، المهم أن نصل إلى الكهف بسرعة وإلا سيحدث ما لا تحمد عقباه، يجب أن نجد طريقنا إلى الكهف لأعيدك إلى عالم البشر، فهناك سيصعب على الكاتو النيل منك، أما في هذا المكان المتداخل فسيسهل عليهم السيطرة عليك ليكون مصيرك مثل مصير آلاف الأرواح التي ضلت طريقها في عالمي.
- وما مصيرك أنت يا حبيبتي بعد عودتي؟
- لقد اخترت مصيري بنفسي ولست نادمة، لا تخف، فقد فشلوا بإيجادي وأنا صغيرة، سأستمتع بالهرب قدر ما أستطيع، وحينما يقبضون عليّ سأكون فخورة لأني لم أخضع لأحد.
- غادة، حبيبتي، لا حياة لي من دونك، لقد قضيت حياتي هارباً من اللاشيء، واليوم وجدت ما يستحق الهرب من أجله، دعينا نستمتع بالهرب معاً.

- لا تتعجل يا حبيبي، فالكاتو سيطاردك إلى الأبد، وهدفي أن أصعّب عليهم الأمور، في عالمك لن تخضع لقوانينهم، ربما سنجد طريقة لخلاصك منهم، وجودك معي سيضاعف فرص القبض علينا.

ابتسمت غادة ابتسامةً حزينة وقالت:

- إن تمكنوا منك فلن يبقى ما أهرب من أجله. هيا، لنتحرك بسرعة فأمامنا مسافات طويلة لنقطعها لأعيدك إلى عالمك قبل أن تقتفي القطط السود أثرك.

أخذنا نشق طريقنا في باطن الأرض، مررنا عبر كهوف معتمة وكهوف وجد النور طريقه إليها، مررنا بأرض منبسطة تتجاوز مساحتها عشرات الأميال نمت في بعضها الأشجار والورود ونباتات لم أر مثيلاً لها، مع أن النور بالكاد يصل إليها. في طريقنا عبرنا نهراً تحيطه الأشجار، لم يكن بضخامة الأنهار التي نعرفها. لم أتفاجأ حينما وصلنا إلى أرض قاحلة، سرنا فيها ساعات، ومع كل خطوة أقطعها كانت درجات الحرارة ترتفع حتى ما عدت قادراً على الاحتمال، طلبت منها أن تبحث عن طرق بديلة، ولكنها طلبت أن أحتمل مشيرة إلى أن جسدي سيعتاد هذه الحرارة، ومؤكدةً أنه لم يبق الكثير حتى نصل إلى جيوب الهواء البارد، أخبرتني أن اختيارنا أي طريق أخرى سيتسبب في إهدار وقت لا نملكه، جاريتها، وبعد أقل من ساعة هب هواء بارد من بين شقوق الصخور، ثم أخذنا نسير على رمل يغري بأن يسير المرء عليه حافي القدمين، استلقيت على

بساط من الرمال الناعمة الدافئة، ومن فوقي تيار هوائي منعش جعلني أغط في نوم عميق، لأجد غادة توقظني وتطعمني ثماراً لم أذق أشهى منها في حياتي، ضحكَت ثم سألتني:

- هل تريد أن تضيف سبباً آخر ليطاردك الكاتو من أجله.

ضحكت بدوري وقلت لها:

- وهل سيكون هناك فارق إن ازداد عدد القطط قطاً إضافياً.
- إذاً، تعال لأعرفك على المدمر، الذي كان أحد أهم أسباب عداء سلطة عالمي للبشر... هيا، حاول أن تحتمل الحرارة بضع دقائق، أمسك بثوبي لأننا سنمر من طرق ضيقة معتمة.

عدنا إلى الخلف مئات الأمتار، ثم دخلنا كهفاً واسعاً ومنه إلى كهف أضيق، تسلقنا عدداً من الصخور، عبرنا أنفاقاً صاعدة بالكاد تسمح لجسدي أن يمر عبرها، وفعلاً بدأت أشعر بأن جلدي قد جف، وعظمي قد ذاب من شدة الحرارة، حتى تجاوزنا ذلك الممر اللعين، وصلنا إلى الأعلى، وعندها شعرت بأن الحياة دبت فيّ من جديد، فقد انخفضت درجات الحرارة قليلاً، كنا نقف فوق منحدر صخري، وخلفي واد سحيق، عن يمناي جدار من الصخور وعن يسراي السحر بعينه، نور متوهج، احتجت دقائق حتى تمكنت عيناي من التأقلم مع شدة السطوع. رأيت قناة ضخمة على امتداد البصر يجري فيها صُهار أصفر لزج، دققت النظر فأدركت أنه يتحرك ببطء... ابتسمت بسخرية:

- أنت تفكر أن تهبط إليه وتغرف منه القليل، أليس كذلك، للأسف هذا مستحيل في وضعك الحالي، كما أنك لن تحتمل شدة الحرارة، وإلا لكنت تركتك تفعلها، وأرحت الكاتو من مطاردتك.

وأشارت نحو القناة قائلة:

- هذا هو ساحر عقول البشر تسمّونه الذهب، أما نحن فنسميه المدمر، هذه القناة التي تراها تجري فيها صهارة الذهب، هي واحدة من عدة قنوات تشق طريقها في جوف الأرض، كلما التقت قناة بأخرى تصطدمان وينتج عن ذلك انفجار هائل، ويوماً ما سيجد الذهب طريقه إلى الأعلى، حينها سترتفع حرارة الأرض وبرودتها في الوقت نفسه، وعلماء عالمنا يتنبؤون بأنه في المائة عام المقبلة ستتلاقى القنوات، وإذا بلغ عددها الثلاثين، فسيتدمر عالمنا وعالمكم!
- من أين لك بهذه المعلومات كلها.
- عليك أن تتعرف إلى أفراد عائلتي لتعرف كيف قضيت طفولتي وسط أحاديثهم المملة.

لا يشغل بالي دمار العالم بعد مائة عام، كما لم تسحرني حمم بركانية لونها ذهبي، لكن ما رأيته وما قد أراه شدني أكثر... وعبر النفق انزلقنا إلى الأسفل لنعود أدراجنا وننطلق من جديد في رحلة العودة.

لفتت انتباهي صخرة متحركة توازي بحجمها بيتاً ارتفاعه ثلاثة أمتار، تسلقتها غادة دون أي صعوبة، ومدت إليّ يدها فجاريتها وتسلقت الصخرة،

وفجأةً أطل من كهف بالصخرة رأس غريب الشكل، تملكني الرعب، لكن غادة أخذت تضحك، بعد لحظات أدركت أنني تسلقت ظهر سلحفاء عملاقة، وفجأة أشارت غادة إلي أن اصمت، ثم وقالت:

- هل تسمع؟

أصغيت بانتباه، فخُيل إليّ أني سأسمع حيواناً ما ينادي علي باسمي، وغادة كعادتها لم تعجز عن قراءة أفكاري، فابتسمت وهي تقول:

- حبيبي، الحيوانات لا تتكلم، اطمئن فلن تصادف هنا حماراً أو خنزيراً يناديك باسمك، ويسألك عن حالك وصحتك، لكنك قد ترى بعض الحيوانات التي لم تر مثلها من قبل، كل ما ستقوم به هو افتراسك لترى إن كان طعم لحمك لذيذاً أم لا.

ضحكت غادة، وابتسمت وأنا أتلفت حولي، فلا ينقصني أن أتحول إلى وليمة لحيوان أجهل كيف يكون شكله، وحالياً يكفيني الجن الذي يطاردني والقط الأسود الذي يلاحقني.

واصلنا السير ساعات طويلة، وأثناء سيرنا توقفت غادة فجأة، وابتسمت، ثم قالت ساخرة:

- أتحب أن ترى أحد الحيوانات التي يسعدها أن تأكلك لو كنت في وضع آخر؟

- ولم لا، فأنا يسعدني أن أتشرف بمعرفتها، ولكن ماذا تقصدين بوضع آخر؟

- لا تهتم بكل ما أقوله، تعال ورائي.

سلكت طريقاً جانبية، سرنا فيها قليلاً ثم وقفت وقالت:

– انظر إلى الأسفل.

نظرت، لكنني لم أستطع أن أرى شيئاً، كنت أسمع أصواتاً رهيبة. دبت القشعريرة في جسدي، أمسكَتْ يدي وسارتْ بحذر أكثر من خمسين متراً، حينها بدأتُ أرى بوضوح حيواناً يشبه الحرذون، دون مجال للمقارنة في الحجم طبعاً، ولا أبالغ إن قلت إن حجمه يعادل بناية مؤلفة من خمسة طوابق. وأنني لن أكون سوى مجرد لقمة صغيرة بالنسبة له.

قالت غادة:

– هذا أضخم الحيوانات في باطن الأرض، ونحن نطلق عليه اسم ربدا، هذا الحيوان غبي جداً إلى الدرجة التي تجعله يلتهم أبناءه ظناً منه أنها حيوانات أخرى، وأحياناً يطعم أبناءه لحيوانات أخرى ظناً منه أنها صغارها، ومن شدة غبائه ينقض على ذيله وبعد أن يغرس فيه أنيابه يصرخ من شدة الألم. في عالمي حينما يكرر أحدنا الخطأ نفسه يهزأ منه الآخرون ويطلقون عليه اسم ربدا حتى أصبحت "تعلم يا ربدا" من العبارات الشائعة في عالمنا.

شدني حديث غادة عن ربدا، وتساءلت هل سيكون اسمي مستقبلاً؟

بعد ساعة من المسير غادرتنا المتعة وأخذنا نشق طريقنا إلى الأعلى بصعوبة، انتابني الإرهاق مجدداً، ونفد صبري، خاصة أننا كلما قطعنا مسافة نحو الأعلى اشتد الظلام أكثر، وكنت أعتقد بأننا كلما واصلنا الصعود ازدادت الإضاءة.

كدت أعلن استسلامي، فشدت غادة من عزيمتي وطمأنتني إلى أننا اقتربنا من الوصول، تركتني أرتاح قليلاً، ثم عدنا لمواصلة السير حتى وصلنا إلى شق صخري معتم يتجاوز ارتفاعه مائة متر يستحيل تسلقه، وهنا شعرت بأننا وصلنا إلى طريق مسدودة وأننا سنضطر إلى العودة للبحث عن طريق بديلة، هذا الشعور كان كافياً لإحباطي.

اكتشفت أن تسلق ذلك الشق أسهل مما توقعت، ومنه وصلنا إلى كهف عميق، سرنا فيه مئات الأمتار ثم أخذ الكهف يضيق تدريجياً، عندها طلبت أن أغلق عينيّ، ففعلت وسرت خلفها، طلبت أن أجلس بجانبها وأن أحضنها ففعلتُ، أخذت تداعب شعري حتى غلبني النعاس وغفوت، وحين أفقت شعرت بإرهاق شديد بحيث لم أكن قادراً على الحركة. هدّأت من روعي وأوضحت أن ما أصابني سببه الإرهاق، ساعدتني على الوقوف ثم طلبت أن أغلق عينيّ مرةً أخرى، ثم أن أفتحهما تدريجياً حتى لا تؤذيهما أشعة الشمس.

رأيت السماء والشمس مجدداً فشعرت بالطمأنينة، نظرت إلى غادة ففوجئت بالحزن يخيّم عليها، اقتربت منها وضممتها إلى صدري، وأنا ألوم نفسي على شعوري بالراحة لانتهاء رحلة العودة، فمع انتهائها أدركت أن حبيبتي فقدت الاستقرار والأمان وحكمت على نفسها أن تبقى مطاردة وحيدة حزينة، أما أشد ما آلمني فهو عجزي عن مساعدتها. وبكلمات هادئة وحزينة قالت:

- لا عليك يا حسن، سأتدبر أمري، أرجوك أن تهتم بنفسك جيداً.

كانت الشمس في كبد السماء، حثتني على المغادرة على عجل، وهي لا تزال تشد على يدي وكأنها لا تريد أن تتركني. حضنتها بقوة وأنا أشعر أن روحي ستفارقني إن أفلتها، بقيت على هذه الحال ساعات حتى حسمت غادة الموقف وقالت بنبرة حزينة:

– اذهب، أرجوك، سأجد طريقي لزيارتك قريباً، اذهب، هيا.

أمسكت يدها بقوة دون أن أستطيع نطق كلمة واحدة، سحبتْ يدها وأشاحتْ وجهها وبكت فحرقت دموعها قلبي، قبل أن تختفي.

هأنا أتركها وأتساءل إن كانت سأراها مرةً أخرى. هل ستعود إلى الاختباء وحيدةً في تلك الكهوف الباردة؟ أي حماقة ارتكبت هذه المخلوقة الرقيقة حتى ترتبط بي وأي ثمن ستدفعه لاحقاً. مرت ساعات على فراق حبيبتي، ومع مرورها وصلت إلى البيت، استقبلتني سروة مصدومةً دون أن تنطق بحرف، جلست على الأريكة لأرتاح قليلاً فغطت في نوم عميق. وحين أفقت وجدت أن أختي أعدت ملابس نظيفة وطلبت أن أستحم على الفور لأتخلص من الروائح الكريهة والقاذورات التي علقت بي، لم أكن بحاجة إلى شيء أكثر من ذلك، حين نظرت إلى المرآة في الحمام التقيت بنفسي بعد طول غياب، كنت شاحباً والشيب قد غزا رأسي، سألت عن أمي فعلمت أنها ستعود قريباً، لم تتوقف أختي عن مراقبتي وتأملي بغرابة وما إن أنهيت طعامي حتى سألتني بحنان:

– لماذا توقفت عن تناول دوائك؟ وماذا حدث لك؟ أين اختفيت طوال هذا الأسبوع؟

- لقد أخبرتك سابقاً أنني ذاهب في رحلة وسأغيب يومين.
- اليومان صارا أسبوعاً يا حسن!

بدأت أستعيد ما حدث معي منذ لحظة خروجي مع غادة، ومع هذا لم أكن متفاجئاً أن أكون قد قضيت معها أسبوعاً أو عاماً، فهذا لا يقارن بما رأيت وسمعت في عالم غادة:

- هل صبغت شعرك أم أن لديك تفسيراً آخر؟

أخذت أضحك وأضحك ورغبتي في البكاء تزداد.

- هل أنت مصرةً على معرفة ما حدث لي؟
- نعم، أنا مصرة أن أعرف المأزق الذي أوقعت نفسك فيه؟

كم كنت بحاجة إلى أن أجد من يسمعني حتى لو ظن أنني مجنون.

- لقد تزوجت جنية اسمها غادة وقضينا شهر العسل على أطراف عالمها!

لم تظهر عليها أي ردة فعل، على العكس شعرت أنها تصغي باهتمام، ثم ساورني الشك في أنها تتعامل معي كحالة مرضية لتطبق ما تعلمته في الجامعة، وبهدوء قالت:

- حدثني عن زوجتك الجنية يا حسن.
- أتسخرين مني؟
- كلا يا حسن، أنا أختك، ما كنت لأسخر منك يوماً، أرجوك، قص علي قصتك.

شجعني دفء صوتها، فرويت لها قصة عشقي وزواجي والمصير المجهول الذي ننتظره. اغرورقت عيناها بالدموع، ثم أخذت تسألني عن غادة، فلم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء حينما تخيلتها تجلس وحيدة في أحد الكهوف المعتمة.

تشاركنا وأختي الدموع. لا أعرف إن كانت قد تأثرت بقصتي أم أنها تبكي لأنني جننت، ومع هذا فقد شعرت بالراحة بعد أن نفست عما بداخلي.

دفعني اشتياقي إلى أمي أن أسأل عن سر تأخرها، فأخبرتني أن أمنا متعبة قليلاً وترقد في المشفى.

- لماذا لم تخبريني منذ لحظة وصولي؟
- لا تقلق، إنها بخير، سنذهب معاً لزيارتها، ولكن أرجوك احلق ذقنك، ودعني أساعدك في إخفاء الشيب، حتى لا تتفاجأ برؤيتك على هذه الحال!

لم أكن قادراً على إهدار الوقت، أريد أن أطمئن إلى ست الحبايب، ومع هذا لم تتنازل سروة فكان لها ما أرادت، توجهنا إلى مشفى قريب بسيارة أحد أقاربي، الذي أمطرني بعشرات الأسئلة حول غيابي، وأخذ في لومي وتحميلي المسؤولية عما حدث لأمي.

وصلنا المشفى، ركضت باتجاه الغرفة التي ترقد فيها أمي، قبلتها وأمسكت يدها، فتحت عينيها، وفجأة أخذت تصرخ وتطالبني بالابتعاد عنها، وهنا أبعدتني سروة عنها، وأخبرتني أنه فقدت القدرة على السير وتعاني منذ فترة من هلوسات إلا أن الطبيب أكد أن الفحوص لم تظهر أي سبب لعلتها،

وأن بإمكانها العودة إلى البيت في أي وقت تشاء، لكن المشكلة أنها ترفض العودة إلى البيت.

تمكنت بعد جهد من التواصل معها، وعلمت أن أحد الشيوخ أخبرها أن الجان خطفني وأن كل من يحاول أن يعيدني سيصاب بالشلل، وأمي المسكينة تصدق أي شيء يصدر من صاحب لحية طويلة.

أثارت جنوني بهلوساتها، فتارة تحضنني وتبكي، وتارة تحمد الله على عودتي سالماً، وتارة تطلب مني أن أبتعد لأنني لست من البشر. سألتني سروة:

- ألا تستطيع غادة أن تساعد أمي؟
- مسكينة غادة، فمصيبتها أكبر من مصائبنا، ولكن حينما أراها سأسألها.

لم أكترث إن كانت سروة جادة أم تسخر مني، في المساء خرجت إلى الحديقة لعلي أستطيع الاتصال بغادة بالطريقة التي علمتني إياها، وبعد عدة محاولات حضرت واقتربت مني قائلة:

- أنا آسفة لما أصاب أمك!

هل بإمكانك أن تفعلي شيئاً لها:

- تعال معي حتى أرى ماذا يمكن أن أفعل!

دخلنا غرفتها، اقتربت من أمي وطلبت أن أوقظها وأن أتحدث معها، ففعلت. وأثناء حديثي مع أمي، وضعت يدها بلطف على جبين أمي، لا أدري إن كانت أمي قد شعرت بها أم لا. سألت غادة:

- ماذا فعل الجن بأمي؟
- ما أصاب أمك من صنع البشر، فقد زرعوا في رأسها أفكار غبيةً تمثّلها عقلها فأصيبت بالهذيان والهلاوس؛ الأمر الذي تسبب في إصابتها بشلل وهمي، ليتني كنت أملك الخبرة لمساعدتها، لكنني سأحاول أن أتسلل إلى عالمي لعلي أجد طريقة ما لعلاجها.
- كيف ستتسللين إلى عالمك والكاتو يتربص بك؟
- نعم إنها مخاطرة ولكن ما رأيك أن أعلمك طريقة أتواصل عبرها معك بحيث يمكنك أن تراقبني أثناء تسللي، ولكن يجب أن تكون منتبهاً، فبهذه الطريقة أترك مصيري بين يديك.

شرحت لي بالتفصيل الممل طريقة مراقبتها وعلى الرغم من خوفي عليها فلم يكن أمامي خيار آخر. اختفت غادة بعد أن اتفقنا على الوقت المحدد للتواصل. أيقظت سروة من نومها وأخبرتها:

- زارتني غادة، وأكدت أن لا علاقة للجن بما أصاب أمي.
- إذاً، لماذا لا تساعدها وتشفيها؟ أليست جنية؟
- الجن يختلفون من حيث المعرفة مثلنا نحن البشر، وكون غادة جنية فهذا لا يعني أنها ملمة بالطب والعلاج كأطباء الجن أو أطباء البشر، كما أنها ما زالت صغيرةً أما معرفتها فقد اكتسبتها بالتنصت على أفراد عائلتها.

- لم أفهم شيئاً، ولا أريد أن أفهم، ما يهمني أن تساعد أمي، وعندها سأترك لك الجن وسأكتفي بغرائب البشر، إلا إذا كان لغادة أخ وسيم، ففي هذه الحالة سأتزوجه ونكوّن عائلة جميلة!

ضحكنا، وذهبت لأخذ قسط من النوم في انتظار موعد تواصلي مع غادة، كنت أعلم أن هذا لن يكون سهلاً، لأنني سأحتاج إلى الكثير من التركيز والإرادة والإيمان بما سأقوم به. ساعات من النوم كانت كافيةً لأن أستعيد طاقتي، وساعة من التدرب قبل الموعد جعلتني واثقاً من نفسي.

حان الوقت، أغلقت باب غرفتي وعزلت نفسي عن كل صوت قد يسبب تشتيت تركيزي، تمددت على الأرض وبدأت أسترخي وأطرد مختلف الأفكار من رأسي، ثم أخذت بالتفكير في غادة.

أغمضت عينيّ وتركت روحي تطوف بحثاً عنها، لم يكن الأمر في بدايته سهلاً، ربما لأنني لم أكن مؤمناً بما فيه الكفاية بنجاحي، لكن استرجاعي لكل ذكرى جميلة مع غادة ساعدني على التركيز أكثر، عندها شعرت بأني أحدق في عينيها وأطوف حولها.

عذراً على المقاطعة

رواية (زوجتي من الجن) الكاملة، من البداية إلى النهاية، تحمل اسم كاتبها الحقيقي فوزي عبده، وكل النسخ الإلكترونية والورقية التي لا تحمل اسمه، سُرقت عن نصف مسودة أولية للكتاب ونشرت دون إذن الكاتب

شكرا لكم إن أوضحتم الأمر لأصدقائكم



أحسست بقربها ثم بدأت أراها تدريجياً، كانت تجلس وسط نافورة ماء بطريقة غريبة ومضحكة في الوقت نفسه، اعتقدت بأن لهذا الماء خاصيةً تمنع رصدها، درت حولها دون أن تراني، وفجأة التفتت إليّ وغمزتني وأشارت أن أتبعها ففعلت، اقترينا من قلعة تشبه قلاع البشر إلا أن حجارتها يغلب عليها اللون الأخضر، وفيها الكثير من الأبواب، كلها مشرعة على مصراعيها، تسللت غادة وأنا خلفها حتى وصلنا إلى أقرب باب فمرت منه بسهولة، تبعتها ولكنتي شعرت بأن هناك زجاجاً ليناً يمنعني من المرور، فخرجتْ على الفور، تبعتها وعلمت أنها تبحث عن الباب الذي قد أتمكن من المرور عبره.

ومن باب إلى آخر فشلت كل محاولاتنا، عندها أشارت أن أتبعها إلى نافورة الماء، وهناك عادت لتجلس قربها مرةً أخرى، وكأنها تسعى إلى مسح أثرها، بعد دقائق طلبت عبر الإشارة أن أحدق في عينيها ففعلت فأخذت أسمع صوت أفكارها:

- ابق قرب النافورة وراقبني من بعيد، وحذرني إن شعرت بأي أمر مريب.
- لم أفهم قصدك، كيف أميز الأمر الغريب وكل ما أراه حالياً يثير ريبتي.
- اعتمد على حواسك، الآن راقبني، في أي لحظة تشعر بأنك قد تفقد السيطرة على نفسك لأي سبب كان فما عليك إلا أن تلامس ماء النافورة وستستيقظ على الفور.

اقتربتْ من القلعة وولجت أحد أبوابها بسهولة ثم مرت عبر عدة سراديب وصعدت الكثير من الأدراج إلى أن وصلت إلى صالة مليئة بالكتب، أخذت تجول بينها وكلما أمسكت كتاباً تحول إلى لوح يشع نوراً، ومن كتاب إلى آخر أخذت تتنقل بسرعة فائقة، وعلى الرغم من سرعتها الرهيبة، فقد كنت قادراً على مجاراتها، لم تتوقف عن الحركة، كانت تتراجع فور اقترابها من بعض الكتب حتى أنني كنت أشعر بفزعها، وحين توقفت عن الحركة وأخذت تتلفت حولها حائرة، أيقنت أنها لم تنجح في العثور على مبتغانا.

مر زمن قبل أن تخرج من حيرتها وتنطلق باتجاه مجموعة من الكتب وأخذت تغير أماكنها، كررت العملية عشرات المرات، لم أجد ما تفعله منطقياً إلا إن كان هدفها إحداث فوضى في المكان، فجأةً، انتقلت بسرعة البرق من الكتب التي أثارت فيها الفزع سابقاً وأخذت تمسك الواحد منها تلو الآخر ملقية على كل منها نظرة خاطفة، قبل أن تعيده إلى غير مكانه، تكررت العملية عدة مرات قبل أن تسرع باتجاه الأدراج التي أوصلتها إلى مجموعة كتب أخرى، كل الكتب متشابهة ويستحيل التمييز بينها.

شعرت بالملل نظرت إلى يميني فلم أرى سوى الفراغ، أيقنت بعد برهة أن كل شيء يتحول إلى فراغ في اللحظة التي أبعد عيني عنها، وفجأة رأيت خيطاً من نور يتحرك كالأفعى وينتقل من مكان إلى آخر حتى وصل غادة وأخذ يلتف حولها، شعرت بالاختناق فصرخت بأعلى صوتي، وفجأةً بدأت أسقط في هوة عميقة مظلمة، أخذت أصرخ دون صوت وأنا أهوي، يكاد قلبي يتوقف وأنا أترقب اللحظة التي سأرتطم فيها بقعر هذه الهوة، لم أعد

قادراً على التنفس، كل ما أشعر به سقوط سريع وفزع شديد من صدمة الارتطام.

شعرت بيد تمسكني وترفعني ببطء شديد، بصعوبة بالغة فتحت عينيّ لأجد غادة تجلس قربي وتمسح جبيني بكفها الناعم، وتحثني بهمس أن أتنفس ببطء، احتجت عدة دقائق حتى تأقلمت مع نور غرفتي، كنت أتصبب عرقاً وغادة تمسح جبيني، وتهمس بكلمات تصف لي فيها حديقة منزلنا وكأنها تسعى إلى أن تعيد إلي توازني، وهنا تساءلت هل يعقل أنني غفوت، وهل كل ما حدث ليس سوى كابوس. فأجابت دون أن أسألها:

- ما حدث يشبه الحلم، ولكنه واقع.
- ما رأيك أن نكرر التجربة مرة أخرى؟
- لن أسمح لك أن تكررها بالطريقة نفسها، لقد كانت هذه المرة الأولى والأخيرة.
- لقد كانت مغامرة رائعة، لن أتردد في تكرار هذه التجربة ولن أنسى هذه الدقائق ما حييت على الرغم من ذلك السقوط اللعين، أي نوع من الأحلام هذا يا غادة؟
- لم تكن مغامرة رائعة، لقد كانت مخاطرة غبية قمنا بها عن جهل، كنت سأخسرك إلى الأبد، أنا المذنبة، كان عليّ أن أدرك سلفاً أنك قد تفقد السيطرة ولن تتذكر كيف تستيقظ، الدقائق في تلك الهوة تساوي ساعات، لو لم أنجح في إيقاظك لبقيت هناك إلى الأبد.

- غادة، أنا كنت أراك بوضوح، وكأني كنت معك لحظة بلحظة، كيف حدث ذلك؟
- هذا ليس بالأمر الصعب يا حسن، إن تم بالطريقة الصحيحة.
- إنها أروع تجربة خضتها في حياتي فعلاً، ولن أتوانى عن تكرارها ألف مرة على الرغم من أنني لا أجد تفسير لهذه الدقائق ولا لخيط النور وكل ما رأيته.
- الزمن خارج الجسد لا يقاس بالدقائق أو الساعات، أنتم البشر لن تكتشفوا سر قوتكم أبداً، التجربة التي خضتها بسيطة جداً، ومع هذا فهي معقدة إلى الدرجة التي يصعب شرحها. لم يكن هدفي منها إلا أن تحذرني من الكاتو دون أن يلحق بك أي ضرر، فالطريقة التي رافقتني فيها تسمح لك برؤيتهم دون أن يتمكنوا من رؤيتك، ومع هذا فلم أكن أتوقع أن أنجو منهم، اكتشافك مصيدة الكاتو المعدّة لاصطياد المتسللين إلى أهم مواقعهم أشبه بالمستحيل، لقد أعطاني أملاً بقدرتي على مواجهتهم مستقبلاً، والآن أخبرني ما الذي رأيته بالضبط؟
- رأيت خيط نور لطيفاً يحيط بك كالأفعى، ويكاد يطبق عليك، لم أجد تفسيراً لشعوري بالاختناق والصراخ على الرغم من أن ما رأيته سر ناظري، وكان بإمكاني أن أنظر إليه شهوراً دون أن أشعر بالملل.

- إن سقطت أسطورة مصيدة الكاتو فلن يصعب علينا هزيمتهم، سأدخل إلى عالمي وأخرج متى أشاء دون أن أبالي بهم، سألقنهم درساً لن ينسوه أبداً، سأثير جنون والدتي وسأدفع أختي لتطاردني ليل نهار حتى تقر أنني هزمتها... يا للروعة، وأخيراً بإمكاني أن أتفوق عليها في شيء، لن أتردد في قراءة تلك الكتب اللعينة التي أحتاج ألف عام حتى يسمح لي بالاقتراب منها، وبعد ذلك سأقتحم قلاعهم واحدة واحدة، سأثبت لهم أنني لست الصغيرة المدللة التي تحميها والدتها وتختبئ في ظل أختها، سأجعل أبي فخوراً بي.

كانت مبتهجة، لم تتوقف عن الثرثرة، لم أفهم السر وراء هذا الانقلاب السريع في مزاجها.

- هل بإمكانك أن تبسّطي لي الأمر؟
- حبيبي، سأعلمك كل شيء، ومعاً سنثير جنونهم، الكاتو ليسوا أسطوريين، إنهم مجرد أفراد أوهمونا أنهم قادرون على كل شيء.

هذه الصغيرة ستثير جنوني قبل أن تثير جنون الكاتو، وحالياً لا يشغل بالي إلا علاج أمي.

- هل وجدت علاجاً لأمي في مكتبة الجن؟
- لقد بحثت في عشرات الكتب دون أن أجد شيئاً قد يساعد، ولكنني اطلعت على عدة طرق سريعة تمكننا من السيطرة على أذهان البشر، وبالإمكان تجربتها على أمك.
- هل سنجري التجارب على أمي؟

- لا تخف يا حبيبي، لا شيء مما سأقوم به قد يسبب الأذى لأمك، علاج أمك لن يكون بالأدوية وإنما بمسح الأفكار الغبية المزروعة في رأسها، ولن يتم ذلك إلا بالتواصل مع عقلها الباطن أو أن نتركها على حالها حتى تستطيع العودة إلى الواقع، ولكن هذا قد يحتاج وقتاً طويلاً، فلا أحد يستطيع أن يحكم.
- غادة، كيف سنفعل هذا؟
- لن يكون الأمر سهلاً في وضع أمك الحالي، لهذا سنعمل على اختيار الفرصة المناسبة للتواصل معها ومسح جزء من ذاكرتها، والآن علي أن أتركك، فبقائي في مكان واحد مدة طويلة يساعد الكاتو على تتبع أثري، ونحن بحاجة إلى الوقت لنستعد لمواجهتهم.
- متى ستعودين؟
- سأعود في الوقت المناسب.

لم تمر ساعة حتى فاجأتني بعودتها، طلبت أن أصحبها إلى أمي وأن أوقظها. أخذت أحدث أمي، وأعيد على مسامعها كل كلمة تلقنني إياها غادة، أخذت أصف لها غادة لأدفعها إلى رسم صورة لها في خيالها حتى تتمكن من التواصل معها، ويبدو أنني نجحت في ذلك. اقتربت غادة بلطف من أمي، أمسكت يديها وبدأت تتحدث معها بهدوء، ثم صمتت دقيقة، عادت لتهمس في أذنها وتلامس جبينها، طلبت منها أن تغلق عينيها وأن تعود إلى النوم. وقبل أن تغادر حذرتني من أن هناك فترة زمنية ما عاد

لها وجود في ذاكرة أمي ويجب أن نتعامل معها بحذر ونخلق لها المبررات حتى لا يسبب ذلك لها صدمة.

اختفت غادة، فذهبت إلى سروة وشرحت لها ما حدث، وعلى الرغم من شكها في النتيجة فقد جارتني على أمل أن ما أقوله صحيح. اتفقنا على خطة لمواجهة الموقف وبدأنا ترتيب البيت كما كان قبل مرضها، انتظرنا حتى استيقظت أمي وسارت على قدميها وكأنها لم تكن تستطيع الوقوف قبل لحظات، بمجرد أن رأتني حتى قالت:

- ألم تذهب في رحلة مع أصدقائك؟
- لقد غيرت رأيي ولن أذهب.

تحايلنا عليها وأوضحنا لها على مدار أسبوع أنها كانت في غيبوبة لأيام حتى عادت الأمور إلى طبيعتها. أما سروة فصارحتني أنها في البداية لم تصدق الكثير مما رويته عن الجن، ولكنها كانت مضطرة إلى مجاراتي خشية علي.

لم تنقطع غادة عني، وما كنت لأنسى ما بذلته من جهد لمساعدة أمي. مرت أسابيع، والساعات القليلة التي كنت أقضيها بصحبة حبيبتي تساوي عندي العالم كله، وما عاد الكاتو يشغل بالي. علمتني غادة الكثير عن طرق الجن في قراءة أفكار البشر وصنع الوهم، أما أنا فعلمتها الكثير مما تجهله عن البشر، ومعاً خضنا مغامرات صغيرة لأجزاء من الدقيقة، كانت خلالها تتسلل إلى عالمها برفقتي دون أن ينتقل جسدي خارج الغرفة، ولكنها لم تكن تسمح أن تكرر ما حدث في التجربة الأولى حتى وصلت

إلى قناعة أني قادر على السيطرة على نفسي. ألححت عليها أن تريني البيت الذي ترعرعت فيه، فوعدتني أنها ستفعل ذلك يوماً ما، مرت الأيام وجاء من يفسد علي حياتي ويسرق أحلامي.

****

شاءت الصدف أن أكون جالساً في حديقة بيتي المطلة على الطريق شارد الذهن، غارقاً في غموض العالم وأسراره، ليمر قربي عجوز تجاوز السبعين، بدت عليه آثار البؤس والحزن الشديد، اقترب من سور الحديقة وسألني عن أقرب طريق توصله إلى قرية مجاورة فدللته على الطريق، شكرني وتابع طريقه. قسمات وجه العجوز فيها الكثير من الشبه بوالدي الراحل، شدني ذلك إليه، فلحقت به ودعوته لتناول الطعام ووعدته أنني سأتكفل بمن يوصله إلى غايته، اغرورقت عيناه بالدموع:

– شكراً، ما زلت قادراً على السير.

يا إلهي، كم هو مؤلم أن ترى الدموع في عيون الكبار، لحقت به وألححت عليه:

– يا والدي، يا جدي، امنحني شرف قبولك دعوتي.

لم يلب دعوتي، ولكنه وجلس تحت ظل شجرة قريبة، وأخذ يردد يا والدي يا والدي، فسألني:

– كم عمر والدك؟

– كان سيبلغ الستين لو كان حياً.

– رحمه الله، كم تعتقد أني أبلغ من العمر؟

– في أواخر الستينيات.

– هل يسهل عليك أن تصدق أنني لم أبلغ الثلاثين عاماً!

جاريته دون أن أصدقه على الرغم من أن نبرة صوته دلت على صدقه.

– أنا عمر.

- وأنا حسن.
- ما قصتك يا عمر؟
- هل ستصدقني إن رويت لك قصتي أم ستظنني مجنوناً!
- تحدث، فنبرة صوتك وحزنك يوحيان بصدقك؟
- منذ عدة سنوات ظهرت لي في المنام فتاة لا يفوق جمالها جمال، شعرها أسود طويل ناعم كالحرير، عيناها سوداوان واسعتان، جسدها عجزت عن وصفه الحروف وقصائد الشعراء، أفقت من نومي، ولو خيروني أن أدفع عمري لأعود إلى حلمي لما رفضت، قفزت الحسناء من حلمي إلى صحوي، قرأت أفكاري، عرفت اسمي، ونادتني، عمر عمر. عشقت اسمي حين أطل من شفتيها، باحت لي باسمها وسرها. قالت إنها من عالم لا يسكنه بشر، قبلتني وقبلتها، أشعلت داخلي كل شهوات البشر، ولم تسمح لي بالاقتراب منها لتبقي ناري مشتعلة، أخذت تظهر وتختفي كلمح البصر، تفننت في إغرائي، كانت خير خبيرة بمن هم مثلي، عرضتُ عليها الزواج، فقالت إنك مقدم على الانتحار يا عمر، فأهلي وسلطة عالمي سيلحقون بي وبك الدمار، أصررت على الزواج منها على الرغم من كل العواقب، تزوجتها، وأخذتني في رحلة لأرى الغرابة والعجب. مرت الأيام وفقدت كل من حولي بلمح البصر، شاب شعري وهرمت، وشاءت الظروف أن أكتشف بعد فوات الأوان أنني ضحية وقعت في شرك من تبحث عن

الخلود بأسر أرواح البشر. حبيبتي التي ظننت أنها أحبتني لم أكن بالنسبة لها سوى ضحية جديدة ضمن قائمة طويلة انتقتها من بين آلاف البشر. ومما زاد من سوء حظي أنني لم أكتشف الحقيقة المرة إلا بعد أن فقدت شبابي، وهأنا أسير من قرية إلى أخرى أبحث عنها لتنهي عذابي، هذه قصة عجوز لم يبلغ الثلاثين من عمره. هل وصفي بالجنون سيكون أشد قسوة مما أنا فيه، أنت من أصر على سماع قصتي، فدعني أذهب في سلام.

أخذ العجوز الشاب يسير بخطوات واهنة، أما أنا فتجمدت من هول الصدمة التي عصفت بي كما تعصف ريح الخريف بشجرة لوز هرمة، لقد وصف حبيبتي غادة، كيف لا أصدقه وهو يحكي قصتي.

يا إلهي، لقد راودتني الشكوك منذ زمن، ما حاجة حسناء تكره البشر إلى من تحمل همومه وتخاطر بكيانها من أجله إلا إن كانت تسعى إلى مصلحتها، لقد خدعت نفسي قبل أن تخدعني، وها هو الشعر الأبيض يطل لينذرني بأنني أسير إلى ما لا تحمد عقباه.

أخذت أستعيد ذكرياتي مع غادة، لقد سرقت بابتسامتها أحلامي التي كنت أحيا من أجلها، فما عدت أميز الليل من النهار، ولا السعادة من الحزن، ولا الحقيقة من الخيال. نسيت أهلي وأصدقائي، بقيت وحيداً أسير لقائها، تتحكم بابتسامتي ودموعي، وتفعل بي ما تريد، حتى شعري الأسود غزاه الشيب قبل الأوان...

يا لي من غبي، ألم تخبرني أنها تكره البشر، كيف انطلت عليّ حيلتها فتحولت إلى دمية بين يديها تلهو بها كما تشاء. أقف مشدوهاً لا أقوى على شيء، أتلفت حولي وأتذكر عمر، أركض لعلي أستطيع اللحاق به، ومن بعيد ألمحه يزحف زحفاً:

– يا عمر، أرجوك توقف... .

وصلت إليه وأنفاسي تكاد تنقطع.

– ماذا تريد مني؟

يجلس على الأرض فأجلس بجانبه وأنا ألهث:

– يا عمر، قصتك مشابهة لقصتي، فأنا أيضاً عرفت هذه الجنية.

اغرورقت عيناه بالدموع وأشاح وجهه عني، وهو يقول:

– لا تسخر مني، فيكفيني ما أصابني، ابحث عن غيري لتسخر منه.

سالت الدموع من عيني دون وعي، أقسمت أنها الحقيقة، وأخذت أروي له حكايتي مع غادة. بدت المفاجأة على وجهه، وما إن أنهيت حديثي حتى قال:

– أنت ضحيتها الجديدة، كن حذراً، ساعدك الله على بلواك.

– أرجوك، ساعدني كي أتخلص منها؟

– ليتني أستطيع، فما أنا إلا ركام إنسان، كادنتا سرقت مني كل شيء ولم يبق لي إلا الذكريات، وهأنا عاجز حتى عن مساعدة نفسي، فكيف أساعد غيري.

- قل لي ماذا أفعل؟ كيف أتصرف؟ قل لي شيئاً أرجوك.
- لا تنتظر المساعدة من عاجز مثلي، فأنا ما زلت أعشق قاتلتي، وهذا ما سيصيبك أيضاً، ولن تكون متعتنا إلا بالسماح لها بالسيطرة على عقولنا لتقودنا كيف تشاء، فحتى لو تركتنا سنسعى إليها ونرجوها أن تسيطر علينا، نحن لا نملك الإرادة لطردها من فكرنا، استمتع بما تبقى لك من شباب برفقتها وحينما تنتهي منك، تعال إلى ذلك الجبل، فهناك أجد راحتي ليلاً وأتسول الطعام نهاراً، حينها سأكون أنيساً لك، وإن مات المحظوظ فينا أولاً فسيجد من يدفنه.

تركني عمر بعد أن حطم روحي وحوّلها شظايا، فيما كانت نار الغضب تحرق ما تبقى من قلبي. عدت أدراجي إلى البيت وكلي تصميم على ألا يكون مصيري كمصير عمر، حقدي على من كانت حبيبتي مدني بالقوة، قررت أن أنهي حياتي فوراً إن كان الخيار الآخر الانقياد لها، فيكفيني أن أفسد على هذه الحقيرة متعتها.

اقتربت مني سروة وهمست لكيلا تسمع أمي.

- أخبرني يا حسن، ما أخبار زوجتك؟
- لا رغبة لي بالحديث عنها، فلتذهب إلى الجحيم هي وكل الجن معها.
- حسن، ماذا حدث لك؟

– لا شيء يا سروة، لا شيء، غادة من الماضي، وأنا بحاجة إلى أن أفكر بالغد، يكفيني ما أصابني بسببها.

لم تخف أختي دهشتها من هذا الانقلاب السريع بين العشق والحقد، لكنني لم أتح لها أن تسأل مزيداً من الأسئلة. استيقظت في الصباح مفعماً بطاقة وقودها الغضب، خرجت للبحث عن أي شيء يشغلني، ثم عدت وقت الظهيرة. قبل الغروب، شرد ذهني في الأيام الماضية... وإذ بصوت حبيبتي، خفق قلبي وارتجفت أوصالي شوقاً، اقتربت مني وبصوتها العذب رددت اسمي. كنت أود الإسراع إلى احتضانها على الرغم مما أحمله من حقد نحوها، قاومت هيامي، وأخذت أتمتم مغمضاً عيني:

– لن أنقاد إليك، لن أكون لعبة بين يديك، إرادتي أكبر من قلبي. أنا لست عمر يا كادنتا، لست عمر يا كادنتا، ابتعدي عني، ابتعدي عني.

وبصوت مختنق سألت:

– ومن أخبرك أن اسمي كادنتا يا حبيبي؟

صدق عمر، اعترفت الحقيرة أن اسمها كادنتا، اشتعلت غضباً فبدأت تتلاشى تدريجياً، لقد كانت هذه المرة الأولى التي لا تختفي فيها كلمح البصر. كم كنت سعيداً بنصري وحزيناً لمغادرتها، ما عدت أميز بين ما أريد ولا أريد، أشعر بحنين إليها وبالحزن لفراقها، أشعر بالحقد والحب يتصارعان في قلبي. استعدت صورتها الأخيرة وهي تتلاشى والحزن العميق يخيم عليها، فاغرورقت عيناي بالدموع، أتذكر ما قاله عمر، تملكني شعور

بالقوة، لم أنم تلك الليلة، قبل الفجر اشتقت إلى غادة فظهرت فجأة، أخذت تناديني بصوت حزين، فأشحت وجهي مقاوماً كل رغبة في الاستسلام لها، حتى تلاشت.

مرَّ اليوم الأول وكأنه عام، طردتها خلاله عشرات المرات. مر اليوم الثاني وكان أشد قسوة، كانت تظهر كلما فكرت فيها، أصبحت على يقين أنها لن تتركني، وأنها تترقب الفرصة لتستعيد سيطرتها علي. استخدمتْ الحيل كلها، بكت وتوسلت لأسمعها، إلا أنني نجحت في طردها مجدداً. فقد أدركت أنني إن منحتها فرصة واحدة، فستأسرني للأبد.

لم أذق طعم النوم في اليوم الثالث، كنت أخشى ألا تظهر مجدداً، توسلتْ أن أصغي إليها دقيقة واحدة فقط، كم أشتاق إلى أن أحتضنها في هذه الدقيقة دون أن أصغي إليها:

- لا وألف لا يا كادنتا، لن أخضع إليك!

شعرت هذه المرة بأنني أصبت هدفي، تغير لونها وعضت على أسنانها وكأنها تتشبث بآخر خيوط الأمل، شعرت بأنها تقاوم شيئاً ما، ثم تلاشت بطريقة لم أعهدها من قبل، تلاشت ببطء شديد وهي تمد يدها نحوي وترجوني ألا أتخلى عنها، شعرت بأن شيئاً ما يسحبها إلى الخلف، دموعها كانت آخر ما تبقى منها. انقبض قلبي، أحسست بأنني لن أراها مجدداً، حاولت أن أسيطر على مشاعري نحوها، ثم أجهشت بالبكاء.

جاءت أختي فهالها ما رأت، أخذت تواسيني خجلة من دموعي، حثتني على مواصلة البكاء لإفراغ أحزاني دون أن تعرف كنهها، رويت لها ما

اكتشفته، وحين أخبرتها عن صراع الأيام الثلاثة، بكت بحرارة وهي تنظر إليّ نظرةً عجزت عن تفسيرها، ثم شقت صدري بكلماتها دون أن تدري:

- هل تعتقد أن هناك امرأة تتوسل إلى رجل ثلاثة أيام إن لم تعشقه عشقاً يتجاوز كبرياءها، أي أحمق أنت! ما كانت امرأة لتتوسل إلى رجل إلا إن كانت تخشى عليه وتحبه أكثر من نفسها، أي رجل أنت! لماذا بخلت عليها بفرصة لتفسر لك ظنونك؟ إن أخطأت، ألا تستحق فرصة لطلب المغفرة، ألا تستحق فرصة لوداعك، أي أحمق أنت لتعتقد أن هناك امرأة تقبّل رجلاً بشغف وهي تكرهه.

واصلت أختي تأنيبي وخرجت مسرعاً لأبحث عن عمر، لا أريد سوى أن أهدئ ضميري بتأكيداته.

- أين أنت يا عمر؟

ظهر فجأة وقال:

- أنا هنا، في انتظارك يا حسن.
- لقد نجحت بما فشلت فيه يا عمر!
- لم أتوقع أن تسير الأمور بهذه السرعة يا حسن.
- ماذا تقصد؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة نصر خبيثة:

- القبض على كادنتا لم يكن بالأمر السهل، هذه الصغيرة تمتلك موهبة فريدة في التملص، لا تنتظر أن نشكرك على ما قدمته من

مساعدة، أنصحك أن تختصر الطريق وتبحث عن وسيلة مناسبة لإنهاء عذابك.

- من تكون؟ من تكون؟

ضحك عمر ضحكة مجنونة حتى خيل إليّ أن أهل الأرض جميعاً قد سمعوها:

- نحن من لم يصمد أمامنا أحد، نحن الكاتو يا ابن البشر!

اختفى كلمح البصر، وأخذت بدوري أضحك بشكل هستيري، مرت أسابيع وأنا عاجز عن فعل أي شيء إلى أن اعتلت صحتي مجدداً. بدأت أمي مجدداً البحث عن المشعوذين لإنقاذي من السحر، أما سروة فقد أقنعتني أنه حان الوقت للتعامل مع الواقع، فلا يمكن أن تعود عجلة الزمن إلى الوراء، مؤكدةً أن الندم والبكاء لن يغيرا شيئاً، وأن هذه مشيئة الله، أراد أن ينتهي حبكما على هذه الحال، لحكمة لا تعرفها.

عدت إلى أسرتي وأصدقائي وعملي وحياتي مثلي مثل بقية البشر، لا أسمح للذكريات أن تتسرب من جديد.

****

بعد عدة شهور، استطاعت أمي أن تقنعني بفكرة الزواج لأحقق حلمها برؤية أحفادها. لم يكن يهمني من سأتزوجها، أخذت تعرض لي أسماء فتيات تمنت أن تكون واحدة منهن زوجة لي، دون أن أبالي، وأخيراً ألحت إلحاحاً شديداً أن أتقدم لخطبة إحدى قريباتها، واسمها أمينة، ولم تنس أن

تصفها بجميع الأوصاف التي وصفت بها سابقاتها، وأضافت إلى هذه الأوصاف ميزة جديدة، وهي أن طباع هذه الفتاة تشبه طباعنا، ولن يكون هناك أي خلاف بينكما كونكما نشأتما في البيئة نفسها. وما إن وافقت، حتى فاتحتْ والدة الفتاة بالموضوع، وبعد أن أخذتْ الضوء الأخضر كما درجت عليه العادات في بلادنا؛ حددت موعداً للقاء العروس وقراءة الفاتحة إيذاناً بانطلاق قطار الزواج.

حين أخبرتني أمي أن قراءة الفاتحة في اليوم التالي، شعرت بأن الأمر بات جدياً، فخيم علي قلق كبير وتأنيب ضمير خاصة أن فكرة الزواج أعادت ذكريات زواجي من غادة، فاشتعل صدري شوقاً إليها، عبثاً حاولت أن أطرد الماضي، خاصة أن قصة حبنا انتهت نهاية مأساوية، فهل سأعيش حياتي واقفاً على الأطلال.

رافقت أمي وأختي في المساء إلى بيت العروس. فاستقبلنا والداها وشقيقها وعمها وخالها... فوجئت بأن أكثر من ثلاثين شخصاً اصطفوا لاستقبالنا، مع أن الموضوع لا يعدو قراءة فاتحة، ولا يحتاج إلى هذا الحشد، لكن في بلادنا كثيراً ما تلجأ العائلات إلى استعراض قوتها العددية.

بدأنا نتحدث في أمور سخيفة لا علاقة لها بموضوع اللقاء، وهذه عادة من عادات بلادنا، أيضاً، تسبق دخول العروس لتقديم المشروبات للعريس وذويه. حتى تلك اللحظة لم أكن قد رأيت العروس إلا من خلال عيني أمي التي بعد أن عجزت عن وصف جمالها أكدت أن جمالها يفوق جمال

صبحة، أجمل فتاة في المنطقة، والمضحك أنني لم أر صبحة حتى أقارن جمالها بجمال أمينة.

وبينما أنتظر ظهور عروس المستقبل وهي تحمل المشروبات لأتفحصها كما هي العادة. همست في أذن أمي إثر تأخرها:

- هل يعقل أن تكون العروس قد ماتت من الفرحة؟
- أكيد أنها تتزين لك.

وما هي إلا لحظات حتى ظهرت العروس، شقت طريقها برشاقة وهي ترتدي ثوباً تراثياً مطرزاً بخيوط من الفضة والذهب يتوسطه حزام عريض أصفر اللون، ليظهر ضمور خصرها وتناسق جسدها، وامتلاء ثدييها، إلا أنها كما درجت العادة أيضاً غطت شعرها بشال لم يُظهر شيئاً من شعرها. اقتربت مني والخجل يبدو على ملامحها، مددت يدي لتناول كأس العصير، لكني لم أمنع أطراف أصابعي من ملامسة كفها، طأطأت رأسها خجلاً وكأنها تحاول أن تهرب من عيني. عادت أدراجها بعد أن ابتسمت ابتسامة خجولة، وضعت الصينية على الطاولة أمامي. نظرت حولي فرأيت الجميع ينظرون إلي باستغراب. لكزتني أمي وعضت على أسنانها وهي تهمس:

- ماذا تفعل؟ هل تسعى إلى إحراجي بجنونك.
- العروس غاية في الجمال يا أمي!
- لا تفضحنااااااا.

نظرت إلى الطاولة، فلم أجد العصير، فتساءلت ببساطة إن كان أحد أخذ العصير. رأيت الحشد ينظر إليّ بطريقة امتزجت فيها الدهشة بالسخرية. من بين نظراتهم أطلت الحسناء مرة ثانية، كانت مغمضة العينين، اقتربت مني إلى درجة ارتبكت معها، فاجأتني بجلوسها على ركبتي، بدأت تداعب خصلات شعري وتقبلني بخفة غير آبهة بنظرات الجميع، حاولت أن أبعدها أن أتخلص من الإرباك الذي سببته، لكنها طوقت عنقي بذراعيها وتمسكت بي بقوة، وأخذت تضحك وتضحك، لامست أذني بشفتيها، وهمست:

– هل تشتهيني مثلما أشتهيك يا حسن؟ يا إلهي، صوتها يشبه صوت غادة.

تركتني، وعادت لتقف خلف الحشد، وقد خيم عليه الصمت، فقلت حتى أخفف حدة الارتباك:

– جميل أن يتصرف الإنسان على طبيعته.

لكزتني أمي وقد احمر وجهها، فأخذت سروة زمام المبادرة، وبدأت تشرح للحاضرين أنني أحب المزاح، فضحك الجميع وضحكت معهم، انتقلت سروة لتجلس إلى جانبي وهمست:

– هل جننت؟ ألا تستطيع أن تضبط نفسك وتتوقف عن هذيانك قليلاً!؟

همست في أذنها:

– لست الملام على تصرفات ابنتهم.

– عن أي ابنة تتحدث؟

هنا أدركت أن ما يحدث له علاقة بالجن، وأن كل الحاضرين أدركوا أنني مجنون. في هذه اللحظة تمنيت لو أن الأرض انشقت وابتلعتني. ومع هذا كان في داخلي فرحة لا أستطيع تفسيرها، لم أر عينيها وشعرها، أما الملابس التي ارتدتها فقد أخفت الكثير من جسدها، ومع هذا راودني شعور بأن فيها الكثير من غادة. التزم الجميع الصمت وهم يدعون الله أن تمر هذه الليلة بسلام.

طلبت أمي من أم العروس أن تحثها على الحضور بحجة أنها تشعر بوعكة صحية. ما هي إلا لحظات حتى دخلت العروس، جلست بجانب أمها بخجل، حينما رأيتها تسمرت في مكاني، ولكني تمالكت أعصابي. نظرت حولي لأتأكد أن كل شيء على ما يرام وأن الحاضرين يرون ما أرى. أم أن ما أراه وهم آخر. همست في أذن أختي:

- هل هذه هي العروس؟

أكدت أختي أن من أراها هي العروس، كنت أتمنى أن تخبرني أنها من نسج خيالي، كاد يغمى علي من هول الصدمة. يا إلهي، يعجز قاموس القباحة عن وصفها، القرد غاية في الجمال مقارنة بها، يا لي من غبي، كان يجب أن أخمن هذا من رؤيتي لأمها التي تشبه سيارة الخنفساء (فولزفاچن) بعد تصادمها مع شاحنة، وأبيها الذي يشبه برميل الزفت، إذاً من الطبيعي أن تكون ابنتهم غوريلا ترتدي فستاناً!

اختلست نظرة خاطفة نحو العروس وأمها وهما تتهامسان، سبحان الله، هذه هي الحلقة المفقودة التي كان (داروين) يبحث عنها. الحمد لله، أن أمي لم تزوجني صبحة، واختارت أمينة.

على أي حال، من حسن حظي أن أهل العروس قرروا عقب اللقاء أنهم بحاجة إلى وقت للتفكير قبل قراءة الفاتحة، الأمر الذي لم يرق لأمي، التي ما انفكت طوال الطريق تلومني على ما حدث. أما سروة فقد استغلت انسحاب أمي بعد وصولنا إلى البيت لتسألني عن سر تصرفاتي الغريبة. أخرجت من حقيبتها صورة وقالت:

- انظر إلى صاحبة الصورة، أليست جميلة؟
- إنها جميلة جداً.
- لماذا شبهتها بالغوريلا إذاً.

وقفت مشدوهاً، تركتني سروة وذهبت لتواسي أمي، على الرغم مما حدث فقد كنت غاية في السعادة، راودني إحساس أن لغادة علاقة بما حدث. يا إلهي، كم أشتاق إليها، سأدفع نصف عمري لأحضنها مرة واحدة والنصف الثاني من أجل قبلة من شفتيها:

- أين أنت يا حبيبتي؟

****

نمت تلك الليلة على أمل أن تزورني في حلمي، وأنا أتمثل قول الشاعر

"وإني لأهوى النوم في غير حينه*** لعل لقاء في المنام يكون"

تحققت أمنيتي، زارتني صاحبة الجسد المتناسق والشعر الأسود الطويل، إلا أنها هذه المرة كانت ترتدي ثوبا خمرياً من الحرير زادها جمالاً على جمال.

- غادة، هل عدتِ يا حبيبتي؟

وقفتْ صامتةً دون أي حركة. لقد ازدادت جمالاً منذ رأيتها آخر مرة. آه، كم أتوق إلى أن أبحر في عينيها. ازداد جمالها جمالاً. حاولت الاقتراب منها، إلا أن شيئاً ما صدني. أعلم أنني أحلم، ولكني لا أريد أن أفيق من هذا الحلم، سأبذل جهدي كي لا أصحو قبل أن أخطف من شفتيها قبلة، أنظر في عينيها، وفجأة أسالها:

- من سرق البراءة من عينيك يا حبيبتي؟ وما هذا البريق الشرس الذي يطل منهما؟ هل أنت حبيبتي أم أن حلمي يخدعني؟
- لست حبيبتك!
- هل أنت غادة؟ أم أن حلمي قادني إلى فتاة أخرى.
- لست هي، وأنت لا تحلم، استيقظ أيها الحثالة وانظر إلي جيداً.
- أما زلت غاضبةً مني يا حبيبتي؟
- استيقظ أيها الأحمق، وانظر إليّ جيداً، تعلم من اليوم أن تلفظ الاسم الذي اخترته أنا لها وليس الاسم الذي اختارته من أجلك.

- حبيبتي، لا أطلب منك إلا أن تسامحيني في حلمي هذا لأحيا على أمل أن نلتقي.
- أنت لا تحلم يا حسن، استيقظ، انظر إلى جنونك القادم.
- ما فائدة عقلي إن لم تكوني في حياتي يا غادة.
- استيقظ أيها اللعين، وانظر جيداً لتعرف أني لست كادنتا.
- حبيبتي، لا تتركيني، أرجوك.
- أنت هذه المرة من يتوجب عليه الهرب والاختباء في الكهوف. استيقظ، انظر في عيني لتعرف أن لا مكان تهرب إليه.
- لن أهرب منك يا حبيبتي، وكيف يهرب الجسد من روحه.
- لقد هربت من التي أحبتك، فلماذا لا تهرب من التي ستجعل منك عبرة لمن يعتبر، استيقظ، وانظر في عيني.
- أنت حياتي، يستحيل أن أهرب منك.
- حياتك ملكي وسأفعل بها ما أشاء، استيقظ أيها الحقير ولا تثر جنوني.
- لن أترك حلمي ما دمت فيه.
- اللعنة عليك، سأعود قريباً بعد أن أجد طريقي إليك، والآن استمتع بحلمك.

اختفت حبيبتي فأفقت فزعاً. يا إلهي، ماذا يحدث؟ هل هي حبيبتي غادة؟ لماذا تشبهها في كل شيء ولا تشبهها في شيء؟ أين اختفت ملاكي؟ لم أتمكن من العودة إلى النوم فخرجت إلى الحديقة لأستنشق هواء نقياً وأستعيد

ما استطعت من اللحظات التي سرقتها من الحياة برفقة حبيبتي. حاولت وحاولت، وذاكرتي تأبى أن تساعدني على رسم صورة كاملة لحبيبتي، مرت ثلاثة أيام، والكابوس الغريب يطاردني كل ليلة، تظهر حبيبتي بعينين تخلوان من البراءة، أتشبث بحلمي قدر الإمكان دون أن يتغير شيء.

تحول الحلم إلى حقيقة في اليوم الرابع، حين ذهبت إلى وسادتي أشكو إليها حنيني، علّها تساعدني على الغوص في بحر الذكريات التي جمعتني بروحي يوماً، وقبل أن أغمض عينيّ ساد الغرفة ضباب كثيف لا أدري من أين أتى، ثم أخذ ينقشع رويداً رويداً لتظهر من بينه حبيبتي غادة. قفز قلبي من مكانه وأسرعت إليها لأحضنها إلا أن نظرتها الغريبة اعترضت طريقي وشلت حركتي. اقتربت مني بخطوات واثقة ومن وراء ابتسامتها المتعالية قالت:

- وأخيراً استيقظت من حلمك وسمحت أن أتصل بك وأنت في كامل وعيك، لك أن تفخر أن الاتصال الأول يحتاج إلى موافقتك، كما ينص القانون، وأنا من تطبق القانون، أما في الحلم فالأمر مختلف. على أي حال، أهلاً بك في الواقع، لنبدأ بما أحب وأكره. أولاً، اجلس ولا تقف أمامي كالصنم، فالأصنام تستفزني. أنصت جيداً، لا يسمح لك بالزواج؛ لأنك ما زلت مرتبطاً بجنية، وما حصل في بيت العروس كان مجرد دعابة ناعمة لا تتجاوز الوهم بالمقارنة بما يمكن أن يحدث لك...

غرورها وعجرفتها استفزاني فقاطعتها بوقاحة:

– أنا على يقين أنك لست زوجتي غادة، فمن تكونين؟ وما سر هذا التشابه الكبير بينكما؟ هل الجنيات كلهن متشابهات؟

ردت باستهزاء:

– اسمها كادنتا أما غادة فهو الاسم الذي اختارته من أجلك، الذي لم يعد له وجود بفضلك طبعاً. ولإشباع غروري سأخبرك أن الجنيات مثل الإنسيات، تختلف أشكالهن، ولكنني أجملهن، ألم تلاحظ أيها الإنسي. وعودةً إلى كادنتا فأنا لن أتجاهل حقيقة أنها ما زالت زوجتك، فعهد الارتباط مقدس ولا بد من احترامه حتى لو كان الطرف الآخر إنسياً.

صرت أتساءل من هذه وماذا تفعل؟

ضحكت بأعلى صوتها دون سبب، ثم قالت:

– أنصحك ألا ترهق نفسك في محاولة حجب أفكارك عني، فما علمتك إياه كادنتا ينجح مع الصغار وليس معي، ليس لك الحق في أن تتساءل، ومع ذلك سأكون لطيفةً معك وأجيبك عن ما مر بخيالك من أسئلة، لكن حاول ألا تستفزني بتكرار الأسئلة، حتى في خيالك. سأسمح لك بمناداتي مرح، لأني أحب هذا الاسم، وحظك الجميل جعلك تختار نجمة وتطلق عليها هذا الاسم، لتكون وصية على زواجك، سأشعر بالإهانة إن لم تتذكر هذا الاسم؟ جميل أنك ما زلت تذكره. الآن بما أنك لم تعرف في ذلك الوقت لماذا يجب أن تختار اسم نجمة، فسأخبرك عن السبب، من

المتعارف عليه في عالمنا أن على الشريكة أن تطلب من شريكها أن يختار نجمة من بين النجوم ويسميها باسم أغلى شيء تحبه العروس، وتتيح له أن يحاول سبع مرات، وإن فشل الشريك في اختيار الاسم الصحيح فإن الارتباط لا يتم، أما عن سر هذا التقليد فهو أن الشريك حينما يختار نجمة فهو يعلن أنه لن يحب غيرها ولن يرتبط بغيرها مهما حدث إلا إذا استطاع أن يزيل النجمة التي اختارها من السماء. وطبعاً هذا من سابع المستحيلات. أما لماذا يجب أن يطلق عليها اسم أغلى شيء لدى العروس؟ فلأن هذا يعني الموافقة المطلقة على أن يكون صاحب الاسم وصياً على المحافظة على عهد الزواج ما دام صاحب الاسم حياً. ومن حسن حظك أنك اخترت الاسم الذي أرادته كادنتا... رائع، ها أنت تتذكر ما قلته حينما اخترت اسم مرح "حتى تبقى حياتنا مرحاً في مرح"، أرأيت ما أجمل اختيارك، سأحقق أمنيتك وسأجعل حياتك مرحاً في مرح. كادنتا الصغيرة جاءت نتيجة علاقة متأخرة بين أمي وأبي. هل أجبت عن أسئلتك؟ أتريد أن تعرف لماذا أهدر وقتي بإطلاعك على هذه الأمور؟ لا تتعجل ستعلم لاحقاً!

يا للعجب، أجابت عن أي سؤال يخطر في بالي دون أن أنبس ببنت شفة.

- أين غادة، أين اختفت؟

ردت بلهجة ساخرة:

- هي تحت أمرك، وبانتظار إشارة منك لتركع تحت قدميك.

– أرجوك، لا تهزئي بي وبحبي.

رمتني بنظرة مليئة بالحقد والغضب:

– ماذا تريد منها؟ ألا يكفيك أنك حطمت قلبها وتركتها وحيدة تلاقي مصيرها المشؤوم؟ ألم تساعد الكاتو على القبض عليها؟ ثم تأتي لتسألني عن أخبارها، يا لوقاحتك؟ سأخبرك، ليس شفقة على حالك، ولكن لغاية في نفسي. كادتنا على الرغم من صغر سنها كان بإمكانها أن تواصل الهرب لسنوات، لكن بفضل المساعدة التي قدمتها لـ الكاتو قُبض عليها ونقلت إلى قبة النور لتكون عبرةً لمن يجرؤ أن يسير على خطاها في عالمي... هل يستطيع عقلك الصغير أن يتصور العذاب الذي تلاقيه؟ إن رغبت فبإمكاني أن أتيح لك فرصة للاستمتاع بعذابها علك تفخر بما صنعت يداك.

لم يكن هناك حاجة ليذكرني أحد بما فعلت، فقلت لها:

– سأضحي بحياتي من أجلها إن كان في ذلك نجاة لها.

ضحكت الجنية الشرسة ثم قالت:

– حالياً بإمكانك أن تواصل البكاء كما فعلت سابقاً، وبعد أن تنتهي ربما سأجد طريقة أستفيد بها منك، طبعاً لن تكون سوى أداة أحركها كما أشاء، وإلى أن يحين ذلك الوقت، لا مانع لدي أن أتسلى بك قليلاً، هل ما قلته واضح يا زوج أختي؟

هذه المغرورة تستفز كل ذرة في كياني، ومع هذا أشعر بأنني بحاجة إليها كي تذكرني بحبيبتي غادة، كان لا بد أن أضع النقاط على الحروف فقلت:

– بعد أن فقدت غادة لم يعد هناك شيء أخسره، فإن كانت غايتك مساعدة أختك فلن أتوانى عن التضحية بكل شيء أملكه من أجلها، وإن كانت غايتك الانتقام بدافع الحقد فصدقيني إن عذابي يفوق عذابها، ولن تجدي طريقة تؤلمني أكثر مما أنا فيه ومهما بلغت قوتك يا مرح فلن تقتلي ميتاً، فما لجرح بميت إيلام.

أشارت بإصبعها نحوي وقالت:

– أنت آخر من يعرف التضحية، وآخر من يشعر بعذاب الآخرين. من هذه اللحظة أنت آخر من يتكلم، ستكون دمية آمرك فتنفذ ما أشاء، تتكلم حينما أريد، وتنام وقتما أشاء، وتفيق حينما أقرر ذلك وتضحك إن كان مزاجي يسمح لك بالضحك، لا مانع إن بكيت طوال اليوم لأن دموعك ستروي ظمئي، أما نوع العذاب الذي سأختاره لك فهو أمر لا يعنيك. الخيار الوحيد الذي سأمنحك إياه هو التفكير بالطرق التي تسليني فيها حتى لا أمل منك بسرعة، الآن، بدأت أشعر بالملل. فحاذر يا زوج أختي.

فجّر كلامها بركاناً من الغضب، فلم أجد ما أرد به عليها إلا ما حضرني من قول الشاعر:

– "كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا** * وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنّ أمانِيَا"... من تظنين نفسك؟ أنت لست سوى جنية مغرورة دون مشاعر، فبماذا تخوفينني؟

أدرت وجهي وبدأت أطردها من تفكيري بعزم حتى لا أتيح لها المجال للتأثير علي. كنت أعتقد بأنها ستتلاشى فأخذت تضحك وهي تقول ساخرة:

- إلى أين ستهرب هذه المرة، لا أظن أنك ستجد مكاناً تهرب إليه، وإن كنت استطعت أن تهرب من التي أحبتك فاعلم أن الهرب من الكراهية أشد صعوبةً، وإلى أن يحين الوقت، تذكر أن مرح تمل بسرعة.

أتساءل، ماذا يمكن أن أفعل مع هذه الجنية التي تحمل كل هذا الحقد، وكيف ألومها وأنا السبب في عذاب أختها؟ ولكن هل تدري أن غادة هي روحي وحياتي؟ لقد هربت من الحب، وهأنا أواجه الكراهية، أشرت إلى الجنية مرح بيدي وقلت لها:

- افعلي ما شئت، اشتميني، اكرهيني... ما عاد شيء يهمني، فقد أمسى الموت أمنيتي.

ابتسمت مرح وقالت:

- قبل أن أذهب عليّ أن أذكرك بأنني سأكون معك في كل خطوة حتى في أحلامك، إلى اللقاء أيها الإنسي.

فقدت القدرة على التفكير وشعرت بإرهاق شديد، استلقيت على الفراش لعلي أنام قليلاً، لا أعلم إن كنت قد غفوت أم لا ولكني شعرت بأنامل تداعب شعري بخفة ورقة، ففتحت عيني، فرأيت مرح تجلس بجانبي وتداعب شعري بحنان، ثم قالت لي:

- هل أنت غاضب مما حدث؟ أنت الذي أجبرتني على التصرف معك بهذه الطريقة. هيا، حان الوقت لتعرف ما هي الخطوة الأولى إن أردت أن تنقذ حبيبتك كادنتا وتحررها من أسرها، ستبدأ من اليوم البحث عن إنسي ولكنه ليس إنسياً، وستحضره لي، ومن دونه يستحيل أن تنقذ حبيبتك.

غرقت في الحيرة، ولم أجد تفسيرا لهذا التحول الغريب، فسألتها:

- إنسي وليس إنسياً، وأنا من سيحضره! هل هذه أحجية؟
- نعم، أنت من ستحضره، وسأساعدك على إيجاده يا حسن.

لم يرق لي حديثها، فقد شعرت بأن هذه الحاقدة تمارس ألاعيبها بأسلوب يتلوى كأفعى، حتى ذلك البريق الشيطاني في عينيها اختفى وحل مكانه بريق ملائكي خلاب وساحر. يا للعجب، كيف استطاعت أن تغير مشاعرها بهذه السرعة، هل من المنطق أن أصدقها؟ ومن هذا المخلوق العجيب الذي تحتاجني للبحث عنه؟ أي مكيدة أعدت لي؟ فسألتها:

- من يكون هذا الذي تبحثين عنه، ولماذا؟
- لا داعي لإضاعة الوقت على أسئلة لا فائدة منها.
- لقد شربت من كأس الخداع المر قبل هذه المرة، ودفعت الثمن غالياً، ولن أكرر هذا الخطأ مرةً أخرى، لذا عليك أن توضحي لي كل شيء وإلا لن أطيعك بإرادتي مهما كان الثمن.

لم يعجبها إصراري، فهزت رأسها ثم قالت:

- لك ما شئت، سأشرح لك ما تريد، وأتمنى أن يستوعب عقلك الصغير ما سأقوله، يحاول علماء عالمنا منذ آلاف السنين امتلاك القوة المادية التي يمتلكها البشر، وفي إطار هذه المحاولات، أرسل العلماء العديد من أفراد عالمنا للاتصال مع البشر لإيجاد طريقة للاندماج في أجسادهم، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل الكبير في معظمها، أما الحالات القليلة جداً التي نجحت نوعاً ما، فقد تمرد الذين نفذوها من عالمنا على سلطة الكاتو ورفضوا الانصياع إلى أوامرهم بعد أن شعروا بأنهم امتلكوا قوة مميزة تجمع بين عالمينا. هذا التمرد كان السبب وراء منع الاتصال بالبشر، باستثناء إجراء هذه التجارب على نخبة من العلماء تحت إشراف الكاتو مباشرة، وعلى الرغم من السرية والرقابة الشديدة، استطاع بعض الذين تمردوا من العلماء الهرب من رقابة سلطة الكاتو، هل فهمت الآن يا حسن؟

زادت ابتسامتها الماكرة شكي في كل شيء، فسألتها:

- إذا كان كل ما قلتيه يكتنفه الغموض الشديد، ويعتبر من المعلومات السرية الخاصة بعلماء عالم الجن، فكيف استطعت أنت الوصول إلى هذه المعلومات؟
- أنا مرح، لا تخفى عليّ خافية، وإذا أردت أن أعرف شيئاً فلن يصعب علي.

- إذاً فقد وصلنا إلى بيت القصيد، أنت مرح قادرة على كل شيء، وبالتالي لا حاجة لك بإنسي تافه مثلي؟

أدركت أنني أستهزئ بها فرمقتني بنظرة خبيثة، ثم قالت:

- ستنفذ ما آمرك به سواء رضيت أم رفضت.
- ومن قال لك إنني أرفض؟ أين مكان هذا العالم العجيب لأذهب وأقدمه لك على طبق من ذهب، لا أريد إلا أن تشرحي لي كيف يستطيع أن ينقذ غادة من سجن قبة النور؟
- أنت كثير الأسئلة، قليل الفعل، إن هذا العالم يجمع قوة عالمنا وعالمكم معاً، ويستطيع بذلك أن يخترق الحواجز كلها ويؤثر على جميع المخلوقات، وفور وصولنا إليه تأكد تماماً أن زوجتك كادنتا ستعود إليك.

أطفأ وعد مرح نار قلبي. يا إلهي، سأرى غادة حرة، أيعقل أن يتحقق هذا الحلم يوماً، ولكن كيف أثق بها. قطعت حبل أفكاري بنبرة تهكمية:

- لا خيار أمامك يا حسن إلا أن تثق بي لإنقاذ من تدعي أنها حبيبتك؟
- لماذا اخترتني لهذه المهمة؟
- لحظك السيئ.
- أنا لا أثق بك ولن أثق بك أبداً، ولكن من أجل غادة سأعانق الشيطان حتى لو أخذني إلى الجحيم.

- حالياً، تعال لأرشدك كيف تصل إلى هذا المتمرد، وبعد ذلك سيتوفر لك الكثير من الوقت لتعانق شياطينك.

بدأت تعلمني بصبر أين أبحث عنه وكيف أميزه عن غيره، إلى أن انطلقت في رحلة البحث عن الغريب العجيب، على الرغم من أن إحساسي كان يخبرني أن هناك أمراً أكبر مما حدثتني عنه. مرت أسابيع وأنا أبحث عنه، وخلالها تظهر بين الحين والآخر لتصدر أوامرها وتوجيهاتها. شاءت الصدف أن أدخل مطعماً لتناول وجبة خفيفة، وفجأة جذب انتباهي شخص يطابق مواصفات هدفي، فتساءلت إن كان هو من تبحث عنه مرح أم أن الهوس قد أصابني، عدت إلى المنزل، فوجدتها تنتظرني:

- رائع يا حسن، لقد نجحت في العثور على المتمرد الذي ظن أننا لن نجده يوماً.
- كيف عرفتِ بما حصل؟
- لست أكثر من جهاز للتسجيل والتصوير، أخرج حافظة ذاكرته.
- ما هي الخطوة المقبلة؟
- لا ترهق نفسك بالتفكير، ودع التفكير لي.
- ماذا تقصدين؟
- ليس من الضروري أن تفهم، المهم أن تنفذ، ومهمتك ستنتهي فور أن تحضره لي في الوقت الذي أحدده.
- إذا لم أتمكن من إحضاره فماذا سأفعل؟

قالت والشرر يقدح من عينيها:

- ستقتله يا حسن.
- هل إزهاق روح أمر بهذه البساطة؟ هل تعتبرين القتل أمراً هيناً؟

رمقتها بنظرة عبَّرت عما يدور في داخلي من مشاعر الاشمئزاز والخوف، وتابعت مستهزئاً:

- أتريدين أن أقطع رأسه أو أن أخنقه أو أن أهشم رأسه بحجر؟ أم أن هناك طريقة رحيمة للقتل ابتكرها الجن؟

أخذت تداعب شعرها فيسيل على كتفيها كشلال متدفق، ثم رمقتني بنظرة خاطفة وهي منشغلة بشعرها فيما ابتسامة صفراء تعلو وجهها، واصلت العبث بشعرها وكأني لم أقل شيئاً:

- أجيبي أيها المغرورة، إياك أن تتجاهليني.

واصلت تجاهلي وهي تداعب شعرها، وبعد دقائق، قالت بصرامة وهدوء:

- ستقتله يا حسن.

طريقتها في إلقاء الأوامر هزت أعماقي وأشعرتني كم أنا ضعيف، فحاولت أن أتظاهر بالهدوء والقوة معاً:

- وإذا لم أقتله؟
- ستكون قد نجحت في إحضاره لي.

اقتربت مني وأخذت تداعب شعري، ثم همست في أذني:

- إما أن تحضره أو تقتله، ولا يوجد في قاموسي كلمة لا أستطيع، لم أتعلمها بعد يا حبيبي.
- وهل لمثلك أن يعرف معنى الحب؟

فأجابتني بجدية:

– نعم، ولهذا سأحبك يا زوج أختي.

– إذا كنت تعرفين الحب فكيف تخططين لقتل إنسان بريء؟ أين يكمن الحب فيك، في قلبك الخبيث أم في ضميرك الميت؟

– من قال إنني سأقتل أحداً؟ أنت من سيقتل يا حسن؟

– ولماذا لا تقتلينه أنت، أيها الجنية الخارقة؟

– لأني لست همجية مثلك، ولو حاولت الانحدار إلى هذا المستوى، فإني لا أملك القوة المادية لإنهاء حياة أحد، لهذا ستقوم بالمهمة.

صرخت بأعلى صوتي كمن باغتته نوبة جنون:

– لن أقتل أحداً، لن أقتل إنساناً بريئاً إرضاءً لنزواتك، اذهبي إلى الجحيم أنت والكاتو وخذوا معكم البشر.

– اليوم سأزودك بعنوان الغريب، وغداً سأرسم الخطة المناسبة لإحضاره، وبعد غد سأذهب إلى الجحيم، اتفقنا. والآن إلى اللقاء.

اختفت كلمح البصر، وعادت مع العنوان الذي سأجده فيه، ثم اختفت مجدداً. ثقتها جعلتني عاجزاً كطفل ضاع من أمه. يعد دقائق لمعت في رأسي فكرة، فتحركت فوراً. وما هي إلا ساعات حتى وصلت إلى العنوان المطلوب. طرقت الباب، ففتحته طفلة صغيرة، سألتها عن الشخص المطلوب فنادت عليه:

– بابا، أحدهم يسأل عنك.

جاء الرجل، فطلبت أن نجلس على انفراد. رحب بي وأدخلني بيته... لم تكن هناك حاجة إلى مقدمات:

- الأمر الذي جئت من أجله لا يستدعي التأخير، أعلم أنك قادر على قراءة أفكاري، لذلك أحذرك من أن الكاتو اكتشفوا أمرك، ويعرفون مكانك، لقد طلبوا مني أن أقتلك، ولكنني لا أريد قتلك، فهل بإمكانك أن تساعدني في إنقاذ زوجتي غادة من قبة النور؟

بقي الرجل صامتاً وهو ينظر إليّ كمن يتفحص شيئاً غريباً.

- ماذا تريد بالضبط؟
- جئت أحذرك وأطلب منك المساعدة.
- تحذرني من أي شيء؟
- من الجن والكاتو.
- هل تمزح؟
- لو كنت أمازحك فكيف عرفت أنك الجني البشري.
- "جِن يجننك" أأنت مجنون؟
- هل هذا جزائي لتحذيرك بدل أن أقتلك؟
- اذهب للبحث عن مجنون لديه الوقت لجنونك.

فتح باب المنزل، وأخرجني بطريقة مهينة. عدت إلى البيت حانقاً من استهزائه بي، ندمت حينها لأنني لم أسمع كلام مرح وأساعدها في قتله بدلاً من إنقاذه. مر أسبوع كامل قبل أن تظهر سحابة الدخان التي تسبق ظهور المغرورة، وحين تلاشت أطلت مرح برداء سماوي اللون وعبقت

غرفتي برائحة زكية بعثت في نفسي الراحة. فاجأتني هذه المرة باقترابها مني وتطويق عنقي بيديها، قبل أن تهمس في أذني:

- الحياة تسير، ولن يستطيع أحد إيقافها، ما فشلت في إنجازه اليوم اتركه للغد.

تركت أناملها تعبث بشعري ودفعت جسدها ليلامس جسدي لتثير شهوتي إلى جسدها الفاتن، لكنني سرعان ما كبحت جماح شهوتي بعد أن بدا لي طيف حبيبتي غادة، فما كنت لأخونها حتى في أفكاري؟ تراجعت إلى الوراء عدة خطوات، فسألتني:

- ما بك يا حسن؟ لماذا ابتعدت عني؟
- لا شيء يا مرح.
- ألا تشتهيني؟
- ربما للحظة، ولكنني لن أنسي يوماً حبيبتي، وأنت يجب ألا تنسي أنك أختها.

نظرت إلي نظرة مليئة بالشهوة، ثم قالت:

- هل أختي أجمل مني؟
- في نظري هي أجمل نساء الكون ولن أحب غيرها.
- أنا لم أطلب منك أن تحبني .
- وماذا تريدين إذاً؟
- أنت شيء جديد أرغب في تجربته، لهذا أريدك.
- أنا لا أريدك يا مرح.

- ما أراه في عينيك يخالف ما تقول، فلا تكابر.
- كيف تقبلين على نفسك أن تكوني مع حبيب أختك؟
- أنا لم أنتزعك من أحضانها لأمتلكك بدلاً منها.
- وماذا تسمين محاولتك هذه؟
- رغبت في أن أعبث معك قليلاً، وحينما تريد مرح شيئاً تحصل عليه.
- أنا لست شيئاً لتحصلي عليه.
- بالنسبة لي كلكم أشياء... والآن صراحةً، ما الذي يثيرك فيها أكثر مني؟

ضحكت من أعماق قلبي وقلت:

- ربما تشبهينها جسداً، لكن الفرق بينكما شاسع، فأنت تفتقرين إلى الحب والعطاء والحنان والبراءة والرقة، ولو اجتمعت نساء العالمين معاً فلن يستطعن أن يمتلكن قلبي، فقد امتلكته غادة بل ابتسامة غادة.
- أتحبها كل هذا الحب وتضحي بنفسك من أجل ابتسامة واحدة منها، ورفضت أن تضحي بنكرة كان فرصتك الوحيدة لإنقاذها من عذابها وآلامها، فكيف أصدقك؟
- صدقت يا مرح، لا أحد يستحق دمعة واحدة من غادة.

اقتربت مرح وأمسكت يدي:

- يوماً ما قد أصدق أنك تحبها. والآن، هل تعدني وتقسم بحياة كادنتا ألا تخونني مرةً أخرى كما فعلت سابقاً.
- أقسم بحياة غادة ألا أجعل أحداً أهم منها، ولكنني أرجوك أن تكون صادقةً وألا تخفي عني شيئاً، حتى لا يتكرر معي ما حدث مع عمر.
- حسناً، الصفقة التي عقدتها مع الكاتو تنص على أن يطلق سراح كادنتا فور القبض على الغريب، وأنت جزء من الصفقة، ومن أجل هذا لم يؤذك الكاتو حتى الآن، وإن فشلنا فلا أنا ولا أنت ولا كادنتا سيكون لنا وجود. هذه فرصتنا، حالياً فركّز فقط في القبض على الغريب وإحضاره، وسأرسم لك خطة لتتعرف إليه دون أن تثير شكوكه.
- ولكنه عرفني، وعرف كل شيء.

ضحكت مرح وقالت:

- لا تهتم، من أرسلتك إليه لم يكن الشخص المطلوب. من ستذهب إليه لاحقاً لن يتوانى عن قتلك إن شعر بأنك تشكل خطراً عليه، فهو قادر على قراءة أفكارك بسهولة، وبالنسبة له ما أنت إلا مخلوق بشري لا أكثر.
- إذاً، سيكتشفني فوراً.
- هذا صحيح، ولكني سأعلمك كيف تخدعه.

- أعدك أن أبذل جهدي كله من أجل إحضار ذلك الغريب إلى المكان الذي تريدينه ليتسنى لك السيطرة عليه، ولكن ماذا يجب أن أفعل الآن؟
- سأعدك لهذه المهمة جيداً، خاصة أننا نتعامل مع شخص فريد من نوعه، قدراته تفوق قدراتنا، أضف إلى ذلك الأذى الذي يستطيع أن يلحقه بنا إن اكتشف أمرنا، فدعنا أولاً ننفذ الخطوة الأولى، وبعدها أستطيع أن أعرف مدى القوة التي وصل إليها، وبناءً عليه سنجد الطريقة التي بإمكاننا أن نجعله عبرها يأتي إلى "رأس المثلث" حتى نسيطر عليه فيه.

أثار ذكرها رأس المثلث فضولي، فسألتها:

- ما هو رأس المثلث وأين يقع؟
- هناك ثلاثة عشر موقعاً في الأرض تقع فيها رؤوس المثلثات، وقد يكون رأس المثلث في البحر أو البر، ولهذه المواقع خواصها. أقرب هذه المواقع يقع على رأس جبل لا يبعد عنك سوى عشرات الأميال.

سألتها عشرات الأسئلة، فحدثتني عن عجائب هذه المواقع، ومع ذلك لم أجد القدرة على تصديق أغلب ما قالته. لكزتني وهي تبتسم، ثم قالت:

- لماذا لا تصدق ما أقول؟

كنت أعلم أنها ستقرأ أفكاري ولم يكن هناك مجال للمجاملة فقلت:

- كيف أصدق أنك تهدرين وقتك الثمين لتشرحي لي مثل هذا الأمر، وقد كنت تبخلين عليّ بمعرفة أبسط الأمور.
- معك حق، فاعلمْ أن كل شيء أقوم به له علاقة بما أريده أنا لا أنت، وهذا ليس سراً لأخفيه، وفعلاً لا وقت لدي لأهدره في اختراع الأكاذيب أو إثارة إعجابك، ودوماً لمرح هدف، لا تنسى هذا يا حسن.

ابتسمت وغمزتني بطرف عينها ثم قالت:

- سأصحبك إلى هناك قريباً.
- لماذا لا نذهب الآن؟
- الوقت تأخر، وحتى نصل إلى هناك تكون الشمس قد أشرقت.
- ولماذا لا تفعلين مثل غادة وتنقليني بلمح البصر؟
- أنا بحاجة إلى أن تذهب إلى هناك بمفردك جسداً وروحاً لتتمكن من العودة لاحقاً، وسأدلك على المكان لتلاقيني فيه غداً. ولمعلوماتك لا أحد يستطيع نقل جسد مادي من مكان إلى آخر، أما كادنتا فقد كانت تنقل طيفك لا جسدك أيها الأحمق.
- إذاً، انقلي طيفي، فلا فرق ما دمت سأزور ذلك المكان.

ضحكت بأعلى صوتها وقالت:

- أنا مرح، ما كنت لأفعل شيئاً لإشباع فضول أحد. حب كادنتا أعماها ودفعها إلى عمل أي شيء لإرضائك، ولأزيد من سرورك سأخبرك أن كل دقيقة تواصلت معك فيها ونقلتك خلالها إلى

عالمها كانت تدفع ثمنها أياماً من العذاب ليتعافى جسدها، دون أن تعلمَ بمعاناتها.

- لم أكن أعلم ذلك، وإلا لما سمحت لها أن تعاني من أجلي، لا حاجة إلى أن تزيدي من عذابي، كلما سنحت لك الفرصة، والآن أعطني العنوان.
- إلى اللقاء يا حسن.

رحلت الجنية مرح وتركتني غارقاً في التفكير بها أكثر من ذلك المكان الذي ستأخذني إليه، هذه اللعينة تحرص على أن تتميز في كل شيء، في ثيابها وابتسامتها وغضبها وثورتها وهدوئها وظهورها واختفائها وثقتها وصراحتها ووقاحتها. انتظرت حتى صباح الغد، وكلي شوق إلى انقضاء هذا الليلة للذهاب إلى ذلك المكان الغريب. انطلقت من البيت في ساعات الظهر بعد أن أخذت قسطاً من النوم، توجهت إلى المكان الذي وصفته ووصلت وقت الغروب، انتظرتها حيث طلبت مني. كان الجو شديد البرودة عاصفاً بالغبار، والجبال التي تحيط به قاحلة، أو ربما هذا ما كنت أراه، وما هي إلا دقائق، حتى ظهر على الجبل المقابل حيث كنت أقف، شبح أبيض يشير إلي بيده. لم أخف، سرت نحوه لعلمي المسبق أن الشبح ليس سوى مرح، وحين وصلت إلى القمة وجدتها في انتظاري تدير ظهرها وتنظر إلى الاتجاه الآخر. اقتربت منها فلم تلتفت نحوي، ناديت عليها:

- مرح مرح مرح.

تجاهلتني، اقتربت أكثر فأكثر، ومددت يدي وأمسكت بكتفها وسألتها:

- لماذا تتجاهليني؟

ودون أن تلتفت قالت:

- تركتك لتتأمل روعة المكان.

أخذت أتأمله، فلم أرى سوى الصخور، أمعنت النظر فيه فلم أجد ما يستحق التأمل، سألتها أين التميز يا مرح؟ فأشارت بإصبعها نحو حجر وقالت:

- جرب أن تتحدث معه، وسيخبرك بما تحتاج أن تعرف.
- هل جننت؟ كيف أتحدث مع حجر؟
- جرب فقط وستكتشف النتيجة وحدك.

وماذا سأخسر إن فعلتها، التفت إلى الحجر وخاطبته:

- مرحباً يا حجر، هل تخبرني ما الذي يميز هذا المكان؟

لم أنهِ جملتي حتى ضحكت مرح وأضحكتني معها ثم قالت:

- لا أظنك مجنوناً، أنت بالفعل كذلك، حتى في عالم الجن الحجارة لا تتكلم، والآن ركز وحاول أن تتواصل مع هذا المكان كما فعلت حينما تسللت كادنتا إلى مكتبة الحكماء وتابع كل كلمة أقولها... في هذا الموقع يمكن لأيّ كان من عالمنا أن يلتقي مع أي كان من عالمك دون أي تعقيدات، لهذا المكان ميزات كثيرة جداً، لن يكون هناك متسع من الوقت لذكرها، ولو نظرت إلى القمر لرأيته أكثر وضوحاً من أي مكان آخر، وأنه يتغير في كل لحظة بسبب التداخل الذي يحدث بين عالمينا، في هذا المكان ستشعر بانعدام

ثقل جسدك، وسيصل ذهنك إلى صفاء لا يمكن بلوغه في أي مكان آخر.

واصلت الكشف عن العديد من أسرار هذا المكان ومن بينها قدرته على شفاء الجسد والذاكرة، كشفت عن أسرار لا يستوعبها عقل، ومع ذلك فقد ساعدني صفاء ذهني على أن أدرك أنها تسعى من خلالي للوصول إلى هدف أكبر.

بدأت أتفحص المكان، وفجأةً بدأت أشعر حقيقةً بميّزات هذا المكان، فقد اختفى أدنى شعور بالإرهاق من الرحلة التي قطعتها، كما لم أعد أشعر بحاجتي إلى أي شيء، وحين نظرت إلى القمر رأيته بوضوح لم أعهده من قبل، لقد كان قريباً جداً، لكزتني مرح بيدها وقالت:

- لا تحدق كثيراً في القمر من هذا المكان حتى لا يسرقك وتصاب بالجنون، سر في هذا الاتجاه عدة خطوات.

ما هي إلا خطوات حتى شعرت بالبرد وأحسست أنني انتقلت إلى عالم آخر، نظرت بفضول إلى القمر فوجدته قد ابتعد عن موقعه السابق بعداً كبيراً، نظرت إلى حيث كانت مرح تقف فرأيت هالة نور تحيط بالمكان الذي وقفت فيه، سرت نحو الهالة عدة خطوات فقط فشعرت بأني تركت جسدي خارجاً.

- يا إلهي، كم هو عجيب هذا المكان، أليست هذه خدعة أخرى من خدعك الكثيرة؟

– كلا، فأنت تعلم أنك في كامل وعيك، وإذا لم يشعر الإنسان بوجود هذا المكان في صحوته، فإنه سيجده مثل أي مكان آخر، في هذا المكان تستطيع أن تفكر وتخطط للحصول على أي شيء.

– هل سأحصل على ما أريد لأنني فكرت فيه؟

– هنا تجد الفكرة والطريقة التي ستساعدك على بلوغها ويتبقى عليك العمل على تنفيذها.

– إذاً، هنا سآخذ معي الأحلام فقط؟

– إن وجدت الفكرة والطريق لتحقيقها فلن تكون حلماً.

– هل أستطيع العودة إلى هنا في أي وقت أريده؟

– نعم تستطيع، ولكني أنصحك ألا تفعل ذلك لعدة أسباب لا أستطيع أن أشرحها لك. والآن قبل أن نعود معاً إلى الواقع سأتركك عدة دقائق حتى تفكر بالطريقة المثلى للتواصل مع هذا الشخص الذي سنجذبه إلى هنا.

شكرتها في سري، فهذا المكان ألهمني بالكثير من الأفكار والخطط التي حرصت على ألا تعرفها، خرجنا من ذلك الموضع وأخذنا نسير معاً، لم أرَ القمر بذلك البهاء سابقاً. كانت مرح تسبقني بين الحين والآخر وتترك شعرها الطويل يلامس وجهي كلما التفتت إليّ. وصلنا إلى موضع خال تفوح منها رائحة الموت والخوف من المجهول، أخذنا نخطو فوق أوراق شجر جف منذ سنين، فيما زاد ضوء القمر المكان غموضاً، ونسمات الهواء التي تهب بين الحين والآخر تحرك الأوراق اليابسة عازفة لحناً

جنائزياً تخر أمامه أشجع النفوس صاغرة، أما الأحجار المبعثرة هنا وهناك، فبدت كقبور اصطفت لتثير القشعريرة في جسدي.

جلستْ فوق صخرة رمادية مسطحة، فأظهر ثوبها الأبيض الشفاف مفاتن جسدها، فيما امتزج شعرها الأسود الطويل بضوء القمر والصخرة الرمادية المسطحة ووحشة ذلك المكان فتحول ثوبها إلى لون شهواني زادها أنوثة وإثارة. أخذتْ تلتقط الأوراق اليابسة وتفركها بكفيها وكأنها تغسلها بنور القمر وتنثرها بعد ذلك فوق جسدها الذي استفزني بشهوانيته الشرهة وتحديه رغباتي البشرية

فحاولت أن أشغل فكري عن جسدها بأجواء الغموض ورائحة الموت التي تحيط بي لعلي أستطيع كبت شهوتي، وأنا أرى الأوراق اليابسة تشتهيها وتداعب شعرها وطيات ثوبها. استلقتْ على مصطبة الصخر الرمادية، وأخذت تداعب جسدها بحركات شهوانية وكأنها تدعو القمر إلى اختبار جسدها الساحر الشيطاني، رمتني بنظرة تتقد شبقاً وشهوة، وبخطوات مترددة اقتربت منها فمدت يدها وجذبتني إلى جسدها الفاتن وأخذت تداعب وجهي بأناملها، أحاطت عنقي بذراعيها وهمست بنعومة كلمات كأنها موسيقى، لا أفهم معناها. أخذت أعبث بجسدها بجنون لتسقط عن المصطبة الرمادية إلى الأرض، عندها امتزج جسدها بالأوراق اليابسة التي كانت تغطي المكان، خيم جنون الامتزاج على المكان. حبات تراب علقت بقطرات العرق وحرارة القبلات تدفع رطوبة الأرض بعيداً. رائحة الموت وجنون الشهوة وضوء القمر شكلا مزيجاً سرق عقلي أكثر، كانت

ناعمة هادئة تلامس وتهمس وتتأوه، غرست أظفارها بجسدي حين فقدت السيطرة على جسدها، فغرقت في ثمالتي ولم أفق إلا بعد أن تردد صدى ضحكاتها حين وقفت فاتحةً ذراعيها وكأنها تسعى لإغاظة القمر بجمالها، نظرت إليّ ثم طلبت أن أقف إلى جانبها، فأخذت تداعبني ثم قالت:

- أما زلت ترغب بكادنتا؟

جلدتني سياط كلماتها، أدركت أنها سيطرت على كل ذرة في جسدي وعقلي، جئت إلى هذا المكان من أجل حبيبتي، وفي أحضان أختها نسيتها، ما الذي تسعى إليه هذه الجنية الملعونة؟ لتدفعني لخيانة أختها:

- لماذا يا مرح؟
- لماذا ماذا يا حسن؟
- لماذا دفعتني إلى خيانة حبيبتي؟
- وما علاقتي بما فعلت؟
- أنت أردت لهذا أن يحدث يا مرح!
- هذا صحيح، وما أريده أحصل عليه، ولكن ما علاقتي بما أردته أنت؟
- ما كنت لأخون غادة أبداً، ولكنك سيطرت على عقلي يا مرح.
- لا حاجة لي بالسيطرة على من لا يسيطر على نفسه. وما كنت لأعبث مع من لا يرغب بي بجنون، اسأل نفسك لماذا يا حسن؟
- ألا تشعرين بأنك خنت أختك؟

- أين الخيانة؟ ما أريده أحصل عليه، حتى أريح ضميرك قليلاً سأخبر كادنتا أنك ممل ولم تشعرني بالإثارة.
- هل تريدين تدمير العلاقة بيني وبين أختك؟
- أنت تتحدث وكأنها في أحضانك وعلاقتك بها مثالية، تناسيت أنك من تخلى عنها حينما كانت بأمس الحاجة إليك، دعك من السخافات فمن هي مثلي لن تشغل نفسها بتخريب علاقة ما عاد لها وجود، وبدلاً من إلقاء اللوم على غيرك والبكاء على ما فات أثبت لنفسك أنك لن تتوانى عن تقديم كل ما يمكن لإنقاذها، والآن اترك العواطف جانباً واستعد للشروع في مهمتك بناء على الخطة التي سأرسمها لك.

لم أجد تفسيراً منطقياً لحاجتها لإهانتي واستفزازي قبل أن ترسلني بمهمة تخدم أهدافها.

علمتني كيف أتعرف إلى الغريب وأتواصل معه، وحذرتني من أن حرية غادة مرتبطة بنجاح المهمة.

علمتني كيف أتحكم بأفكاري وعواطفي وحتى ملامح وجهي بحيث أتحول إلى مجرد آلة تحب وتكره بناء على رغبتها.

ودعتني بعد أن أكدت أنها على ثقة بنجاحي، تركتني خلفها في تلك الرقعة الجرداء مع طيف غادة وذكراها وكأنها تعمدت ذلك لتثقل ضميري بما اقترفته لتزرع بداخلي التصميم على النجاح في هذه المهمة.

* * * * * * * * * *

انطلقت في اليوم التالي لأنفذ خطة مرح، كان الرجل الذي سأسعى إليه يمتلك متجراً للتحف، كانت زيارتي الأولى موفقة، عرفت أن اسمه نور. ثلاثة أشهر كانت كافية لتتوطد علاقتي به حتى تحوّلت صداقةً. لست على يقين إن كان نجاحي عائداً إلى براعتي أم أنه اكتشف أمري ويجاريني لحاجة في نفسه، أم أنه مجرد شخص عادي عادت المغرورة لتختبرني من خلاله. لم تعد مرح تظهر، وكأنها اختفت إلى غير رجعة.

دعوت نور إلى بيتي فلبى دعوتي. لم أسع من وراء هذه الدعوة إلى أي شيء، وأثناء استضافتي إياه لفتت انتباهه مجموعة من الحجارة، فأمسك بأحدها وسألني عن مصدرها؟ لم أكن أعرف. سألت والدتي فعرفت أن سروة جلبتها إلى البيت قبل أكثر من نصف عام. بعد مرور أسبوع عاد نور وأصر على أن يسأل أختي عن المكان الذي أحضرت منه الحجارة بحجة أنه بحاجة لعدد منها ليزين بها القطع الفنية التي يبيعها في متجره. وبعد إلحاح ناديت أختي فأخبرته أنها كانت في رحلة مع صديقاتها وأنها لا تتذكر بالضبط من أين أحضرت الحجارة. حينها أمسك الحجر بإبهامه وسبابته وطلب منها أن تمسك الحجر بالطريقة نفسها، وفجأة تذكرت أختي بدقة متناهية أحداث ذلك اليوم الذي أحضرت فيه الحجارة، ولكنها بقيت عاجزة عن تذكر المكان بالضبط.

ودعنا نور وذهب في حال سبيله، حينها انتابني إحساس بأن هناك شيئاً من الحقيقة فيما قالته مرح عنه، انتصف الليل وذهبت إلى النوم، وجدت

مرح تجلس على المقعد الوحيد في غرفتي تنتظر إليّ بهدوء وهي تبتسم.
لم أتمكن من إخفاء فرحتي لرؤيتها فحاولت أن أشغل نفسي بسؤالها:

- أين اختفيت؟
- هل اشتقت إلي يا حسن؟

لذت بالصمت، فابتسمت.

- لقد اشتقت إلي يا حسن!

تغاضيت عن حديثها، وأخذت أحدثها عن علاقتي بنور، ثم قلت:

- هل حان الوقت إلى أن أوصله إلى ذلك المكان؟ وما هي الطريقة؟
- نعم، حان الوقت، لهذا حضرت، غداً ستقوم بذلك.
- كيف سأقنعه، ماذا سأقول له؟

ضحكت وقالت:

- هو الذي يجب أن يقنعك، سيحضر غداً ويبذل كل جهده لخلق ذريعة لإقناعك بأن ترشده أنت وأختك إلى المكان الذي أحضرت منه الحجارة.
- وما دخل أختي في هذا الموضوع وما حكاية الحجارة؟
- لا تسأل أسئلةً كثيرة، ما يهمنا الآن أن الأمور تسير كما خططت لها وسينتهي كل شيء غداً أو بعد غد.
- لن أفعل أي شيء ولن أتحرك خطوة واحدة قبل أن أفهم ما يدور حولي، لقد تركت لك المجال للهو بحياتي كما تشائين، أما أختي وعائلتي، فلن أسمح لك أن تعبثي بهم.

- حينما أطلب منك أن تسمح لي بأمر فلا تفعل، وإن كنت تملك طريقة لمنعي من أن أفعل ما أشاء فامنعني، وبما أنه لا قدرة لك على الاعتراض فالتزم الصمت حتى أحبك وأحب أهلك، هل فهمت يا حسون؟

ماذا أستطيع أن أفعل مع هذه الجنية الخبيثة سوى أن أكظم غيظي وأنتظر الفرصة.

قطعت مرح حبل أفكاري قائلة:

- العواطف شيء جميل، ولكن لا قيمة لها فيما نحن مقدمون عليه. لم أقصد آنفاً أن أسيء إليك، ولكنني أريد أن تفكر بعقلك بعيداً عن عواطفك، وأن تتصرف بناء على ذلك. الغضب والحب لن يفيدا في شيء، ما دمنا لا نستطيع تغيير الواقع فلنتصرف بناء على ما يمليه علينا. لم أفكر حتى اللحظة بالمس بعائلتك، ولن أفعل. لا تنس أن هدفنا واحد. لكن الفرق بيني وبينك أن عواطفك تتغلب على عقلك، نحن لا نفكر فيما سيحدث اليوم، وإنما نقوم بحسابات دقيقة لكل الاحتمالات. زيارة هذا الرجل إلى بيتك كانت متوقعة، وقد شاهد الحجارة مصادفة وبطريقته الخاصة فحص وتأكد من أنه لا يوجد شيء مريب. كل ما قمتُ به هو تهيئة الظروف لتقوم أختك برحلة مع صديقتها وتجد الحجارة وتنقلها إلى البيت دون أن تشعر بأي شيء غير طبيعي. بعد ذلك يأتي دورك في بناء علاقة وطيدة مع الرجل ليحضر إلى بيتكم، لو عرفتَ

بأمر الحجارة لاستطاع أن يعرف الحقيقة في لحظة. لقد سارت الأمور كما خططت لها، حتى قبل لقائي بك يا حسن!.

نظرت إلي بهدوء ثم قالت:

– أما عن سر هذه الحجارة... فهي مأخوذة من المكان الذي زرته معي. وهذه الحجارة عادية لا يميزها أي شيء، إلا أن الشخص الخبير في شؤون عالمنا يستطيع أن يعرف أن هذه الحجارة لا توجد إلا في ذلك المكان، وصديقك الجديد عرف ذلك من نظرة واحدة، وبما أنه يبحث عن ذلك المكان ليستعيد ذاكرته كاملة ويحظى بقواه المميزة، فإنه يريد أن يعرف أين يقع ذلك الموقع. أختك كانت الطعم المناسب الذي سيقوده إلى الكمين الذي أعددته له، وبما أنه يعرف أنه لا يستطيع أن يطلب من أختك أن تذهب معه، فسيطلب منك أن تذهب مع أختك لإرشاده إلى ذلك المكان. طبعاً بعد أن يختلق قصة مقنعة لك، أفهمت يا حسن؟.

لم أستطع إخفاء إعجابي بذكائها، فسألتها:

– لقد خططت لكل هذا حتى قبل أن تظهري لي فما أدراك أنني سأتعاون معك لتنجح خطتك.

عضت على إصبعها متأففة وقالت:

– أنت ممل فعلاً، كم مرة يجب أن أخبرك أن ما تريده مرح تحصل عليه.

اختفت مرح كعادتها بعد أن شرحت لي خطتها الجهنمية، ولكن هل ستسير الخطة كما تريد؟!

حضر نور إلى بيتنا، وما إن احتسى القهوة، حتى بدأ يختلق القصص لإقناعي بالذهاب معه أنا وأختي إلى موقع الحجارة، وقدم لي أسباباً مقنعة، فرافقته مع سروة حتى وصلنا إلى ذلك الموقع.

أخذت سروة تتفحص الموقع كي تتذكر أين وجدت الحجارة، كان الغريب يراقبها والفرحة تقفز من عينيه كما لو أنه مقبل على لقاء حبيبة طال فراقها، لكن أمله خاب حين لم تتمكن من تذكر الموقع، حاول أن ينعش ذاكرتها حتى شعر باليأس، فعدنا أدراجنا. وفي طريق العودة تذكرت سروة الموقع، وأشارت إلى جبل قريب، فأسرع نور كالملهوف نحو الجبل وكأنه سيهرب منه. كنت أراقب خطواته المتسارعة فشعرت بالأسى والحزن على مصيره حتى كاد ضميري يدفعني إلى تحذيره، فهذا الرجل لم يقدم على شيء ليستحق هذا الخداع. لم أدرك أن للأفكار صوتاً أعلى من الصراخ، وفجأة تسمر الرجل مكانه ثم أخذ يسير نحوي والشرر يتطاير من عينيه. أدركت أن أفكاري وصلت إليه وتذكرت كلام مرح عن خطورته. لم أدر كيف أتصرف... لقد دب الرعب في قلبي وأيقنت أنه سيقتلني إن عرف أنني غررت به، فاستجمعت قواي وحاولت السيطرة على نفسي حتى لا يقرأ أفكاري، اقترب مني وقال لي:

– دعنا نرجع إلى البيت.

طوال الطريق لم يتفوه بكلمة، كان شارد الذهن، ولكنه كان يرمقني بين الفينة والأخرى بنظرة تدب الرعب في قلبي، تساءلت هل استطاع أن يقرأ أفكاري؟ ما أغبى هذا السؤال، بالطبع عرف ما يجول في خاطري، وإلا ما سبب كل هذا الغضب؟ ولكن ما سر هذا الصمت المريب والغضب المتأجج؟ هل سيقتلني؟ لماذا لم يقتلني فوراً إذاً؟

وصلنا إلى البيت دون أن ينطق بكلمة، فطلب أن أجلس معه في الحديقة:

- هيا تكلم، ولا تحاول أن تخفي شيئاً.
- ماذا تقصد؟
- لقد صبرت طوال الطريق حتى تصل إلى بيتك وتشعر بالأمن بين أحضان أسرتك، الآن لا داعي للحذلقة، تكلم.

حاولت أن أظهر علامات الدهشة والاستغراب من أسئلته وتصرفه.

- اسمع يا ولد، لقد نجحت في خداعي منذ البداية، وبما أنك لم تستطع الاستمرار في خدعتك حتى اللحظة الأخيرة، فلا داعي للتظاهر بالغباء. ما هي حكايتك؟ وماذا تعرف عني؟ ولماذا أردت استدراجي:
- إن عرفت الحقيقة فماذا ستفعل بي؟
- لقد عرفت الحقيقة في اللحظة التي أنبك فيها ضميرك ومع ذلك لم أفعل لك شيئاً حتى الآن.
- ما دمت قد عرفت، فلماذا تسألني إذاً؟
- لأني بحاجة إلى التفاصيل.

- حسناً، سأخبرك بكل ما تريد، ولكن قبل ذلك عليك أن تصدقني، هل أنت فعلاً جني بشري تمرد على سلطة الجن وهرب منهم واندمج مع إنسي؟
- أنت تتحدث كالأطفال، أنا أشعر بالخجل لأن غبياً مثلك تمكن من خداعي طوال هذا الوقت!! انظر، ألا ترى أني إنسي مثلك؟
- إذاً، لماذا توجهت إلى ذلك الجبل؟ وكيف استطعت أن تقرأ أفكاري؟ وماذا يريد الجن منك؟

فقال مشفقاً على حالي:

- كيف تورطت في كل هذا يا حسن؟

أدركت بما لا يترك مجالاً للشك أن هذا الرجل يملك قدرة مميزة، وما عاد هناك شيء لأخسره، فمرح لن ترحمني لإفساد خططها، وربما من الأفضل استمالة هذا الرجل، فرويت له حكايتي من البداية إلى النهاية، لاحظت أن شيئاً لم يشده في حكايتي المؤلمة سوى حديثي عن مرح، بعد أن أنهيت حديثي، رأيت أنه استغرق في التفكير.

- هل تعرف مرح؟
- ومن لا يعرفها يا حسن؟ إنها أشهر من أن تعرّف بصرف النظر عن الاسم الذي تحمله. ففي كل يوم لها اسم جديد وقصة جديدة، كان يجب أن أعرف منذ البداية أن هذا التخطيط الدقيق لا يمكن أن يقف خلفه إلا تلك الداهية الكبيرة.

سألته بشغف:

- هل تعرف أختها غادة؟
- لا أعرف من تكون، وأشك في أن تكون لتلك الداهية أخت بهذه المواصفات. ولكن ربما يكون لها أخت صغيرة لم يسبق لي أن عرفتها، الشيء الذي أشك فيه هو أن هناك من سيجرؤ على معاقبة أخت المسماة مرح. نعم هناك قوانين تتوعد من يتصل بالبشر بأشد العقاب، ولكن ما كان الأمر ليصل إلى حد السجن في قبة النور.
- أرى أنك ملم بعالم الجن، لا بد أنك واحد منهم، فهل ستساعدني على إنقاذ غادة والخلاص من مرح ومصائبها؟
- صدق أو لا تصدق، أنا حالياً إنسي، لا أنكر أني كنت واحداً من الكونيين يوماً ما. لا تسألني كيف يحدث ذلك، فهذا أمر يصعب شرحه. ولكن سأعلمك سراً لا تعرفه، الكوني يستطيع الظهور في أي مكان أو زمان، ولكنه لا يستطيع الظهور أمام أكثر من إنسي واحد، وإن حدث ذلك فلا يكون لأكثر من دقائق معدودة، وأنت كما تراني أجلس في حديقتك وبين أهلك، أما فيما يتعلق بالكونية التي تزوجتها فأنصحك أن تنسى أمرها. أما مرح، فهي مشكلة كبيرة، يبدو أنك لا تعي حجم الورطة التي أنت فيها، فمن تختاره تلك الداهية لتعبث معه لا ينجو من شباكها بسهولة، ولكن ربما وجدنا طريقة إن فهمت السر وراء حاجتها إليك.
- ما الفرق بين عالم الكونيين وعالم الجن؟

- لا تشغل بالك بالمسميات، أنصحك أن تكون أسئلتك من الآن فصاعداً عن سبيل النجاة مما ورطت نفسك فيه. والآن تعال لنكتشف السر وراء حاجتها إليك؟
- السر واضح، إنها تحتاج مساعدتي للقبض عليك وإنقاذ أختها. لا شك في أنها ستنتقم مني لاحقاً وخاصة بعد ما حدث بيننا.
- مرح، ليست بحاجة إلى مساعدتك، هناك أمر أكبر تخطط له.
- أنت تتحدث عن مرح وكأنك تتحدث عن معجزة يستحيل هزيمتها أو الخلاص منها أو مواجهتها، والغريب أنها حينما تتحدث عنك تصورك على أنك كائن خارق، يمتلك قوة تفوق قوة الإنس والجن معاً. ما عدت قادراً على التمييز من منكما الصادق؟ لماذا يخشى أحدكما الآخر إلى هذه الدرجة؟ لا أستبعد تعاونكما لخداعي لغايةٍ لا يعلمها إلا الله.

ربت على كتفي وابتسم:

- عزيزي حسن، السيطرة عليك لا تحتاج إلى تخطيط من مرح، وأنا لم أقل إن مرح معجزة لا فكاك منها، فالخلاص منها ممكن ولكنه ليس سهلاً، بإمكاني مساعدتك إن رغبت في ذلك.
- لا شيء أريده في هذا الوجود أكثر من استعادة حبيبتي والخلاص من أختها.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة، فسألته:

- هل تشك في صدق مشاعري؟

- لقد وقعت في حب مرح يا حسن، أنت تحبها وتحاول أن تقنع نفسك بعكس ذلك.
- أنا أحب المغرورة مرح؟!! هذا مستحيل، أنت مخطئ، ربما أشتاق أحياناً إلى رؤيتها، ولكن السبب في ذلك أنها تذكّرني بأختها. أنا لا أحب مرح، ولا يمكن أن أحبها. صحيح أنني عبثت معها، ولا أنكر أنها استطاعت إغرائي بجسدها الفاتن، ولكن هذا لا يعني أنني أحببتها. أنا من البشر، والبشر خطاؤون ولو كنت من البشر لفهمت أنه يستحيل علي أن أحب مرح، أنت لا تعرف كم أحب غادة، فكيف أحب أختها؟
- عزيزي حسن، لماذا تشعر بأنك بحاجة إلى كل هذه التبريرات لتؤكد أنك لا تحبها، هذا ليس بالأمر المهم، على أي حال أنت في مأزق كبير، إن رغبت فسأعلمك كيف تنجو من مرح، لا أعدك أن ذلك سيكون أمراً سهلاً.
- لماذا تصور لي مرح على أنها شيء مخيف، ولماذا تخشاها؟
- أنا لا أخشاها، على العكس، أنا مستعد للقائها إن وافقت، مع أنني لا أظن أنها ستوافق. سأذهب الآن لنلتقي لاحقاً.

غادر نور وتركني في حيرة من أمري، أخذت أحدث نفسي، إنه من البشر ولا يشبه الجن في شيء ومع ذلك لم ينف أنه منهم، بل يتحدث عنهم كأنه أحدهم. حينما سألته عن غادة أكد أنه لا يعرفها، وأنها ربما تكون من

الجيل الجديد؟ هل هذا يعني أنه من الجيل القديم. ليكن من يكون، ما دام له عنوان فيمكنني الوصول إليه دون أن يختفي كلمح البصر.

أخذت أتساءل عن سر علاقته بمرح، أتذكرها وأضحك، شر البلية ما يضحك، ماذا ستفعل بي بعد أن أفشلت مخططها في القبض على الغريب، لا بد أنها ستنتقم مني شر انتقام. الأعمار بيد الله، والإنسان يموت مرة واحدة إلا الجبان، فإنه يموت ألف مرة في اليوم، تذكرت قول الشاعر "هل يدفع الدرع الحصين منية*** يوماً إذا حضرت لوقت مماتي"، فلتذهب مرح إلى الجحيم هي وعالم الجن معها.

مرت ثلاثة أسابيع وأنا أنتظر انتقامها، لم تظهر ونفد صبري، فقررت أن أذهب إلى نور لأساله عن سر اختفائها، ذهبت إلى متجره فلم أجده، قررت ألا أتحرك من مكاني حتى يعود، والله أعلم إن كان هو الآخر سيعود. انتصف الليل وأنا في انتظار عودته، حتى لمحته قادماً من بعيد، وحينما اقترب رحب بي، وسألني عما أريد، فقلت له:

- مرح لم تظهر، ولم أعد أحتمل الترقب والانتظار.
- ألم تعد قادراً على فراقها أم أنك تخشى عقابها؟
- أريد أن أعرف ماذا ينتظرني في الغد، هل ستعود لتقلب حياتي أم ستتركني؟
- أفهم شعورك، فما أصعب أن يعشق الإنسان شيئاً مجهولاً، وتتوقف حياته في انتظار قدومه، لقد اقتحمت يا ولدي عالماً لا بداية له ولا نهاية، عالم يشبه عالمك في كل شيء ولا يشبهه في شيء،

كما قال ابن عربي لابن رشد "نعم ولا، وبين (نعم) و(لا) تطير الأرواح من موادّها والأعناق من أجسادها"، يا مسكين، لن تجد طريق الدخول إليه سهلاً، ولن تجد طريق الخروج منه سهلاً، وستبقى تحيا بين عالمين، جسدك في عالم وعقلك في عالم، إن استطعت العودة إلى عالمك، ستبدأ من جديد في البحث عن العالم الآخر. أنت إنسي، وحياتك بين البشر، عد إلى واقعك، واترك كل شيء خلف ظهرك، وفي هذه النصيحة نجاتك.

- وكيف أنسى حبيبتي بعد كل هذا العذاب الذي ذقته، ما قيمة حياتي من دونها، أنا أعشقها، إنها روحي، وهل يحيا جسد دون روح؟
- حسن، عمّ تتحدث؟ عن مرح أم عن غادة؟ لا أريد منك جواباً. فقط أجب نفسك بصدق، وواجه الحقيقة.
- أنا أحب غادة، لا أنكر أنني أميل إلى مرح قليلاً، ولكن ربما كان ذلك لأنها تشبهها.

ابتسم هازئاً، ثم قال:

- لقد اخترت طريق اللانهاية، لن أستطيع إقناعك بالعدول عن هذا القرار، ولكن لو كنت مكانك لاخترت الابتعاد نهائياً والعودة إلى حياتي الطبيعية... لا مانع لدي أن أساعدك قدر المستطاع إن كنت تريد أن تساعد نفسك، وأن تقرر ما تريد، أما إن أردت أن

تبحث عن الحب والغرام، فلا وقت لدي لأساعدك، فهذه سخافات، وستجد هذه الأمور بين البشر أكثر مما ستجدها في هذا العالم.

قلت مستغرباً:

- ما الذي يمكن أن أبحث عنه في عالم الجن؟ كل ما أريده هو استعادة حبيبتي، لأعيش معها، لا أريد أكثر من هذا، لا أريد ذهباً ولا كنوزاً.
- يا بني، الذهب والكنوز صنعها البشر وعبدوها، مع أنه لا قيمة لها إلا في عالمكم، أما هذه التي تعشقها فاعتبرها حلماً جميلاً مر على حياتك. ابحث عن غادة الإنسية، وحتماً ستجد مثلها، وستجد الكثير من مرح لتكون دمية لها، اعتن بصحتك جيداً إلا إن كنت لم تلاحظ أنها تتدهور يوماً بعد يوم.
- صحتي بألف خير، ما تراه ليس سوى إرهاق بسيط. ولكن هل هناك في العالم الآخر الكثير من أمثال مرح؟
- أتريد واحدة أخرى كمرح؟ للأسف فحارسات أبواب الشر عددهن قليل.
- ماذا تقصد بحارسة أبواب الشر؟؟
- أترغب فعلاً أن تعرف ماذا أقصد بالحارسة وأبواب الشر، إن أخبرتك عن أبواب الشر فمعنى هذا أنك يجب أن ترافقني إليها وربما سأقتلك لاحقاً وعندها ستواجه مشكلتين، واحدة مع مرح

وسلطة الكاتو والثانية معي. فهل ما زلت ترغب في معرفة المزيد عن أبواب الشر؟

اعتقدت بأنه يمازحني فسألته ساخراً:

- وهل ستقتلني فوراً بعد أن تكشف لي عن سر أبواب الشر أم ستنتظر إلى ما بعد الأعياد؟
- سأتخلص منك بعد أن تساعدني على الدخول عبر إحداها، أما إن أردت أن تخوض هذه المغامرة فلا مانع لدي أن أكشف لك عن سرها لعلي أشجعك على مرافقتي بإرادتك، فهل تريد أن أواصل الحديث أم ترحل الآن وتترك كل شيء خلف ظهرك؟
- نعم أريد أن أعرف كل شيء.
- أبواب الشر هي أبواب اللانهاية، تخفي أسراراً عظيمة، من امتلكها يحصل على أي شيء وكل شيء، ولكن لا يمكن الدخول إليها إلا بمرافقة إنسي طوّاف بالغ يقوم بذلك بإرادته الحرة.

استفاض الغريب في الشرح، فراودني إحساس بأن هناك خطة يعد لها هو الآخر، لهذا يحتاجني.

- ماذا تقصد بكلمة الطوّاف؟ وهل بإمكاني إنقاذ غادة عبر هذه الأبواب.
- الطوّاف هو الشخص الذي يمكن لطيفه أن يبتعد عن جسده فترة طويلة دون أن يتوه، ويستطيع العودة إليه، أما الأبواب فبإمكان من يجتازها أن يستحوذ على القوة التي تخفيها فيفعل أي شيء.

- أنا موافق على مرافقتك، ولكن كيف سأعرف أنك صادق؟
- لأنه لا داعي للكذب، خاصة أن بوابة الشر لا تفتح إلا لمن يعبرها بإرادته الحرة.
- حتى اللحظة لم أفهم ما هي أبواب الشر.
- أبواب الشر ثلاث عشرة بوابة منتشرة في أنحاء الأرض، في البر والبحر، عبرها يتم العبور إلى ما يسمى مركز الشر، حيث حفظت فنون السحر القديم وعلومه، من يمتلكها يمتلك قوة لا مثيل لها، لهذا تم تشديد الحراسة على هذه البوابات، ووضع حارسة من الكونيات على كل باب بعد أن مرت بمختلف الاختبارات، وأثبتت أنها جديرة بالحصول على لقب حارسة أبواب الشر، ومنحت مختلف الصلاحيات لتفعل ما تشاء، ولكنها منعت أيضاً من عبور البوابات، الأمر المثير للسخرية أن من يتمكن من تجاوز الحارسة والمرور عبر بوابتها بإمكانه أن يجعل من الحارسة خادمةً له، ولك أن تتصور حجم الخوف الذي تعيشه كل حارسة خشية أن تتحول إلى عبدة بعد أن امتلكت هذا الكم الهائل من القوة والنفوذ.
- ولماذا أنت مضطر إلى التخلص مني بعد أن أساعدك على المرور عبر البوابة، خذ قوة الشر واترك لي الحارسة، أو ربما نتعاون معاً ونحصل على أكثر من واحدة!
- نعم، ولمَ لا نتقاسمهن، فهناك الكثير من الحارسات في انتظارك لتنتقي منهن الأجمل، كما أن هناك مئات الحارسات اللواتي

تقاعدن عبر آلاف السنين، بإمكانك تغليفهن وإهداؤهن لجيرانك، على كل حال، لا يمكن أن تجتمع حارستان لأبواب الشر في مكان واحد، فلكل واحدة مكانها المخصص ولا تجرؤ واحدة منهن على أن تتخطى حدودها، وإن فعلت، تكون نهايتها إلا إن انتهت خدمتها.

- هل استطاع إنسي الوصول إلى تلك الأماكن الأسطورية؟
- مئات الأشخاص عبروا البوابات، ولم يخرج منهم إلا عدد قليل جداً.
- هل يوجد منهم أحد حي؟
- لقد حدث هذا قبل آلاف السنين، لا بد أنهم ماتوا.
- هل القوة التي امتلكوها ماتت هي الأخرى، فقد سمعت أنها تورث من جيل إلى جيل، ولكنها غالباً ما تبقى ساكنة لعدم قدرة من ورثها على اكتشافها، فهل يعقل أن هناك في زمننا هذا من يمتلك مثل هذه القوة؟ ولماذا لم نسمع عنه؟
- هل تعتقد أنك ستسمع عنهم في نشرات الأخبار؟!
- لماذا أنت متأكد من أن تلك الأبواب تحوي كل هذه القوى الخارقة.
- هذه البوابات تحرس منذ آلاف السنين، ووجود الحارسات ليس عبثاً، علاوة على أن تاريخنا يتحدث عن حروبنا القديمة مع البشر، كما أن المئات من عالمي اختفوا ولم يظهروا مجدداً، وكنا

على يقين أن الحكماء نقلوهم بطريقة أو بأخرى إلى ما وراء البوابات.

كاد رأسي ينفجر فقد أرهقني التفكير في المجهول، وما عدت راغباً في معرفة المزيد، ولكن كان لا بد أن أسأله:

– ما السبب الحقيقي لحاجتك للخلاص مني بعد عبور البوابة؟

– من أجل الحصول على قوة الشر، لا توجد قواعد أو قوانين، البوابة لا تسمح بعبور أكثر من جسد بشري واحد، وكما ترى سأدخلها بجسد بشري، لهذا سأحرص على القضاء على جسدك قبل أن تفعل أنت ذلك.

أدخلني الغريب في حيرة كبيرة. لو كان كاذباً لما صارحني بنيته قتلي، وهنا سألته:

– لماذا انتظرت كل هذه المدة؟ هل يعقل أنك لم تجد من يرافقك غيري؟

– السبب بسيط يا عزيزي، لم أجد موقع بوابة الشر، ولغاية ما في رأس مرح أخذتك إلى البوابة التي تحرسها، وهكذا أصبحت تعرف موقعها، وبمساعدتك سأتخطى الحاجز الأول، وإن لم يهلك جسدك فسأجد طريقة ما للخلاص منك، وإن لم ترغب بمرافقتي فدلني عليها وسأجد من يرافقني.

– هل سعيت منذ بداية معرفتك بموقع البوابة إلى أن أكون جسراً تعبره وبعد ذلك تتخلص مني؟

- هذا صحيح، ولكن لديك الفرصة الآن لتفعل الشيء نفسه.
- لم أر في حياتي صريحاً ووقحاً مثلك، باستثناء مرح.
- سمّها صراحة، فلا حاجة إلى أن أكذب عليك، قوانين هذه اللعبة واضحة: لا يفوز فيها إلا واحد، فتعال نتفق حتى ندخل بوابة الشر معاً، لنتغلب على الصعاب التي ستواجهنا، باستثناء قطط الكاتو التي تحيط المكان.

لم يهضم عقلي ما قاله، أحسست أنه ليس أهلاً للثقة، ومع هذا أحببت الفكرة. أثار فضولي أيضاً خوفه من القطط السود. افترقنا بعد أن اتفقنا أن نلتقي بعد ثلاثة أيام لنكمل ما بدأناه.

في اليوم الثاني ارتسمت صورة مرح في خيالي، لا أخفي شوقي إليها، فتمنيت ظهورها ولو للحظة واحدة. خاب ظني في اليوم الأول، لكن في اليوم الثاني بدأ الدخان الكثيف يتصاعد في أرجاء غرفتي فبدأ قلبي يخفق بقوة في انتظار تلاشي الدخان وظهورها بأحد أثوابها الساحرة، وما هي إلا لحظات حتى اختفى الدخان دون أن تظهر، إلا أن إحساسي أكد لي أنها قريبة مني، مرت دقائق وأنا أنتظر ظهورها، لكن ذلك لم يحدث. فأخذت أنادي عليها لتظهر، ولكن لا حياة لمن تنادي. وحين فقدت الأمل في ظهورها فاجأتني بضحكتها المجنونة التي اشتقت إليها، ولم أخف فرحتي بسماع صوتها:

- أتريد أن تراني؟
- نعم، أريد بالتأكيد.

- قبل أن أظهر لك أيها العاشق، أخبرني صوت من الذي تسمعه، صوت مرح أم كادنتا؟

أي مأزق أنا فيه!! من التي تحدثني؟ إن كانت غادة فكيف سأجرؤ على النظر في عينيها بعد خيانتها مع أقرب الأشخاص إليها، أحبها وأعشقها فما الذي يجذبني إلى أختها. حسمت أمري وقلت:

- صوتك يا مرح.
- شاطر، شاطر يا حسن، والآن أخبرني كيف استطعت أن تميز بين صوتينا؟
- قد أجد صعوبة في التمييز بين صوتيكما، ولكني لن أعجز عن التمييز بين ملاك الحب والحنان وغيرها، فما كانت غادة لتتعامل معي بمثل هذا الغرور.
- معك حق، هي ملاك الحب، ومن شدة عشقك لها لهثت لتشتم رائحتها عبر جسدي، آه لو عرفت من تدعي أنها حبيبتك الطرق التي اتبعتها لتحافظ على عشقك لها، وكيف احتل جسدي مكانتها في قلبك وعقلك، كانت لتلعن نفسها ألف مرة على كل ثانية أحبتك فيها. والآن، حان وقت أن تواجه نفسك، وتكف عن الكذب والمكابرة، وتعترف بأنك تحب نفسك فقط مثلك مثل باقي البشر، عشقكم للجسد لا للروح، والآن أخبرني ما الذي أحببته في أختي، شعرها، جسدها المثير لشهواتك، عينيها، أم الطريقة التي تظهر وتختفي بها؟ هل هو الإحساس الذي منحتك إياه بتميزك عن بقية

البشر؟ لو كنت تعرف الحب لما تخليت عن التي أحبتك وضحت بكل شيء من أجلك فور أن شعرت بأن الأذى قد يلحق بك بسببها، ففي أول فرصة سنحت لك لتختار بين حبك لها وما سيجره عليك من أهوال اخترت أن تضحي بها بعد أن منحتها بعض الدموع، وحينما اشتقت للبحث عن الشيء الذي قد يميزك عن البشر اخترعت الأكاذيب واستمتعت بعذاب الحب وحلمت وتمنيت أن يظهر الكاتو ليطاردك لأن في هذا متعة لك، واللعب معهم أمر مسل. تحقق حلمك وظهرت من هي أجمل من حبيبتك شتمتك واحتقرتك وأهانتك، ومع هذا وقعت في حبها ونسيت حبيبتك، لماذا لا تعشق أختها وهي ينبوع من الجنس المثير ونظرة واحدة من عينيها كافية لتشعل براكين الشهوة الحيوانية في داخلك؟ لقد بلغت بك الوقاحة أن تتعاون مع الرجل الغريب، لا شيء يملكه ليغريك به، ولكن لعابك سال لمغامرة قد تأخذك لمقابلة المزيد من الحسناوات، ولم لا إن ملكت القوة، فلا شيء ستخسره، جسدك يتهاوى، وأنت تعلم أنك لن تعيش طويلاً، فلا تحاول أن تقنع نفسك بأنك تبحث عن القوة من أجل إنقاذ حبيبتك، لأنك لن تحصل عليها، ولن تنقذها. هل أخبرك الغريب أنه يستحيل على جسدين بشريين عبور البوابة معاً، وأن على أحدهما أن يتخلى عن جسده؟ هل تعلم أنه سيطلب منك أن تجمع عدداً من القطط السود بمواصفات معينة وتذبحها على بوابة الشر ليتمكن من عبور

الحاجز الأول؟ من المؤكد أنك لن تبالي بحياة بعض القطط حتى لو عرفت أن كل فرد من عالمنا تواصل مع البشر ارتبط بحياة أحد القطط وتشارك مصيرها، وهذا ما حدث مع حبيبتك أيضاً، فربما سيحالفك الحظ وتذبح القط الذي ارتبطت به لتذبحها معه.

لم أعلق على أي كلمة مما قالته، فقد أصابت كبد الحقيقة وجعلتني ولو للحظات أعيد مواجهة نفسي وأقيّم الأحداث التي مررت بها من جديد. ولكن حجم الإهانات التي ألحقتها بي كانت أكبر من قدرتي على الاحتمال ومواجهة الحقيقة، فكان لزاماً علّي أن أثأر لكرامتي:

– أيتها الجنية التي نصبت نفسها إلهاً يحتقر من حوله، إن كنت فعلاً بهذا السوء فلماذا تتوسلين إلي ألا أساعد الغريب في عبور بوابة الشر ولماذا تحطين من قدرك الرفيع بالحديث معي؟ سأذهب إلى بوابة الشر وأعبرها ولتذهبي أنت وكل الجن معك إلى الجحيم، وإن استطعتم أن تفعلوا شيئاً فافعلوه، فأنتم أضعف مما كنا نتصور ...أنتم مجرد مخلوقات لا نفع منها ولا ضرر.

– أمصرٌ على هذا يا حسن؟

– نعم أصر عليه.

اختفت من أمامي بسرعة فائقة، فأخذت أصرخ عليها:

– عودي، لا تختفي هكذا! يجب أن أنهي هذا الكابوس، يجب أن أنهي هذا الجنون، كفى، كفى، يجب أن أفيق!

توجهت إلى المطبخ وأخرجت من الثلاجة ثلاث زجاجات من الماء البارد، ثم أخذت أصبها على رأسي الواحدة تلو الأخرى كمجنون، أقصد كالعاقل الذي يسعى إلى أن يفيق من جنونه الذي استمر طويلاً، أنا إنسان، حان الوقت كي أعود إلى ماكنت عليه وأقرر ما هو الحلم وما هو الواقع، وأقطع كل علاقة لي بهذا الجنون. لا أريد شيئاً. أريد أن أرتاح فقط وأنسى كل شيء، ولكن هل سيتركونني في حالي بعد أن غرقت في أسرارهم؟ لقد حذروني من أن كل من عرف أسرارهم فمصيره الجنون أو الموت، وأنا الآن أقترب من حدود الجنون، ووسط دوامة الأفكار التي عصفت برأسي وكادت تفجره، قررت أن أجاريهم في ألعابهم وأرسم خططي الخاصة لامتلاك القوة وإنقاذ حبيبتي غادة حتى لو كلفني الأمر حياتي. سأبحث عن طريقي وأستغلهم قبل أن يستغلوني وسأجعل منهم جميعاً جسراً يوصلني إلى أهدافي!

في اليوم التالي ذهبت إلى الغريب، فاستقبلني وبادر بالحديث:

- أرى أن شيئاً ما قد تغير فيك يا حسن؟
- أشياء كثيرة، وليس شيئاً واحداً يا نور.
- إذاً، فقد اتخذت قرارك وسترافقني إلى بوابة الشر.
- سأرافقك إلى الجحيم إن توفرت فرصة لأتركك فيه.
- احلمْ أن تفعل ذلك.
- لن أحلم، بل سأفعل ذلك.
- ما هذه الثقة؟ هل هذا حسن الذي يقف أمامي أم شخص آخر؟!

- لا يهمني رأيك كثيراً، فهذا يعنيني أنا، أما إذا لم تستطع أنت بقدراتك الخارقة أن تعرف من أنا، فلا مانع لدي أن أساعدك.
- تطور ملحوظ، أنت تقلد أسلوب مرح ببراعة، آمل ألا تقلدها في أشياء أخرى.

أخذ نور يضحك بصوت مرتفع حتى كاد يفقدني أعصابي إلا أنني تمالكت نفسي وقلت بهدوء:

- ولم لا؟ فأنا على استعداد أن أقلد مرح وأقلدك أنت أيضاً إن شئت.

ضحك الغريب ثم قال:

- ولكن لمرح نزوات أشك في أنك تستطيع أن تقلدها.
- هل استطعت أنت أن تقلد نزواتها؟ لعلك استطعت، فأنت خارق ولا تعجز عن شيء؟
- شاطر يا حسن، شاطر، دعنا الآن من هذه السخافات، فقد حان وقت الاستعداد للذهاب إلى بوابة الشر، وأتمنى ألا تجد مرح طريقة لاستغلالك مجدداً ضدي.
- أنا لست في عجلة من أمري، ولكن حان وقت أن تتوقف عن إصدار الأوامر، وقبل كل شيء، هناك عدة أسئلة أحتاج إلى إجاباتها.
- لا يا عزيزي، أنت في عجلة من أمرك، كان يجب أن تنظر إلى المرأة جيداً لتعلم أنك لا تملك الوقت. صحتك تتدهور بسرعة ولا حاجة لإضاعة الوقت على أسئلة إجابتها ستخلق آلاف الأسئلة،

هناك أمور كثيرة يعجز العقل البشري عن استيعابها، والنقاش فيها مضيعة للوقت.

– أنا بصحة جيدة، ولن أستسلم لأوهام المرض الذي يحاول الكل زرعها في رأسي، ولن أتنازل حتى تجيبني عن أسئلتي، هل أنت فعلاً من الجن؟

أغمض عينيه وفتحها عدة مرات، وبعد صمت طويل رضخ لإصراري فقال:

– أنا من علماء الجن، وقد قضيت عمري في دراسة عالمكم وقوته المادية.

– هل هناك غيرك من يسعى للوصول أيضاً إلى بوابات الشر؟

– أغلب علمائنا لا يؤمنون بوجود أي شيء خلف تلك البوابات، وبالنسبة لهم فإن ما يشاع عنها ليس سوى اختراع الأسلاف؛ لبث الخوف في قلوب أبناء عالمي وتوحيدهم في وجه عدو وهميّ سيمتلك يوماً ما القوة للقضاء عليهم.

– ما هي حكايتك مع الجنية مرح؟ ولماذا تكرهك وتكرهها إلى هذا الحد؟

– هذا ليس سؤالاً إنه أكثر من ألف سؤال، حكايتي مع مرح وحدها تحتاج إلى أسابيع لأرويها لك، وأعدك أن أرويها لاحقاً. باختصار أنا لا أكرهها، ولا ألومها لأنها تكرهني، قد يأتي يوم تتغير فيه الظروف. الآن حان الوقت يا حسن لتقوم بدورك، خاصة أنه لم

يبق أمامنا سوى أيام قليلة، وإن انقضت فسنضطر إلى الانتظار شهراً آخر.

– وماذا يجب علي أن أفعل؟

– الموضوع سهل، فكل ما عليك عمله هو إحضار سبع قطط سود كسواد الليل الحالك من مناطق مختلفة بعد الغروب وقبل الفجر. ثم تضع كل قط على حدة، بحيث لا يرى أي قط القطط الأخرى، وحتى تتأكد من أن القط الذي تحضره هو المطلوب عليك أن تسلط ضوءاً خفيفاً على عينيه، فإن تغير لون عينيه فلا نفع منه، واحذر من أن تنظر في عيني أكثر من قط في اللحظة نفسها خشية أن تفقد صوابك. أما كيف تجد القطط، فهذا ليس صعباً، فهي موجودة بكثرة، ولا داعي أن أبرر لك حاجتنا إلى أن تذبحها، فأنت تعرف أنه يتوجب عليك ذبحها في الوقت المناسب.

أثار اشمئزازي من الفكرة فقلت له:

– للقطط أرواح مثلنا، كيف تريد أن أفعل ذلك؟

– لكل شيء ثمن، لقد أردت أن تدخل بوابة الشر بأي ثمن، حتى لو كلفك ذلك حياتك، فلا تأبه بحياة عدة قطط.

– نعم، أريد دخولها ولكن ليس على حساب غادة إن كان صحيحاً أن كل قط أسود يقتل، يقتل معه قرينه من الجن.

– لا تصدق كل ما تقوله مرح، أعلم أنها زارتك أمس، وأعلم أنها ستجد طريقة لقلبك ضدي، عليك أن تختار بنفسك أن تتبعني أو

أن تتبعها وهي التي تتلاعب بك وفق مزاجها، أما أنا فلم أكذب عليك في أي شيء، وحتى أحافظ على صدقي معك فإنني أريد أن تعرف أن ما أخبرتك به مرح حول المصير المشترك للقطط ومن وصل إلى عالمك صحيح، ولكن عليك أن تعرف أن لكل شيء ثمناً.

- ما أدراني فعلاً أن القط الذي سأذبحه لن يكون قرين زوجتي.
- لا أتصور أن تحدث مثل هذه المصادفة وإن حدثت فلكل شيء ثمنه.
- هل تريد أن أذبح حبيبتي بيدي؟ أنا ما وافقت على الذهاب معك إلى بوابة الشر إلا لأحررها من أسرها، إن كنت سأذبحها فما حاجتي للمخاطرة بدخول مثل هذه الأبواب؟!!
- لا أحد يا حسن يفكر بدخول بوابة الشر من أجل أحد، فلا تضيع وقتي بالكذب على نفسك وعلي، أنت تعلم أنك تخاطر بحياتك للوصول إلى بوابة الشر، فلا تكترث لحياة الآخرين، اتخذ قرارك بسرعة فلا وقت تملكه.

تركته وعدت إلى البيت، انطلقت بعد غروب الشمس أبحث عن القطط السود، كنت أظن أن ذلك لن يستغرق مني سوى ساعات قليلة، لكن الأمر كان عكس ما اعتقدت، مرت ساعات طويلة وأنا أبحث هنا وهناك، بدءاً من بيتنا حتى بيوت الجيران ثم إلى الأراضي المجاورة، حتى أدركت أن مهمة جمع القطط ليست بالسهولة التي تصورتها.

اقتربت خيوط الفجر الأولى من الظهور، دب اليأس في نفسي. عدت لأكرر المحاولة بعد غروب شمس اليوم الثاني، لكن سوء الحظ رافقني فلم أر سوى قطنا الأعور الذي لا يصلح لشيء، حتى إنه يعجز عن المواء كباقي القطط.

خطرت لي في اليوم الثالث فكرة جهنمية. جمعت أولاد الحارة وعرضت عليهم المال مقابل كل قط أسود يحضرونه لي. كنت فخوراً بهذه الفكرة العبقرية التي لا تخطر على بال الجن.

ما إن مرت ساعة واحدة فقط حتى انتشر الخبر في كل الحارة، والبلدة بأسرها، بدأ الأولاد يتوافدون على البيت فرادا وجماعات، منهم من يحمل قطاً ومنهم من يحمل قطين، ومنهم من خاض شجاراً مع صديقه مدعياً أنه هو الذي أمسك القط أولاً وأنه أحق بثمنه، ومنهم من جاء يسأل، هل تريد القط ذكراً أم أنثى؟

وقعت في مأزق كبير حينما أحضر الأولاد خلال ساعة أكثر من عشر قطط قبل غروب الشمس، وهذا يعني أنها ليست القطط المطلوبة، وحتى لو كانت فهي لا تصلح للغرض الذي أريده، ومع ذلك وجدت نفسي مضطراً إلى أن أدفع للأولاد ثمن القطط تجنباً للإحراج، الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد استمر توافد الأولاد والقطط حتى إن أحدهم جاء ليبيعني قطنا الأعور.

ما إن غربت الشمس حتى أصبح اسمي حسن أبو البساس (القطط)، لم تقلقني كنيتي الجديدة قدر خوفي من أمي وظنونها، وقد حدث ما توقعت،

فحين وصلتها الأخبار وبختني، حتى إنها اتهمتني بأني أبيع القطط للكفرة الذين يأكلونها.

حينما أدركت استحالة جمع القطط المطلوبة، عدت إلى نور فأرشدني إلى طريقة تمكنني من جمعها، وفعلاً نجحت في جمع العدد المطلوب في وقت قياسي.

تسللت قبل الفجر من غرفتي بحذر حتى لا أوقظ أحداً، وما إن استدرت لأغلق الباب حتى سمعت موسيقى هادئة رقص قلبي على أنغامها ولم أشك في أن لها علاقة بمرح، أخذت الأفكار تتسابق في رأسي حول الاستعراض الذي ستقوم به هذه المرة، إلا أن ظهورها كان أسرع حتى من أفكاري، سارت بخطوات واثقة كملكة تحكم الدنيا دون أن تأبه بمن حولها، كان شعرها الأسود الطويل الناعم المجنون يتطاير مع نسمات الهواء المتدفقة عبر النافذة، ويهبط على ثوبها الأسود القصير المشدود حول جسدها لتظهر من خلاله مفاتن جسدها الممشوق الذي تناسق مع لون شعرها وعينيها الشهوانيتين وشفتيها اللتين تتحديان قوانين الكون كلها، أنستني حقدي وغضبي عليها، وبخفة جلست على المقعد، رفعت ساقاً فوق الأخرى ثم قالت:

- ابعد عينيك عني حتى لا تلوث جسدي، فما قدمت لأعانقك يا حسن.

صفعتني كلماتها وأيقظتني من حلمي الجميل، وأعادت غضبي وكرهي لغرورها وعجرفتها، ويبدو أنها لاحظت مشاعري فقالت:

- لا فارق عندي إن أحببتني أو كرهتني، لن أسعى إلى أي منهما يوماً.

قزمتني بكل حرف نطقته فكان لزوماً علي أن أرد بقسوة:

- لم أكن لأرغب فيك لو لم تسعي أنت إلى ذلك باستعراض مفاتن جسدك، حتى ثوبك ما كنت لترتديه بهذه الطريقة إلا لأنك تريدين إغرائي، وما أنا إلا بشر ينجذب إلى الطعام حين يشعر بالجوع، وأحياناً لا يهمنا نوع الطعام حتى لو كان عسيراً على الهضم.

أخذت تعبث بخصلات شعرها دون أن تنظر إليّ ثم قالت:

- إن انتهيت من وصف الطعام وسخافات البشر فأعلمني حتى أخبرك عن الخطوط الحمر التي تجاوزتها.

استفز هدوؤها كل ذرة في كياني، فقلت:

- اسمعي يا حضرة الجنية مرح، لا يهمني أن أعرف خطوطك الحمر والخضر والزرق لأنني أشعر بالنعاس وبحاجة إلى النوم، عودي غداً فربما كنت أملك وقتاً لك.
- لن يكون هناك غد، فالغريب اكتشف خطتك الغبية أيها الأحمق ويجاريك فقط، وغداً سيتخلص منك، لو تعلمت كيفية إخفاء أفكارك بطريقة صحيحة ربما كان هناك أمل في نجاحها.

فاجأتني أنها اكتشفت خططي للقضاء على نور، على الرغم من أنني كنت حريصاً على إخفاء أفكاري كما علمتني غادة فقلت لها:

- لا أعتقد بأن نور اكتشف خطتي.

– وكيف تستطيع أن تعرف إن كان عرف خطتك أم لا؟ إنه يتفوق عليك في كل شيء، ولا أمل لك في الانتصار عليه، ولكنني سأمنحك فرصة واحدة وحيدة، لم أمنحها من قبل لبشري، إن قبلتها فقد نجوت، وإن لم تقبلها فقد هلكت.

– وما هي هذه الفرصة يا مرح؟

– ستتصرف كما أطلب منك وسنتولى نحن مشكلة الغريب، وسنسمح لك بالعودة إلى حياتك الطبيعية، وسننسى كل ما حدث في الماضي، ولن نتعرض لك بعد اليوم.

– كيف أصدقك وأصدق وعودكم أنتم معشر الجن؟

– لم ننكث بعهدنا يوماً، هكذا نحن وسنبقى كذلك إلى أبد الآبدين.

– وزوجتي غادة، هل سأراها مرة أخرى؟

رمقتني بنظرة بركانية ملتهبة ثم قالت بحزم:

– لقد قلت سننسى الماضي بكل ما فيه، هل فهمت؟

– عرضك جميل ومغر، لكنني لا أوافق عليه، أنا أؤمن أن الأعمار بيد الله وحده، وإن كان الله قد كتب أن أموت اليوم أو غداً فهذا قدري وسأوجه مصيري وأكتشف النهاية بنفسي.

– هل رفضك هذا من أجل عيني كادنتا؟ أم من أجل القوة التي تحلم أن تحصل عليها بعد دخولك بوابة الشر يا حسن؟

– من أجل حبيبتي سأفعل كل شيء وأي شيء، الموت لا يخيفني.

وبسخرية قالت:

- ومن أجلي، ألن تفعل شيئاً؟
- كلا يا مرح، فما أنت إلا جسد وإغراء، ولكن غادة شيء آخر، لا مجال لنزعه من قلبي، وإن استطعت أن تنزعي قلبي من مكانه فسأخرجها منه وسأسكنها روحي.
- لو كنت أومن بأنك صادق لحسدتها على هذا الحب، ولإرضاء غروري فقط سأقدم لك هذا العرض المجنون لمرة واحدة فقط ولديك دقيقة واحدة لتحسم أمرك، بصفتي حارسة أبواب الشر وبموجب صلاحياتي وباسمي، أعاهدك أنني سأحقق لك أحد هذين الطلبين فاختر أحدهما الآن، إما أن أعيد كادنتا إليك وإما أن أسمح لك بعبور بوابة الشر حتى لو أدى هذا إلى عزلي من منصبي وعقابي.
- لقد اخترت دخول بوابة الشر يا مرح، فأوفِ بوعدك.
- لك ذلك، فالتضحية ليست من صفات البشر وما كنت لأشك في أن هذا سيكون اختيارك.

باغتتها دمعة أحرجتها كثيراً وبإبهامها مسحت كل أثر لها وتركت عينيها الواسعتين تنطقان في صمت أن الدموع ليست ضعفاً. لم أكن لأخفي عليها ولا على نفسي أن تلك الدمعة قد تركت أثراً في زاوية ما من أعماقي وكأني لا أرغب في أن أرى هذه المخلوقة ضعيفة، بحثت لنفسي عن مبررات لأبرر قراري، وأطفئ النار التي أشعلتها دمعتها، فسألت نفسي هل هناك مجال للتراجع؟ وإن كان فهل سأتراجع؟ بدأت أحاور نفسي. ارتسمت ابتسامة صفراء على شفتي مرح، قطعت أفكاري وجذبتني إليها:

- لا ترهق نفسك، ربما أثر قرارك بي للحظة، فأنا أيضاً أصاب أحيانا بمرض المشاعر والأحاسيس. الحقيقة أنني لا أشفق على كادنتا التي خسرت حريتها لأنها أطاعت مشاعرها، ربما أرادت لحظات حب حقيقية وغريبة، ولكني لا ألومها إلا على اختيارها الخاطئ، فمن أنت حتى تستحق كل هذه التضحية؟ مسكينة، ماذا سيحدث لها لو عرفت يوماً ما فعله حبيبها بها؟

لم أجد ساتراً أحتمي به من كلماتها التي طعنتني بخنجر مسموم، تمنيت لو أن الحياة توقفت أو أن الأرض ابتلعتني خجلاً من قراري مع أنني في أعماقي أجد الصواب فيما اخترت، وبحركة سريعة خفضت مرح رأسها إلى الأمام ليسقط شعرها الطويل على وجهها ويخفيه، ثم رفعت يدها وأبعدته عن وجهها ببطء، لم يخف علي أنها تحاول أن تمسح دموعاً حبيسة في عينيها، على الرغم من أن نبرتها الحزينة كانت تحمل مع كل كلمة أو حرف دمعة أو أكثر تتسابق لتسقط من عينيها وبقوة غريبة كانت تحبسها، رمقتني بنظرة يصعب علي وصفها ثم قالت:

- ليس من حقي أن أغضب أو ألومك، فهذه طبيعة البشر، وما هي إلا ساعات وسيتحقق ما أردت، وبناء على معلوماتي فالوقت الذي اختاره الغريب لعبور البوابة سيكون غداً، وكما وعدتك سنقبض عليه، وسأسمح لك بدخول بوابة الشر.
- ولكن كيف ستفعلين ذلك؟

- سأتواصل معك وأختبئ في ظلالك لأقبض عليه في اللحظة المناسبة بعد عبوره الحاجز الأول، ولهذا ستسمح لنا أن نسيطر عليك دون أي مقاومة لأن هذه الطريقة الوحيدة لخداع الغريب.

انتابني الذعر من هذه الفكرة المجنونة ومخاطرها، كيف سأسمح لها أن تسيطر علي بهذه البساطة:

- هل بمقدورك السيطرة علي دون موافقتي؟
- نعم أستطيع، لو أردت ذلك، ولكن إن تم الأمر بموافقتك فلن تقاوم، وسيستحيل على الغريب اكتشاف اختبائي في ظلالك، وللأسف لا توجد طريقة أخرى لأعبر معكما وأقبض عليه.
- فعلاً أنت مجنونة إن كنت تظنين أني سأوافق على هذا الجنون وأذهب إلى حتفي بإرادتي وأعطيك الفرصة لتقتليني بسهولة أيتها المغرورة.

لم يسرها انفلات لساني بهذه الطريقة فأخذت تداعب شعرها لتخفي الغضب الذي اعتراها، ثم قالت بهدوء مشحون بالغضب:

- لقد عاهدتك بصفتي واسمي.
- أعتذر منك لأني نسيت أنك عاهدتني بصفتك واسمك، وكأن هذا سيمنعك من مواصلة الكذب علي، هيا انظري في عيني حتى تتأكدي أني لن أصدق أي كلمة يلفظها لسانك، وهذا العهد لا يساوي عندي شيئاً، خذيه وألقيه في القمامة.

لم أكمل نطق كلمة القمامة، حتى بدأ الشرر يتطاير من عينيها وأخذت تتحول من لون إلى آخر، وحينما رفعت يديها إلى الأعلى هبت ريح مجهولة سرعان ما تحولت إلى إعصار حرك كل شيء من حولي، تحطم زجاج النافذة وتناثر في كل الاتجاهات، أصابني الفزع، فالتصقت بالحائط وغطيت وجهي لأحميه مما حمله الإعصار.

بقيت مرح واقفةً وكأنها تسمرت في الأرض، لا شيء يحركها، مع أن كل شيء يتطاير من حولها دون أن يصيبها. وتذكرت أن مثل هذا حدث لي في السابق، ولم يكن إلا وهماً يخلقه الجن لإخافة البشر، فاستعدت شجاعتي لمعرفتي أن الجن لا يملكون قوة مادية ولا يستطيعون تحريك شيء، هي خدعة فقط، ومع ذلك شعرت بآلام في جسدي من جراء ارتطام القطع المتناثرة به، كيف يحدث ذلك إن كان وهماً، ربما هو مجرد شعور وهمي سيزول وسيعود كل شيء كما كان.

وقفت لمواجهة الوهم فحملني الإعصار وألقى بي إلى طرف الغرفة، صبرت وأخذت أراقب المجنونة حتى تنهي خدعتها، وهذا ما حدث، أخفضت يديها فتوقفت الريح وعاد شعرها الذي ارتفع هو الآخر إلى الأعلى ليهبط بفوضى على وجهها، أخذت ترتب شعرها وتسير في أنحاء غرفتي المنكوبة، وعلى حافة النافذة اتكأت وأدارت ظهرها.

أخذت أجول ببصري لعل كل شيء يعود إلى ما كان عليه، فخاب أملي حينما تبين أن ما حدث حقيقة، هذه الملعونة تحكمت بالمادة وحطمت كل شيء ولم تترك شيئاً على حاله:

- لقد تجاوزت حدودك يا حسن وتجرأت على التطاول على عهودنا، ولو كان الأمر بيدي لجعلت منك مثلاً لكل البشر. فعهودنا ورموزنا أسمى من أن يتطاول عليها أحد، يبدو أن تهاوني معك جعلك تظن نفسك شيئاً، أنت لست أكثر من جرذ استلقى على الأرض مرعوباً حين شعر بالخطر. اعلم أنك مهما علمت عن عالمنا فأنت لا تعلم شيئاً، ولو أردنا قتلك لكان ذلك أمراً مفروغاً منه، ولكن ما حماك ويحميك طوال هذه المدة هي عهودنا وقوانيننا التي نحترمها ولا نتجاوزها، فنحن لا نتدخل في شؤون البشر إلا بقدر تدخلهم في شؤوننا. في المرة القادمة التي سيجرؤ لسانك على إعادة ما تلفظت به سيكون هذا آخر ما تنطقه، هذا درس صغير لك، سأتركك الآن لألاقيك بعد قليل، حيث حجزت القطط فلا تتأخر.

اختفت مرح في رمشة عين وكأنها حلم وتلاشى. تركتني مشدوهاً وسط غرفتي المنكوبة، هذا التناقض الغريب حول ما عرفته عن عجزهم عن تحريك المادة وما شهدته يثير فزعي، لقد صدقت، لو أرادت قتلي لفعلت، ووجدت أنه لم يعد أمامي من خيار إلا الثقة بعهودها الغريبة، فتركت غرفتي كما هي، وفي الصباح سأواجه إعصار أمي حينما ترى هذا الخراب، توجهت إلى حيث القطط حبيسة في المخزن المجاور للبيت، وعلى الرغم من الظلام الدامس فإني كنت أرى بوضوح، وكأن نوراً خافتاً

انبعث من مكان مجهول، كانت مرح في انتظاري تجول بعينيها في أرجاء المخزن، طلبت أن أخرج القطط من الأقفاص، ترددتُ، فقالتْ.

– لا تخف لن تؤذيك، افعل ما طلبته منك.

فتحت الأقفاص، وأخذت القطط تخرج منها بهدوء وتجلس مصطفةً تحت قدمي مرح دون أن تأبه بوجودي. جثت مرح على ركبتيها وأخذت تداعب القطط بنعومة الواحدة تلو الأخرى وابتسامة عريضة ساحرة ترتسم على شفتيها، في هذه اللحظات المليئة بالمحبة والحنان والرقة، لم أر في هذه الجنية إلا ملاكاً. حركات القطط توحي بالمحبة والاحترام الذي تكنه لهذه المخلوقة الغريبة، مرت أكثر من ساعة وأنا أراقب هذا المنظر الساحر الغريب، الذي شكل بمشاهده المتلاحقة لوحة فنية تحتاج إلى أكثر من مجنون ليرسمها. وقفت مرح وأخذت القطط تعود إلى مكان حجزها السابق بنظام وخطوات واثقة، إلا قط واحد أخذ يحدق بي وكأنه يهم بالانقضاض علي، اقتربت مرح، وأمسكت بيدي وطلبت أن أجلس على الأرض مقابل القط ثم قالت:

– انظر في عينيه يا حسن، ولا تخف!

حدقت في عيني القط، فبدأت أرى عينيه تتحولان من لون إلى آخر.

– ركز يا حسن، الآن سأقوم بالتواصل معك والاختباء في ظلالك، وإن كنت لا تريد المواصلة فأغمض عينيك فقط دون خوف، واصلت التحديق في عيني القط، ثم بدأت أغرق في فراغ كبير. لم أعد أرى القط ولا عينيه، وما هي إلا لحظات حتى أدركت أني

أنظر في عيني شخص آخر، ليس قطاً. الغريب في الأمر أنني أشعر بأني أنظر في مرآة لا أرى فيها إلا عيني أنا. انتابني شعور غريب، فقد اختفى كل شيء من أمامي. أذكر أن قطاً كان يحدق بي ولكنه اختفى... أنظر إلى الخلف فلا أرى مرح، أسمع صوتها فقط:

– أنا معك الآن يا حسن، لن يكتشف الغريب خدعتنا هذه.

وعلى الرغم من أنني لم أفهم شيئاً مما يدور حولي فلم يكن هناك أمامي من خيار سوى الثقة بها. فقلت:

– لم يعد أمامي سوى الثقة بك يا مرح.

– ثق بنفسك أولاً، والآن اذهب للراحة، لا تخف، فسأرشدك إلى ما تقوم به حتى تنتهي المهمة.

– أمرك يا مرح، سأفعل، ولكن في الأقفاص ست قطط فقط، والمطلوب سبعة.

– أعلم ذلك جيداً، اذهب أنت، وسأطلب أن يحضر قط ليحل مكان الذي لم يعد إلى القفص.

****

نعتذر بشدة عن هذه المقاطعة

نصف مسودة أولية نُشرت على النت قبل سنوات دون إذن كاتبها، فوزي عبده. إن أعجبتكم الرواية وقررتم نصح أصدقائكم بها، فإننا نشكر لكم إن أوضحتم لهم أن ما نشر على آلاف المواقع لم يكن سوى نصف مسودة أولية

الرواية الأصل تحمل اسم كاتبها الحقيقي فوزي عبده



عدت إلى المنزل لأنام. لم أدر كيف مرت تلك الليلة، أشرقت الشمس دون أن أفعل شيئاً سوى محاولة فاشلة لترتيب غرفتي وإخفاء الدمار الذي حل بها. قبل الغروب جاء الغريب بناء على الموعد، وقال:

- اليوم سنتوجه إلى بوابة الشر، فهل أنت مستعد يا حسن؟
- أنا مستعد.

أعطاني قفصاً كبيراً وطلب أن أضع القطط فيه، ففعلت، ولم يكن حمل القفص وفي داخله القطط إلى صندوق سيارته بالأمر السهل. لفت انتباهي أنه أحضر سيارة غريبة نوعاً ما، وأظن أن الهدف منها هو حجب قوى القطط أو شيء من هذا القبيل. ركبت بجانبه وسرنا حتى اقتربنا من الجبل الذي أرشدته إليه. طلب أن أسبقه إلى الموقع سيراً وألا ألتفت إلى الخلف قبل وصولي، مشيراً إلى أنه سيحضر قفص القطط معه، سرت أكثر من ساعة، وحين وصلت التفت فلم أجد له أثراً، أين اختفى؟ ولماذا اختفى؟ لم أعرف، وإذا بصوت يناديني وكأنه آت من بعيد، فأيقنت أنه صوته.

- سر إلى الأمام عدة خطوات ثم قف يا حسن.

فعلت ما طلب، فسألني مجدداً دون أن أراه:

- أتعلم أين تقف الآن يا حسن!
- نعم، أنا أقف قرب بوابة الشر مع أنني لا أراها.
- هل أنت مستعد يا حسن؟
- نعم أنا مستعد.
- هل ترى القمر يا حسن؟ انظر إليه، ثم انظر إلى ظلك.

نظرت إلى القمر، ثم نظرت إلى الأرض فلم أر ظلي... لقدر رأيت ظلين لي.

- الآن عليك أن تسير بين الظلين عدة خطوات إلى أن ترى خمسة ظلال لك.

سرت عدة خطوات حتى رأيت على الأرض خمسة ظلال.

- رائع يا حسن، رائع، لقد سرت ثلاث عشرة خطوة، هذا ما كان مطلوباً أن تفعله دون أن أطلبه منك، كيف ستفسر لي ذلك يا حسن العبقري، ربما كانت صدفة، والآن استعد، إن كانت حساباتي صحيحة فسيظهر ظل القوس الأول، وسنمر عبره أنا وأنت فقط.
- ماذا تقصد بقولك أنا وأنت، هل هناك شخص آخر معنا؟
- لا تهتم بما أقوله يا حسن، المطلوب منك فقط أن تنظر أمامك وألا تتحرك من مكانك حتى لا تهتز الظلال، سيظهر أمامك قوس لعدة دقائق قبل أن يختفي، ومن تحته سنمر أنا وأنت فقط
- ولكن أين أنت؟ إنني لا أراك.
- أنا قريب منك يا حسن، سأظهر في الوقت المناسب.

وما إن أنهى كلامه حتى بدأت أعمدة الدخان تصعد من الأرض بكثافة كبيرة، وبعدة ألوان بل بمئات الألوان الممزوجة معاً، راحت تزداد كثافة أكثر فأكثر لترسم قوساً كبيراً ارتفع عشرات الأمتار. استمر الدخان في التصاعد ليرسم عدة أقواس أخرى، الواحد خلف الآخر، لتشكل لوحة تبهر

الأبصار. توقف الدخان عن التصاعد، لأرى أن الأقواس تحيط بي من كل جانب، وأني أصبحت وسطها. وعبر الألوان التي تحيط بي سمعته يضحك ويقول:

- الآن يا حسن، أنت وسط الأقواس، وكل ظل من ظلالك الخمسة يشير إلى قوس، وكل قوس خلفه عدة أقواس، وعلينا أن نتجاوزها جميعاً وعليك أن تقرر أي الظلال ستتبع.
- ولكن كيف سأعرف أي الظلال أتبع؟
- ببساطة، انظر إلى الظلال بسرعة، والظل الثابت غير المتحرك، هو الذي ستتبعه.
- لماذا أنت بعيد ولا أراك؟ لماذا لا تدخل معي؟
- لا أستطيع إلا بعد أن تمر أنت، لأن هذه الأقواس لا يمر منها سوى بشري، ولأن حراستها ما زالت مسؤولية مرح، الآن قرر بسرعة قبل أن تختفي الأقواس ويذهب تعبنا هباء.

نظرت إلى الأرض ثم أشرت إلى القوس الذي سأدخله، وما إن أشرت نحوه حتى بدأت الأقواس تتحرك من جديد، والدخان الذي رسمها يعود إلى باطن الأرض، باستثناء قوس واحد فقط بقي أمامي، وهو القوس الذي أشرت إليه، وحتى الظلال الخمسة التي رسمها على الأرض ضوء القمر اختفت هي الأخرى، ولم يبق إلا ظل واحد، وهو المتجه نحو القوس الذي لم يختف. سمعت نور يقول:

- عظيم يا حسن، لقد نجحت، عدة خطوات فقط وسنكون خارج نفوذ حارسة البوابة ولن تستطيع أن تلاحقنا، إن لم نتعاون معاً فلن نستطيع أن نجتازها وسنضيع داخلها مئات السنوات هذا إن لم نهلك.
- هيا إذاً، اظهر، لماذا تختفي؟ دعنا نمر منها بسرعة.
- هل اشتقت لرؤيتي أم أن كونتنيسا هي التي اشتاقت أكثر؟

لم أفهم من يقصد بكونتنيسا، وقبل أن أسأله قال:

- سأظهر يا حسن، ولكن قبل ذلك عليك أن تصغي إلى هذا الصوت وتقرر الخطوة القادمة؟

سمعت أمي تبكي ففقدت تركيزي وصرخت فيه، أيها الحقير، هل أفهم من هذه الخدعة أنك تهددني بأمي؟ فحمل لي رده تهديداً واضحاً:

- اطمئن، هي بخير، وعليك أن تختار بينها وبين صديقتك التي تختبئ في ظلالك، هل اعتقدتما أنني أحمق حتى تمر عليّ مثل هذه الخدعة، هيا اقطع الاتصال معها فوراً يا صديقي الوفي.

انتفض جسدي وشعرت بدوار رهيب وألم فظيع في رأسي ثم بدأ العرق يتصبب مني. أغمضت عيني فبدأ الألم يزول تدريجياً حتى زال كلياً. فتحت عيني فرأيت نور يقف أمامي وهو يبتسم ابتسامة المنتصر ثم قال:

- الآن سر إلى الأمام لندخل القوس، لا داعي إلى أن تنظر إلى الخلف.

سرت عدة خطوات حتى أصبحت داخل القوس، وأنا أشعر بأنه يسير خلفي، وما إن دخلت القوس حتى اختفى ولم أعد أراه. نظرت حولي فلم أر إلا فضاء، وكأني بهذه الخطوات القليلة وصلت أحد الكواكب، فأمامي فضاء ومن حولي فضاء لا متناه، لا أدري إن كان حقيقة أم خيالاً، توقفت، فلم أكن أعلم أين أذهب، أو ماذا أفعل، حتى قال:

- سر خمس خطوات إلى الأمام، وخمساً إلى اليمين، وخمساً إلى الخلف، ثم توقف.

ففعلت، وحين انتهيت، ظهر أمامي قوس آخر أصغر حجماً من سابقه. أمرني نور أن أدخله، ففعلت ووجدت نفسي في المكان الذي دخلت فيه في المرة الأولى، تحيط بي الجبال نفسها، وكأني لم أدخل القوس أبداً، إلا أن المنظر يدل على أني موجود في المكان نفسه ولكن قبل سنوات طويلة، كان ذلك واضحاً من اختفاء الكثير من المباني التي كنت أراها على مدى نظري، وإذ بصوته يحثني على السير:

- سر خمس خطوات يساراً وخمس خطوات إلى الأمام.

ففعلت، وظهر أمامي قوس آخر بشكل مختلف، طلب أن أدخله، ففعلت، لم أعد أشعر بجسدي، طلب أن أسير ثلاث عشرة خطوة إلى الأمام ثم أن أتوقف، ففعلت. ظهر أمامي قوس آخر بشكل مختلف، فدخلته ووجدت نفسي في ساحة واسعة تحيط بها عشرات الأعمدة، ومن بعيد كنت أرى خمسة أقواس ومن خلفها بوابة ضخمة، أما الساحة، فهي مرصوفة بحجر

لونه أسود، والأعمدة تقدر بالمئات، لكل واحد منها لون مختلف عن الآخر، قال نور:

- ها قد وصلنا يا حسن، ما علينا إلا اجتياز هذا الممر لنصل إلى الأقواس الخمسة، واحد منها سيوصلنا إلى البوابة، والآن يا حسن جاء دورك لتساعدني على عبور الممر، لأن هذا البلاط مخصص للبشر، وإن تجاوزناه نكون قد خرجنا من نفوذ حارسة البوابة وأعوانها، سنتركها خلفنا تموت في غيظها بعد أن سهلت عليّ عبور منطقة نفوذها، وليت بإمكاني أن أهمس في أذنها أني قد حللت خطواتها منذ لحظة إرسالك إلي، وأني جاريتكما حتى اللحظة الأخيرة، وتركتها تعتقد أنها خدعتني، وهي لا تعلم أنه استحال عليّ تجاوز حراستها يوماً، لكن الغرور أعماها ودفعها إلى الاختباء في ظلالك فقط للاستمتاع بأن تتركني أدخل وفي اللحظة الأخيرة تقبض علي.
- وإن لم أساعدك ماذا سيحدث هل ستقبض عليك مرح؟
- للأسف أمنيتك لن تتحقق، لقد تمكنت من استغلال غرورها وغبائك لأصل إلى هذه المرحلة، فحتى الحارسة لا تستطيع الوصول إلى هذا المكان وحدها، خطتها كانت أن ترافقنا ولو لم أتوقع خطتها لكانت الآن تطربنا بضحكاتها. سأبوح لك بسر صغير لو لم تمنعها من الاتصال بك لكانت قبضت عليّ بسهولة، والآن عليها أن تعيش الألم برهانها على من تخلى عن أختها وعنها، لم يعد أمامك

أي خيار يا صديقي إما أن نتقدم وإما نبقى عالقين هنا إلى الأبد يحدق كل منا في وجه الآخر.

- ولماذا أساعدك، سأدخله وحدي؟
- بإمكانك أن تفعل ذلك بسهولة ولكن ستواجه مشكلة في معرفة أي الأقواس الخمسة ستعبر من خلاله، وإن تمكنت من ذلك بالصدفة، فلن تستطيع فتح البوابة دون مساعدتي، لقد أمضيت مئات السنين في البحث والدراسة لأصل إلى هذا المكان، ولا أعتقد أن أحداً في عالمي قد طمح إلى أن يصل إلى هذه المرحلة، نحن مرتبطان معاً حتى ندخل البوابة.
- لماذا تعتقدون جميعاً أنني بهذا الغباء؟ أليس من المنطق أن أبقي عالقاً معك هنا على أن أساعدك، وأنا أعلم مسبقاً أن أحدنا يجب أن يتنازل عن جسده، كيف سيحدث ذلك إن لم تقتلني؟
- لأنك لست بهذا الغباء ستختار أن تساعدني لعبور الممر الأول، وربما حالفك الحظ ورافقتني بطيفك، وهذا خير لك من أن تبقى عالقاً معي في هذا المكان البارد للأبد.
- سأستمتع بصحبتك قدر الإمكان يا غريب وان شعرت بالملل سأساعدك على عبور البوابة، تعال لنختبر كيف سيمر العام الأول.

أحسست أنه متضايق فسرني ذلك كثيراً، فلأول مرة منذ خوضي هذا الغمار، أشعر بأني صاحب القرار، وما كنت لأفوت فرصة الاستمتاع

بذلك، ولكنه سرق حتى هذه اللحظة، حينما أخبرني أننا لا نملك من الوقت الكثير لنستمتع، خاصة أن القطط محجوزة في قفص واحد ولن تعيش طويلاً ما دامت محجوزة، وإن نفق أحدها فجأة فستنفق بقية القطط وعندها سنبقى عالقين وسيختفي وقتها شعورك بالسيطرة، ولن يسرك ذلك يا حسن.
ما قاله الغريب أفزعني، فما كنت لأهاب الموت، لكن فكرة أن أبقي عالقاً في هذا المكان أثارت الرعب في قلبي، فسألته عما يجب أن أفعله لنمر بسرعة، فدفع بقدمه قفص القطط نحوي على الرغم من أنه كان حريصاً على ألا أقترب منه طوال الوقت، ثم ألقى نحوي خنجراً نقشت عليه حروف غريبة، وطلب أن أذبح قطاً وأترك دماءه تسيل على أرضية الممر ليتسنى له العبور بأمان، وحين اقتربت حرص أن يضع قدمه فوق القفص حتى لا يسمح لي بإخراج أكثر من قط في الوقت نفسه.
ارتجفت وتساءلت كيف سأقوى على ذبحها وبأيها أبدأ؟ وهل ستجتمع الصدف لأمسك بقرين غادة وأذبحه، التفكير بارتكاب مثل هذه الجريمة سهل ولكن تنفيذها أمر آخر، اللعنة عليك يا مرح الغبية، لقد وثقت بك وبذكائك، وهأنا في ورطة لا أحسد عليها.
أخذ الغريب يشجعني ويحثني على الإسراع حتى لا نعلق هنا إلى الأبد، لم أشعر إلا ويدي تمتد بسرعة إلى القفص، أمسكت قطاً دون أن يقاومني، ذبحته دون تردد فسالت دماؤه على أرضية الممر، لتمتلئ يدي وثيابي والأرض باللون الأحمر... مشهد الدماء أفقدني السيطرة على نفسي، كررت

العملية مرة ثانية فتناثرت الدماء وغطت أغلب الممر، أخرجت قطاً آخر وقبل أن أحز عنقه، سمعته يهمس:

– اتركه، وأغمض عينيك بسرعة يا حسن.

ارتجفت وسقط القط من يدي، ظهر دخان كثيف ووسطه ظهرت مرح، خرجت بقية القطط وأحاطت بنور الذي تسمر مكانه مرعوباً... نشوة الانتصار كانت أكبر من عيني مرح، أما الغريب فقد غرق في الذهول، صمت... وصمت... توقفت الحياة، في انتظار أن تطلق مرح ضحكة النصر، لكن الغريب هو من أطلق ضحكة هستيرية كسرت الصمت حين قال:

– أيتها المجنونة، لقد هزمتني بجنونك! أي عقل سيتوقع أني سأحملك لتقبضي علي.

أخذت مرح تنظر بشموخ وكبرياء وقوة وغرور فيما أنا غارق في دماء القطط، لا أجد تفسيراً لما يدور حولي، تلاشت نوبة ضحكه الهستيرية وأخذ يخاطب مرح قائلاً:

– كونتتيسا حبيبتي المجنونة، أي جنون وصلت إليه؟

– ما زلت تذكر اسمي يا أستاذ قومار؟

– أنت كونتتيسا حتى لو استبدلت اسمك ألف مرة. عشرات السنين وأنا أتابع أخبارك ولكنني لم أتصور أنك بهذا الجنون.

– وأنا أيضا لم أتصور أنك بهذا الغباء.

- لا تلوميني يا صغيرتي، فما كان ليخطر ببالي أنك ستقامرين بحياتك وتأسري نفسك في قفص، ألم تعلمي أن نسبة نجاتك من الموت كانت معدومة؟ هل بلغ بك الجنون لترهني حياتك بيد هذا الإنسي ليذبحك، أخبريني أي منطق اتبعت لدراسة هذه الاحتماليات؟

نظرات الشماتة أطلت من عينيها ثم قالت:

- إرضاء لغروري فقط سأمنحك عدة دقائق بها ستكون بدايتي ونهايتك، لقد علمتني المنطق يا أستاذي، وهأنا أعلمك اللامنطق، لقد علمت تلميذتك أن نتوقع غير المتوقع، وهأنا صرت غير المتوقع لأمسح غرورك بحذائي.
- حبيبتي كونتتيسا، لم أنس يوماً الأعوام التي قضيناها معا. كان يجب أن تكوني زوجتي.

يبدو أن كلمات نور أخذتها إلى ماض بعيد، فاشتد غضبها:

- لم أنس لحظة كيف هجرتني وتركتني وحيدة... وحكمت علي أن أنزع قلبي من بين ضلوعي، لقد رجوتك ألا تتركني، بكيت من أجل أن تبقى معي، ولكنك لم ترحمني ولم تشفق علي، تخليت عن كل شيء من أجل دراسة البشر، وأنا خسرت حياتي كلها للانتقام منك، وها قد حققت ما أريد... أنت لا شيء... ولم تحصل على شيء، ومصيرك فقط سيكون العذاب إلى الأبد .
- هل توقفت عن حبي يا كونتتيسا؟

- لم أكن أحبك فقط، كنت أعبدك، ولك أن تفخر، نعم، كنت أحبك، كنت أعشقك، كنت كل شيء في حياتي، كنت أستاذي، علمتني كيف أضحك وكيف أبكي، علمتني كيف نخلص لعالمنا وقواعده ونحترم قوانينه وألا نتجاوزها، لكنك يا أستاذي أول من تجاوزها وتمرد عليها من أجل القوة.
- حبيبتي، أنا لم أتخل عنك أبداً، نعم، تجاوزت القوانين، نعم تمردت عليها ولكن من أجل من؟ أليس من أجلك؟ أنا لم أفعل شيئاً من أجل نفسي، بل من أجلكم جميعاً.
- أنت لم تعد منا، ولا يحق لك أن تناديني باسمي، وتذكر أن كونتتيسا الصغيرة التي عرفتها في الماضي هي اليوم (حارسة أبواب الشر) التي أوقعت بك، أيها الأستاذ، عفواً. العالم الكبير قومار.
- صغيرتي، أعلم في أي المراكز أنت، وأعلم القوة والنفوذ اللذين تملكينهما، ولا يدهشني كيف وصلت بهذه السرعة لتصبحي (حارسة أبواب الشر)، ولكن بغرورك وكبريائك وجنونك هل سترضين أن تصبحي (خادمة للبشر).
- أنا لست خادمة لأحد ولن أكون يوماً.
- لا تكذبي، أنت تعرفين أكثر من غيرك أن هذه البوابة سيدخلها إنسي، إن لم يكن اليوم فربما غداً، أو بعد عام، أو بعد ألف عام، أنت تعرفين ذلك جيداً، وإن حصل على علوم السحر. حينها

ستكونين مجرد خادمة تلبي رغباته وطلباته، لماذا نذهب بعيداً؟ ... انظري إلى هذا الغبي الملطخ بالدماء، فلو لم يسعفك الحظ لكانت هذه دماؤك، حبيبتي. القرار الآن بيدك والنظام الذي يحكم عالمنا مليء بالثغرات التي ستحولنا إلى عبيد للبشر، لقد علمتك عن الحياة، وعن عالمنا وعالم البشر، لقد أحببتك، وطلبت منك أن نرتبط، ولكنك لم توافقي وقتها، ولم تفكري إلا في نفسك، أتتذكرين؟

– لم أنس، وما كنت لأنسى أنني كنت أسعد من في الوجود حين عرضت علي الارتباط، وكان طلبي الوحيد أن تصبر وتمنحني الفرصة لأثبت أني أليق بك، كنت حينها مجرد تلميذة صغيرة وأنت كنت ذا شأن ومكانة. كنت رائعاً حينما وافقت على أن تؤجل ارتباطنا إلى ما بعد التخرج، كنت لي القوة والأمل والثقة التي جعلتني أصمد وأتحمل كل الصعاب لتفتخر بي وتعلم أني أستحقك، ولكنك تخليت عني وعن كل شيء جميل واختفيت حتى دون وداع. لقد تركتني وأنا في أمس الحاجة إليك، سنوات طويلة مرت وأنا أبكي وأنتظر عودتك، لا أعلم إلى أين ذهبت، ولكنني كنت متأكدة أنك ستعود إلي وتحتضنني وتمسح دموعي، كم شعرت بأنني ساذجة حينما علمت أنك تمردت على كل شيء من أجل نفسك، حبي لك جعلني أكون شيئاً تفخر به، وكرهي لك جعلني أريد أن أكون كل شيء لأقضي عليك، لقد ظن مجلس

الكاتو بكامل أعضائه أن القبض عليك ضرب من المستحيل، ولأنك لم تؤمن بأن هناك من هو أذكى منك، فقد هُزمت، لقد سيرت الأمور كما ترغب، ولكنك لم تكن تعلم أني أنا التي كنت أسعى إلى أن تصل إلى هذه المرحلة، لقد ظننت أنني أقامر بأنك لن تكتشف أن حسن مسير، وأننا سندخل من خلاله للقبض عليك، ولم تشك للحظة أنك من ستحملني، وأني سأقامر بحياتي وأرهن نهايتها بحركة واحدة من يد هذا المجنون، لقد أعددت هذه الخطة وأنا أعلم، حتى القطط التي قتلت تعلم أن أملها في الحياة ضئيل جداً ويتوقف على مزاج حسن وبأي القطط سيبدأ، فلو أسعفك الحظ لاختار القط الذي يمثلني وهكذا كنت خسرت كل شيء وانتهيتُ وانتصرتَ، وها أنت تسقط تحت قدمي. والآن أقولها بكل فخر واعتزاز باسمي أنا كونتنيسا حارسة أبواب الشر ممثلة سلطة الكاتو...

قاطعها نور صارخاً، مهلاً يا حبيبتي، فردت عليه:

- خاطبني بلقبي واسمي يا قومار.
- حبيبتي، اسمعيني للحظة.
- خاطبني باسمي ولقبي يا قومار.
- سيدتي الحارسة، امنحيني لحظة قبل أن تصدري أمرك باعتقالي وإعادتي إلى عالمنا لأواجه مصيري.

ملامح مرح تغيرت وبدا عليها التعاطف والتأثر فقالت:

- هل تعتقد أن قلبي سيطاوعني أن أرسل حبيبي إلى قبة النور، اللعنة عليك لو عرفت كم أحببتك لما قلت ذلك، لقد قامرت بحياتي من أجل أن أحظى بلحظة أكون فيها بين أحضانك وأبكي على صدرك وأشعر بأناملك تمر على شعري وأنت تهمس أنا فخور بك يا حبيبتي.

اقتربت منه والدموع تملأ عينيها وعانقته بحرارة فأخذ يداعب شعرها ويهمس في أذنها. لقد انقلبت هذه الشريرة في أحضانه طفلةً صغيرةً، دقائق من البكاء والعناق والقبل وانسحبت إلى الخلف تمسح دموعها، وقفت تنظر إليه بعينين تشعان بالحب ثم قالت:

- لقد حققت حلمي يا حبيبي، والآن سأنهي حياتك وأرسلك إلى الجحيم.

لم يتفاجأ ولم يشك فيما قالت وكأنه يعرف أنها لن تتردد وستفعلها ولكنه صرخ:

- ماذا ستستفيدين يا كونتنيسا؟ القوانين لا تسمح لك بذلك، ومن حقي أن أحاكم، ولا يوجد قانون يسمح بإصدار حكم الموت في عالمنا.
- أنا كونتنيسا أقرر ما أشاء وأفعل ما أشاء وسأستمتع باستدعاء العقرب لينهي حياتك ويحولك إلى غبار ويترك لي ذكرى عناقك الأخير.
- لكن هذا مخالف لكل القوانين التي تمثلينها.

- القوانين التي تتحدث عنها لا تراعي مزاجي في هذه الموقف، لهذا سأستمتع بتمزيقك إرباً وتحويلك إلى غبار.
- وأين الحب في هذا يا كونتتيسا؟
- سأحتفظ بالحب، ولن أنساك، وسأخلد ذكراك بعد أن أحولك إلى غبار.

استسلم الغريب للأمر الواقع وأيقن أنه سيتحول إلى غبار، فضحك بأعلى صوته ليسرق ابتسامة النصر من مرح ثم قال:

- أنا على استعداد للموت، إن كنت أنت قاتلتي، فيكفيني أن تلميذتي هي من ستفعلها، أن أموت بأمر منك خير من أن أعيش اليوم الذي أرى فيه أبناء عالمي خدماً للبشر، وسيأتي يوم تعلمين فيه ويعلم الجميع أنني قد ضحيت من أجلكم.

قاطعته مرح قائلة:

- سأخبرهم بذلك، انتهى وقتك، وقد تحدثت بما فيه الكفاية!
- اسمعي يا كونتتيسا.
- لقد قلت لك انتهى وقتك، ولا أريد سماع أي شيء، باسمي أنا كونتتيسا حارسة بوابة الشر السادسة وبموجب الصلاحيات الموكلة إلي آمر بحضور العقرب إلى هذا المكان.

خيمت دقائق من الصمت الرهيب بعد صدور أمر مرح، وخلالها تسمر قومار في مكانه من شدة الخوف دون أن ينطق بكلمة واحدة، فيما طوقته القطط وهي تحدق به وتشله عن الحركة، وفجأةً خرجت عشرة أعمدة من

الدخان الأصفر من باطن الأرض وتجسدت سبعة منها على هيئة رجال ونساء يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أمتار ولكل منها رأس عقرب أصفر وذنبه، اصطفت الأصنام الصفر السبعة وتوقفت عن الحركة، فيما أخذت أعمدة الدخان الثلاثة تدور حولها كزوبعة، ضمت مرح أصابع كفها اليسرى باستثناء الخنصر والإبهام وأشارت باتجاه الأصنام المصطفة ثم قالت:

- باسمي أنا كونتتيسا وبموجب الصلاحيات الموكلة إلي، آمر العقرب بإبادة هذا المتمرد، وإبادة الجسد البشري الذي يسكنه، لصعوبة فصله عنه. الأمر نفد... نفد... أبيدوه، أبيدوه.

وكلمح البصر ابتعدت أعمدة الدخان الثلاثة ودبت الحياة في الأصنام السبعة، وأحاطت بقومار من كل جانب فأخذ يصرخ:

- أيتها الساقطة، أيتها الحقيرة، اعلمي أيتها الملعونة أني إن انتهيت فسيولد ألف ألف قومار، وسننتصر. وأنت يا إنسي، اعلم أنه يستحيل على جسدك المادي الخروج من هذا المكان يوماً.

أخذ صوت قومار يتلاشى وما زال السبعة الصفر يدورون حوله وكأنهم يطحنونه، لم أعد أرى إلا الغبار ولا أسمع إلا الصراخ الدال على ألم لا مثيل له، حتى القطط اقشعر بدنها مما رأت. فأدركت أنني سأكون التالي، وعلمت أن دوري قد حان.

لا أدري كيف اختفى قومار وأين، وما هي الطريقة التي قتل بها؟ أنزلت مرح يدها من جديد، وعادت الأصنام السبعة لتصطف من جديد دون

حراك. اقتربت مرح من القطط وجلست على الأرض، والتفت القطط حولها، أخذت تداعبها وتتحدث معها كأم حنون تلاطف أطفالها:

– شكراً لكم، لقد نجحنا، وهذا بفضل موافقتكم على التضحية من أجل عالمنا، والآن حان الوقت لأترككم ترحلون في سلام.

قبلت القطط وحضنتها فابتعدت عنها عدة خطوات ورفعت يدها اليسرى ثم قالت:

– باسمي أنا كونتنيسا حارسة بوابة الشر السادسة، وبموجب الصلاحيات الموكلة إلي آمر بإبادة المراقبين فوراً، الأمر نفد... الأمر نفد، أبيدوهم، أبيدوهم.

وما هي إلا لحظات حتى دبت الحياة في الأصنام السبعة الصفر والتفت نحو القطط كعاصفة، ومع خبو صراخها كانت حياتها قد انتهت، تساءلت في سري عن سبب إبادتها وأيقنت أن دوري هو الآتي، ولم أشعر بالراحة إلا بعد أن رفعت مرح يدها وأمرت الأصنام السبعة بالانصراف، لتظهر فوراً أعمدة الدخان الثلاثة وتلتف حولها لتتحول إلى دخان قبل أن تختفي. ساد الصمت فلم يبق فيه إلا أنا وهي، بقيت متسمراً مكاني مذهولاً مما رأيت، أنظر تارة إلى مرح التي تقف بزهو وكبرياء، وتارة إلى الساحة والأعمدة والأقواس العجيبة، أفكر بما حدث، وأتساءل عن الخطوة القادمة؟ وماذا يدور الآن في رأس هذه المخلوقة التي يستحيل التنبؤ بتصرفاتها، وعلى الرغم من أني عاجز عن قراءة أفكارها فإني كنت متأكداً أنها بحاجة إلي في أمر ما ولهذا أبقت على حياتي، فما شهدته من أحداث في الساعة

الأخيرة طرد كل أثر للخوف في داخلي وزاد من شجاعتي، قررت أن أتمثل قول الشاعر "وَإِذا لم يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدٌّ *** فَمِنَ العَجْزِ أنْ تكُونَ جَبَانَا"، وكعادتها قرأت أفكاري دون استئذان، فعلت وجهها ابتسامة النصر ثم قالت:

- لو أردت قتلك لفعلت ذلك بسهولة، ولكنك تعاونت معي، وأنا عاهدتك ألا أؤذيك، وهأنا أصون عهدي.

قلت ساخراً:

- وعن أي عهد تتحدثين أنت؟ لقد كذبت وخدعت وخنت وإن كان لديك مبرر لقتل الغريب بعد أن قمت بمعانقته وتقبيله فليس لديك مبرر لقتل القطط المسكينة؟
- قومار حبيبي الأول والأخير، فكيف سأرضى على نفسي أن أكون السبب في سجنه، لو فعلت كنت سأشتاق إلى رؤيته، لهذا قررت أن أحوله إلى ذكرى، وبما أني من قامرت بحياتها للقبض عليه فأنا أشعر بأني أستحق أن أنهي حياته، وأيضا أنا أملك العقرب وصلاحية الإبادة فلماذا لا أستمتع باستخدام هذه الصلاحية؟ أما القطط فكان موتها رحمة لها، فما كنت لأتركها عالقة في هذا الفراغ إلى الأبد بعد أن أصبح من المستحيل أن تتقدم إلى الأمام أو تعود إلى الخلف ولو كنت مكانها لشكرت من ينهي حياتي بدل أن يتركني عالقة بين عالمين أتعذب كل يوم، وما حدث اليوم لا

يعرفه أحد إلا أنا وأنت، وقد أصبح من الماضي وانتهى، لا أريد أن أذكره أو يذكره أحد.

- ولكن العقارب تذكره أيضاً.
- إنها مجرد قوة إبادة لا تملك أي حياة ولا علاقة لها بشيء، إنها أصنام متحركة تبيد بلا رحمة أو تفكير، وصلاحية تحريكها هي ملكي حالياً، ولم أكسب هذا الحق إلا بعد أن أثبتُّ أني جديرة به، وبصراحة لن أفوت فرصة لاستخدامها وربما سيخطر ببالي أن أجربها عليك.
- مرح، أنت وقحة بطريقة غريبة.
- أنت لا شيء ويكفيك شرفاً أني أتحدث إليك.
- ويل لعالم أنت منه يا مرح.
- ويل لك أنت يا حسن، إن غضبت.
- ماذا بوسعك أن تفعلي؟ لن تستطيعي قتلي يا مرح، أنا وأنت نعرف ذلك جيداً.
- لو أردت قتلك لفعلت ذلك ولكني أصون عهدي.
- لو كانت المسألة متعلقة بالعهود لكنت ميتاً منذ زمن، ولكنك بحاجة إليّ في أمر ما، وبعد تحقيقه ستستمتعين بتحويلي أيضاً إلى غبار، أليس كذلك يا مرح؟
- هذا صحيح، والآن بما أنك عرفت السر الحقيقي وراء صبري عليك طوال هذه المدة فبإمكانك أن تسترخي قليلاً.

- ما حاجتك إلي؟
- لو علم حبيبي قومار بهدفي الحقيقي من وراء كل ما قمت به لمات من الغيظ، هل بإمكانك أن تخمن أيها الإنسي الذكي؟
- أيتها الداهية اللعينة، أنت تسعين بنفسك إلى امتلاك ما تخفيه الأبواب. والله، لقد شعرت بذلك منذ البداية، ما أغباني وما أغبى نور؟ أي شيطان سكن رأسك، والله إن قوة الشر التي حلم نور بوجودها خلف هذه الأقواس لا تقارن بالشر الذي يسكنك.
- أنتما غبيان، لا شك في ذلك، لقد استمتعت منذ اللحظة الأولى في تسخيركما للوصول إلى هدفي.
- أتعلمين يا مرح؟ لا أشك في أنك ستقتلينني اليوم أو غداً، هذا ما قرأته في عينيك منذ البداية، ومع ذلك فلم يعد الأمر يهمني، فلست ممن يخشون الموت ولكني متشوق إلى أن أشهد النهاية التي تسعين إليها والفضول هو ما يتملكني.
- سأروي لك القليل لأشبع فضولك فأنت تستحق ذلك، هناك قواسم مشتركة كثيرة بيننا وبين البشر، وعلى رأسها الحلم بالمستقبل والفضول لاكتشاف المجهول... جميعنا نبدأ بأحلام صغيرة سرعان ما تكبر، وهل تصدق أن حلمي العظيم كان أن أنضم إلى صفوف الكاتو لأليق بحبيبي العالم الكبير قومار، وعندما هجرني انصب كل تركيزي على دراسة كل ملاحظة كتبها يوماً، وعلى الرغم من تجربتي البسيطة حينها فلم أصدق أن عالماً كبيراً مثله

يستطيع الوصول إلى مجلس الحكماء ثم يتمرد دون أن يكون هدفه أكبر، أمضيت سنوات وأنا أقرأ دراساته وأحللها، كم كان صعباً أن أفهم لغة العلماء وأسرارهم، وكم كانت فرحتي كبيرة حينما اكتشفت أن قومار أثبت أن زاتا وكانا لم تكونا مجرد أسطورة وأن علومهما هي ما تخفيها البوابات، بذلت المستحيل ليل نهار حتى أدركت أن قومار وجد الرموز لعبور بوابة الشر والحصول على القوة التي لم يثبت وجودها أحد ليكون أول من يستطيع من عالمنا دخول هذه البوابة، ومن هنا بدأ اهتمامي بقوة الشر، فبدأت البحث لأفهم كنهها، علمت أنها المستحيل، وهكذا أصبت بالهوس الذي أصابه، فأمضيت سنوات طويلة من العمل الشاق، وضحيت بكل شيء حتى أستطيع الوصول إلى مكانة حارسة أبواب الشر بجدارة، نجحت ووصلت إلى هذه البوابة، مرت سنوات طويلة وأنا أراقب قومار دون أن أسعى إلى القبض عليه لأني كنت بحاجة إليه في فك رموز الأقواس الأولى، ثم شاءت الصدفة السيئة أو السعيدة، أن تقوم أختي الوحيدة بحماقة الزواج من إنسي! طفلة صغيرة سمعت وهي تلهو بألعابها أن هناك بشراً بإمكانهم الطواف خارج الجسد، وبسذاجتها اعتقدت أن كل البشر قادرون على هذا، فأقدمت على هذه التجربة مع ساذج مثلك، ومعاً تمكنتما من تحقيق المستحيل، وهكذا وجدتُ من هذه الصدفة السيئة فرصةً سعيدة لاستغلالك لتحقيق هدفي، فقدمتُك طعماً لقومار، كنت أعلم

أنه سيكتشف أمرك منذ اللحظة الأولى، وسيخطط بدوره لاستغلالك واستغلالي، ساعدتني كل الظروف في أن أخطط للقبض عليه من خلالك، كان سعيداً حينما اكتشف أنك من يحتاجه للوصول إلى البوابة، وبغروره اعتقد أن بإمكانه استغلالي، دون أن يعرف أني كنت أستغل عقله ومعرفته. وبصراحة، من دونه ومن دونك لم أكن أستطيع دخول هذه البوابة على الرغم من أني حارستها، وهكذا دخلت عبر حلم قومار إلى حلمي الخاص، وأنت بإمكانك الاطمئنان، فأنا لا أعتقد أن جسدك سيصمد طويلاً لأفكر بقتلك، لذلك أعدك أنك سوف ترافقني حتى تشبع فضولك.

أنهت مرح كلامها ولا أخفي أنني كنت مبهوراً بذكائها وقدرتها العجيبة على التخطيط طويل الأمد، عبرنا معاً ساحة الأعمدة واقتربنا من الأقواس دون أن أشعر بالقلق.

- ولكن كيف سندخل البوابة الأخيرة والغريب كان الوحيد القادر على فك رموزها.
- لا تقلق، كنت بحاجة إليه لتجاوز الحواجز الأولى، فكل دراساته السابقة معي وسنطبقها إن احتجنا إليها.

بدأت أسير باتجاه الأقواس الخمسة، لكنها أمسكت يدي، وأخبرتني أن الأمر ليس بهذه البساطة، خطوة واحدة خاطئة قد يكون فيها هلاكنا، أخذت توضح لي كيف يمكن تجاوز الساحة الثانية التي تفصلنا عن الأقواس، كانت مرصوفة بأحجار سود متشابهة والأعمدة التي تحيط بها تعكس

ظلالاً يستحيل رؤيتها، حذرتني من أنه في حال لامست قدمي إحدى الظلال فقد تختفي الساحة، ولن يكون هذا الخطر الوحيد الذي سأواجهه، فالأصوات والخيالات التي ستتهيأ لي قد تفقدني تركيزي، فأسقط في فراغ لا نهاية له.

حينما انتهت مرح من شرح المهمة المستحيلة، طلبت أن آخذ قسطاً من الراحة، أطرقت قليلاً أفكر في الأهوال التي يجب أن أمر بها، ولكني لم أستطع أن أتخيل حدوث كل ما ذكرته في هذه المسافة القصيرة، فالمسافة بين مكان وقوفي وبين الأقواس لا تتجاوز عشرة أمتار، أي أنني يمكن أن أقطعها في أقل دقيقة، استجمعت قواي وقررت أن أنطلق بثقة عالية، وعلى الرغم من شدة الخطورة فقد كنت مطمئناً إلى أن المسافة قصيرة:

– أنا واثقة من قدرتك على اجتياز هذا الامتحان الصعب، سأكون معك خطوة بخطوة، ولكنك لن تراني، لا تحاول البحث عني ولا تحاول أن تتحدث إليّ بصوت عال، تحدث مع نفسك وسأسمعك وأرشدك خطوة خطوة سأكون معك، لن تسمع صوتي بأذنيك، لكن إن حصل وسمعته فلا تصغِ إليه فقد تحدث مفاجآت نجهلها، وعليك تجاهل كل شيء والمحافظة على رباطة جأشك.

اقتربت مني، ووضعت كفيها على خدي، وغاصت في عيني:

– حسن، ثق بأنك قادر، ثق بأنك قادر...

بقيت أصغي إليها وأحدق في عينيها الجميلتين حتى وجدت نفسي أحدق في فراغ، سمعت صوتها في داخلي دون أن أراها:

- إن كنت مستعداً فهيا بنا... ضع قدمك اليمنى ثم اليسرى على الحجر الأسود، ولا تتحرك، سأعيد تحذيرك: إياك أن تتسرع. هل ترى الظل المنعكس؟ إنه واضح الآن، اقفز عنه بقدمك اليمنى على الحجر الذي يليه، ثم توقف ولا تتحرك.

هكذا كررت المحاولة مائة مرة، لم يكن من الصعوبة رؤية الظلال، لكن الغريب أن الأقواس ما زالت بعيدة، فهل المسافة تتضاعف أم أن الأقواس تهرب. استعددت للخطوة التالية، ولكني لم أعد أرى الظلال بسهولة، ولهذا كنت أتجمد مكاني أكثر من دقيقة مع كل خطوة، فجأة لاحظت أن هناك عشرات النمور تتهيأ للقفز علي، فحاولت تجاهلها، خطوة واحدة ووجدت نفسي بين عدد كبير من الحيوانات الضارية، التفت إلى الخلف فلم أر إلا الفراغ اللامتناهي، التقدم إلى الأمام يحتاج أن أتجاوز حيوانات غريبة الشكل، قرود لها مخالب وأنياب ورؤوس كبيرة، وحيوانات بثلاثة أرجل وأربعة وخمسة، وأخرى تشبه الإنسان، تذكرت أن الخيارات أمامي محدودة فإما التقدم وإما العودة والسقوط في هاوية لا قرار لها، فاستجمعت شجاعتي، وجاء صوت مرح ليبث الشجاعة في قلبي:

- لا تخف، ما هي إلا أوهام خلقها عقلك، اقترب واختبر ذلك، لن تهاجمك، ركز على الظلال فقط، إن رأيت ظلين فاقفز عنهما معاً، إياك والتردد. خطوت وقفزت أكثر من خمسين مرة، أحاطت بي الحيوانات وأخذت تصدر أصواتاً مرعبة، فرفعت كفي لأغلق أذني إلا أن صوت مرح حذرني ألا أفعل خشية أن أفقد توازني،

عشر خطوات واختفت جميع الحيوانات من حولي، تنفست الصعداء وسرت خطوة تلو الخطوة بهدوء، وفجأة ودون سابق إنذار، هجمت علي مجموعة من القردة تحمل سيوفاً ورماحاً، كدت أتراجع إلى الخلف من هول المفاجأة، إلا أن صوت مرح حذرني:

- إياك أن تلتفت إلى الخلف، إياك، قف مكانك ولا تتحرك! لا تخف يا حسن، إياك أن تفقد توازنك... إياك.

هنا هجمت الحيوانات جميعها عليّ دفعة واحدة فأغمضت عيني، فلا شيء أفعله غير ذلك. صرخت مرح:

- افتح عينيك بسرعة وانظر إليها.

على الرغم من قناعتي أن ما أراه ما هو إلا وهم وخيال، إلا أن الطريقة التي هاجمتني بها جعلت جسدي يرتعش، واصلت طريقي، حجارة تختفي وحيوانات تقفز حتى وجدت نفسي في مواجهة نار عظيمة كأنها الجحيم، لم أر في حياتي نارا أعظم منها، لم أشعر بالخوف من النار لكني ترددت حينما طلبت مرح أن أقتحمها، تقدمت وكلما اقتربت منها أحسست بحرارتها أكثر حتى بدأت أتأكد أنها نار حقيقية، أكثر من كونها وهمية، كنت أستجمع شجاعتي وأسير، ومرح تشجعني...

اقتربت من النار وإذ بصوت مرح يصرخ بصوت عال:

- عد إلى الخلف بسرعة يا حسن، عد واستدر إلى الخلف يا حسن، لا تتقدم، لا تتقدم!

وعند محاولتي التراجع أتاني صوت مرح من جديد، ينبهني:

– لا تصغ إلى أي صوت تسمعه بأذنيك، أكمل طريقك.

وقعت في حيرة من أمري بين صراخ مرح الذي يدعوني إلى العودة إلى الخلف، وبين صوتها الداخلي الذي يحذرني من الإصغاء، تذكرت تحذيرها، فتشجعت واقتحمت النار بثقة، حاولت أن أسرع لأتفادى حرّها، نجحت في عبورها ثم توقفت لألتقط أنفاسي، نظرت إلى الأقواس فإذا هي قريبة، قريبة جداً جداً. بدأت أستعد للمضي قدماً، التفت حولي لأتبين محيطي، فصعقت حينما رأيت عشرات الظلال تتحرك الواحد تلو الآخر، نظرت إلى الأعمدة فرأيتها تهتز بقوة، وحينما نظرت إلى الظلال مرة أخرى علمت في قرارة نفسي أني هالك ولا ريب. أخذت أحدث مرح قائلاً:

– من المحال أن أستطيع تجاوزها!

– بل تستطيع يا حسن، ركز قليلاً فقط، ركز يا حسن!!

نظرت إلى الظلال مرة أخرى فوجدت أنها تتحرك الواحد تلو الآخر بسرعة كبيرة، وفي أقل من رمشة عين، لم أكن أستطيع أن أرى الحجر إلا والظلال تمر عليه، وكل ظل يغطي أكثر من عشرين حجراً أو أكثر، وكأن الظلال مراوح، دب اليأس في قلبي على الرغم من تشجيع مرح المستمر لي، حتى صرخت بها:

– كيف، كيف يمكن هذا، يستحيل أن أخطو خطوة واحدة دون أن ألمس الظلال.

– لا تخف، إن ركزت بصرك جيداً وقفزت قفزات سريعة جداً فستتجاوزها!

لم أقتنع، وكلما حاولت أن أقنع نفسي بكلامها وجدت الأمر مستحيلاً، تسمرت مكاني ولم تنجح مرح في إقناعي، ومما زادني يأساً وإحباطاً شعوري بأن مرح لا تجد وسيلة لإخراجنا من هذا المأزق، كما أن الإرهاق والتعب استوليا علّي فلم أعد قادراً حتى على الوقوف. هنا طلبت مرح أن أستسلم لها بالكامل وأتركها تسير بجسدي دون أي مقاومة، لم أشعر براحة لتركها تستولي على جسدي مجدداً، أحستْ بما يعتمل في صدري، فقالت:

- لا داعي للخوف، لا يوجد شيء يستحق الخوف، فلو أردت شيئاً سيئاً بك لفعلته، ولكن لا توجد غير هذه الطريقة لنتمكن من العبور.

استسلمت لها، وفقدت الإحساس بوجودي، حتى وجدت نفسي خارج الظلال دون أن أشعر بشيء أو أعي ما حدث إلا عندما ما خاطبتني مرح قائلة:

- لقد نجحنا يا حسن.

شعرت وكأنها خرجت من رأسي، حاولت تذكر ما حصل، رأيت كيف قمت بقطع الظلال بسرعة غريبة دون الشعور بثقل جسدي، فسألتها:

- كيف حدث هذا؟
- إن قوة دماغك البشري قادرة على صنع المعجزات، فبتحكمي به استطعت أن أجعل وزن جسدك يتواءم وجاذبية المكان وأبرمج بصرك وخطواتك بما يتلاءم وسرعة دوران الظلال، واستخدمت الحواس الأخرى والطاقة الكامنة فيك التي لا تستطيع استخدامها لإعطائك القوة والسرعة... وهكذا نجحنا معاً في تجاوز هذه

المرحلة، وها نحن أمام الأقواس، ولم يتبق أمامنا إلا مرحلة واحدة قبل أن نصل إلى الأقواس، نجاحك في هذه المرحلة سيعتمد على قوة إرادتك! يجب أن تسير دون توقف مهما كان السبب حتى تصل، وإن توقفت لحظة واحدة لأي سبب كان فستكون نهايتنا معاً!

– هل هناك ظلال جديدة؟

– الخطر الحقيقي يكمن في التوقف عن الحركة، والمسافة ليست قصيرة كما ترى.

– أنا جاهز للانطلاق.

– ارتح قليلاً أولاً.

ارتحت كما أرادت، ثم انطلقت باتجاه الأقواس التي كنت أعتقد أنها لا تبعد عني أكثر من عشرة أمتار، مرت ساعة وساعتان والمسافة تزداد ولا تنقص، ولم يعد جسدي يقوى على حملي، ساعة وراء ساعة، اشتد بي العطش فرأيت واحة ماء، سرت باتجاهها، أخذت مرح تحذرني ألا أقترب منها، فواصلت سيري، ثم بدأت الأوهام واحداً واحداً تهاجمني ومرح تحثني على طردها. فقدت الإحساس بجسدي، حتى بالمكان والزمان، حتى وجدت نفسي مستلقياً قرب الأقواس وبجانبي مرح تبتسم وتهنئني على نجاحي.

نمت ساعات وحينما أفقت جلت ببصري فأبهرني حجم الأقواس، أخذت أقارن حجمي بها فوجدت أني لم أكن أكثر من نملة بجوار هرم، نسيت

كل التعب والجوع والعطش... تأملت ملياً الأقواس الخمسة العملاقة والبوابة التي خلفها وهي تكاد تلامس الغيوم، فقلت والفرح يعتريني:

- لقد وصلنا يا مرح، وصلنا!!
- اقتربنا يا حسن، اقتربنا من الأقواس فقط! الفرق بين الوصول والاقتراب في هذا المكان كبير جداً!

أخذت أتأمل تلك البوابة الضخمة الجميلة الملونة بآلاف الألوان الممزوجة معاً بتناسق، أو ربما هي ألوان جديدة لم أر مثلها من قبل، صور ورسوم منقوشة بحرفية على البوابة لا تعد ولا تحصى، تملكني شوق عظيم إلى الاقتراب من هذه البوابة ولمسها فالتفت إلى مرح وأخذت أحثها على الإسراع:

- هيا يا مرح هيا...
- إلى أين يا حسن؟ البوابة لن تهرب، علينا الآن معرفة أي الأقواس يوصلنا إليها.
- لماذا التعقيد، فأنا أرى أن كل الأقواس التي أمامنا توصلنا إلى البوابة.

رمتني بنظرة أشعرتني بسذاجة سؤالي، تذكرت أن نور قال إن أحد الأقواس فقط يوصل إلى البوابة أما البقية فتوصل إلى متاهة لا نهاية لها. شعرت بالقلق حينما رأيت الحيرة تلف مرح. كان واضحاً أنها تجهل ما عليها القيام به، اقتربتُ منها وابتسمت بخبث، لكنها أشارت بيدها نحو الأقواس ثم قالت:

- إن دخلنا هذه الأقواس والبوابة فستسقط نظرية المستحيل.
- ماذا تقصدين بـ "إن دخلنا"، فهل من الممكن ألا ندخل؟
- وماذا ستخسر؟ يكفيك أنك رأيت ما لم يره إنسان قبلك، أما أنا فإن لم أدخل فقد خسرت كل شيء.
- وماذا سنفعل يا مرح؟
- لا أدري ماذا سنفعل، ولا توجد أي طريقة لمعرفة القوس الذي يجب أن ندخله، حتى قومار أشك في أنه كان يعرف، وحالياً أمامنا احتمال من خمسة، إما أن ننجح وإما أن نهلك أو نهلك أو نهلك أو نهلك.
- نور أخبرني أنه يعرف أي الأقواس يوصل إلى البوابة.
- ربما كان قومار يعرف كيف، ولكني لا أعرف! ما عرفته من خلال دراستي لأبحاثه أن هذه الأقواس يجب أن تكون تحت نوع قوي من الحراسة، ولكن المفاجئ أن الحراسة غير ظاهرة على أي من الأقواس، وهذا ما يقلقني أكثر، فلو أسعفنا الحظ ودخلنا القوس الصحيح، فكيف سنتجاوز الحراسة، أنا لا أستطيع أن أحدد نوع الحراسة أو خواصها أو العقل الذي يديرها. لقد ذكر قومار في أوراقه أن الحراسة على هذه الأقواس موجودة منذ عشرات الآلاف من السنين، وأنا راهنت على أنها حراسة قديمة لم تتطور، لهذا يمكن تجاوزها، مع أنه يقال إنها حراسة لا يوجد أقوى منها في عالمنا، ولا يمكن هزيمتها، وكل هذا لم يقلقني، فأنا أثق بقدراتي.

كان واضحاً أن مرح قد دخلت حالة من الارتباك، فهي تثرثر وتسير دون توقف، وتدور حول نفسها، لم أرها منذ أن عرفتها تتصرف بهذه الغرابة، انقضى اليوم الأول ونصف اليوم الثاني ونحن على حالنا. الغريب أني لم أشعر بحاجة إلى الطعام أو الشراب، لكن النعاس هو الذي سيطر علي، فما إن أصحو حتى أشعر بحاجتي إلى النوم، ربما كان ذلك ناتجاً عن القلق واليأس اللذين أصاباني، أو ربما كان السبب شعوري الغريب باللامبالاة كوني لن أخسر شيئاً، ثم خطرت ببالي فكرة فقلت:

- لابد أن قومار قد توصل إلى طريقة ما للمرور. إن كان قومار قد وجد الطريقة فسأجدها.

عادت إلى حالتها الأولى وعدت للنوم، لأصحو على مرح توقظني بعنف وهي تقول:

- سأعرف الآن إن كان قومار قد علم بالطريقة، هيا يا حسن، ركز معي، اترك لي دماغك لأعود به إلى الماضي لعلي أستطيع أن أجد شيئاً!

لم أبد هذه المرة أي معارضة، فلا شيء أخسره وقد وصلت إلى طريق مسدودة، جلست أمامي ووضعت يديها على رأسي برقة ولطف، ثم طلبت أن أنظر في عينيها. أخذت تذكرني بلقائي الأول بقومار. بدأت أشعر بأني اثنان ولست واحداً. جسد يجلس أمامها في الحاضر، وأنا مع قومار في الماضي لحظة بلحظة كلمة بكلمة من لحظة معرفتي به إلى نهايته

المؤلمة. رفعت مرح يديها عن رأسي وبدأ النشاط يعود إلى جسمي.. أطرقت مرح قليلاً ثم قالت:

- لقد وجدتها، قومار كان بحاجة إليك، ولم يكن يفكر بقتلك قبل دخول البوابة! فكما كان بحاجة إلى دماء القطط، كان بحاجة إلى دمك ليعبر الأقواس، وخواص دمك هي التي يحتاجها لأنه دم بشري، وهذه البوابة خصصت للبشر فقط.
- ولكنه كان يملك جسداً بشرياً أيضاً.
- ربما كانت كمية الدماء التي يحتاجها أكبر من أن يقدمها.
- وهل يجب أن أبتهج لهذا الخبر السعيد، هل حان موعد ذبحي لتحصلي على دمائي؟
- لا أعتقد أن قومار فكر بذبحك، فحاجته إليك تتعدى الأقواس، وسأكتشف ذلك لاحقاً، والآن أخرج القليل من دمك لنقوم بتجربة لعلها تنجح.
- كيف سأخرج دمي؟
- اجرح يدك أيها الغبي، اجرح قدمك، رأسك، لا تهدر الوقت.

جرحت إصبعي ومزقت قطعة من القميص الذي أرتديه ومسحت القطعة بالدم وقلت لها:

- خذي أيها المغرورة.
- أبعد هذا القرف عني، هيا اذهب وألقه داخل أحد الأقواس.
- أي قوس؟

- لا أدري، ألقه داخل أي قوس تريد.

اقتربت من أحد الأقواس وألقيته، وما كدت ألقيه حتى اختفى القميص وكأني ألقيته في عالم آخر، ابتسمت وعدت إليها. لكنها طلبت أن أكرر المحاولة ففعلت، وما هي إلا لحظات حتى اهتزت الأرض، وبدأ دخان كثيف ذو لون أخضر يخرج من الأقواس الخمسة بكثافة كبيرة، عدت لأقف بجانب مرح أترقب ماذا سيحدث.

حينما أمعنت النظر وجدت أن كل قوس يخرج دخاناً كثيفاً بلون مختلف عن الآخر، استمر تصاعد الدخان عدة دقائق ثم بدأ يتلاشى ليظهر على مدخل كل قوس رجل مسن يكسو الشيب لحيته وشعره ويرتدي عباءة بيضاء، والمهابة والوقار تبدو على كل واحد منهم، حتى أني رأيت النور يشع من وجوههم، كانوا متشابهين إلى حد كبير، ولكن ليس إلى حد التطابق. وعلى الرغم من هول المشهد فقد كان مظهرهم يبعث على الراحة والطمأنينة إلى أبعد الحدود، حتى ملامحهم يبرز منها الخير والمحبة، حتى أني أوشكت أن أذهب لمعانقتهم وتقبيل أيديهم من شدة الاحترام الشديد الذي شعرت به تجاههم، لاحظت الاحترام بادياً على عيني مرح أيضاً، واختفاء كبريائها المعهود.

لم يتحرك المسنون الخمسة ولم يلتفتوا إلينا. فكرت، لعلهم لم يشاهدونا، أو ربما لا يستطيعون رؤيتنا، ربما لا نستحق منهم نظرة، لعلهم ينتظرون شيئاً، قررت الهرب من أسئلتي، فسألت مرح:

- هل هؤلاء هم حراس الأقواس المرعبون الذين تحدثت عنهم؟!

- نعم يا حسن، إن لم تكن هناك خدعة فنحن في ورطة كبيرة.

جلست على الأرض ووضعت رأسها بين كفيها وأطرقت، بدا عليها الحزن الشديد وكأن مصيبة كبرى حلت بها، عادت ووقفت على قدميها، وأخذت تتمشى وهي شاردة الذهن.

- إما أن ندخل البوابة، أو نبقى هنا حتى نصاب بالجنون ونموت، فلا مجال للعودة إلى الخلف فما رأيك يا حسن؟
- ولماذا لا ندخل إن كنت تمتلكين طريقة لتجاوزهم؟
- لدي طريقة، وليتها لم تكن لدي.

استغربت من كلامها أكثر، ولكني شعرت أن اللعبة ليست لعبتي، لم أكن أريد أن أستبق الأحداث هذه المرة، طلبت أن أستعد لدخول القوس، ابتعدت عدة خطوات، ورفعت يدها بالطريقة التي سبقت مقتل قومار، وفوراً علمت أنها تفكر باستدعاء قوة الإبادة لتقتل حراس الأقواس، فصرخت بها ألا تفعل، أنزلت يدها وكأنها استجابت لطلبي، دمعت عيناها وسألتني:

- وماذا أفعل غير ذلك، هل لديك طريقة أفضل؟
- اطلبي منهم السماح لنا بالدخول فربما وافقوا.
- اخرس، ولا تتدخل، لا يوجد ما تخسره، هؤلاء لا يعنون لك شيئاً.

مسحت دمعتها ثم رفعت يدها من جديد وقالت:

- باسمي أنا كونتنيسا حارسة أبواب الشر وبموجب الصلاحيات الموكلة إلي وبما أني أنا الحاكمة الواحدة الوحيدة للعقرب آمره بالحضور إلى هذا المكان وفوراً!

سادت دقائق من الصمت ليتكرر المشهد القديم من جديد، صعدت أعمدة الدخان العشرة، وظهرت من بينها الأصنام السبعة الصفر، أخذت أترقب المجزرة التي ستحدث أمامي، وقد تأثرت كثيراً بما سيحل بالمسنين الخمسة، الغريب أن مرح كانت أشد حزناً مني، رفعت يدها من جديد وقبل أن تنطق، قاطعها صوت آت من بعيد:

- ماذا تفعلين يا كونتنيسا؟

بدا الخوف على وجه مرح دون أن تنطق بكلمة، أتى أحد الاشخاص نحونا من اتجاه آخر، ومع اقترابه بدت ملامح الوقار وكبر السن، كان شعره طويلاً، يرتدي عباءة بيضاء مقصبة بلون قريب إلى اللون الذهبي. واصل سيره نحونا بخطوات واثقة كلها كبرياء، اقترب منا وما زالت مرح رافعة يدها مستعدة لإصدار أوامرها للعقرب بالهجوم:

- ماذا تفعلين يا كونتنيسا؟

نكّست مرح رأسها إلى الأرض، وخفضت يدها ثم قالت بصوت هادئ يدل على الاحترام:

- الحكيم دابارا ، كيف وصلت إلى هنا؟ وكيف استطعت الدخول؟
- قبل البوابة، نستطيع جميعنا الوصول من المدخل المناسب وقد تتبعت أثرك، هل جننت يا كونتنيسا؟ لماذا فعلت كل هذا؟ من أجل ماذا؟ ولماذا تخونين الأمانة والثقة؟

- أنا لم أخن أحداً، لقد فعلت كل شيء من أجل عالمنا، لقد قدمت الكثير وضحيت من أجلكم بالكثير ولن أنتظر حتى يحكمنا البشر يوماً.
- أمن أجل دخول هذه البوابة خالفت كل القوانين وقررت إنهاء حياة قومار والمراقبين، لقد علمت منذ البداية أن خرافات زاتا وكانا ستصيبك بجنون العظمة وتقودك إلى الانتحار، والآن يا كونتتيسا ماذا تريدين أن تفعلي أكثر؟ لقد وصلت إلى الأقواس، وعلمت من هم المسؤولون عنها، ألم يحن الوقت للتراجع؟
- لا خيار أمامي، إما أن أدخل هذه البوابة أو تنتهي حياتي؟
- يا كونتتيسا أنت تطاردين سراباً، هيا رافقيني لنخرج من هذا المكان.
- كلا، لن أعود، لن أمضي بقية حياتي في قبة النور.
- السجن خير لك وأفضل مما تنوين فعله، أستحلفك بمكانتي عندك إن كنت ما زلت تحترمينها أن تعودي معي وربما وجدت لك حلاً.
- كلا أيها الحكيم، لن أعود معك.
- وماذا ستفعلين؟ أستأمرين العقرب أن يقتل هؤلاء وأنت تعلمين من هم؟ أو تظنين أن العقرب قادر على الاقتراب منهم؟ ربما يكون قادراً على إبادتي، ولكن، بإشارة واحدة من أحدهم سيعود العقرب ليبيدك، لا تكوني مجنونة، أنت تعلمين من هم.

قالت والشرر يتطاير من عينيها وكأنها أصيبت بالجنون:

– ابتعد أيها الحكيم، قبل أن أبيدك أنت أيضاً، وأبيد كل من يقف في طريقي أياً كان.

– افعلي ما شئت يا كونتنيسا.

التفت إلّي ثم قال:

– وأنت يا إنسي، ما الذي تسعى إليه؟

– أنا لا أسعى للحصول على شيء، ولا أعرف ماذا أريد، أنا مجرد "طرطور" وسط هذه اللعبة الغريبة!

– هل تريد أن أخرجك من هنا؟

– نعم، ولكن قل لي قبل ذلك، من يكون هؤلاء الذين تتحدثون عنهم؟

– يكفيك أنك رأيتهم، ولا داعي للمعرفة أكثر، هيا لأخرجك معي.

صرخت مرح:

– لا تذهب معه يا حسن، جسدك لن يحتمل أكثر ولن يسمحوا لطيفك أن يعود يوماً إلى عالم البشر، سيزجون بك في عالم الضياع إلى الأبد.

نظرتُ إلى الحكيم دابارا:

– أصحيح ما تقوله مرح، أعلم أنكم لا تكذبون، سأذهب معك إن عاهدتني أن تحرروا غادة وتتركوني في حالي؟!!

– لا أعاهدك بشيء، إن أردت الخروج معي فهيا، وان أردت البقاء فابقَ. ماذا قررت؟ هل تريد أن أساعدك على الخروج؟

- أيها الحكيم المحترم، إن بقيت مع مرح سأموت، وإن خرجت معك سأموت، فهل تخيرني أي موت أختار؟!! أنا لم أخطط ولم أتآمر ولم أقتل أبناء عالمك، هم الذين فعلوا ذلك، ودفعوني لذلك، أنا لم أتدخل في حياتكم، أنتم الذين فعلتم وقلبتم حياتي إلى جحيم، صدقني على الرغم من أن اللعبة ليست لعبتي وأني مجرد أداة لا أكثر ولا أقل، فإنني أشعر بمتعة غريبة في أن أعرف أكثر، ولا مانع أن أقامر بحياتي من أجل خطوة واحدة خلف هذه البوابة العظيمة، لهذا سأبقى مع مرح حتى النهاية، وشكراً على عرضك.
- لن تجدوا خلف هذه البوابة إلا الأوهام، خيرتكما فاخترتما ولكما ما اخترتما.

استدار وعاد من حيث أتى، سألت مرح عن سر هؤلاء الذين ظهروا على الأقواس الخمسة، وكلام الحكيم عنهم؟ فقالت بلهجة حزينة:

- إنهم أقدس من في عالمنا. لا تسألني عنهم يا حسن، لا تسألني؟ كفاني ألماً، ودعني أقتل ما تبقى داخلي من مشاعر أو أقتل نفسي وأرتاح من هذا الموقف الذي أنا فيه.

لاحظت في هذه الأثناء أن مرح تتحاشى النظر باتجاه الأقواس، وحينما تخطف نظرة سريعة تنكس رأسها خجلاً واحتراماً، ولم يبد عليها الخوف منهم، ولكن بدا عليها شيء أكبر، فمرح لم تخش الوحوش، لم أرها تهتز أمام أي موقف. تململت مرح وسارت عدة خطوات ثم خاطبتني قائلة بعد أن مدت يدها اليسرى:

- انظر يا حسن إلى هذه اليد التي سأفعل بها ما لم يفعله أحد من قبل، ستصبح يدي هذه مثلاً عبر الأجيال، ربما يقولون "أقذر من يد كونتتيسا"، أو "أقوى من يد كونتتيسا"، فليقولوا ما يقولونه وليحدث ما يحدث، فاسمي لن يزول إلى الأبد.

رفعت يدها اليسرى وضمت أصابعها باستثناء السبابة والإبهام باتجاه السبعة الصفر ثم قالت بنبرة عنيفة:

- باسمي أنا كونتتيسا حارسة البوابة السادسة، وبموجب صلاحياتي وبما أنني الحاكمة الوحيدة والمخولة إصدار الأوامر للعقرب فيما أقرره وأراه مناسباً، آمركم بإبادة هؤلاء الخمسة إبادة كاملة! الأمر نفد، الأمر نفد، أبيدوهم!

أخذت تصرخ بجنون:

- أبيدوهم... أبيدوهم... أبيدوهم...

تحرك العقرب باتجاه الأقواس الخمسة بسرعة، وللحظة أردت أن أغمض عينيّ حتى لا أرى المجزرة الرهيبة التي ستقع لهؤلاء المساكين، ولكن الفضول كان أقوى. انطلقت الأصنام بسرعة لا مثيل لها باتجاه المسنين لإبادتهم، لم يبد على أصحاب الهيبة والوقار أي جزع أو خوف. وبخفة وهدوء، وبطء وثقة، حرك أصغرهم يده حركة صغيرة حتى إنه بالكاد رفعها، أو لعل أصابعه هي التي تحركت، لتعود الأصنام السبعة بسرعة فاقت سرعة ذهابها لتحيط بنا. أصيبت مرح بالذهول، وكأنها لا تصدق ما ترى،

التفّت حولنا على شكل دائرة ثم سارت نحونا بخطوات متسارعة لتضيق الدائرة علينا أكثر وأكثر، حتى أضحت بالكاد تتسع لي ولمرح.
كل هذا حدث في لحظات. الرعب الذي برز من عيني مرح زاد يقيني بأننا هالكان، والأفكار التي تدور في رأسي بسرعة تفوق سرعة الضوء، تركزت حول كيفية إبادتنا، أغمضت عيني وبدأت أدعو الله أن يغفر لي، فلم يخطر ببالي أن أدعو لنفسي بالنجاة من الموت، بقيت على حالي هذه لدقائق، ثم تجرأت وفتحت عيني لأرى مرح غارقة في حيرة، فيما الأصنام التي أحاطت بنا تجمدت في مكانها، دون أن تترك لنا مخرجاً، مضى وقت طويل وأنا لا أتكلم، وأخيراً استجمعت ما تبقى من عقلي فقلت لمرح:

- لقد صدق الحكيم وأخطأت.
- لم أخطئ.
- أو ما زلت تكابرين؟
- كلا، ألم أقل لك إن نهايتنا ستكون واحدة.

ضحكت مرح وضحكت معها، وما أجمل الضحك في وجه الموت اللعين، كم كانت مشاعري متناقضة وغريبة، فأنا أنظر إلى مرح خائفاً عليها من ناحية، ولكنني مسرور لإحساسي بأنها مثلي وليست أفضل مني، وستلاقي معي المصير نفسه.. تعالت ضحكاتنا وكأن جنوناً قد أصابنا. ولم يعد هناك ما نفعله بدل ترقب مصيرنا المشؤوم إلا السخرية والضحك:

- لماذا لم "تفعصنا" آلهتك حتى الآن؟
- ربما يريدون أن يستمتعوا بإرعابنا قبل "فعصنا".

- وهل بقي هناك شيء تعرفينه؟
- نعم، ما زلت متأكدة من أمر واحد يا حسن.
- ما هذا الشي يا صاحبة العلم والمعرفة.
- من المؤكد أنهم سيفعصونك أولاً يا حسن.

ضحكنا، ثم سألتها:

- لماذا لا ترفع يدها وتردد الكلمات المعتادة وتؤدي الحركات الاستعراضية لعل وعسى يبتعد العقرب وننجو؟
- فات الأوان يا حبيبي، انتهى وقت الاستعراض.
- حاولي مرة أخرى، ربما في المرة الأولى لم يسمعوا اسمك جيداً.
- هذا ما عاد يجدي نفعاً يا حبيبي.
- أليس من الذكاء لو أنك أنصت للحكيم ورافقتيه وتركتني أعود إلى بيتي بسلام؟
- هل تريد أن أسجن طوال عمري، هل أنا مجنونة لأقبل بهذا؟
- ومن هذا الوقح الذي يجرؤ على سجنك، ألا يعرفون أنك مرح؟
- لماذا يا حسن تشعرني بأنك لست راضياً عن نهايتك السعيدة معي؟
- معاذ الله، أنا أكاد أطير من الفرح، وقبل أن أنسى، لماذا لا تطيري وتختفي كلمح البصر أو تتحولي إلى دخان أحمر أو أبيض؟
- بوجود الأصنام حولنا لن ينفع الدخان وسنتحول إلى غبار فقط.

تلاشى الضحك والمزاح وعدنا للحقيقة المرة التي تنتظرنا، الموت المحتم على أيدي الأصنام الصفر التي لا أدري متى وكيف ستبيدنا. أخذت أصرخ وألعن وأشتم، وأنا مستفز من الصمت الذي يقتلني في كل لحظة ألف مرة، في انتظار تحرك الأصنام وأمسكت مرح يدي لتهدئ من روعي ثم قالت: كفى يا حسن لن ينفعك الصراخ، يبدو أن الأوامر لم تصدر لإبادتنا بعد، وإلا لحدث ذلك منذ وقت طويل.

- ومن يصدر الأوامر الآن؟

أشارت بيدها نحو الأقواس ثم قالت:

- هم من يملكون القرار، ومصيرنا بأيديهم، ولا أدري ماذا ينتظرون؟
- ألست خائفة؟
- ربما خفت في البداية قليلاً، أما الآن فلا أشعر بأي نوع من الخوف، لا يوجد شيء لأخسره، فعلت ما أريد ولم أنجح، كنت أعرف أن نهايتي ستكون سيئة، فلماذا أخاف؟ إن كان يجب أن أموت فسأموت بشجاعة، لم أعرف الهزيمة يوماً، ولن أعرفها حتى في موتي، لقد فشلت في الوصول إلى هدفي، ولكني لم أشعر بالهزيمة لأن الذي هزمني يستحق ذلك.
- ماذا سيحدث؟ هل سننجو أم سنموت؟ ولماذا الانتظار؟
- ابتسم يا حسن، واستقبل النهاية بقوة وشجاعة، ولا تدعها تهزمك.
- أفهم من كلامك ألا أمل؟

- لا يوجد أمل، فالسبعة الصفر لا يتحركون إلا للإبادة، وقوانين عالمنا تسمح لهم بإبادتنا، وهؤلاء بالذات بعد القانون وقبله، وأنا وأنت جاوزنا الممنوع، ودخولنا إلى هذه المنطقة بالذات، يسمح بإبادتنا تلقائياً، لقد قد علقنا هنا، ولا طريق للعودة، ولا طريق للتقدم، وبهذا نكون قد انتهينا في جميع الأحوال.
- أنت قتلت، هذا صحيح، ولكني لم أقتل بمحض إرادتي، أنتم سيطرتم علي ودفعتموني لذلك، فما ذنبي أنا؟.
- توقف عن النواح، لقد قتلت بمحض إرادتك ولم يجبرك أحد على ذلك، ولا حتى قومار، أنت تعلم ذلك جيداً.
- اصدقيني يا مرح، هل كنت ستقتليني لو نجحنا بدخول بوابة الشر؟
- بصراحة، كان صعباً علي مقاومة فكرة استخدام العقرب في تحويلك لغبار، خاصة أني أقمت علاقة معك، ولا أريد أن يذكر هذا في تاريخي.
- لماذا لم تقتلي الحكيم وكان بإمكانك فعل ذلك خاصة أنه قد عرف الكثير عن خططك؟
- لم أكن لأفعل ذلك أبداً، فهو ليس مجرد حكيم، إنه جدي، والد والدتي، ولو أردت أن أقتله فماذا كنت سأستفيد؟ ثم إنْ علمَ الحكيم، فهذا يعني أن مجلس الحكماء بأسره قد علم، وماذا تظنني؟ أنا لا أقتل للمتعة إن لم يكن السبب يستحق القتل فإنني لا أقتل.
- ماذا يوجد خلف هذه البوابة يا مرح؟

- كل ما أعلمه أن خلفها قوة الشر، وأن من يملكها يستطيع السيطرة على عالمنا، فهذه القوة تمتاز بخواص عالمنا وعالمكم، وهي سر زاتا وكانا الدفين منذ آلاف السنين.
- من هؤلاء الذين ترددت كثيراً في إصدار الأمر بقتلهم؟
- إنهم السر الأكبر المختفي منذ أزمان، لا أريد الحديث عنهم، لا تسألني ربما يكونون مجرد خرافة كخرافتكم الكثيرة.
- اصدقيني يا مرح، هل كذبت علي بأي شيء يخص غادة؟
- كلا يا حسن، لم أكذب عليك فيما يخصها، كادنتا أحبتك فعلاً وضحت من أجلك وخسرت حريتها، ويا للسخرية، فبسببك فقدت كادنتا حريتها، وأمامك ستنتهي نجمتها مرح.

انتظار الموت أبشع من مقابلته، ولمجرد رغبتي في الحديث لا أكثر، سألتها:

- لو قرر الحكماء أن يحققوا لك أمنية واحدة قبل إبادتك فماذا ستكون؟
- سأطلب منهم ألا يعرف أحد قصتي، أو أن يعيدوا إليّ السلطة على العقرب لأبيدهم وأحولهم إلى غبار، وأنت يا حسن ماذا كنت ستتمنى؟
- أن يعيدوا الحرية لغادة وبصدق لا أريد شيئاً آخر.

أطرقتُ وتساءلت في نفسي عن حقيقة مشاعري تجاه مرح، هل أكرهها أم أحبها، أشعر بأنها سبب دماري ونهايتي، تأملتها وهي تقف أمامي

شاردة الذهن، والسبعة الصفر حولنا، إنها حزينة وخائفة ومهمومة ومرعوبة أكثر مني بكثير، ولكنها حتى اللحظة الأخيرة تحاول ألا تظهر أمامي ضعفها وهزيمتها، حتى وهي تنتظر الموت تتصنع الانتصار، وكأنها تتمثل قول الشاعر:

"إِذَا كَشَفَ الزَّمَانُ لَكَ القِنَاعَا*** وَمَدَّ إِلَيْكَ صَرْفُ الدَّهْرِ بَاعَا

فَلاَ تَخْشَى المَنِيَّةَ وَالتَقِيْهَا*** وَدَافِعْ مَا اسْتَطَعْتَ لَهَا دِفَاعَا"

أنا أعلم أن الحقيقة غير ذلك، وأشعر بها تود أن تبكي وتبكي على النهاية التي وصلت إليها. لا أفهم لماذا أشفق عليها أكثر من إشفاقي على نفسي، مع أننا نواجه المصير نفسه، هل لأني إنسان ومشاعرنا نحن البشر متناقضة تتأثر بالمواقف والأحداث التي نحياها، وتتغير في كل لحظة، أم أن إشفاقي سببه أنها كانت مثالاً للقوة التي لا تهزم وأصبحت في لحظات لا شيء؟

أتأملها من جديد وسط الصمت الرهيب في انتظار الموت، من رأسها إلى أخمص قدميها، ثم خطر ببالي أن أعيد إليها الابتسامة، فرفعت يدي وأخذت أصرخ:

- باسمي، أن حسن بن صفية، آمر العقرب بالرقص والغناء، الأمر نفد نفد نفد.

ضحكت مرح ضحكة أبهجت قلبي، ثم قالت:

- أتعلم يا حسن، عبر سنوات مطاردتي للمتمردين، راقبت الكثير من البشر، ولكني لم أر أحداً لا يكترث بالموت مثلك.

- ربما لأنني أومن إيماناً جازماً أن قرار الموت والحياة لا يملكه أحد.

دار حوار طويل بيننا وفجأة، دبت الحياة في السبعة الصفر، تحركت، فدب الذعر في قلبي لدرجة أنني لم أعد قادراً على الوقوف، لم أخش الموت ولكن هذه الطريقة البشعة أثارت فزعي، أما مرح فقد رفعت رأسها ووقفت بشموخ وكبرياء وأغمضت عينيها. تحرك السبعة الصفر وداروا حولنا ومن ثم ابتعدوا عنا، ثم اصطفوا اصطفافهم المعهود، تخيلتهم كثيران حلبة المصارعة يبتعدون عن مصارع الثيران حتى ينقضوا عليه من جديد، لكن ما حدث هذه المرة كان مختلفاً. لكزت مرح عدة مرات حتى فتحت عينيها، أخذت تراقب معي اصطفاف الأصنام وغوصها في باطن الأرض حتى اختفائها تماماً، وعلى أثرها انتشر دخان كثيف حول المكان الذي غاصوا فيه، وأخذت أسأل مرح كالأطفال الصغار.

- أين ذهبوا؟

مرح لا تجيب، أخذت أنظر حولي لأتأكد إن كنت أحلم، وأحثها أن تجيبني، فاجأتني بجلوسها على الأرض كمن يحمل هموم العالم بأسره على عاتقيه، ثم ترقرقت عيناها بالدموع. ومن عندي غيرها لأساله عما يحدث.

- لقد أعيد السبعة الصفر، وهذا يعني أنهم لن يقتلونا، لم يحدث سابقاً أن تحرك الصفر وعادوا دون إبادة الهدف.

خطر ببالي أن أسألها إن كانت تبكي لأنهم أبادوا العقرب لعبتها المفضلة، حيرتني أكثر وأكثر بالغموض الذي يحيط بهؤلاء وحقيقتهم ووصفهم بالسر

الذي اختفى منذ أزمان، يئست من أن أحصل منها على إجابة تروي ظمئي، فسألتها:

– والآن ماذا نفعل؟

– أنا حائرة يا حسن، أنا حائرة، لا أدري ماذا نفعل، أشعر بضياع لم أعهده من قبل، قل لي أنت ماذا نفعل؟ قل لي.

ابتسمت، يا لسخرية الأقدار مرح تسألني ماذا نفعل؟ نظرت إلى الأقواس فإذا بالحكماء قد اختفوا:

– انظري يا مرح، آلهتك اختفت، ولا يبدو أنها تنوي قتلنا.

– ربما، ولكن لن تمنعني من أن أقتل نفسي، فإن كانت هناك منطقة ممنوعة ومن يدخلها يموت فسأنتهي، أما أنت فستدخل إلى عالم السكون.

– كلا يا مرح، إحساسي يخبرني أن هناك شيئاً أكبر من ذلك بكثير، يبدو لي أن كل ما علمتيه في السابق لا يتعدى أموراً بسيطة في عالم كبير. تعالي، فلا يوجد شيء نخسره.

ابتسمت مرح ثم قالت:

– دار الزمن لتسير مرح خلف حسن! هيا لنرى أين سيقودنا إحساسك.

سرنا باتجاه الأقواس الفارغة فسألتها:

– أي قوس يؤدي إلى بوابة الشر؟

– لا أعلم، أخبرني ماذا يقول لك إحساسك؟

طلبت منها أن تتبعني، واتجهت إلى القوس الثالث، أمسكت بكتفي ثم قالت:

- يا مجنون، إلى أين أنت ذاهب؟ أتريد أن تدخل البوابة على الرغم مما حدث؟
- نعم، وهل هناك بديل آخر، إن أرادوا منعنا فسيفعلون، فلم لا نجرب؟
- ولكن إن دخلنا القوس الخطأ، فسنتوه طوال العمر، وسنموت ونحن نبحث عن مخرج دون أن نجده.
- اتركيني هذه المرة أتبع إحساسي، وسنعرف النتائج بعد ذلك.

هزت رأسها ثم قالت:

- هيا، أريد أن أرى أين سيقودنا إحساسك.

خطوت لأدخل القوس الثالث، فظهر أمامي شاب وسيم بهي الطلعة يرتدي زياً كزي أهل الباكستان، لونه أبيض موشح بثلاثة خطوط ذهبية، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ثم قال:

- اذهب وادخل من الباب الثاني!

وقفت أمامه مشدوهاً، فأخذ يضحك، شدتني مرح من قميصي إلى الخلف ثم قالت:

- هيا ندخل من القوس الثاني!

فكرت قليلاً، ثم قلت:

- إن هناك خدعة، وسأكتشفها، تعالي لنجرب العبور من القوس الرابع أو الخامس أو الأول لأثبت لك أنهم لن يمنعونا من دخولها لأنها الأقواس الخطأ!.

اندفعت باتجاه القوس الرابع دون أنوي دخوله، وما إن وقفت أمامه حتى ظهرت أمامي فتاة ترتدي فستاناً موشحاً بأربعة خيوط ذهبية. يا إلهي ما أجملها، بهرني جمالها، فتسمرت مكاني مشدوهاً بجمالها الخلاب، ثم ابتسمت ساخرة وقالت:

- لقد طُلب منكما أن تدخلا من القوس الثاني فادخلاه.

شدتني مرح بقوة وطلبت أن نذهب إلى القوس الثاني. سحبت يدي من يدها، واتجهت إلى القوس الخامس، لحقت بي، فظهر أمامي شاب بهي الطلعة، جميل، يرتدي زياً مشابهاً لزي الشاب الأول، ولكنه موشح بخمسة خطوط. ضحك هو الآخر، ثم قال:

- لقد طُلب منكما أن تعبرا من القوس الثاني.

ركضت مسرعاً باتجاه القوس الأول، فظهر لي شاب يرتدي زياً مماثلاً لزميليه، إلا أن ثوبه موشح بخيط واحد، ضحك هو الآخر ثم قال:

- لقد طُلب منكما أن تعبرا من القوس الثاني فلماذا لم تفعلا؟

يئست ووقفت حائرا، طلبت مرح أن أتبعها إلى القوس الثاني فرفضت وحاولت أن أشرح لها أن في الأمر خدعة وإلا لما سهلوا الأمر علينا. لكن ما قلته استفزها:

- هل تريد أن تثبت أن إحساسك صادق بالقوة؟ لو أرادوا ألا ندخل لمنعونا، وهم ليسوا بحاجة لخداعنا، من تظن نفسك ليضيعوا الوقت بخداعك، أنتم البشر غريبو الأطوار.

فقلت لها:

- هيا إذاً لنطعهم ونرَ من فينا الصادق.

وقفنا أمام القوس الثاني فظهرت فتاة جميلة، قالت برقة ونعومة:

- تفضلا، أهلاً وسهلاً بكما.

وقفت كالصنم مبهوراً بجمالها، لكزتني مرح بكوعها ثم قالت:

- تحرك، لا تقف كالصنم.

كنت أسير والتفت ورائي وكأن عيناي تأبيان مفارقة الحسناء، وما هي إلا لحظات حتى وجدنا أنفسنا أمام تلك البوابة العملاقة العظيمة. الجنية مرح التي هي بحد ذاتها من العجائب، وقفت صامتة مبهورة أمام هذه اللوحة الفنية العظيمة، قلت لها:

- هيا نفتح البوابة ونأخذ علوم الشر ونعود أدراجنا.
- إن فتح مثل هذه البوابة بحاجة إلى عشرة آلاف من أمثالك فكيف سنفتحها؟ لا أعتقد يا حسن أننا في موقف يسمح لنا أن نفتح البوابة أو أن نقرر أي شيء، يجب أن ننتظر، لا شيء نملكه سوى الانتظار.

لم ننتظر كثيراً، ظهر في أسفل البوابة، بابان صغيران، أحدهما في يمينه والآخر في يساره، بديا كثقبين صغيرين مقارنة بحجم البوابة، خرجت من

كل باب فتاة، أشارت الأولى إلى مرح أن تتبعها، وأشارت الثانية إليّ أن أتبعها، ترددت قليلاً. حثتني مرح بطرف عينها على الذهاب مع الفتاة، وما هي إلا لحظات حتى أصبحنا خلف البوابة، ثم عدنا لنلتقي معاً، خلف البوابة رأيت ساحة مزينة بأعمدة تشبه ساحة الظلال التي تجاوزناها قبل الأقواس، طلبت الفتاتان أن نواصل السير حين وصلنا إلى نهاية الساحة، ثم طلبتا منا الانتظار، وأثناء انتظارنا سألت مرح:

- لماذا لم يفتحوا لنا البوابة الكبيرة؟ ولماذا أدخلوا كل واحد منا من باب صغير مختلف؟
- أعتقد أن مرورنا من بوابات مختلفة له علاقة بكون كل واحد منا من عالم مختلف.

ثم تابعت ساخرة.

- أما لماذا لم يفتحوا لك البوابة الكبيرة، فيبدو أنهم لم يعرفوا من تكون، وما هي مكانتك، أخطأوا، سامحهم... لم يعرفوا أنك حسن .

فهمت من سخريتها أن البوابة لا تفتح إلا لذي شأن كبير. من بعيد لمحنا فتاة وشاباً، اقتربا منا، وأشارا إلينا أن نذهب معهما، سارا أمامنا ومررنا على حديقة واسعة، كانا يتحدثان ويتمازحان ويتضاحكان، فسألت مرح عم يتحدثان؟ فقالت:

- وماذا يعنيك!؟ أنت فضولي أكثر من اللازم، انهما يتحدثان بأمور غير مهمة، هي تقول له إنها ستذهب مع صديقتها غداً، وهو

يطلب منها أن تخبرها بما اتفقا عليه. وهي تقول: كلا لن أفعل.

هو يضحك والضحكة ليست بحاجة إلى ترجمة، هل ترغب أن اقرأ أفكارهما أيضاً لأشبع فضولك!

لم أكن بحاجة إلى ترجمة، ولم أطلب منها ذلك، ربما لم أجد الطريقة لأسألها إن كنت فعلاً أفهم ما ينطقان به أم أن عقلي يوهمني بذلك، بعد عشر دقائق من مرافقة الشاب والفتاة وصلنا إلى بيت كبير يشبه القصر، لفت انتباهي أن هذا البيت مصنوع من الزجاج، الأبواب والنوافذ والسقف، حتى الأرض مرصوفة بالزجاج... دخلنا البيت، عاد الشاب والفتاة من حيث أتيا، أخذت أتأمل البيت، كان آية في الجمال والذوق الرفيع، جلسنا على مقعدين جميلين عدة دقائق، إلى أن أقبل شاب يرتدي حلة سوداء، اقترب منا دون أن يتكلم، وبإشارة من يده فهمنا أنه يطلب أن نرافقه. سرنا خلفه ووصلنا إلى حديقة ضخمة، حضر مسنان يبدو أنهما قد جاوزا السبعين من العمر. طلب أحدهما أن نرافقه، سرنا أكثر من ربع ساعة بين أشجار لم أر مثيلاً لها، حتى وصلنا إلى جدار يستحيل على العين أن تحدد طوله أو ارتفاعه، طُلب منا الانتظار حتى تفتح البوابة، وفور ابتعاده تحرك حجر عملاق من الصف السفلي للسور مصدراً صريراً قوياً، ثم رأينا بوابة، وقفنا دقائق ننتظر من يدعونا إلى الدخول، وحين لم يحضر أحد، دخلنا البوابة، انغلقت البوابة خلفنا وكأنها تخبرنا أن طريق العودة لم تعد متاحة، كانت الشمس في كبد السماء ودرجة الحرارة في تقديري تتجاوز

الستين، نظرنا حولنا فلم نجد شيئاً نستظل به، وعلى مرمى البصر لم نر إلا أرضاً محروقة انعدمت فيها الحياة:

– هل نقف أم نتحرك؟ أي اتجاه نسلك؟ هل هذه هي النهاية؟

كانت مرح تبذل جهدها لحماية عينيها من أشعة الشمس، مما دل على أنها غير معتادة على رؤيتها، لم تملك إجابة واحدة فاكتفت بإحناء رأسها، فأحنيت رأسي أنا الآخر احتراماً للشمس، ثم سألتها:

– هل خُدعنا لنصل إلى أرض جهنم؟

– أشك في أن هذا هدفهم، ليس أمامنا إلا الصبر والانتظار.

– لن أحتمل حرارة الشمس ساعة واحدة.

– لا خيار أمامنا، فلا مكان نذهب إليه، جسدي قادر على احتمال الحرارة على الرغم من أنني لا أستطيع أن أحيا إلا في الظل، ولكني أصاب بالعمى إن نظرت إلى الشمس طويلاً.

– يبدو أنهم عمدوا إلى هذا حتى نذوق العذاب نفسه يا مرح.

– أشك في أن هذا هو هدفهم.

كان علينا أن نتخذ قراراً سريعاً إما البقاء حيث نقف أو نشق طريقنا في أرض جهنم لعلنا نصل إلى شيء ما، انطلقنا في رحلة البحث عن ظل، وكلما قطعنا مسافة كانت الأرض تشتد سواداً وحرارةً والشمس ترتفع أكثر وأكثر حتى ظهر الأمل من بعيد متمثلاً في سور، أسرعنا إليه حتى نستظل به ونتقي عذاب الشمس، وما إن وصلنا إليه حتى خاب أملنا، فلا ظل له أو أن ظله ذهب ليستريح في الاتجاه الآخر، ربما كنا داخل دائرة من

الأسوار العظيمة التي تحيط أرض جهنم، ما عاد هناك مكان نذهب إليه، حتى الجلوس لأخذ قسط من الراحة كان مستحيلاً، فالأرض تشتعل من تحت أقدامنا، اقترحت على مرح بما أن جسدها قادر على احتمال الحرارة أن تخلع ثوبها لنجعل منه مظلة تقي عينيها وجسدي من الشمس، فابتسمت وهي تظلل عينيها بكفيها وقالت:

- ما تطلبه إهانة لي.
- وما الإهانة في طلبي، أتخجلين أن أرى جسدك؟!
- لو أني لا أعرف مدى سذاجتك لرددت عليك الرد المناسب.

في أرض جهنم هذه كنت على استعداد أن أستبدل جسد مرح الفاتن بجرعة ماء ومظلة تقيني حر الشمس، ولكني وجدت في هذا الحديث متعة أنستني قليلاً العذاب الذي أنا فيه. رغبت في أن أستفزها أكثر، لكني لاحظت حجراً يتحرك أسفل السور ويكشف عن بوابة أطل منها رجل طويل القامة، في ملامحه القوة والشدة والحزم، وكأنه قائد جيوش العالم، سار باتجاهنا وطلب منا بلهجة آمرة أن نتبعه.

كان يسير والأرض ترتعد من تحت قدميه... لم يدخلنا البوابة وإنما سار بمحاذة السور، تبعناه مسافة تزيد على الألفي متر، حتى وجدنا أنفسنا تحت مظلة لم نلمحها سابقاً في أسفلها طاولة مستديرة وعدة مقاعد مصنوعة من الحجر الأحمر، وبلهجة جافة حازمة أمرنا أن نجلس، وما كان بحاجة إلى أن يأمرنا، فقد أسرعنا إلى الجلوس طلباً للراحة، سرّنا أن

الجو رطب تحت المظلة، كان علي أن أسأل وقبل أن تتحرك شفتي، رد علي بطريقة تخلو من أي تهذيب:

- اخرس، لا تتكلم قبل أن أطلب منك.

امتعضت مرح وأطل الغضب من عينيها، ربما لأنها شعرت بأنها ستعامل بالمثل في حضرة حارس جهنم الذي لم يتوقف عن النظر نحونا باحتقار وعجرفة، بعد دقائق من الصمت قال:

- أنا برصاد الحارس الأول لهذا السور والمساحة التي يمتد إليها ظله، أنتما الآن في منطقة نفوذي، لم يحدث منذ أن استلمت قيادة السور أن استطاع أحد أن يخطو خطوة واحدة خلفه، أو حتى أن يلمسه، أياً كان ومن أي عالم كان، كان يكفي التفكير في أن يجتازه أحد لتكون نهايته، ولكن صدرت الأوامر أن أصرف النظر عن مروركما من منطقتي وأمنحكما فرصة واحدة فقط، وعلى الرغم من أن هذا يؤلمني فإني سأسمح لكما بالمرور، وكم كنت أتمنى لو أنكم وصلتما إلى هنا ولم تكن هناك أوامر تقيدني، لأصنع منكما شيئاً من لا شيء، وأحولكما إلى صراره صغيرة أضعها في شق بين أحجار هذا السور، أتمنى أن تسنح لي الفرصة يوماً لألقاكما من جديد دون قيود لأفعل بكما ما أشاء، والآن اطلبا ما شئتما مما أستطيع أن أنفذه وارحلا عن هذا المكان، وإني أحذركما، إن غربت الشمس ثم أشرقت دون أن تتجاوزا حدود ظل السور، فسأعيدكما لتعرفا من هو برصاد، والآن سأعيد كلامي حتى يكون

واضحاً، وإن لم تفهما شيئاً فأسالا حتى تفهما، غداً حينما تشرق الشمس سيكون للسور ظل، ولو كانت قدم أحدكما لا تزال على الظل، فإن لي مطلق الحرية في أن أفعل بكما ما أشاء، هذه فرصتكما الوحيدة لتغادرا عالمي، آه كم أتمنى أن تتاح لي فرصة لاستضافتكما في جهنم برصاد، أفهمت يا حسن يا ابن صفية، ويا كونتتيسا يا ابنة نازك؟

هزت مرح رأسها باستخفاف، وكان واضحاً أنها لم تعتد أن تخاطب بهذه الطريقة... رماها برصاد بنظرة اشمئزاز ثم قال:

- هيا اسألا عن أي شيء لم تفهماه واطلبا ما يسمح لي بتوفيره لكما؟

على الفور طلبت منه الطعام والماء، وفي لحظات حضر عدة أشخاص يحملون في أيديهم أطباقاً مختلفة فيها من جميع صنوف الطعام الذي أعرفه ولا أعرفه، وضعوا الأطباق على الطاولة وانصرفوا دون كلام، بدأت آكل بشراهة وأشرب دون أن أبالي بوجود أحد، وبعد أن أخذت حاجتي من الطعام والشراب لفت انتباهي أن مرح لم تمد يدها إلى شيء، التفتت إلى الاتجاه الآخر شاغلة نفسها بالعبث بشعرها، متجاهلة كل ما يدور حولها، لاحظ برصاد ذلك فقال:

- كلي يا كونتتيسا هذا الطعام الذي اعتدت عليه في عالمك، أنا أعلم حاجتك إليه.

رفعت مرح حاجبيها وأخذت تدور بعينيها مستخفة به، استفز ذلك برصاد فقال:

- لست إلا حشرة مغرورة.

سألنا معاً إن كنا نحتاج إلى شيء قبل ذهابه، فسألته إلى أين تصل حدود ظل السور، فرد بجفاء:

- اكتشف ذلك بنفسك.

هنا قررت ألا أفوت الفرصة، وأطلب ما يخطر ببالي، فسألته:

- هل بالإمكان أن تحضر لنا ملابس وتدلنا على مكان للاستحمام، وإن أمكن أن توفر لنا سيارة تساعدنا على عبر حدود ظل السور؟

قهقهت مرح، واستُفز برصاد لكنه كتم غيظه:

- لا وجود للسيارات هنا.

- سنكتفي بالخيل أو حتى الجمال.

فرفع عينيه للأعلى لأفهم أن طلبي مرفوض. وبما أنه لا توجد أمامي قائمة بالمسموح والممنوع، أخذت أطلب منه كل ما يخطر ببالي، ماء مظلات ملابس حلويات، وأثناء ذلك التفتت إلي مرح، ففهمت أنها تريد أن أطلب لها شيئاً حتى لا تطلبه هي منه. فقلت له:

- اجلب لنا أي شيء يساعد على حماية العيون، ويلائم عيني مرح من شمسك الغريبة، وأفضل أن تكون نظارة شمسية من النوع الفاخر.

ابتسم برصاد ثم قال:

– سأحضر ما طلبته ولكنكما لن تحتاجا إليه.

– بأي اتجاه يجب أن نسير؟

– بأي اتجاه يبعدكما عني.

– هل يمكن أن ترسل معنا مرشداً ليدلنا على الطريق، وواحداً ليحمل أغراضنا.

ضحكت مرح مرة أخرى وتجاهل برصاد طلبي، ثم قال:

– هل هناك شيء آخر؟

فكرت قليلاً ثم قلت:

– لا تنس أن تحضر علبة سجائر وولاعة.

ضحكت مرح بصوت مرتفع استفز برصاد استفزازاً شديداً، ولكنه كتم غيظه، الأمر الذي شجعني على أن أتمادى في إغاظته، وإضحاك مرح في الوقت نفسه:

– أرجو أن تكون السجائر من ماركة (مالبورو)!

هنا لم تتمالك مرح نفسها فانفجرت من الضحك، حتى كادت تسقط من على المقعد الرخامي، وقف برصاد، وخيل إليّ أنه سيمسك مرح من شعرها ويلقيها خلف السور، لكنه تمالك أعصابه. تعمدت مرح أن تستمر بالضحك أكثر وأكثر، سار برصاد باتجاه السور، فنادت مرح عليه وقالت:

– لا تنس (المالبورو)!

التفت إليها والشرر يقدح من عينيه، دخل البوابة التي ظهرت من السور فجأة، وبعد دقائق أطل من بوابة أخرى عدة أشخاص يحملون بعض ما

طلبنا، وعادوا من حيث أتوا دون أن ينطقوا بكلمة، إلا أن مرح قالت لهم وهي تضحك:

- سلموا لي على برصاد.

ثم التفتت إلي وقالت:

- لقد شفيت غليلي، كم أنت ظريف أحياناً لقد جعلتني أستمتع بأسلوبك الساخر.
- لم أكن أسخر، وإنما أردت أن أستغل الفرصة وأطلب ما أشاء.

ضحكت مرح وقالت:

- ولماذا لم تطلب طائرة مثلاً أو حتى أن يحملك هو على ظهره.

ضحكنا ثم سألتها:

- ألم تخافي من ردة فعله، وأنت تتعمدين استفزازه بتجاهلك إياه.
- أردت أن أرد إليه الإهانة، ولم تكن لدي طريقة أخرى، ولو كان مسموحاً له أن يؤذينا لفعل ذلك دون الحاجة لأي استفزاز.
- ما رأيك أن نسرع ونتجاوز حدود ظل السور ونوفر علينا لقاء برصاد مجدداً.
- الخوف والسرعة سيقودانا إلى حتفنا، سنصبر حتى تغرب الشمس ثم ننطلق!

أكلت مرح من الطعام الذي امتنعت سابقاً عن تناوله بوجود برصاد، ثم استبدلت ملابسها أمامي وتعمدت أن تفعل هذا بوقاحة، فسألتها مازحاً:

- لم تخلعي ثوبك حينما طلبت أن نستخدمه ليقينا حر الشمس، والآن تتعرين أمامي ولا تجدين في ذلك أي حرج.
- لو شرحت لساذج مثلك فلن يفهم، إن جسدي مقدس ولا أكشفه إلا إذا أردت ذلك.
- لو طاوعتني وتعريت حينها لثمل برصاد وترك حراسة السور واتبع ظلك.
- ليذهب برصاد وأمثاله إلى جحيمكم قبل أن يشاهدوا جسدي.

بدأت الشمس تميل إلى الغروب، فانطلقنا نسابق الشمس قبل أن تشرق وتصنع ظلاً للسور، كان من المحال أن نحدد المسافة التي علينا قطعها بعيداً عن هذا السور العظيم قبل أن يلقي ظله علينا، اشتد شعوري بالإرهاق وأزعجتني رفيقتي بحثّي المتواصل على الإسراع ومنعي من أخذ أي استراحة لألتقط أنفاسي، حاولت أن أقنعها بأننا تجاوزنا المسافة المطلوبة، وأن ظل السور لا يمكن أن يصل إلينا.

نظرت إلى النجوم، وطلبت أن أريح جسدي قليلاً، وحينما وقفت استعداداً للانطلاق طلبت ألا أتعجل وأن أعطي جسدي ما يحتاجه من راحة، اعتقدت بأننا أصبحنا في مأمن، إلا أنها أخبرتني أننا لم نقطع سوى نصف المسافة، وأنه حان الأوان إلى أن أركض بكل قوتي دون أن أتوقف حتى تنشر الشمس أشعتها، ركضت وركضت بسرعة جنونية، انتشر النور من حولنا ولم أتوقف حتى رأيت ظلي ومن خلفي ظل السور يفترش الأرض حزيناً، فعانقت مرح كتلميذ مدرسة فاز بسباق.

سرنا حتى ارتقينا تلة، ومن فوقها ودعنا أرض الجحيم، ومن فوقها رأينا الخضرة والأشجار والأزهار وينابيع الماء، استمتعنا بقضاء عدة ساعات في النوم واللهو فيما كانت الأشجار تحجب عنا أشعة الشمس، ثم انطلقنا نشق طريقنا دون أن نعرف ما هي وجهتنا.

اعترضت عند الظهيرة طريقنا غابة كثيفة، سرنا عبرها ساعات وساعات، غربت الشمس وأشرقت، ولا شيء يتغير أشجار وأشجار، وكأننا ندور في حلقة تعيدنا كل مرة إلى البداية.

– لماذا لا تستخدمين دهاءك لنخرج من هذه الدائرة المملة؟

فردت ساخرة:

– سنسير ونسير حتى تتحول أنت إلى شجرة وأنا إلى عصفورة أو يظهر من يدلنا على الطريق إلا إن كانت لديك فكرة أفضل.

– ما رأيك أن أتسلق إحدى الأشجار الباسقة؟

– افعل ما تشاء، لا أحد يمنعك.

أخذت أتسلق وبعد دقائق خيل إليّ أن هذه الشجرة لا نهاية لها، ولكن تبين أن لكل شيء نهاية، فقد وصلت إلى قمتها، لم أر على مدى البصر سوى بحر من الأشجار المتشابكة، وقبل أن يخيب أملي سمعت صوتاً فأصغيت جيداً، كان يشبه خرير الماء، استطعت تحديد مصدر الصوت، فعدت أدراجي لننطلق بحثاً عن مصدر الصوت، وكلما قطعنا مسافة ازداد الصوت وضوحاً أسرعنا نصارع الأغصان المتشابكة التي بذلت كل جهدها لإغلاق كل منفذ بالاتجاه الذي نسير نحوه، حتى وجدنا أنفسنا أمام نهر

تحيط به الأشجار من كل جانب، وتحوم فوقه الطيور، وفي أعلى النهر شلال يصدر خريراً تطرب له الأذن ويبهج القلب ويبعث على الراحة والطمأنينة. شدني صفاء ماء النهر وكأنه يلح علي أن أسبح فيه، سحر المكان غمرني بالسعادة وملأ نفسي بالطمأنينة التي ندر أن شعرت بها منذ زمن، أما مرح فجلست على غصن شجرة التوى وكأن الطبيعة أعدته ليكون مقعداً لها، أخذت تتأرجح عليه وهي تتأمل النهر وما حوله، لكن القلق الذي أطل من عينيها فجأة لا يبدو أنه يريد أن يشاركني بهجتي. فقررت ألا أبالي بقلقها. فماء النهر يدعوني إلى أن أغسل همومي، خلعت ثيابي لأعانقه، فاعترضت طريقي كلمات مرح لتفسد علي هذا اللقاء:

- ماذا ستفعل أيها المجنون؟
- أود أن أسبح قليلاً.
- تمهل فصفاء النهر وجماله يبعثان على القلق، لا تقترب منه حتى أتبين حقيقته، وإن صدق ظني فهذا هو النهر الملعون الذي كنت أسمع عنه الحكايات في عالمي.
- ما الذي أثار قلقك؟
- انظر إلى الطيور التي تحوم فوق النهر، ألا تلاحظ أن انعكاسها لا يظهر على وجه الماء، فما سمعته أن النهر الملعون لا يعكس صورة شيء حي.
- وكيف نتأكد من ذلك يا مرح؟

- سنقترب منه بحذر، وإن لم يعكس صورتنا، فهذا يعني أننا نقف أمام النهر الملعون.

اقتربنا من النهر بحذر، وما إن وقفنا بجانبه حتى عكس النهر صورتنا كباقي الأنهار:

- خاب ظنك يا مرح، فالحكايات تبقى حكايات.

هممت بأن أسبح بعد أن خاب ظن مرح، لكن صوتاً جاء من بعيد:

- لا تفعل ذلك.

التفت باتجاه الصوت، فرأيت فتاتين توأمين تبدوان كحوريتين خرجتا من أحد الأساطير، اقتربتا منا ثم أخذتا تتحدثان الواحدة تلو الأخرى:

- إنه النهر الملعون فعلاً.
- صدقت يا كونتنيسا.
- ولكن ما تعرفينه عن هذا النهر شيء بسيط، فلهذا النهر أسرار لا يعرفها أحد.
- فما لا تعرفينه أن هذا النهر يعكس الصورة التي يريدها.
- أنا فادا.
- وأنا نادا.
- نحن حارستا النهر، ومنذ عُهد إلينا بمسؤولية حراسته لم يطفو عليه أي كان ومن أي عالم كان.
- لم يسمع صوته أحد ونجا منه! سنسمح لكما بعبوره أو الابتعاد عنه، ليس لأننا نريد ذلك، ولكن لأن الأوامر صدرت أن نمنحكما

فرصة واحدة فقط، ونحذركما من أنه إن غربت الشمس وكانت أذناكما تسمعان خريره، فإن لنا الحرية أن نفعل بكما ما نشاء.

– وإن انتبهتما فلم يبقى على الغروب الكثير، نتمنى أن نلتقي بكما حتى نتعرف إليكما أكثر.

صوتهما كالموسيقى وجمالهما بهرني، فسألتهما إلى أي مدى يصل خرير الماء وفي أي اتجاه نسير فقالت نادا:

– أي اتجاه يبعدكم عنا؟

لكن فادا أشارت بيدها، فرأيت جسرين من الخشب لم أرهما سابقاً، ثم قالت:

– يجب أن يمر كل واحد منكما على جسر وحده.

لم أتعجل المغادرة، فقد وددت أن أقضي بعض الوقت في الحديث مع هاتين الحوريتين، فقلت مازحاً.

– أتمنى ألا أنجح حتى أعود إليكما.

همست مرح:

– لا تتمن ذلك، توقف عن الثرثرة وأسرع بعبور الجسر.

وعلى الرغم من القلق الذي أطل من عينيها فإني لم أفوت فرصة استفزازها، فتجاهلتها ثم سألت فادا ونادا إن كان بالإمكان أن أصافحهما قبل رحيلي. فقالت نادا:

– لا أظن أنك تود ذلك.

قرصتني مرح قرصة أوجعتني وهي تقول:

– هيا تحرك أيها الغبي، لا تمازحهما أكثر.

- لا تخنقيني بغيرتك.

خطوت باتجاه الحوريتين ثم وقفت على بعد ذراع منهما، فابتسمت فادا وسألتني:

- ماذا تريد؟
- أود أن أصافحكما وأشكركما على مساعدتنا.

فقالت نادا:

- ألا ترغب بقبلة أيضاً؟
- أود ذلك كثيراً

فردت علي فادا:

- أتريد أن تقبلني أم تقبل نادا أولاً؟

الحقيقة أني لم أسعى إلى أن أقبّل أياً منهما، كان هدفي أن أستفز مرح لا أكثر، ارتبكت حينما اقتربت نادا لأقبلها، وما كنت لأتراجع وأهين حورية، اقتربت لأقبل شفتيها، وبأسرع من رمشة عين تحولت إلى أفعى، فاقشعر بدني وعدت إلى الخلف مذعوراً، تعثرت خطواتي أكثر من مرة قبل أن أصل الجسر، وحينما التفت ورائي رأيت فادا ونادا تضحكان، وتلوحان بيديهما وكأنما تقولان مع السلامة.

استقبلتني مرح على الجانب الآخر من الجسر بشماتة:

- ليتها قبلتك وأراحتني منك، أتعتقد أنك بأسلوبك الساخر هذا ستنال إعجابي.

- ولماذا تعتقدين أن كل شيء أفعله يتعلق بك؟ نحن داخل لعبة والكل يسخر منا. وأنا أسخر من الجميع وأستمتع بكل لحظة حتى يقرر من يقرر النهاية. ولكني ما زلت في حيرة، كيف انقلبت هذه الحورية إلى أفعى بهذه السرعة، وأنت يا مرح كنت خائفة منهما أكثر من خوفك من برصاد.
- لقد عرفت منذ اللحظة الأولى، ولم أستطع أن أخبرك فقد كنتَ مبهوراً بجمالهما، ففي عالمنا التوائم المتطابقة لا بد أن تكون من الأفاعي، هذا درس لك حتى لا يغرّك الجمال مرة أخرى. فلدغة واحدة من إحداهن كانت ستمنحك الراحة الأبدية، أما إن لدغتني فستشل حركتي عاماً كاملاً، ولن توفرا خلالها جهدهما لإذلالي وسرقة كرامتي، وهذا ما لن أسمح به يوماً، فهيا نسرع لنبتعد عن هذا النهر الملعون.

أخذنا نشق طريقنا بين الأشجار بسرعة فيما خرير الماء يلاحقنا، وما هي إلا ساعات حتى تلاشى الصوت، حينها شعرنا بالأمان، وفجأة ودون سابق إنذار، ظهرت أمامنا تلال رملية صغيرة وكأن هناك من ألقاها أمامنا، لاحظت أن عددها لا نهاية له على الرغم من أن ارتفاع الواحدة منها لا يتجاوز الأمتار الثلاثة، كم كان في الأمر مفارقة أن ننتقل من سهول الأشجار والورود إلى هذه التلال الجرداء التي تخلو من الحياة، حين أمعنت النظر في تلك التلال قلت:

- يجب أن نعود لجلب الماء فهذه التلال ستعذبنا وتجفف آخر قطرة ماء في أجسادنا.
- بماء أو دون يستحيل عبور مثل هذه التلال، فمع كل خطوة سنخطوها ستتضاعف أعدادها، لن يكون لها نهاية أبداً، هذا في حال كانت حقيقية، لا بد من إيجاد طريقة لعبورها؟
- أليس من قوانين اللعبة أن يظهر شخص ويحذرنا.
- ربما، لننتظر الاستعراض القادم.

تجنبنا الاقتراب من التلال وانتظرنا ساعات طويلة حتى أيقنا أن هذا الجزء من اللعبة لا يشبه ما فات وأن الخيارات أمامنا محدودة، إما الانتظار إلى ما لا نهاية وإما العودة ومواجهة الأخطار، وإما أن نغامر ونشق طريقنا في التلال. كان الانتظار والصبر هما الخيار الأفضل، مر يوم ممل خيم عليه الصمت القاتل في انتظار أن تخرج رفيقتي بحل لهذه المشكلة. اقترحت عليها الكثير من الأفكار فتجاهلتها؛ مما دفعني لاستفزازها، تبادلنا الشتائم وكادت الأمور تصل إلى اللكمات، سألتها ساخراً:

- لماذا لا تستعرضين قدراتك الخارقة في اكتشاف ما تحجبه التلال.
- إنها تلال وهمية، لهذا يستحيل علي المخاطرة بعبورها وإلا سأعلق فيها إلى الأبد، ستكون هذه التلال أشد قسوة من قبة النور.

هنا، خطر ببالي أن أعيد التجربة التي قمت بها مع غادة حينما تسللنا إلى مكتبة حكماء الجن، راقت لها الفكرة وبرقت عيناها فجأة ثم قالت:

- هيا، اجلس تحت هذه الشجرة واسترخ ولا تفكر إلا بي!

– إن التفكير بك لن يجلب لي الاسترخاء.

– بإمكانك أن تفكر بأي شيء آخر ما دمت لن تفتح فمك.

وعدتها أن أبلع لساني وأبحث عما يدفعني إلى الاسترخاء، وفعلاً عدت إلى ذكرياتي مع حبيبتي غادة، فغصت في بحر من الذكريات حتى سمعت صوت غادة يطلب مني أن أعتلي التلة الأولى وأنظر خلفها، فرأيت مدينة قديمة لا تبعد عني سوى مئات الأمتار، طلبت أن أذهب إليها وحين أصل حدودها أستدير باتجاه التلال، وأبحث عن طريق العودة إلى الشجرة التي استلقيت تحتها. استدرت وتركت المدينة خلفي فلم أرى إلا صفاً واحد من التلال فقط تجاوزها لا يحتاج إلى إلا دقائق معدودة وعلى يمنيها ويسارها أرض خضراء ممتدة.

عدت إلى أعلى التلة ومنها رأيت جسدي مستلقياً تحت شجرة، ومرح تضع راحتها على جبيني، فضحكت وأخذت أشير إليها بيدي وأنادي عليها:

– أنا هنا أيتها البلهاء الخارقة، تعالي واتبعيني لأدلك على الطريق.

وفجأة ودون سابق إنذار أخذت أعداد التلال تتزايد حتى وجدت نفسي وسط محيط من التلال، فلم أعد أرى أي شيء، وحينما حاولت التحرك شعرت بأني سقطت بين التلال وأن الأرض تبتلعني تدريجياً، حاولت أن أحرر ساقي فلم أنجح، شعرت بإرهاق شديد يدفعني إلى الاستسلام، في تلك اللحظة شعرت بمرح تمسكني وتطلب أن أنظر إلى الأعلى لأرى الشجرة، وأن أمسك بأحد أغصانها، ففعلت، شعرت بعد أن أمسكت الغصن أن مرح تساعدني على رفع جسدي، طلبت مرح أن أغمض عيني وأفتحهما، حينها

وجدت نفسي مستلقياً تحت الشجرة ويداي مرفوعتان لا تمسكان بشيء. وبختتي مرح لأني لم ألتزم باتباع صوتها فقط، وأن أمتنع عن الكلام أثناء طوافي خارج الجسد، شرحت لي أن الصورة تختلف من مكان إلى آخر، وأن مثل هذه التلال الوهمية تتعاظم فقط حينما نخشاها ونفكر فيها.

أخذنا قسطاً من الراحة ثم تحركنا إلى يسار التلال، وبعد أن قطعنا آلاف الأمتار قررت مرح أن نعبر من بينها، وأوصتني أن أغمض عينيّ وأتخيل أنني أخطو فوق عشب أخضر، ففعلت، وما هي إلا دقائق معدودة، حتى طلبت أن أفتح عيني، فرأيت المدينة التي رأيتها أثناء حلمي أو كما تسميه مرح طوافي خارج الجسد.

لم تكن بذلك القرب الذي اعتقدته، وساعة واحدة من السير أوصلتنا إلى حدودها. اقتربنا من قوس كبير من الحجر يدل على أنه المدخل الوحيد إليها، وأن البيوت التي سنراها أشبه ببيوت القدس القديمة. دخلنا المدينة وأخذنا نسير في طرقاتها، فرأينا عشرات الأشخاص بأعمار مختلفة يرتدون ملابس بيضاء دون أن يأبه أي منهم بوجودنا وكأننا أشباح. تمنينا لو استقبلنا أحد وأرشدنا إلى الخطوة المقبلة، لكن هذا لم يحدث، تجولنا في المدينة ساعات نستكشفها، سرنا بين أهلها وأخذنا نسترق السمع لنعرف من هم، اقتربت الشمس من الغروب ونحن على هذه الحال، فسألت مرح:

- ما قصة هذه المدينة؟
- أخبرني حينما تعرف؟
- هل نحن في مدينة أشباح، أم نحن الأشباح؟

- إنهم يروننا ولكنهم يتعمدون تجاهلنا فقط.
- ما رأيك أن نسألهم عن طريق الخروج؟
- افعل ما تشاء.

اقتربت من أحدهم وسألته عن اسم المدينة وكيف نخرج منها، فكان رده "إن من دخلها يعرف اسمها ولن يخرج منها". احترت في أمره. توجهت إلى شخص آخر، وسألته، فرد علي بالإجابة نفسها، تكررت محاولاتي دون أن أصل إلى نتيجة، لكن ما استفزني أكثر أن مرح اكتفت بالمراقبة وكأن الأمر لا يعنيها، وحين دعوتها إلى إن تجد حلاً ابتسمت ثم قالت:

- لا رغبة لي في المشاركة بلعبة الأطفال هذه ولن أمانع أن تواصل أنت مشاركتهم اللعبة، اذهب واسألهم كيف يمكن أن تلتقي المسؤول عن هذه القرية أو المدينة؟

اعترضت طريق أحدهم وسألته فأجاب:

- اذهب إلى بيته فتلقاه!!
- وأين يقع بيته؟
- بيته في المدينة!!

فقلت لمرح:

- لا بد أننا وصلنا إلى مدينة مجانين.
- ليسوا مجانين ولكنهم يستمتعون بلعب دور الفلاسفة، تعال حتى نعرف إلى أين ستوصلنا هذه اللعبة السخيفة!

أوقفت مرح أحدهم وسألته:

- هل بيت مسؤول المدينة بعيد من هنا؟
- قريب لمن يعرفه.
- هل تراه الآن؟
- لو كنت مكانك لرأيته.

فتركته مرح وسارت إلى البيوت التي أمامها، ثم دقت على باب أحدها، فخرجت عجوز، سألتها مرح:

- هل بيت مسؤول المدينة على يسار بيتك؟
- لو أردت أن يكون على يساري لكان.
- هل البيت الخامس على يمينك هو بيته؟
- لو سألت جار جاري لحصلت على الإجابة.

على الفور توجهت مرح إلى البيت السابع على يمين بيت العجوز، فخرج إلينا رجل ملتح، رحب بنا، فشجعنا ذلك على أن نطلب منه ماء وقليلاً من الطعام، لكنه تجاهل طلبنا، وكأنه لم يسمعنا، وأخذ يعرف بنفسه:

- أنا جيجار، المسؤول الإداري عن هذه المدينة الكبيرة التي لم يدخلها أحد وفكر في الخروج منها لأنها أثرى المدن بالعلم والحكمة. أعلم جيداً أن هذا الأمر لا يعنيكما، وأن هدفكما الخروج من المدينة وليس البقاء فيها، ولكن للأسف الشديد لن يكون هذا سهلاً، لأنكما دخلتما من الباب الوحيد الذي لم يدخله أحد قبلكما، ولكني سأكون كريماً معكما وأمنحكما يوماً واحداً لإيجاد طريقكما

للخروج، وإلا سأضطر لإخراجكما من الباب الذي دخلتما منه، والآن إن كانت لديكما أسئلة فاسألاها ثم ارحلا ولا تضيعا وقتي.

سألته:

- ما اسم هذه المدينة؟
- إنها درب الحكمة ويسكنها من يبحث عن الحكمة من أي عالم كان.

سألناه عشرات الأسئلة، وكان يجيب عنها مباشرة. ثم ودعنا قائلاً:

- أهل هذه المدينة لن يكذبا عليكما، ولكنهم في الوقت نفسه لن يسهلا مهمتكما، إن تمكنتما من الوصول إلى الحديقة الشتوية فستجدون هناك من يساعدكما، والآن اخرجا من بيتي.

انطلقنا نبحث عن الحديقة بسرعة، كنا نعلم أننا لن نصل إليها أبداً إلا بمساعدة هؤلاء المجانين. سألت أحدهم:

- أي طريق يجب أن نسلكها لنصل إلى حديقة المدينة؟
- كل الطرق توصل في النهاية إلى الحديقة.

سألته مرح:

- ما الطريق الأسرع؟
- إن كان لديكما وقت فتعالا خلفي من هذه الطريق.

تركنا وذهب، أردت أن أتبعه لأنه لن يكذب كما قال جيجار، لكن مرح شدتني من ذراعي وطلبت أن نذهب عكس سير الرجل، لأننا فعلاً لا نملك

وقتاً لإهداره بالسير خلفه، سرنا في الاتجاه المعاكس، حتى وصلنا إلى مفترق يؤدي إلى ثلاث طرق، أوقفت أحدهم:

– هل الطريق التي توصل إلى حديقة المدينة من الخلف أم من الأمام؟

– إلى الخلف والأمام.

احترت من إجابته. لكن مرح أخذت تسخر مني، ثم نصحتني ألا أستهلك ذكائي أكثر. انتظرنا حتى مر شخص آخر، فسألته مرح:

– من أقرب إلى حديقة المدينة أنا أم أنت؟

– للذاهب إليها أقرب!

سار في طريقه، اعتقدت أنها فشلت في الحصول على الإجابة، فسخرت منها بدوري، إلا أنها قالت:

– وفر ذكاءك، نحن الذاهبان إليها وليس هو، ومن حيث أقف أنا أقرب!

سرنا في الطريق التي حددتها، ووصلنا إلى نهاية الطريق، لنفاجأ بأنها دون مخرج، وفي نهايتها سبعة بيوت، تأففت من القهر، ومع ذلك كنت سعيداً لفشل مرح. لم يكن هناك أي شخص لنسأله. طرقت مرح باب أحد البيوت، فأطل رجل، سألته مرح:

– هل يوجد من هذا الشارع مخرج يوصل إلى حديقة المدينة؟

– يوجد ولا يوجد.

أغلق الباب في وجهها، عرفنا على الفور أن بيته لا يوصل إلى الحديقة، ولكن أحد البيوت يوصل إليها، فاقترحت عليها أن نطرق جميع الأبواب حتى نصل إلى الباب الصحيح، فقالت:

– سنحتاج إلى سؤالين فقط ونصل إلى الباب الصحيح.

اختارت أحد الأبواب وقرعته، أطلت امرأة، فسألتها:

– إن كان بابك لا يوصل إلى الحديقة فهل الأقرب إلى يمينك أم الأبعد إلى يسارك هو من سيوصلنا؟

– الأقرب إلى يسارك.

أغلقت الباب، فسارت مرح باتجاه أحد الأبواب، أطل رجل فسألته:

– بيتك أم بيت جارك على يساري يوصل للحديقة؟

– إن سألتني فلا تسألي جاري.

أدخلنا إلى بيته وأخرجنا من باب آخر يوصل إلى الحديقة، وقبل أن يغلق الباب قال:

– قرب ينبوع الحكمة ستجدان من يساعدكما.

لم نهدر أي دقيقة وانطلقنا بسرعة نسابق الوقت، وبذكاء مرح وصلنا إلى الينبوع وشربنا منه حتى ارتوينا من ماء ليس كمثله ماء. سألنا المرأة التي كانت بانتظارنا عن طعام فقالت:

– لم يشرب أحد من ماء هذا الينبوع واحتاج إلى طعام.

توجها إلى ساحة المدينة وستجدان من يرشدكما، نجحنا في الوصول بسرعة، ومن هناك انتقلنا للبحث عن برج المدينة ومن البرج إلى المكتبة

ومنها إلى القلعة حتى وصلنا مجلس المدينة، لم يتبق سوى ساعة على الوقت المحدد لمغادرة المدينة بعد أن استنفد هؤلاء العقلاء المجانين كل وقتنا، وأرهقونا بألغازهم اللامتناهية، وإن كانت هذه محطتنا الأخيرة نكون قد انتصرنا عليهم.

على باب المجلس استقبلنا أحدهم ومعه وصلنا إلى قاعة متواضعة، كان ينتظرنا فيها عشرة أشخاص، طُلب منا أن نجلس معهم حول مائدة دائرية من الرخام الأبيض، لكن المقاعد لم تكن بجودتها. طمأننا أحدهم إلى أننا يجب ألا نقلق من إضاعة الوقت، وأنه فور انتهاء الاجتماع سوف يرشدوننا إلى طريق الخروج من مدينتهم، كانوا مهذبين وتركوا لنا الخيار بالموافقة على الحديث معهم أو رفضه، وكالعادة كنت من يرد ومرح تراقب بصمت، وافقت وسألتهم إن كان بالإمكان استبدال مقعدي بآخر أكثر راحة، وإن كان بالإمكان تقديم القليل من الطعام والشراب لنا، فتجاهلوا طلبي بوقاحة، وأخذ أحدهم يلقي محاضرة:

- المدينة التي أنتم فيها اسمها درب الحكمة، شيدت قبل عشرات الآلاف من السنين على أطول حدود لمملكة الشر، أغلب من يعيش في هذه المدينة من كبار السن كما رأيتم، يعيش في مدينتنا أيضاً الكثير من البشر، شيدت هذه المدينة على طراز بعيد عن الاختراعات ورفاهيات الحياة المتجددة، كل من سعى إلى العيش فيها سخّر وقته وحياته للعلم فقط، لا علاقة لنا بأي أمر يدور خارج مدينتنا مهما كان، حتى أنتم لا دخل لنا بما فعلتم أو ما

تنوون فعله مستقبلاً، دخول مدينتنا غير معقد فبالإمكان الوصول إلينا بسهولة عبر مداخلنا الكثيرة، لكن بوابة التلال هي الوحيدة التي لا يمكن الدخول منها، وليس سراً أننا تفاجأنا قليلاً بأنكما اخترتما الطريق الصعبة، كان بإمكانكم الوصول إلى مملكة الشر لو واصلتما السير وبحثتما عن طرق بديلة.

قاطعته مرح بوقاحة:

– عفواً، لم يكن أمامنا أي خيار إلا عبور تلالكم الوهمية، في المرة القادمة سنحرص على البحث عن طرق أخرى حتى لا نزعجكم، لكن فضولي يدفعني إلى أن أسألكم إن كانت لكم علاقة بحكماء عالمي، فما أعرفه أنهم يمتلكون صلاحيات كبيرة، ويحشرون أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة!.

ابتسم أحدهم ورد قائلاً:

– مجلس الحكماء في عالمك شيء وهنا شيء آخر، اهتمامنا بالحديث معكم ليس من أجل مناقشة قوانين وأنظمة... لقد اطلعنا على قصتكم منذ البداية بتطوراتها ومفاجآتها الكثيرة التي لم نتوقعها خاصة منك يا كونتنيسا.

– هل يزعجكم لو خاطبتموني باسم مرح؟

– اعذرينا، نفضل أن نناديك باسمك الحقيقي، هناك أمور كثيرة لم نفهمها في تصرفاتك، وخاصة الانقلاب الكبير والسريع من حارسة إلى متمردة. أما أنت يا حسن، فلم نفهم تقلباتك السريعة من خط

إلى آخر، واستعدادك للتضحية في سبيل عدة أهداف مختلفة في الوقت ذاته، أنتما من عالمين مختلفين في الخواص والتفكير والأسلوب وأشياء كثيرة يطول تعدادها ولكنكما خضتما مغامرة متهورة مجنونة، والأغرب أنكما تعلمان في قرارة نفسيكما أن نسبة النجاح ضئيلة جداً، خاصة أن مغامرتكما انتهت قبل أن تبدأ، ولكنكما مُنحتما فرصة أخرى، فهل يستحق الشيء الذي تبحثون عنه كل هذه التضحية والعناء؟ أنت يا حسن، ما الذي تسعى إلى تحقيقه من وراء هذه المغامرة وأي منطق تتبع؟

اعتدلت في جلستي لعلي أريح مؤخرتي من هذا المقعد اللعين، ثم قلت:

- الحب يا سادة هو منطقي الوحيد!
- وأنت يا كونتنيسا عم تبحثين؟
- أبحث عن إجابة، أنا مثلكم ومثل حسن الذي لم يستطع أن يعبّر عما يدور في داخله. ما الفرق بيننا جميعاً؟ أنتم فلاسفة وحكماء تحللون كل شيء وتبحثون عن إجابات لأسئلة كثيرة في الماضي والحاضر والمستقبل، إن لم تكن هناك أسئلة اخترعتموها وبحثتم عن إجاباتها واختلفتم فيما بينكم حول صحتها، مع احترامي لكم، ما دامت هناك أسرار وأسئلة فستجدون من يبحث عن إجاباتها، كل بطريقته، أليست هذه طبيعتنا جميعاً؟ اسألوا أنفسكم وبصدق، ألا يثير فضولكم سر هذه الأبواب وما تخفيه؟ ألم يفكر واحد منكم، لو كان بمقدوره الحصول على قوة من خلالها يكون هو الوحيد

القادر على التحكم في الأمور؟ لو كنتم خارج بوابة الشر ألن تفكروا بدخولها ومعرفة ماذا تخفي؟

ضحك أحدهم ثم قال:

- كان الأجدر بك أن تسعي إلى أن تكوني حكيمة يا كونتتيسا، أنت بارعة في الحديث ولا يهمك إلا أن تكون إجابتك مقنعة، لو لم نعرفك جيداً لاقتنعنا بمرافقتك والبحث عما تسميه قوة الشر. من حيث المنطق، كل منا قد يفكر في أن يجد طريقة يملك فيها قوة يحكم بها الدنيا بأسرها، وماذا كان سيفعل؟ ربما شرد في خياله إلى أكثر من ذلك، ولكنه في النهاية سيعود إلى أرض الواقع، لا أحد يمنع الأحلام أو يحرّمها، ولكن القلائل هم الذين كانوا على استعداد لأن يفعلوا ما فعلت يا كونتتيسا!! أما أننا لو كنا خارج بوابة الشر لفكرنا بدخولها، فنحن لسنا داخلها حتى تقولي لو كنا خارجها، لقد أخبرناك أن مدينتنا تقع على حدود مملكة الشر، لهذا نحن خارجها فعلياً، ومروركما من مدينتنا لا يعني أننا عقبة أو حاجز في الطريق إلى قوة الشر المزعومة، لو سعيتما للوصول إلى مدينتنا لاستطعتما دخولها بسهولة، دون الحاجة إلى كل هذا العناء والمخاطرة، فأبواب مدينتنا كثيرة، وبإمكان أي كان دخولها والخروج منها دون الحاجة إلى إذن، ما دام يسعى إلى ما فيها وليس من أجل أي شيء آخر كاتخاذها معبراً للوصول إلى غاية.

انتهى من حديثه ليتحدث آخر موجهاً كلامه لي:

- أي حب هذا الذي يجعلك تخوض كل هذه المخاطر؟؟ كنا سنجد المنطق في جوابك لو أنك قلت إنه لا يوجد ما تخسره، وخضت هذه المغامرة بحثاً عن علاج لمرضك!
- أنا لست مريضاً، ومن أجل زوجتي غادة لن أتردد بالتضحية بحياتي!

مر الوقت وكانوا كرماء بأسئلتهم الكثيرة، وبخلاء في كسرة خبز أو شربة ماء. اختتم أحدهم الحديث قائلاً:

- باسمي واسم زملائي، أشكركما على الوقت الذي منحتمونا إياه، وأتمنى أن تتفهما أننا لم نكن نسعى لاستفزازكما، وإنما أردنا أن نحلل بعض الأمور التي كان من الصعب تحليلها دون الحديث معكما، مرة أخرى نحن لا نتدخل في السياسة التي تم رسمت لهذا العالم، ولا نحاول أن نثنيكما عن هدفكما أو أن نشجعكما عليه، نحن على قناعة أننا لا نستطيع أن نعرف ماذا سيحدث لكما في المستقبل، أو ما هي النهاية التي ستصلان إليها. الآن سنرافقكما إلى الطريق التي تخرجكما من مدينتنا. نودعكم ولا نتمنى لقاءكما من جديد.

أنهى المتحدث كلامه فابتعدوا عن الطاولة مباشرة، وطلب منا الابتعاد عنها، فأخذت تتحرك بطريقة غريبة تثير الدهشة وكأن قوة خفية تحركها وتحرك المقاعد معها بنظام وهدوء، ليظهر أسفلها درج يقود إلى سرداب، قال أحدهم:

- هذه هي البوابة، اخرجا منها ولا تعودا! ولا تسألا إلى أين تؤدي لأننا فعلاً لا نعرف، ولا نريد أن نعرف، وداعاً!

بدأنا ننزل الأدراج ومن خلفنا أغلقت بوابة السرداب بطريقة سريعة، ظهر أمامنا ضوء أخضر خافت، بدأنا نسير في السرداب حتى وصلنا إلى نفق قادنا إلى نفق آخر وهكذا دواليك، كنا نميز انتهاء النفق وبدء النفق الذي يليه بتغير لون الحجارة والإضاءة، واختفاء النفق الذي اجتزناه حين نلتفت وراءنا.

قطعنا أكثر من خمسين نفقاً، لا تتشابه في أي شيء، بعضها قصير وبعضها طويل، بعضها واسع وبعضها ضيق. من بعيد بدأ يظهر نور نهاية النفق، وما إن وصلنا حتى تبين أن النور مصدره الشمس، مع أن موعد شروقها لم يحن مقارنة بالمكان الذي كنا فيه، خرجنا من النفق لنجد أن نهايته تؤدي إلى كهف كبير، لم يكن فيه ما يميزه عن كهوف عالمي، حين وصلنا طرف الكهف ذهلت لأن الكهف في أعلى جبل شاهق، الشمس كانت في كبد السماء مما دل على أننا في ساعات الظهيرة، الأمر الغريب الذي لم أجد له تفسيراً أننا أثناء سيرنا في الأنفاق لم نشعر بأي انحدار أو صعود. لم يكن يبدو على مرح أي استغراب أو دهشة، فسألتها:

- كيف حدث ذلك؟
- لا تتعجب، هذا أمر طبيعي جداً، فهم هذا الموضوع يحتاج متخصصاً في دراسة (الأزمان)، هو مثل صعود البشر إلى القمر، تجد أنه أمر طبيعي ومع ذلك يصعب عليك شرحه، ما أعرفه

بصورة عامة أن هناك مساحات على الأرض تتصل مع مساحات زمنية في عوالم أخرى ويبدو أن الأنفاق التي عبرناها كان جزء منها من عالم البشر وأجزاء من عوالم أخرى، لهذا لا يمكن أن نميز الانحدار من الصعود أو الوقت إلا إذا عرفت طول المسافة (الزمنية) لتقدر طولها مقارنة بالمساحة الأرضية، وقد تتفاجأ لو قلت لك إن المساحة التي قطعناها في عدة ساعات قد تكون أخذت من وقتنا أياماً أو شهوراً، لا تسألني أكثر لأن عقلي أيضاً لن يستوعب هذا العلم، وإن درسته يوماً فسأترك كل شيء لأتفرغ لشرحه لك.

- سأنتظر بفارغ الصبر، والآن سأكتفي بالقليل من الطعام قبل أن نبحث عن وجهتنا المقبلة.
- حالياً يجب أن ننزل من الجبل، ومن ثم نختار الاتجاه الذي نسلكه وإن كانت خطتهم تقضي أن نستمر في طريقنا فلا بد أنهم أعدوا من يرشدنا إن لم نكن قد وصلنا إلى نهاية هذه الرحلة، وفي الحالتين سنعرف بعد أن ننزل الجبل، ولمعلوماتك، البيئة التي نحن فيها تشبه طبيعة عالمك فلا ترهق نفسك كثيراً.

ما إن نزلنا الجبل، حتى أصابني الإرهاق واشتد جوعي وعطشي. مر على غروب الشمس عدة ساعات، سرنا طريقنا تاركين الجبل خلفنا، وبعد وقت وصلنا ينبوع ماء تحيطه أشجار مثمرة، اغتسلت وشربت وأكلت بعض

الثمار، اقترحت مرح أن نمضي ليلتنا قرب الينبوع قبل مواصلة رحلتنا باتجاه المجهول، ودون أن أنتظر ردها غرقت في نوم عميق.
سقطت خيوط الشمس على وجهي ففركت عينيّ ورأيت مرح قرب الينبوع تلهو بالماء كالأطفال، ربما استيقظت قبلي وربما لم تنم، لست أدري! ومع ذلك لم أمل من مراقبتها، حتى ملت من اللهو. نظرت إلي والسعادة تغمرها.
انطلقنا مجدداً والجبال المكسوة بالخضرة تحيط بنا، كان الجو لطيفاً، وزادتنا نشاطاً وحيويةً ينابيع المياه التي تعزف أجمل الألحان، غربت الشمس ثم أشرقت، فقلت لمرح:

- استخدمي قدراتك لاكتشاف طريقنا.
- هل مللت رفقتي أم أنك بحاجة إلى صحراء قاحلة تعيد إليك الحماس؟ نعم، بإمكاني اختصار الوقت والطريق لو لم تكن بصحبتي، ولكن مصيرنا واحد، ولن أغامر في أن أفقدك، أنا أجهل هذا المكان وحركة خاطئة قد توصلني إلى مكان لا رجعة منه، ربما يراهن من يلهو بنا أني سأتسرع وأستخدم قدراتي لاكتشاف الطريق فلا أتمكن من العودة، لذلك لا حاجة إلى التهور حالياً.

مر يوم آخر، وفيه بدأنا نشم رائحة البحر، حتى اقتربنا من مياهه التي اختلطت بزرقة السماء، لم يكن يختلف عن أي بحر في عالمنا، جلسنا على الشاطئ نتأمل مياهه الصافية التي لم يعكرها موج.

- أعتقد أنها النهاية يا مرح إلا إذا أحببت أن تقطعي هذا البحر سباحة أو أن تصنعي لنا سفينة، وبما أنك تقولين إننا في جزء هو أقرب إلى عالم البشر فربما اكتشفنا قارة جديدة وأطلقنا عليها اسمينا، قارة مرح وحسن.
- يجب أن نجلس الآن وننتظر، إن لم يرق لك الأمر فاشرب من ماء البحر كما تقول أمثالكم!
- بالمناسبة، هل توجد في عالم الجن بحار كبحار البشر؟

ما إن أنهيت سؤالي حتى ظهرت أمامنا مباشرة سفينة زجاجية صغيرة مثلثة الشكل، وكأنها موجة امتزج لونها بلون البحر، ربما كانت موجودة ولم نرها، أو ظهرت بفعل قوة سحرية، لا أفهم كيف تطفو فوق الماء على الرغم من تناقض شكلها مع قوانين الطبيعة.

قلت لمرح التي كانت تنظر إلى تلك السفينة العجيبة بصمت:

- أتعتقدين أن ظهور هذه السفينة جاء مصادفة، علينا أن نستخدمها لعبور البحر؟
- إنها ليست سفينة يا حسن، أعتقد أنها نهايتنا ونهاية اللعبة، فلا أحد يركبها بإرادته.
- ماذا تقصدين؟
- هذه السفينة مخصصة لنقل المحكوم عليهم إلى قبة النور.
- هل سأسجن معك أيضاً؟

– قبة النور ليست مخصصة للبشر، ولكن قد يكون مصيرك من مصيري!

ضحكت مرح قهراً وقالت:

– لقد كان بإمكانهم إنهاء مشكلتهم معي منذ البداية، ولكنهم خافوا أن أتحول إلى حكاية لهذا خططوا لسجني لأكون مثلاً لكل من يفكر أن يحذو حذوي. جبناء، أرعبتهم فكرة أن أتحول إلى جزء من أسطورة البوابات اللعينة، وإن اعتقدوا أن قبة النور ستقتلني فأقسم أن أحولها إلى قبة كونتنيسا.

لم تهدأ ثورة مرح حتى أطل رجل مهيب، خاطبنا باسمينا وطلب أن نصعد السفينة، ففعلنا، وبسرعة البرق سارت ثم توقفت فجأة، فطلب منا أن نترجل منها، لنجد أنفسنا وسط صحراء شاسعة تحيط بها الكثبان من كل جانب:

– أين نحن، أين البحر اللطيف، كيف وصلنا إلى هنا؟

كل شيء اختفى بلمح البصر.

سألت مرح مرة أخرى:

– هل نحن في قبة النور؟

وقبل أن تجيب أجاب رجل لم أنتبه لوجوده أو ظهر من العدم:

– أنتما في المحطة الأخيرة وان تجاوزتما هذه الصحراء تكونان قد وصلتما إلى الحد الأخير لمملكة الشر، هيا أكملا طريقكما في البحث عن السراب. فأنتما تشكلان نموذجاً متكاملاً من عالمين لأسوأ مستقبل للأجيال المقبلة، وكل منكما يكمل ما ينقص

الآخر من سوء، لا بد أن نقر بأنكما تستحقان الوصول إلى هذه المرحلة، فدعونا نر إن كان ما تبحثان عنه يستحق كل هذ الجهد، أنتما حران الآن وكل قرار ستتخذونه سيعود عليكما بشره وخيره، إن فشلتما في الوصول إلى مملكة الشر فسنكون بانتظاركما، وما أعددناه لكما لن يسركما أبدا!

اختفى الرجل كما اختفى البحر من قبله، فسألت مرح:

- أين اختفى البحر وما هذه الصحراء ومن....
- أرجوك، توقف عن معاملتي وكأني أعلم كل شيء، ربما كان هذا الرجل من المستشارين، وهم أعلى مرتبة ونفوذاً من الكاتو والحكماء. من الواضح أنهم من يقف وراء أكذوبة أبواب الشر التي يستحيل أن يعبرها أحد، وها هم يظهرون ويختفون وكأنهم يملكون مفتاحاً لبوابة خلفية، دعنا من هذا الحديث الذي لن يفيدك في شيء.
- ألا تجدين أن هذه اللعبة سخيفة نوعاً ما، كل يوم نكتشف حقيقة تناقض الأخرى، أشعر بأننا لسنا أكثر من فئران تجارب أطلقوها وأخذوا يراقبون تصرفاتها، ولماذا لا يمنعوننا من الوصول إلى تلك القوة التي يخشون أن يصل إليها أحد إن كان لها وجود أصلاً.
- ربما ما تقوله صحيح، وربما هناك سر ما يمنعهم من اعتراض طريقنا. حالياً هل هناك خيار آخر أمامنا سوى أن نمضي قدماً،

وحتى لو كنا فئران تجارب فلا بد من وجود فرصة، وما علينا إلا أن نبحث عنها.

- عن أي فرصة تتحدثين؟ شخصياً لا يهمني إن نجوت أو مت، فالأمر سيان، أريد أن أعرف النهاية وما هي قوة الشر المزعومة، وأنا على يقين أنك أيضاً لا تعرفين شيئاً، وإلا لما تورطت في هذه الورطة، لقد أردت أنت وحبيبك قومار أن تتجاوزا المستحيل لدخول بوابة الشر إرضاءً لغروركما فقط، ومع ذلك ما زلت تكابرين!! أي إنسانة أنت؟!
- هل نسيت أني لست إنسية؟
- كلا، لم أنس أنك جنية، ولم أنس أنك قبل أقل من ساعة، كنت تبكين، حينما رأيت السفينة.
- ماذا أفعل؟ قل لي أنت؟ إن كنت مغرورة فلا أجد في ذلك عيباً؟ أنا أجرؤ على الاعتراف بأني ارتكبت عشرات الأخطاء، وأن تقديراتي حول بوابة الشر كانت خاطئة، أعرف كل هذا منذ اللحظة الأولى التي فقدت فيها السيطرة على مجريات الأمور، أنا الملامة ولست غاضبة على أحد، ولكن لو اجتمعت قوى العالم فلن تحطم كبريائي. سأبقى فخورة حتى اللحظة الأخيرة بأني كونتنيسا! في بدايتي ونهايتي، في ربحي وخسارتي، فلا خيار أمامي إلا المضي قدماً، لن أستسلم أبداً، سأصنع قدري بنفسي، اللعبة مكشوفة، لم يعد هناك شيء أخفيه أنا أو هم، والأهم من كل هذا أنني أشك

في أن عالماً كبيراً مثل قومار كان سيخاطر بنفسه لو لم يكن متأكداً من وجود شيء خلف البوابات، ربما كنا بالنسبة لهم تجربة فريدة يسعون من ورائها لمعرفة شيء ما، أو التأكد من شيء ما. ومن أجل أن ينجحوا في تجربتهم، منحونا الحرية للتصرف والتفكير على طبيعتنا. إذاً لا بد من أننا سنجد ثغرة نفلت منها، وقد تنقلب الموازين لصالحنا. والآن أنا خيارك الوحيد، فثق بي لأننا في وضع لا يسمح لنا بأن نكون خصوماً، ولا تسأل كثيراً فلن تفيدني أسئلتك كما لن تفيدك إجاباتي!!

- وكيف أفهم دون أن أسأل، والسؤال هو كل ما تبقى لي، لن أمانع أن أتبعك إلى الجحيم! ولكن أن لا أسأل، هذا مستحيل!
- اسأل ولكن ليس في كل شيء، فلم أعد أحتمل أسئلتك عن كل صغيرة وكبيرة.
- سأسأل حول الشيء الذي لا أفهمه فقط.

ضحكت مرح ثم قالت.

- إذاً ستسأل عن كل شيء.
- كلا لن أسأل إلا عن الأشياء المهمة فقط! والآن لا تقولي لي إننا سنبحث في هذه الصحراء العظيمة عن قوة الشر أو إننا سنبقى فيها أياماً، فالموت أرحم.
- ما بك يا حسن؟ قبل قليل كنت تبكي مللاً من الطبيعة الجميلة وينابيع الماء العذبة، على أي حال اطمئن، فهذه الصحراء

العظيمة اللامتناهية لا تزيد مساحتها على مئات الأمتار فقط، وما تراه ما هو إلا تكرار لصورتها بسبب الحواجز الزمنية التي تفصل بين مكان وآخر، ولن نجد صعوبة في المرور عبرها بعد غروب الشمس.

****

بعد غروب الشمس، أمسكت يدها وسرنا على رمال الصحراء، كانت حذرة في كل خطوة تخطوها، حرصت أن تكون خطواتي متوازية مع خطواتها، بحيث لا يسبق أحدنا الآخر خطوة واحدة قد تسبب ضياع أحدنا عن الآخر، وما إن هممت أن أسألها عن المسافة التي يجب أن نقطعها لتجاوز هذه الصحراء حتى وجدنا أنفسنا في مكان غامض يحيط به الضباب، فانطلقنا مجدداً في رحلة استكشاف جديدة.

طرق، ساحات، بيوت لا شيء فيها يلفت الانتباه، لكن ما لفت الانتباه هو الأبراج المرتفعة والمباني العجيبة ومن بينها ما يشبه الأهرامات التي كانت تظهر من بعيد كل ما انزاح الضباب من أمامنا، ولكن كلما حاولنا الاقتراب منها كانت تبتعد أكثر. هنا اختلط الوهم بالواقع فأصابنا الإرهاق الشديد، وعلى أحد المقاعد جلسنا لننال قسطاً من الراحة، اتكأت مرح على كتفي وعلامات الإرهاق بادية على وجهها، ولأول مرة أراها تتثاءب من النعاس، فقلت وأنا أداعبها:

- أرى أنك تتثاءبين كالبشر.

ابتسمت وأغمضت عينيها بدلال. كان الناس يمرون من حولنا، يجلسون على المقاعد يتسامرون ويتضاحكون ويرحلون ويأتي غيرهم دون أن يلتفت أحد إلى وجودنا.

أمسكت يد مرح وطلبت منها أن تستخدم دهاءها في صياغة سؤال يوصلنا إلى كبير هذه المدينة كما حدث سابقاً، فردت علي بغنج ودلال دون أن تفتح عينيها:

– اسأل أنت، أنا متعبة!

– ربما لا يتكلمون لغتي.

– لغة الأفكار واحدة.

أخذت أفكر بسؤال. انتظرت قليلاً فلم يمر أحد، قررت أن أزعج مرح لترفع رأسها عن كتفي حتى أتمكن من أن أتوجه إلى رجل وامرأتين جلسوا على مقعد قريب، ابتسمت لهم، فردوا بثلاث ابتسامات.

– أي اتجاه علي سلوكه حتى أصل إلى كبير هذا المكان؟

بدا عليهم الاستغراب وحاولوا إخفاء ضحكاتهم، ثم رد الرجل:

– ماذا تقصد؟

– أنا أبحث عن الطريق التي توصلني إلى بيت كبيركم المسؤول عن هذا المكان.

– مسؤول عن أي شيء؟

شعرت بأنني في مأزق، فالأشخاص هنا يختلفون عن سكان مدينة درب الحكمة، ارتبكت قليلاً ثم قلت:

– أبحث عن المسؤول عن كل شيء، الكبير الكبير.

بدا الاستغراب على وجوههم، أخفوا مجدداً ضحكاتهم بلباقة، بادرت المرأة الثانية وسألت:

– من أين أنت؟ يبدو أنك من الجنوب ؟؟

– أنا لست من هذا العالم.

بدت المفاجأة والسخرية في عيونهم، ولكن يبدو أن حديثي شدهم، فقالت:

- ربما أنت بحاجة إلى مقابلة أميرة المدينة، اذهب واستأجر عربة ولا شك في أن سائقها سيرشدك إلى العنوان.

شكرتهم، وأسرعت مبتعداً عنهم لأتجنب الإحراج، عدت إلى مرح فبادرتني هذه المرة بالسؤال:

- هل وصلت إلى شيء مفيد؟
- هذه المدينة ليست كالمدينة السابقة، وأقرباؤك من الجن هنا يجيبون عن الأسئلة دون تعقيد أو ألغاز.
- أشك في أن يكونوا من أقاربي، ربما كانوا من أقاربك أنت، المهم هل توصلت إلى نتيجة؟
- اكتشفت أن المسؤولين عن هذه المدينة كثيرون، وأنه يتوجب علينا أن نستأجر عربة لتوصلنا إلى أميرة المدينة.
- أهنئك على ذكائك الخارق، فقد استنتجت ما لا يمكن أن يستنتجه أحد، المسؤولون كثيرون ويجب أن نركب عربة، لقد عرفت كل شيء.

لم تتوقف عن سخريتها ولم أتوقف عن تجاهلها حتى اقتربت منا عربة سوداء تجرها مجموعة من الخيول، توقفت وترجل منها شاب غاية في التهذيب، توجه إلينا وقال:

- مرحباً، أنا رابي، جئت لأصحبكما إلى مجلس الأميرة إن لم يكن لديكما مانع؟

قفزت إلى العربة وبعد ذلك أخبرته أني لا أمانع، أما مرح فقد لامتني بعينيها على تهوري، وأنا أعلم في قرارة نفسي أنها امتعضت لأني سبقتها باتخاذ القرار، وقد وسرني ذلك، وعلى الرغم من ذلك صعدت إلى العربة فهي تعلم أننا بحاجة لتوفير الجهد والتعب في البحث عن عنوان، أي عنوان!! سألت مرافقنا عن هذه المدينة، فاعتذر بلباقة وأدب وقال:

- اعذرني، فأنا مكلف فقط أن أوصلكما، ولا يسمح لي بخوض أي حديث معكما!

جوابه كان كافياً لإسكاتي، فلم أعلق. أخذت العربة تشق طريقها في شوارع المدينة حتى توقفت أمام مبنى دائري بسيط ومتواضع، لا يبدو عليه البذخ أو المبالغة في أي شيء، ومع ذلك فإن كل ما يحيط به يبعث على الراحة والطمأنينة. اقتربت فتاة من العربة، ورحبت بنا قائلة:

- جئت لأرافقكما إن لم يكن لديكما مانع!!!

فقلت لها مازحاً لا أكثر:

- نعم، نحن نمانع.
- لكما مطلق الحرية، هل تفضلان أن أطلب من أحد آخر أن يرافقكما، أم أدلكما على الطريق لتسيرا وحدكما؟

حين رأيت أنها أخذت الموضوع بجدية! قلت لها إني أمازحها فقط ولا مانع لدينا أن ترافقنا، وسألتها إن كان بالإمكان أن نستفسر عن بعض الأمور أثناء الطريق، أم أنها هي الأخرى ممنوعة من الحديث معنا.

- كلا، لست ممنوعة من الحديث معكما، ولكنني أفضل إن لم تمانعا أن تنتظرا لحظات، وستجدان من يجيبكما عن كل أسئلتكما!

سرنا برفقة الفتاة، وملامح مرح تشير إلى عدم الرضا. خاب أملي حين دخلنا البرج، فلم أرَ العجائب التي توقعتها، كل شيء بسيط ومتواضع، الأثاث، الديكور، الرسوم، لا شيء يلفت الانتباه. فتحت الفتاة المرافقة باباً أوصلنا إلى غرفة متواضعة وقالت:

- أرجو، إن لم تمانعا، أن تنتظرا قليلاً في مكتب الأميرة، وبعد دقائق ستحضر لمقابلتكما.

تركتنا وأخذت مرح تجول في أرجاء الغرفة، اقتربت من الكتب وأخذت تلتهمها بعينيها وتنتقل من واحد إلى آخر بسرعة البرق.

- كيف سيكون شكل أميرة المدينة إن كان هذا مكتبها؟
- ستعرف بعد قليل!

انشق الباب وعبرت منه فتاة تحمل بين يديها قطعة خشب مزخرفة عليها عدة أكواب، اقتربت من مرح لتقدم لها أحد الأكواب، وكالعادة قابلتها مرح بتعجرف، وبإصبعها أشارت إلى أنها لا تريد شيئاً. اقتربت الفتاة مني فأخذت الكوب وشكرتها. عادت الفتاة لتشرح لمرح أن هذا الشراب هو الأشهر في المدينة، وتقديمه عادة متبعة للترحيب بكل وافد جديد، وسألتها إن كانت ترغب في شيء آخر لتحضره لها، وعلى الفور خطفت مرح الكوب بطريقة وقحة دلت على أنها تطلب من الفتاة أن تصمت فقط، التفتت الفتاة وسألتني إن كنت أرغب في شيء آخر فقلت لها:

– إن كان يوجد في مدينتكم شيء اسمه قهوة فسأكون شاكراً لك؟

– في هذه المدينة يوجد كل شيء، كيف تشربها لأحضرها لك؟

– حلوة قليلاً إن أمكن.

– سأحضرها حالاً.

خرجت الفتاة .. فالتفت إلى مرح وقلت:

– ألن تكفي عن عجرفتك وتكبرك، على الأقل لا تنسي أننا بحاجة إليهم.

– أنا لست بحاجة إلى أحد، هؤلاء ينفذون الأوامر الصادرة إليهم، ولن يتغير شيء سواء جاملناهم أم احتقرناهم، ولست مضطرة إلى أن أجاريهم في لعبتهم السخيفة.

– متى ستحضر الأميرة؟

– لماذا تسألني؟ هل قالوا لك إني وصيفتها؟ أسأل خدمها لتعرف!

منذ دخلنا البوابة لا شيء يسرني أكثر من استفزازها.

– أنا أسألك لأنك مرح الخارقة التي تعرف كل شيء.

– ما عدت بحاجة إلى أن أعرف شيئاً بوجودك، فحينما تعرف أخبرني؟

توقفنا عن لعبة الاستفزاز حينما عادت الفتاة مع القهوة، قدمتها بمنتهى التهذيب وأخذت ترحب بنا:

– أهلاً وسهلاً بكما، اسمي بندارا، إن لم تمانعا سأجلس لأتحدث معكما.

قاطعتها مرح بضحكة مدوية، اللعينة قرأت ما مر في عقلي، فحينما قالت إن اسمها بندارا خطر ببالي أن أقول لها و"أنا خيارا". ولكني ما كنت لأفعلها. شعرت بالإحراج بعد أن نجحت مرح في إضحاكي، ولا بد أن الفتاة اعتقدت أننا نسخر منها، فاعتذرت على الفور، أخبرتها أن اسمها غريب نوعاً ما، فقالت:

– لا داعي للتبرير، لا يوجد ما يسيء، إن لم تمانعا سأكمل حديثي.

رجوتها أن تكمل، أما مرح فاتكأت بيدها ورأسها إلى المكتب وأخذت تداعب شعرها دون أن تبالي بحديث الفتاة متعمدةً تجاهلها، وبندارا تبذل جهدها لتظهر أنها لا تبالي بتصرفات مرح الوقحة. أنهت الفتاة حديثها، ثم قالت لنا إنها جاهزة للإجابة عن أي سؤال، ولم تنس أن تضيف في نهاية حديثها عبارة "إن لم تمانعا".

غمزتني مرح، ففهمت أنها تريد أن أسأل، فسألت الفتاة:

– متى ستحضر كبيرة المدينة؟

– لا يوجد لهذه المدينة كبيرة.

– أقصد المسؤولة أو رئيسة هذه المدينة.

– أيضاً لا يوجد مسؤولة عن هذه المدينة، يوجد الكثير من المسؤولين والمسؤولات في مجالات مختلفة في المدينة، وليس عنها.

استنفرت مرح عضلات جسدها واعتدلت في جلستها وخيل إلي أنها ستضربها، وبنبرة صوت متهكمة قالت:

– يقصد أن يسألك عن الأميرة!

ردت مضيفتنا على التهكم بتهكم وقالت:

– إن لم تمانعا، أنا هي التي تتحدث معكما.

أشارت مرح بإصبعها وقالت:

– أنتِ الأميرة؟!

– نعم إن لم تمانعي.

عادت مرح لجلستها المستخفة متجاهلة الأميرة المتواضعة، أردت أن أنقذ الموقف، فقلت للأميرة:

– نعتذر، لم نميز أنك الأميرة المقصودة، وإلا لكنا ...

خانتني الكلمات ولم أعرف كيف أختتمها.

– لم يحدث شيء يوجب الاعتذار، وكوني الأميرة لا يتطلب أن تعاملاني معاملة خاصة.

– عفواً أيتها الأميرة، أين نحن؟ ولماذا نحن هنا وعندك أنتِ بالذات؟

– مهمتي كأميرة للمدينة أن أرحب بالقادمين إليها، وأشرح لهم تعاليمنا.

– ولكننا لسنا مجرد قادمين إلى المدينة، وضعنا يختلف بعض الشيء.

– لا أجد أي اختلاف بين أي قادم وآخر.

– نحن لم نأتِ لهذه المدينة من أجل البقاء فيها.

– بقاؤكما أو خروجكما موضوع سابق لأوانه، حالياً لن تتمكنا من المغادرة قبل انقضاء عام.

تأففت مرح وقاطعتها قائلة:

- اسمعي يا بندارا، نحن لا نخطط للبقاء في مدينتك التي لا نعرف اسمها، فلا تهدري وقتنا. لقد جئنا من أجل هدف معين، اسمه قوة الشر، فإن كان لديك ما تقولينه حول هذا الموضوع فتفضلي، وإلا فأعفني من محاضراتك المملة.

أنهت مرح حديثها فارتسمت على شفتي بندارا ابتسامة صفراء، حينها شعرت أن حرباً ستنشب بين بنات الجن في أي لحظة، لكن الأميرة قالت"

- أصغيا إليّ جيداً، من واجبي كأميرة لهذه المدينة أن أطلعكما على تعاليمنا حتى لا تخالفاها، ولا فرق بينكما وبين أي قادم آخر، لهذا قدمت لكما الاحترام الذي يليق بكما، وإن لم تمانعا، سأطلعكما على تعاليمنا حتى تتكيفا معها خلال العام الذي ستقضونه فيها.

قاطعتها مرح باستخفاف.

- نحن نمانع!

ابتسمت بندارا وقالت:

- هل ترغبين أن أستدعي غيري ليطلعكما على التعاليم؟
- لا داعي لذلك، فتعاليمكما لا تهمنا.
- ربما ترغبين في الحصول عليها مكتوبةً بلغتيكما الأصلية؟
- للأسف لا يوجد لدينا وقت للقراءة.
- هل لديكما اقتراح لطريقة ما تساعدنا على أن نسهل عليكما معرفة قوانين مدينتنا؟

- نعم، أقترح ألا تهدري وقتنا، وأن ترشدينا إلى الطريق للوصول إلى مملكة الشر، إن لم نكن فيها، حتى نكون شاكرين لسموك، إلا إن كانت قوانين اللعبة لا تسمح لك بمساعدتنا؟
- لا وقت لدي للألعاب، كل ما يهمني هو تعاليم مدينتي.
- إذاً، سنبحث عن غيرك ليدلنا، شكراً لضيافتك!!!
- رافقتكما السلامة.

لم توفر مرح جهداً للاستخفاف بالأميرة، أدارت لها ظهرها وطلبت أن أتبعها لنخرج من القصر. حاولت أن ألطف الأجواء قبل مغادرتي فاعتذرت للأميرة، فابتسمت لي، وهذا استفز مرح فأمسكت ذراعي وشدتني لأتحرك. وجدت نفسي عالقاً بين الأميرة الهادئة ومرح الشرسة، وحينما ابتعدنا وجدت الفرصة لأنفس عما بداخلي:

- كم أنت بارعة باستفزاز الآخرين وإهانتهم يا مرح، تصرفاتك هذه ستصيبني بالجنون، لماذا كان عليك أن تكوني وقحة مع أن الأميرة عاملتنا بمنتهى الأدب والأخلاق والاحترام؟ هل كنت ستخسرين شيئاً لو أصغيت قليلاً لنعرف أين نحن؟ لماذا لم تمنحينها فرصة، فربما ساعدتنا.
- هل بقي لديك شيء آخر لتضيفه يا أستاذ الأدب والأخلاق، فلتعلم أنني أتصرف كما يحلو لي، وهذا النوع من النساء لا أحبه، وعبارة "إن لم تمانع" أجدها من الكلمات السخيفة التي لم ولن يكون لها مكان في قاموسي، فأنا إن أردت شيئاً أحصل عليه، سواء مانع

الآخرون أم لم يمانعوا، وعلى أميرتك أن تتعلم ذلك لنحترم قوانينها، ولا أجد أي داعٍ للعبة النفاق والتواضع المبالغ فيها.

– تفضلي يا مرح، يا فريدة زمانك، قولي لي أين نحن وماذا يجب أن نفعل الآن؟

– علينا أن نكتشف أين نحن بالضبط وإن تبين أننا في مملكة الشر فعلينا إيجاد علوم السحر، والبحث عن طريق تعيدنا إلى عالم البشر، وهناك أستطيع أن أحميك وأحمي نفسي، وأنا بارعة في ذلك!

لم تكن مرح واثقة من أي شيء، شعرتُ بأنها تتلمس طريقها كأعمى، أخذت تتنقل من مكان إلى آخر وأنا أتبعها حتى أرهقنا السير وحل الظلام وأصابنا النعاس، أكلنا من الأشجار المصطفة على جانبي الطريق، ونمنا تحت إحدى المظلات حتى أشرقت الشمس من جديد. عدنا نواصل بحثنا دون هدف، وحينما رأيت عدة عربات من النوع الذي تجره الخيول بجانب الطريق، اقترحت عليها أن نأخذ واحدة لتريحنا من السير، فلم تمانع.

اقتربنا من إحدى العربات فلم نجد من نستأذنه فركبنا فيها، وانطلقت الخيول تسير ووقع حوافرها كإيقاع موسيقي رتيب، ولكن تلك الرتابة لم تستمر طويلاً، فسرعان ما جنت الخيول وأخذت تسابق الريح، لم ندرِ كيف نوقفها أو لماذا جن جنونها.

– أوقفيها يا مرح قبل أن تتسبب في مقتلنا.

– ستقتلك أنت، أما أنا فبإمكاني القفز من العربة في أي لحظة.

اللعينة على حق، بذلت جهدي لتهدئة الخيول إلا أنها واصلت تحدي الريح حتى توقفت في حديقة برج الأميرة بندارا لتطل علينا وهي تقول:

- أحد قوانين مدينتنا التي رفضتما أن أطلعكما عليها تقول "لا تأخذ شيئاً ليس لك". اذهبا رافقتكما السلامة إن لم تمانعا.

تركنا العربة الملعونة في حديقة الأميرة، وعدنا نسير مرةً أخرى بعد أن أهدرنا يوماً كاملاً بحثاً عن اللاشيء، وبعد ساعات توقفنا أمام لوح من الرخام نقشت عليه رموز ورسوم بلون ذهبي ممزوج باللون الأحمر. سألت مرح:

- هل هذه إحدى لغات الجن؟
- إنها أقرب إلى لغات البشر القديمة.

اصطفت بجانب اللوح المذهب عدة أشجار تحمل ثماراً تشبه المانجا، فمددت يدي وأكلت واحدة، وكذلك فعلت مرح، كانت شهية وأردت واحدة أخرى إلا أنني شعرت بدوار رهيب سقطت على أثره على الأرض وفقدت الإحساس بأي شيء، وحينما عاد إلي الوعي رأيت مرح تعاني مثلي، وحولنا مجموعة من الأشخاص في حديقة الأميرة بندارا التي وقفت فوقنا دون أن تخفي ابتسامة الشماتة ثم قالت:

- من حسن حظكما أننا نراقبكما وقمنا بإنقاذكما في الوقت المناسب وإلا بقيتما فاقدي الوعي والإدراك ما حييتما... أحد تعاليم مدينتنا التي رفضتما الاطلاع عليها أن أشجار الشر كثيرة وثمارها لذيذة، ابتعدا عنها إن لم تمانعا والآن رافقتكما السلامة.

طلبت من المغرورة أن تتنازل قليلاً وتسمح للأميرة بندارا أن تطلعنا على قوانين مدينتها، وكالمعتاد هزت رأسها ثم قالت:

– لن يحدث هذا أبداً.

أهدرنا المزيد من الوقت وحل الظلام؛ فجلسنا نأخذ قسطاً من الراحة تحت إحدى المظلات المضاءة بفوانيس ينبعث منها لون أحمر خافت امتزج بضياء القمر ليشكلا معاً لوناً يسكر العقول، فثملنا دون خمر وضحكنا على الأحداث السابقة.

فجر ذلك المزيج الغريب من الضوء بداخلي شهوات لم أعهدها من قبل، فاقترب منا القمر وغرقنا في هلوسة ممزوجة بالشهوة استمرت ساعات. صحوت عارياً في حديقة الأميرة ومرح مستلقية. ارتديت ملابسي وأيقظت المغرورة التي ما إن رأت ثدييها عاريين حتى أصابتها لوثة من الجنون، فأخذت ترميني بنظرات نارية حتى خيل إلي أنها ستصفعني وكأني أرى جسدها للمرة الأولى، قبل أن تطلب مني أن أشيح بصري، ثم أسرعت لتستر جسدها.

ولكن حينما رأت الأميرة تطل علينا عادت واستلقت على العشب الأخضر وتظاهرت بالسعادة ولم تأبه بما ظهر من مفاتنها وكأنها تعمدت أن تغيظ الأميرة التي كانت أقل جمالاً منها. ابتسمت الأميرة بدورها وكان واضحاً أنها تعمدت ألا تطل علينا سريعاً حتى لا تسبب لنا أي إحراج، وكالعادة تجاهلتها مرح وأخذت تتثاءب، وبعد ابتسامة ماكرة قالت بندارا:

- من حسن حظكما أننا أخرجناكما من دائرة القمر الأحمر في الوقت المناسب وإلا فقدتما عقلكما إلى الأبد. أحد تعاليم مدينتنا تقول "حيث يمتزج نور القمر بالنور الأحمر لا تطل البقاء وإلا سرق عقلك"، والآن رافقتكما السلامة إن لم تمانعا.

أمسكت مرح ذراعي واستدارت مسرعة لتقطع علي أي محاولة للحديث مع الأميرة، ابتعدنا وأخذت أضحك وشر البلية ما يضحك، وقلت لها:

- هل يمكن أن أحدثك "إن لم تمانعي"؟

ضحكت مرح ثم قالت:

- تفضل "أنا لا أمانع"؟
- هل يمكن أن تخبريني ماذا ستفعلين الآن "إن لم تمانعي"؟
- لا أعرف؟؟
- لدي اقتراح، لماذا لا نبقى في حديقة الأميرة بدلاً من أن نعود إليها مرغمين "إن لم تمانعي".
- هل يمكن أن أطلب منك أن تخرس "إن لم تمانع".
- ما رأيك أن أعود إلى الأميرة "إن لم تمانعي"، فربما أستطيع أن أكشف عن بعض الأسرار؟؟
- أي نوع من الأسرار تريد أن تكشف عنه، أخبرني "إن لم تمانع"؟
- كل أنواع الأسرار وخاصة تلك الأسرار البارزة التي أتوق إلى الكشف عنها طبعاً "إن لم تمانعي"؟

- أكيد بندارا لن تمانع أن تكشف عن أسرارها البارزة وغير البارزة، حالياً أنت عالق معي "إن لم تمانع".
- والآن يا مرح ماذا سنفعل؟ هل سنسير في طرقات المدينة "إن لم تمانعي" إلى ما لا نهاية؟
- ولماذا العجلة، أمامنا عام كامل لنستمتع بإغاظة الأميرة وزيارة حديقتها كل ساعة.

ومن طريق إلى طريق أخذنا نسير، ولكن هذه المرة كنا أكثر حذراً من أي شيء نشتبه في أنه قد يكون السبب في عودتنا إلى حديقة الأميرة، حتى اقتربنا من إحدى الطرقات العريضة المرصوفة بالذهب، وعلى جانبي الطريق لوحات رخامية سوداء صغيرة وكبيرة تحوي كتابات بمئات اللغات خطت بلون ذهبي وامتدت على مسافة تجاوزت مئات الأمتار، قلت لمرح:

- هيا ندخل هذه الطريق فهي حتماً مسحورة وستعيدنا إلى حديقة الأميرة.

ضحكت مرح وبدا أن اقتراحي أعجبها، فدخلنا الطريق ونحن نضحك، مرت ساعات حتى أدركنا أن الطريق مسحورة وكأنها تسير معنا، بدأت الشمس تنسحب معلنةً موعد الغروب، وما إن مال قرصها إلى الاحمرار حتى التهبت الطريق فجأة وكأنها أوصلتنا إلى مركز الشمس، لم نحتمل الحرارة فحاولنا الهرب إلا أن ذلك كان مستحيلاً. تعلقت بخيط أمل أن تنقذنا الأميرة قبل أن نحترق، دوار، صداع، هلوسة، وانتهى الكابوس. وحينما أفقنا في حديقة الأميرة كررت كلماتها المعتادة:

– من حسن حظكما أننا أخرجناكما في الوقت المناسب وإلا لذهبتما مع الشمس، فمن تعاليم مدينتنا: "إذا امتزج بريق الذهب بغروب الشمس ابتعد وإلا أخذتك الشمس معها". والآن، رافقتكما السلامة "إن لم تمانعا".

عادت الأميرة من حيث أتت، التفتُ إلى مرح لأجدها ما زالت تعاني من الدوار، خاصة أنها أقل احتمالاً لأشعة الشمس مني فقلت لها:

– أعتقد أننا وصلنا إلى النهاية، يتوجب علينا أن نواجه حقيقة أننا لن نصل إلى أي مكان، وكل الطرق تعيدنا من حيث بدأنا. لا داعي لمزيد من التيه حتى لا تزداد الأمور سوءاً، التجربة الأخيرة ما زالت آثارها تحذرنا من الاستمرار.

– حسن، لقد دخلنا لعبة خطرة منذ البداية، أنت وافقت على أن تسير خلفي وتترك لي معالجة الأمور بالطريقة التي أرتئيها، فدعني أفعل ذلك على طريقتي.

– افعلي ما شئت، فلن تقودينا إلا إلى الجحيم يا مرح.

– "إن لم تمانع" سأفعل ذلك يا حسن.

سرنا من جديد، وخضنا تجارب مؤلمة حتى أصابنا الهوس عن الاقتراب من أي شيء، ومع هذا كنا نقع في كمائن عديدة ونعود إلى حديقة الأميرة بندارا، لتطل علينا وتعيد الموشح المعروف، وتختمه بجملتها المعتادة "رافقتكما السلامة إن لم تمانعا"!

نفد صبري ولم أعد قادرا على مجاراة مرح في محاولاتها الفاشلة التي استمرت أكثر من ثلاثة أسابيع، أما هي فشعرت بأنها قادرة على مواصلة هذه اللعبة سنوات طويلة دون أن تمل، ويبدو أن الأميرة بندارا أيضاً لم تمل من استقبالنا يومياً، لتعيد علينا الكلمات نفسها، ولم يخف علي أني عالق في لعبة كبرياء بين الأميرة بندارا والجنية مرح. قررت أن أتوقف عن مجاراتها، فما عدت قادراً على تحمل الإرهاق والألم، حاولت أن تقنعني بضرورة الاستمرار حتى النهاية مهما كلف الثمن، لكني رفضت حتى يئست ثم قالت:

- حسن، أنا بحاجة إليك مثلما أنت بحاجة إلي، إن توقفت الآن فستدفع الثمن غالياً، يجب أن نحاول ونحاول حتى نجد مخرجاً.
- لن أجاريك ما دمت سأعود إلى حديقة الأميرة فما عدت قادراً على احتمال غرورك وكبريائك أكثر.
- إذاً، ماذا تقترح أن نفعل أيها المجنون؟
- نذهب إلى الأميرة بندارا ونعتذر منها ونطلب أن تشرح لنا قوانين مدينتها ونوفر علينا الجهد والألم.
- إن كنت مصراً فتعال نقوم بمحاولة أخيرة، وإذا فشلنا فافعل ما شئت.

وعلى الرغم من قناعتي بأنها مضيعة للوقت فقد وافقت أن أتبعها في محاولتها الأخيرة، إلا أنها عادت لتقنعني بمحاولة أخرى وأخرى لتجرب ما

جربناه سابقاً دون أن أفهم ما الذي يدور في خاطرها ولماذا تفعل هذا؟ اتخذت قراراً لا رجعة عنه وتوجهت إلى الأميرة فلحقت بي وقالت:

- حسن، لا أعتقد أنك ستسمح لبندارا أن تشمت بي.
- لن أجاري غرورك أكثر.
- لست أنت من يقرر، ستفعل ما آمرك به، ولا أنصحك أن تثير غضبي.
- لن أتراجع يا مرح.
- سترى من الذي يقرر في النهاية، أنت أم انا.
- لقد قررت وسأعود الآن إلى الحديقة وافعلي ما شئتِ أيتها المغرورة.
- تفضل عد أيها المهزوم!
- اذهبي إلى الجحيم!

عدت أدراجي إلى الحديقة، فتبعتني وأخذت تصرخ وتشتم وتهدد إلا أنني تجاهلتها ولم أتراجع، وحين وصلت كانت قد هدأت. فقالت لي إنها لن تسمح لأحد أن يشمت بها ولن تعتذر، فطلبت منها أن ترافقني، وأكدت لها أنني من سأعتذر بالنيابة عنها. استسلمت إلى الأمر الواقع ودخلت البرج. استقبلتنا الفتاة وأدخلتنا مكتب بندارا وبعد لحظات دخلت الأميرة وجلست ثم قالت:

- أهلاً وسهلاً بكما، يسعدني أنكما قد عدتما.

- نحن نعتذر عن خرق قوانين مدينتك، ونرجو أن تقبلي اعتذارنا وتشرحي لنا أين نحن بالضبط والقوانين التي يجب أن نلتزم بها.
- قبلت اعتذارك، ولكني أود أن أسمع إن كانت رفيقتك موافقة على هذا الاعتذار.

أشغلت مرح نفسها بمداعبة شعرها واللعب بأظفارها دون مبالاة، متجاهلة الأميرة بطريقة مهينة. أعادت الأميرة ما قالته مرة أخرى فتجاهلتها مرح أكثر من السابق، وهنا استشطت غضباً وصرخت على مرح لتعطي انتباهها للأميرة، فأخذت تضحك ثم قالت:

- ما بك يا حبيبي، ألا ترى أني مشغولة بترتيب شعري؟
- الأميرة تسألك إن كنت توافقين على الاعتذار؟
- ما بك يا حسن، هل نسيت أنني مرح ويستحيل أن أعتذر لأي كان.

ما قالته مرح وجه صفعة للأميرة، وللمرة الأولى أراها لا تتمالك أعصابها وتكاد تتفجر من الغيظ، ثم قالت:

- كونتتيسا يا صغيرتي، لقد خسرت فلا تكابري.
- وهل يجب أن أتفاجأ من معرفتك اسمي يا سمو الأميرة؟ ولكن إن لم تمانعي نادني مرح!

سخرية مرح من الأميرة بهذا الشكل تجاوزت الحدود وأنذرت باندلاع حرب كبيرة بينهما، ولم يكن بإمكاني عمل شيء سوى أن أستعد للاختباء. عضت الأميرة على أسنانها غيظاً ثم أخفت غضبها مجدداً:

- غرورك ودهاؤك يا صغيرتي لم يسعفاك هذه المرة، وها قد عدت إلي مهزومة، فاعتذري لعلي أصفح عنك.

هذه المرة وظفت مرح كل عضلة في وجهها للاستهزاء بالأميرة:

- حينما أُهزم لن أخجل من الاعتراف بالهزيمة، شريطة أن يكون الذي هزمني أفضل مني، وأنت لن تنالي هذا الشرف الذي كنت ستفخرين به طوال عمرك، وتذكري وذكري الجميع أن كونتتيسا والهزيمة لا يلتقيان، وبصراحة لقد مللت من تمثيلك وتواضعك الزائد، اقتربي وانظري في عيني وواجهي هزيمتك الآن.

اقتربت الأميرة من مرح ونظرت في عينيها ومرت دقائق من الصمت، وكل منهما تغوص في عيني الأخرى حتى ابتسمت الأميرة أخيراً ثم قالت:

- بحق أم الأمهات زاتا، كيف فعلتها يا كونتتيسا؟
- تركت الإنسي يكتشف المكان ويجد الطريق يا عزيزتي.

خلعت الأميرة رصانتها وقهقهت بأعلى صوتها:

- أنت داهية الدواهي يا كونتتيسا ولو لم تتمردي كنت ستفوزين بلقب حارسة الحارسات يوماً ما! خسارة أنك في جانب وأنا في الجانب الآخر وإلا لكنا أفضل صديقتين. نعم، سأخبر الجميع أنك هزمتني وهزمتِ معي جيلاً بأكمله، وسأخبرهم أنك أبرع من عاصرته في التمويه والخداع، لقد استطعتِ خداعي حتى اللحظة الأخيرة، ليت بمقدوري عناقك ولكني لن أنساك ما حييت.

- وأنا لن أنسى يوماً الشرف الذي نلته بمقابلة حارسة عظيمة من الجيل الأول، سأفخر بهذا اللقاء ما حييت، ويحزنني أن يكون لقاؤنا الأول بمثل هذه الظروف، إن لم تمانعي أخبريني هل سألتقي بحارسات من الجيل الأول في طريقي أو داخل مملكة الشر.

ضحكت الأميرة ثم قالت:

- كونتنيسا حبيبتي، لا أحد يرغب في الوصول إلى ذلك العالم الصغير الممل لأنه مصيدة! من دخل إليه لن يخرج منه أبداً! نحن نتواصل معهم من خلف الحواجز الزمنية فقط، ذلك المكان أشبه بالسجن وأنت ذاهبة إليه بإرادتك، لا أعتقد أن أحداً هناك سيرحب بك خاصة أن الجميع سيعرف قصتك قبل أن تصلي إليهم، مملكة الشر التي تبحثين عنها ما هي إلا وهم كبير، لا تخضع لأي قوانين، لن تخرجي منها أبداً، ستموتين من الملل، وسأتركك تكتشفين ذلك.
- هل وصلت إليها يوماً؟
- لا شيء فيها نرغب فيه، لم أفكر يوماً أن أتجاوز الحاجز الزمني وأنفي نفسي بإرادتي، فكل من يدخلها لا يخرج، حدودنا تنتهي هنا عند الحواجز الزمنية.
- ألم تفكري يوماً في أن علوم زاتا وكانا مدفونة هناك.

هزت الأميرة رأسها وضحكت:

– روح زاتا وأفكارها تسكننا ولا حاجة للبحث عن علومها، إن وجدت فلن يكون لها أي قيمة في هذا الزمن.

– ربما، ربما، والآن هل هناك نصيحة من حارسة لحارسة.

– لن أطلب منك العودة لأنه لم يعد لك مكان سوى قبة النور أو الضياع في متاهات الزمن، وبما أنك نجحت في تجاوز العوائق كلها وستدخلين مملكة الشر، أنصحك أن تغتنمي الفرصة وترضي بواقعك الجديد، اذهبي مباشرة إلى مدينة القمر واستقري فيها ولا تقتربي من المدن الأخرى، وخاصة مدينة الشمس لأن أميرتها إن تمكنت منك فستتعرضين للإذلال، ولن يسرني أن يتمكن أحد من إذلال حارسة.

كنت أشعر بسذاجتي وأنا أستمع إلى هذا الحديث الغريب بين أغرب مخلوقتين، كيف تحولتا من قمة العداء والتحدي في لحظة واحدة إلى قمة الاحترام والود والإعجاب، وحينما أنهتا الحديث ودعت الواحدة الأخرى دون مصافحة أو عناق. ثم خرجنا من قصر الأميرة المتواضع، وكانت المرة الأولى التي أكون فيها على يقين بأني لن أعود، هممت أن أسأل مرح فقاطعتني:

– أعرف أنك ستسألني ألف سؤال، وأعرف أيضاً أنك لن تفهم شيئاً مهما شرحت لك، حبيبي حسن، أرجوك، ارحمني من أسئلتك التي لا تنتهي.

قلت متحايلاً.

– لن أسألك إلا سؤالاً واحد فقط ولن أسأل غيره، فقط قولي لي ماذا حدث؟

ضحكت مرح ثم قالت:

– أنا محظوظة لأنك ستسأل سؤالاً واحداً فقط، فكيف لو سألتني سؤالين، فهذا يعني أني سأضطر إلى أن أحكي لك قصة البشر والكونيين منذ البداية وحتى النهاية، لا تقف كالصنم، سأحكي لك ونحن نسير، ولكن لا تقاطعني وتسألني عن أي شيء لم تفهمه، اتفقنا يا حسن؟

– أنا موافق.

صمتت مرح عدة دقائق، ثم قالت:

– ما حدث أننا حينما دخلنا الحاجز الزمني اعتقدنا أننا دخلنا مملكة الشر، لكن في الحقيقة دخلنا سراب مملكة الشر، أي أن كل ما رأيناه لم يكن إلا سراباً، أي انعكاساً لمملكة الشر، باستثناء الطرق التي كنا نسير عليها وما كنا نلمسه. وما رأيناه من بنايات وأبراج وعجائب، كنا نراه من وراء حاجز شفاف، أما الطرقات والعربات والمظلات وقصر الأميرة، فهذه أمور حقيقية ولكنها تقع خارج مملكة الشر، وبندارا ليست أميرة، لا يوجد في هذا المكان سواها ومجموعة من مساعديها الذين ساعدوها على ترتيب كل شيء بإتقان حتى يوهمونا أننا دخلنا مملكة الشر، وبرعوا في خداعنا. كان من المستحيل لأي كان دون أن أستثني نفسي أن يعرف هذه

الحقيقة، فقد اعتقدت أننا في مملكة الشر، ولكن حينما وصلنا إلى برج الأميرة بندارا واستقبلتنا، أدركت فوراً أنني أمام شخصية في غاية في الذكاء وأكبر مني عمراً وخبرة، من هنا تيقنت فوراً أنني مهما استخدمت من دهاء فسأبقى مكشوفة أمامها، وأن فرصتي ستكون ضئيلة جداً إن دخلت معها في لعبة ذكاء تتفوق فيها بمعرفتها تفاصيل المكان وحتى تفاصيل تجربتي وطرق تفكيري، وأنا على العكس من ذلك، لا أعرف من هي، ولا كيف تفكر، ولا أين نحن. معركتي معها ستكون خاسرة مائة بالمائة دون أدنى شك، إلا بطريقة واحدة وهي اللجوء إلى غير المتوقع، فلم تتوقع أن مرح سوف تتصرف بعناد وغباء مطلق، هنا كانت المفاجأة لبندارا، فكل ما عرفته عني ما عاد له أي قيمة. وعليه كان على بندارا أن تفكر بغباء هي أيضاً حتى تجاري غبائي، وطبعاً، كان هذا صعباً عليها، فهي لم تتعامل مع أغبياء من قبل، أما أنا فقد تعاملت مع الكثير منهم، وما زلت أتعامل مع أحدهم، انطلقت بشكل عبثي دون تخطيط، ودون أن أدون في ذاكرتي أي ملاحظة ودون أن أسعى إلى توفير الوقت، كررت أخطائي دون أن أكترث، عدت إلى الحديقة عشرات المرات، والأكثر من هذا أنني استطعت أن أترك ذاكرتي فارغة، لأني كنت على يقين أن الأميرة لن تعجز عن قراءة أفكاري حتى احتارت المسكينة في أمري! لا خطط، لا أفكار، لا أهداف، وهنا شكّت في أن أمراً ما قد أصاب عقلي،

هي غير ملامة، فحتى الأغبياء لا يتصرفون بهذا الشكل، خطؤها القاتل كان أنها انشغلت بتحليل غبائي، ولم تنتبه إلى أن ذاكرتك تسجل كل ما تراه دون أن تسعى لذلك، وعند اللحظة المناسبة اقتحمت أفكارك وحللت كل ما مررنا به واكتشفت حقيقة المكان الذي نحن فيه وكيفية الخروج منه، فاختتمت هذه اللعبة حينما دار بيني وبينها حوار عميق تبادلنا خلاله الأفكار، تفاجأت بما وصلت إليه، أما أنا فقد تفاجأت بأن الأميرة ليست سوى واحدة من الحارسات القديمات لأبواب الشر إن لم تكن أفضلهن أما المكان الذي نحن فيه، فقد رفضت أن تفصح لي عن ذلك، فهناك أسرار كثيرة ما زلت أجهلها. هذا كل ما أستطيع قوله لك، فأرجو ألا تعلق، وأتمنى أن تكون قد فهمت شيئاً، هيا بنا لنخرج من السراب، وندخل مملكة الشر.

لم أعلق، ليس لأنها طلبت ألا أفعل، وإنما لأنني لا أريد أن أشغل فكري في أمور مجنونة لن تفيدني في هذه المرحلة، ومن الجيد أن أريح تفكيري ما دمت برفقة هذه الداهية، لكن ما أثار فضولي هو الاحترام الشديد والحب المميز الذي فاض من عيني كل واحدة تجاه الأخرى. فسألتها عن سبب هذه المحبة.

ردت مرح بزهو وافتخار على الرغم من أنها طلبت ألا أسأل أي سؤال آخر.

- بندارا من نسل زاتا أيضاً وهي بمثابة أخت لي على الرغم من استحالة التقائنا بسبب وضعي الحالي.
- ومن هي هذه الزاتا التي تكرر اسمها أكثر من مرة على مسامعي؟
- فلسفة قديمة تتداولها بعض الجنيات، لكن معظم الجن يعتقدون أنها خرافة.

لأول مرة تجيب مرح عن أسئلتي بمثل هذا الحماس.

صمتت مرح حينما وصلنا إلى الطريق المذهبة، التي كادت الشمس تحرقنا فيها حينما مررنا منها سابقاً ثم قالت:

- هذه الطريق التي ستوصلنا إلى مملكة الشر بعد أن نجمع بين القمر والشمس في لحظة واحدة، علينا أن نعبرها بعد أن نغمض عيوننا حتى نجتاز الأوهام.

اختارت مرح التوقيت المناسب وبعد غروب الشمس انطلقنا بأقصى سرعة، لم يكن قطع تلك المسافة أمراً هيناً، خاصة بعد أن أغمضت عيني وتركت مرح ترشدني، وحينما فتحتهما لم أر سوى الضباب الكثيف.

مر وقت طويل قبل أن يتلاشى الضباب، ليطل علينا رجل الأقواس الأبيض وبجواره رجل أصغر منه عمراً يرتدي ملابس سوداء.

- هل هذا واحد من الخمسة الذين وصفتهم بالسر المختفي منذ أزمان؟

لم تجب، اقترب رجل الأقواس وأشار بيده إلى الرجل الآخر، ثم خاطبنا دون مقدمات:

- آلاف السنين مرت وبذور أكزانتوس مازالت تجد عقولاً تنمو فيها، لقد وصلتما إلى الحد الفاصل بين الظلام والنور، المعاهدة التي أبرمت قبل آلاف السنين تنص على أنه إذا اجتمعت إرادة جني وبشري مستعدين للتضحية بكل شيء من أجل إطلاق علوم السحر فيجب ألا يتم اعتراض طريقهما أو التأثير على قرارهما بالترهيب، وها أنتم هنا، وقد جسدتم السوء بوحدتكما، وبعد ألف متر ستصلون إلى الجزء المنسي من الأرض الذي لم يدخله أحد وخرج. لن نعترض طريقكما ولكما أن تختارا العيش بسلام في تلك المنطقة الصغيرة، أو مواصلة السعي خلف أوهام أكزانتوس.

لم أرغب في مقاطعة صاحب الرداء الأسود لأسأله عن الكثير الكثير، وحين أنهى آخر كلماته اختفى ومعه رفيقه صاحب الوقار وضاعت مني الفرصة، فلم أجد أي معنى لهذا الاستعراض سوى أنه ومن معه أكدا أنهما أرادا للأمور أن تأخذ مجراها الطبيعي دون أي تدخل من طرفهما، ربما كان هذا نوعاً من التحذير وربما تحمل رسالتهما هذه شيفرة سرية لن أرهق عقلي في فكها، ألف متر وسط الضباب الكثيف كانت المسافة التي تفصلنا عن المملكة الغامضة. سرنا وسط الضباب دون أن أحسب المسافة التي أقطعها، وبسرعة انتقال النائم من حلم إلى آخر وجدنا أنفسنا ندخل إلى عالم، تجاوز حتى الخيال.

****

تبعثرت كلماتي فلم أجد أبلغ من الصمت في وصف ما أراه، وقفت مشدوهاً ومبهوراً أراقب الماضي والحاضر يلتقيان في تناسق عظيم، أين أنا؟ في أي عالم؟ وكأن ريح الجنون أصابتني، هل أنا في الماضي أم الحاضر؟ على كوكب الأرض أم على كوكب آخر؟ في عالم الجن أم عالم البشر؟ ومع كل صورة أراها يدور في ذهني ألف سؤال وسؤال، من أسأل غيرها:

- أين نحن يا مرح إن لم أكن أحلم؟

كانت شاردة الذهن، فأعدت السؤال:

- لا أدري، لسنا في عالم البشر ولا في عالم الكونيين، ما تراه مزيج من عالمين.

لم تملك الإجابات عن أسئلتي وعدت أتأمل ما أرى، كنت أرى طرقاً عريضة مرصوفة بقطع صغيرة من الفسيفساء الملون، وعلى جوانب الطرق أعمدة مضاءة بفوانيس مزخرفة، وبين كل عمودين مجموعة أشجار لم يسمح لها أن تتطاول على الأعمدة، ومع ذلك سمح لها أن تتشابك لتصنع ظلالاً تحيط بها الورود المصفوفة بعناية ونظام غريبين، أما النوافير فلا تبتعد الواحدة عن الأخرى سوى عدة أمتار، وإلى جانب كل نافورة لوح حجري من الرخام خطت عليه رسوم وكتابات غريبة، وبجوارها مقاعد حجرية تنادي للجلوس عليها، وعلى مد البصر آلاف البيوت القديمة والحديثة اصطفت هي الأخرى بطريقة عجيبة محاطة بالأشجار والورود

دون أن تستطيع أن تحجب جمالها. ما عاد للوقت أي قيمة. وبإمكان قوة الشر – إن كانت موجودة – أن تنتظر، حتى أستمتع بروعة هذا المكان. انتقلنا من طريق إلى أخرى. شدنا البرج الدائري العملاق الذي يعانق السحاب حتى اختفت قمته، انساب من أحد جوانبه شلال ماء بألوان قوس قزح، لم أفهم كيف يمكن رفع كل هذا الماء إلى أعلى البرج ليصب في نهر صغير لا يتجاوز عرضه المترين ثم يشق طريقه مبتعداً عن البرج، أثار المشهد فضولي فاتبعت النهر لأرى إلى أين ينتهي، سمحت للنهر أن يكون مرشدي في رحلة تأمل هذا الجمال الذي يبهر الأبصار، وبينما كنت أتبعه لمحت من بعيد عظمة التاريخ فأخذت أركض دون وعي كطفل صغير يسعى إلى حضن أمه، كنت أرى مصر، أم العرب والدنيا، كانت الأهرام بعظمتها وشموخها وأبهتها تقف شاخصة أمامي، فلم أفكر لحظة إن كانت هي الأهرام نفسها أم نسخة طبق الأصل عنها، كل ما أردته في تلك اللحظة هو عنوان أحس معه بالأمان.. ساعات طويلة وأنا أركض كطفل صغير، أنتقل من مكان إلى آخر، فيما مرح تتبعني صامتة دون أن تعترض طريقي أو تعلق بكلمة واحدة، ومع ذلك كانت حريصة طوال الوقت ألا أغيب عن نظرها، ليس حباً فيّ وإنما لأن مصيرنا واحد، كم أحببت إحساسي بأن حارسة أبواب الشر تحولت إلى حارسة حسن، مع أني أعلم أنه لن يطول الوقت حتى تحقق هدفها وتلقي بي من أعلى أول برج في طريقها.

شعرنا بالإرهاق، فجلسنا على مقعد حجري خلفه نافورة وحولهما عدة أشجار غرست بترتيب يدعو إلى الإعجاب بحيث إن ظلالها ارتبطت بحركة الشمس ليبقى المقعد تحت الظل أينما كان موقع الشمس دون أن يحجب عنه السماء. ارتفعت مياه النافورة عدة أمتار حتى توهمت أن الماء سيسقط فوق رأسي، تتعكس ظلال الأشجار على المياه المندفعة من النافورة لينعكس على المقعد ظل الظل. خطر ببالي أن مثل هذا المقعد وما يحيط به لو كان في عالمنا لتحول إلى قبلة للسواح، ومع هذا يبدو هنا أنه لا يبهر أحداً غيري، بعد راحة واصلنا رحلة الاستكشاف، وفي طريقنا توقفت عربة سوداء تجرها خيول بيضاء، خرج منها شاب بهي الطلعة ثم قال:

- تفضلا معي، الأميرة في انتظاركما.

ركبنا العربة فمازحت مرح:

- هل نحن أمام أميرة ومسرحية جديدتين؟

- لنصبر.

توقفت العربة أمام بوابة قصر كبير، فاستقبلتنا فتاة ثم رافقتنا إلى القصر الذي كان في غاية الفخامة والروعة، ومن صالة إلى صالة، وصلنا إلى مكتب فخم، طلبت الفتاة أن ننتظر إلى حين حضور الأميرة، فمازحت مرح:

- هذه المسرحية تليق بمستواك.

وقبل أن تفتح مرح فمها، فتح الباب ودخلت امرأة غاية في النعومة والأناقة. ومع كل كلمة تنطقها بدا كم هي لطيفة ومحبة وحنونة. أخبرتنا أنها أميرة

مدينة القمر وأن اسمها باندا، كانت ودودة، لم تتوقف عن الابتسام، وخلت نظراتها من المكر، خاطبتنا باسمينا وكشفت لنا عن أنها كانت تتابع رحلتنا منذ يومها الأول. رحبت بنا، وأبلغتنا أننا نملك الحرية المطلقة في البقاء والخروج والعودة متى نشاء، مؤكدة أننا لن نواجه أي تعقيدات إلا إن تسببنا بالأذى لأي من سكان المدينة أو ممتلكاتها، وبعد أن انتهت بالتعريف بمدينتها التي أطلقت عليها مدينة "الإرادة الحرة" ابتسمت وخاطبت مرح:

– كونتتيسا، أنت مجنونة حقاً، ومع هذا أنا معجبة بك.

فاجأتني مرح بتهذيبها وأسلوبها اللطيف الراقي خلال حديثها مع الأميرة.

– أنا سعيدة بلقائك، ولم أتوقع أن الطيبة والرقة تسكنان مدن المملكة حتى أنني بدأت أشك في أنني في مملكة الشر.

سُرت الأميرة بإطراء مرح، فاستعذت بالله من نهاية هذه العلاقة، فعلاقة مرح بالأميرة بندارا بدأت بعداء وانتهت بمحبة، أما علاقة مرح بأميرة القمر فقد بدأت بمحبة، فهل ستنتهي إلى مصيبة؟

سألت الأميرة:

– هل نحن في مملكة الشر حقاً، أم أننا سنكتشف أننا في مكان آخر مثلاً؟

– أنتما فعلاً في مملكة الشر.

– ما رأيك أن تخبرينا أين نجد قوة الشر وتريحينا من البحث عنها؟

ضحكت الأميرة ثم وجهت سؤالها إلى مرح:

– أخبريني أنت يا كونتتيسا، ما هي قوة الشر التي تبحثين عنها؟

أجابتها مرح بعينيها وحاجبيها بأنها لا تعرف؛ مما أضحك الأميرة، التي قالت:

- أكُل هذه المخاطرة من أجل شيء لا تعرفينه، كيف لو أنك تعرفين حقيقة هدفك، ماذا كنت ستفعلين؟ أتصدقين لو أخبرتك أنه لا يوجد أحد يعرف ما هي قوة الشر.
- لماذا إذاً أطلقوا على هذا المكان اسم مملكة الشر.
- اسم قديمة يعود إلى عشرات الآلاف من السنين، هناك قصة موغلة في القدم لم يثبت أحد صحتها، تقول إن هذا المكان كان يضم مملكة كبيرة حكمها ملك شرير، أشعل الحروب وأراد أن يحكم كل شيء بالقوة، لكن مملكته دمرت بالكامل ولم يبق لها أي أثر، وعلى أنقاضها بنيت خمس مدن، لكن الاسم القديم غلب على المكان.
- قصة جميلة يا باندا، لكن لا تنسي أنني كنت حارسة إحدى بوابات الشر، ولم يسمح لي أن أخطو خطوةً واحدةً بعد الحاجز الأول، فلماذا كل هذا الجهد والصرامة... إن لم تكن هناك فعلاً "قوة ما" يُخشى أن يقوم أحد بالسيطرة عليها؟
- لا أنكر أنه توجد أسرار هنا وفي كل مكان، ولكن ما أعرفه أن الوصول إلى مملكة الشر أمر هيّن، أما الخروج منها فهو المستحيل، لأنها أشبه بجزيرة صغيرة وسط محيط، ولطالما وصل

إلينا أشخاص من عالم البشر والكونيين، ولكن لم نسمع أن أحدهم جاء بحثاً عن خرافة غيركما.

هنا سألتها:

- إن لم يكن أحد خرج من عالمكم فكيف تصلكم أخبار العالم الخارجي؟ وكيف عرفتم بقصتنا وقدومنا؟
- نحن نعرف الكثير مما يدور في الخارج، ولأنكما قادمان إلى مملكتنا، اهتممنا بمتابعتكما. أما الاتصال بنا فيتم عبر الحواجز الزمنية، وأعتقد أن كونتنيسا قادرة على أن تشرح لك كيف يتم هذا.

أطل الحزن فجأة من عيني الأميرة، فسألتها مرح:

- ما سبب الحزن الذي خيم عليك فجأة؟
- صراحةً، ينتابني إحساس بأن شيئاً سيئاً سيحدث بسببك يا كونتنيسا، لا أدري ما هو، وأتمنى أن أكون مخطئة.
- أرجو أن تكوني مخطئة، لأنني لا أتمنى أن أكون السبب في حدوث سوء لأي كان، والآن أيتها الأميرة، أخبريني إن كانت هناك أمور يجب أن نعرفها عن الممنوع والمسموح في مدينتك، وهل لنا الحرية بالمغادرة إلى باقي المدن والعودة وقتما نشاء؟
- مدينة القمر تختلف عن المدن الأربع الأخرى، فالكل مرحب به في أي وقت، وبإمكانه المغادرة متى شاء ما دام لا يسبب أذى لأحد.
- أرجو أن تأذني لي أن أتجول في المدينة.

أشارت مرح أن أبقى في حضرة الأميرة إلى حين عودتها، فشعرت بالامتعاض لأنها ستتركني وبدا ذلك واضحاً علي، فهمست بأذني:

- استمتع بوقتك، فلن تجد أجمل منها في مملكة الشر، لا تخف سأعود من أجلك.

اختفت كلمح البصر، بينما كانت الأميرة تراقب ما يحدث وتبتسم، شعرت بالإحراج مما ظهر علي من استياء لترك مرح لي. فاجأتني الأميرة بسؤال:

- أتحبها يا حسن؟

- لا أحبها، وإنما اعتدت على وجودها.

لم يقنعها ردي، فقالت:

- ربما، والآن ما رأيك أن تحدثني عن عالم البشر؟

أخذت أحدثها عن عالم البشر وهي تصغي إليّ باهتمام شديد كطفلة صغيرة تروي لها جدتها حكاية ما قبل النوم. بعد ساعات طلبت أن أذهب لأرتاح ثم أعود لأكمل لها قصة البشر. رافقني أحدهم إلى مسكن فخم بجوار القصر خُصص لاستقبال الضيوف، وقدم لي كل ما أحتاجه، غرقت في نوم عميق ولم أفق منه إلا في ظهيرة اليوم التالي. اغتسلت وتناولت ما قدم لي من طعام. جاء من يرافقني إلى القصر ومنه إلى حيث كانت الأميرة تجلس على أرجوحة في الحديقة.

عدت أروي لها حكاية البشر، كانت تسأل عن كل شيء وكأني ملم بكل شؤون البشر. أصابني الملل ولم أجد طريقة لأتخلص من أسئلتها، اضطررت أن أجاري سموها فاخترعت قصصاً وحكايات، لفت انتباهي أن

الأميرة تنظر إلى شيء خلفي، فالتفت بدوري لأتفاجأ بأن مرح تقف خلفي، وبخفة ريشة اقتربت وجلست بجانب الأميرة دون حتى أن تستأذنها، أخذت مرح تضحك وهي تقول:

- واصل يا حسن حديثك عن عالم البشر الرائع المثالي المليء بالحب، الخالي من الكراهية والقتل والسرقة والخيانة... إلى الدرجة التي دفعتكم إلى خوض الحروب بحثاً عن التسلية.

نظرت باندا إلى مرح ثم قالت:

- أنت تسخرين يا كونتتيسا.
- ولماذا أسخر، أيعقل أن أسخر من هذه المخلوقات الرقيقة اللطيفة الرائعة المثالية.

ابتسمت باندا واستأذنتنا لتتركنا وحدنا تاركةً خلفها انطباعاً جديداً عن لطفها وأدبها، وحين ابتعدت قلت لمرح:

- كلك ذوق يا مرح، أكان هناك داع لإحراجي أمام هذه "الهبلة".
- أنت "الأهبل" الوحيد هنا، أتظن أنها صدقت أكاذيبك عن البشر، هي فقط تجاريك، في هذه المدينة لك حرية الكذب وللآخرين حرية التصديق، خلال جولتي علمت أن الأميرة باندا ذكية ولماحة وصاحبة علم كبير، ولا أشك في أنها أخذت عنك انطباعاً جميلاً.
- هل وجدت قوة الشر؟

- لم أبحث عنها، ولكني كنت أدرس تاريخ هذه المدن وأبحث عن الأسرار التي تخفيها كل أميرة، حتى اكتشفت تناقضات غريبة وغير منطقية بين كل مدينة ومدينة.
- إن إحساسي يخبرني يا مرح أن ما نبحث عنه موجود تحت هذ المدن وليس فوقها، وإن صح أنه يستحيل الخروج من هذه المملكة، فهذا يعني أن هناك شيئاً يخشون انتقاله إلى الخارج.

شرحت لها وجهة نظري حول أين يمكن أن نجد ما لا نعرف ما هو! فأصغت إليّ باهتمام شديد ومدحت منطقي، وانطلقت مسرعة دون استئذان حتى أنني لم أستطع أن أستوقفها لأسألها متى تعود.

من بعيد لمحت الأميرة تخرج من بوابة القصر قادمة نحوي، فبدأت أبحث عن طريقة أحسّن فيها صورتي إن صح ما قالته مرح بأنها تجاريني لا أكثر ولا أقل. حتى اقتربت وجلست على الأرجوحة من جديد ثم قالت:

- أين ذهبت صديقتك المجنونة هذه المرة؟
- ذهبت لتحضر لنا بعض الشطائر.
- لم أعلم أنك جائع، ولكن لا حاجة إلى أن أطلب أن يعدّوا لك الطعام لأن من الذوق أن تنتظر شطائر كونتتيسا.

ابتسمت من ظرافتها ثم قلت:

- هل يمكنك أن توضحي لي ماهية مملكة الشر؟
- سأوضح لك ما أعرفه، أما ما لا أعرفه فلن أخترع لك إجابات مثلما فعلت أنت، مملكة الشر تقع في الجزء المنسي من الأرض،

وسط الحواجز الزمنية بين عالم البشر والكونيين، لها خواصها المادية التي تختلف عن الخواص الموجودة في عالم البشر وعالم الكونيين، مداخلها كثيرة ولا يوجد لها مخرج واحد، هذا ما أعرفه وما قرأته عنها.

– أتظنين أني سأفهم مصطلحات لم أسمع بها من قبل كالجزء المنسي من الأرض والحواجز الزمنية وتداخل العالمين والمخارج والمداخل ومواصفات مدنكم العجيبة، شكراً لشرحك على أي حال، ولكن أريد أن أفهم شيئاً واحداً، هل سأخرج من هنا يوما ماً؟

– لم يحدث أن خرج أحد من مملكة الشر أبداً فلماذا تسعى إلى ذلك؟.

– لا بد أن مدينتك أروع ما في الوجود، خاصة أنك أميرتها، وليتني أستطيع البقاء فيها إلى الأبد... ولكن جذوري وانتمائي إلى عالم البشر، حيث عائلتي وأبناء جنسي. لم أحضر إلى هنا إلاّ من أجل هدف واحد.

– وهل هدفك الوحيد قوة الشر؟.

– هدفي الأول والأخير هو إنقاذ حبيبتي وزوجتي من قبة النور، وسأتعلق بأي وهم من أجلها وكل الأهداف الأخرى لا قيمة لها.

ابتسمت باندا ثم قالت بلهجة لا تخلو من الخبث.

– أتقصد كادنتا التي تخليت عنها ووقعت في حب أختها كونتنيسا، هل للبشر طرق في الحب لا نعرفها!!

- معك حق، أنا لست مثالياً حتى أخلو من العيوب والضعف، لا أنكر أنني انسقت وراء غرائزي واندفعت كالمجنون وراء جسدها بعد أن هيأت لي كل الأجواء، لكن غادة هي حبي الحقيقي، وستبقى كذلك إلى الأبد، قولي ما تقولين، ولكن لو خيرت بين أن أملك العالم أو غادة لاخترتها هي.

أخذت باندا تصفق ثم قالت:

- نعم، لقد تعلمت من كونتنيسا فلسفة الإقناع، ولكنك لا تعرف أن الكونية قادرة على أن تتسامح مع كل شيء، إلا أن يخونها "شريك العهد"، والكونية إن أعلنت عهد الارتباط فإنها لا تخونه أبداً، ولكنها لا تصفح عن شريكها إن خانها.
- أختها هي التي خانتها ولست أنا، ستتفهم أنني من البشر والبشر لا يخلون من لحظات الضعف.
- هذه الفلسفة لن تقنع كادنتا، عهد الارتباط مقدس، ولا فرق إن كنت من البشر أو الكونيين. كونتنيسا لم تخن أختها، في عُرف الكونيات لا يعتبر هذا الأمر خيانة، بل هو أمر طبيعي، الكونية تعتبر خائنة في نظر الجميع في حالة واحدة فقط، وهي إن تسترت على هذه العلاقة، هذا قانون الكونيات ولعبتهن في الكشف عن الشريك الخائن، فلا تحلم للحظة واحدة بأن كادنتا ستصفح عنك وتخرج عن قانون الكونيات، من حسن حظك أنك لن تلقاها مرةً أخرى، لتشهد ردة فعلها حينما تخبرها كونتنيسا بخيانتك... هذا

هو القانون يا حسن، الكونية لا تتستر على خيانة شريك كونية أخرى!

- لا أريد أن أصدق هذا الهراء، فلو كان هذا الكلام صحيحاً لما تزوج أحد في عالم الجن، إلا المجانين.
- على العكس، لا أحد يخاف من الارتباط، ولكن لا أحد يجرؤ على خيانة عهد الارتباط المقدس بعد أن يعلنه.
- أنا واثق من أن زوجتي غادة شيء آخر، مميزة في كل شيء، لا أعتقد أنها ستهتم بمثل هذه السخافات، كما أنها لم تحدثني عن هذا القانون، لو كانت تهتم به لطلبت ألا أتجاوزه، فليس ذنبي أنني أجهل هذا القانون؟

ضحكت باستهزاء ثم قالت:

- إن كنت تبحث عما يريح ضميرك فلدي ما سيحررك من عذابك، قبة النور هي النهاية التي تسبق النهاية الأبدية، وهي أشبه بحكم إعدام الجسد عند البشر، لم يدخلها أحد وخرج منها، هي العقوبة القصوى عند الكونيين، ولا يوجد أشد منها عقوبة. كادنتا لم تكن مجرمة ولا متمردة، لقد خالفت القوانين دون أن تقصد إيذاء أحد، حتى أن معرفتها بالقوانين مغلوطة، لأن مكانة عائلتها أتاحت لها أن تعرف أشياء كثيرة من غير مصادرها، وبالتالي عرفتها بطريقة مشوشة، وبزواجها منك خرجت من تحت وصاية عائلتها، وبتخليك عنها أصبحت تحت وصاية الكاتو، وعقابها لن يكون أكثر من

حرمانها من حرية اتخاذ أي قرار حتى تبلغ سن الرشد وبعد ذلك تعود إلى حياتها الطبيعية، أما أنت، فقد قادك حظك التعس إلى أن تحب من بين ملايين الجنيات أخت واحدة من أكبر الدهاة في عالم الكونيين، فقررتْ أن تضعكَ في مخططاتها التي فاجأت الجميع بها من أجل الوصول إلى هنا.

أنهت حديثها، وكم كان بودي أن أقفز من مكاني وأحضنها وأقبلها بدافع الشكر والامتنان لأنها زفّت إليّ أجمل خبر سمعته في حياتي... غمرني شعور بالراحة والسعادة بعد أن عرفت الحقيقة، لا سجن ولا قبة نور ولا عذاب ولا شيء من كل هذا حصل لغادة، إنها تحيا بأمان وسلام، بعيداً عن الأوهام التي زرعتها الداهية مرح في عقلي.

– شكراً لك... شكراً لك يا ألطف وأظرف وأجمل أميرة في الوجود. أرغب في أن أسألك من باب الفضول لا أكثر، غادة ومرح متشابهتان، ولو رآهما أحد معاً لاعتقد للوهلة الأولى أنه أمام توأم، إن كانت غادة لم تبلغ السن القانونية، وأنتم تنظرون إليها كطفلة صغيرة، فكم يكون عمر مرح؟

ضحكت ثم قالت:

– كونتتيسا قبل أن تتمرد كانت عضواً في مجلس الكاتو وحارسة أحد أبواب الشر، ولك أن تتخيل كم يحتاج الكوني من الوقت للوصول إلى هذين المنصبين.

– كم عمرك أيتها الأميرة إن لم يكن سؤالي محرجاً؟

- الأعمار لا تحرجنا، بل هي فخر لنا، ولكن إن قلت لك ستخمن كم يكون عمر كونتتيسا بالمقارنة مع عمري. وبصراحة أريد أن تسألها أنت، حتى لا تتفاجأ، سأقول لك فقط إن جدك طفل صغير بالنسبة لي، وأنا طفلة صغيرة بالنسبة لكونتتيسا.

استمر حديثنا ساعات، وكانت الأميرة غاية في اللطف، حتى حانت لحظة الوداع، فعلمت أنني لن ألقاها مرة أخرى، طلبت من يرافقني إلى بيت الضيافة فبت ليلتي فيها، وفي الصباح جاء رجل عرفني إلى نفسه، باسم همانا. علمت أنه مكلف الاهتمامَ بي ومساعدتي إن رغبت في البقاء وأن يرافقني إلى حدود المدينة إن رغبت في الرحيل. فكان خياري البقاء، على الفور وفر لي سكناً مؤقتاً متواضعاً جداً، علمت أن هذه المساعدة تقدم لكل وافد جديد، اصطحبني في جولة في أنحاء مدينة القمر، شاهدت ما وصلت إليه من نظام وجمال وتناسق، سكانها لطفاء وظرفاء ومتعاونون في كل شيء، ينجذب الفرد إليهم بسرعة، ولا يمل منهم.

كلما تجولت في المدينة أكثر ازداد تعلقي بها، حتى أيقنت أن من الجنون مجرد التفكير بالخروج منها، وفي غياب مرح لم أجد أمامي إلا أن أفكر بجدية في أن أستقر في هذه المدينة، وعلى ذكرها ظهرت، وقبل أن تلقي التحية، قالت:

- استعد لمغادرة المدينة.
- أين اختفيت يا مرح؟

- لقد تركتك في أكثر الأماكن أمناً وأمضيت وقتي في دراسة ماضي هذه المملكة وحاضرها حتى اكتشفت أين سنجد المعلومات التي ستوصلنا إلى قلعة أكزانتوس، حيث علوم السحر تقبع منذ دهور طويلة، عليك مرافقتي الآن، فربما سنجد القلعة في أي لحظة.
- لماذا تكبدت كل هذا العناء ولم تذهبي وحدك يا مرح؟
- سترافقني، وسأشرح لك فيما بعد، ثم إنني وعدتك أن آخذك معي وسأفعل.
- هذا ليس السبب، قولي الحقيقة.
- أنا بحاجة إليك ولا تسأل أكثر.
- لم أعد أصدقك، لقد كذبتِ علي كثيراً.
- لم أكذب عليك، فكل ما قلته لك حدث.
- وغادة يا مرح، ألم تخدعيني كل الوقت بشأنها... .
- لم أكذب عليك بخصوصها، ولم أكن ملزمة أن أشرح لك كل شيء.
- أنت كاذبة يا مرح ومخادعة... .
- إن كنت تسمي هذا كذباً فلك ذلك، ولكن هل تفضل لو كنت صادقة وكانت كادنتا مسجونة فعلاً في قبة النور؟
- لديك تبرير لكل شيء، من الذي أخذ غادة مني، ألست أنتِ وأتباعك، وبعدها حمّلتني المسؤولية وطلبت مني إنقاذها، ممن يا

مرح، كان يجب أن أعرف أنك أنت وراء كل شيء، وبعد كل هذا تطلبين أن أثق بك.

- أنا أنقذتها، ولا تنس أنها أختي قبل أن تكون زوجتك، لو لم أفعل لتورطت معك أكثر وأكثر ووصلت فعلاً إلى قبة النور، هي أختي، فلماذا تلومني؟ ألأني كذبت عليك بشأنها؟ هكذا هي الحياة، لو كنت واضحة معك لما استطعنا أن نصل إلى هذه المرحلة، وهل كان عقلك سيستوعب مثل هذه الأمور، أنا لم أؤذك ولم أؤذ أحداً من أفراد عائلتك. لقد سرنا معاً من أجل هدف مشترك، لا يهم الأسلوب الذي اتبعته ما دامت هناك نتائج.
- لقد رافقتك من أجل غادة فقط.
- وأنا أعدك أن تلتقي بها مرة أخرى.
- ولكني خنتها وقانون الجنيات لا يسمح بذلك.
- دعك من هذه السخافات، فقانون الكونيات في عالم الكونيين وليس في عالم البشر، وكادنتا لن تهتم بهذه السخافات إن كانت تحبك فعلاً.
- ولماذا أخرج من هذا النعيم وأسير خلفك من جديد لأعود إلى عالم المتاعب والأمراض، هنا على الأقل أجد كل شيء جميل لا أجده في عالم البشر.

استشاطت مرح غضباً ثم قالت:

- حسن، أتريد أن تثير جنوني؟ ماذا تريد بالضبط؟ كادنتا أم المعرفة أم اللعب، قرر ماذا تريد أولاً؟
- فقط أريد أن أثق بك يا مرح لا أكثر؟
- يجب أن تثق بي يا حسن، والآن هيا حتى لا نهدر الوقت، فأمامنا الكثير، وإن حالفنا الحظ فربما هي أيام ونكون قد وصلنا إلى غايتنا.

****

رافقتها وأنا أعلم أننا سنتجنب الخروج من البوابة الرئيسة لمدينة القمر، وأننا سنتسلل سراً عبر الحدود الخلفية، لأن من هناك سيكون من السهل الوصول إلى بقية المدن دون أن نلفت انتباه أحد، لم يمر وقت حتى وصلنا إلى غابة صغيرة، وحينما التفت ورائي لم أعد أرى إلا الضباب الذي حجب كل أثر لمدينة القمر. واصلنا السير عدة ساعات حتى وصلنا إلى جدار لا يبلغ ارتفاعه أكثر من أمتار ثلاثة، ومن خلفه رأينا أشجاراً فسرنا بمحاذاته بحثاً عن بوابة نعبر من خلالها، وبعد أن فقدنا الأمل بالعثور على مدخل، تسلقنا الجدار، وما هي إلا دقائق حتى كنا نسير وسط أشجار كثيفة امتدت أميالاً، نجحنا في تجاوز الأشجار لتظهر أمامنا خمسة أقواس متجاورة ومن خلفها كان بالإمكان أن نرى أن جميعها توصل إلى طريق واحدة عرضها بعرض الأقواس مجتمعة. وقفنا نتأمل الأقواس بحذر شديد وعلى الرغم من تشابهها فقد كانت الرسوم والرموز في أعلاها مختلفة. وهنا سألت:

- ما جدوى هذه الأقواس ما دامت جميعها توصل إلى الطريق نفسها؟
- ليس كل ما تراه حقيقة، فكل قوس يشير إلى رمز مدينة واسمها ويدخلنا من طريق مختلفة، حتى لو كنت ترى خلاف ذلك. سأترك لك حرية اختيار المدينة التي سنبدأ البحث فيها أولاً.
- بما أن النجوم بارزة للعيان فلماذا لا نبدأ بمدينة النجوم.

دخلنا عبر قوس النجوم فلم أر أنني وصلت إلى طريق غير التي كنت أراها، وحينما بدأت الطريق تضيق تدريجياً لم أجد منطقاً في أن هذه الطريق قد توصل إلى أكثر من مكان، فاعتقدت أن الأقواس مجرد خدعة. ضاقت الطريق أكثر إلى الدرجة التي يستطيع بالكاد شخصان السير فيها معاً، حتى أوصلتنا إلى جدار لا يتجاوز ارتفاعه نصف متر، كان تسرعي في تجاوزه أسرع من كلمات مرح التي حاولت أن تمنعني في الوقت الضائع، تبعتني وهي تلومني:

- تهورك سيهدر وقتنا، ما كان عليك أن تتجاوز حدوداً دون حذر.

سرنا حتى اعترض طريقنا جدار عظيم يستحيل تسلقه، فسرنا بمحاذاته حتى وجدنا بوابة متواضعة، عبرناها دون أن يعترض طريقنا أحد، فوجدنا أنفسنا نسير على طريق مزينة بالنجوم أوصلتنا إلى قصر عظيم رأيته سابقاً. فقالت مرح:

- يتوجب أن نجد طريقاً تبعدنا عن القصر حتى لا نهدر الوقت في لعبة الأميرات، فهدفنا الوصول إلى المكتبة ومغادرة المكان دون أن نلفت الأنظار إلينا.

بحثنا عن طرق بديلة تُجنبنا الاقتراب من القصر، فتبين أنه يستحيل دخول المدينة من مدخلها الخلفي إلا عبر المرور بالقصر، ولم تكن مرح مسرورة بذلك، عدنا إلى القصر وانتظرنا طويلاً قرب البوابة عسى أن تطل علينا أميرة جميلة مثل باندا، تستقبلنا وتطلعنا على قوانين مدينتها أو تلعب معنا لعبة الألغاز. ولكن كل هذا لم يحدث، وقبل أن ينفد صبري أطل من الباب

رجل تجاوز طوله الأمتار الثلاثة يرتدي قبعة على شكل نجمة، كان أطول رجل أراه في حياتي، أشار إلينا أن نتبعه، قادنا إلى عريشة قذرة تحت شجرة وطلب أن نجلس هناك، وحذرنا من الاقتراب من بوابة القصر، وحين حاولت أن أسأله رماني بنظرة من الأعلى إلى الأسفل ثم أدار ظهره متجاهلاً إياي ... لم يغب طويلاً حتى انفتحت بوابة القصر واندفعت باتجاهنا فتاة ترتدي ثياباً غريبة مزينة بالنجوم وقد بالغت كثيراً في تبرجها، وحينما اقتربت منا سقط التاج المرصع بنجوم ذهبية من على رأسها، التقطته وواصلت اندفاعها نحونا، وحين وصلت إلينا أخذت تلتقط أنفاسها وهي ترمينا بنظرة حاقدة كانت كافية أن ندرك أن يومنا هذا لا يبشر بالخير، لم ترحب بنا ولم تعرف على نفسها وإنما أخذت تسأل بعصبية:

- هل أرسلتكما شرشريتا لسرقة نجمة القصر؟

أحنيت رأسي وبتهذيب قلت:

- لسنا لصوصاً ولا نعرف من تكون شرشريتا.
- لماذا لم تدخلا المدينة من بوابتها الرئيسة واخترتما أن تدخلاها من الخلف وتتجاوزا الحدود الممنوعة مثل اللصوص؟
- اغفري لنا، فنحن مجرد غرباء.
- وأنت أيتها الفتاة، لماذا لا تدافعين عن نفسك إن لم تكوني لصة لشرشريتا.

لم تكتف مرح برفع حاجبيها استخفافاً بالأميرة، وإنما التفتت إلي وأشارت دون أن تنطق، ففهمت أنها تريد أن أسألها.

- عذراً يا سيدتي، من تكونين؟
- أنتما تعرفان جيداً من أكون فلا تدعيا الذكاء.
- للأسف نحن غرباء، ولا نعرف فعلاً من أنت.
- إذاً سأعرفك أنت وهذه الخرساء من أكون.

أشارت إلى صاحب الأمتار الثلاثة وقالت:

- قدهما إلى السجن وعرفهما من تكون سعنونة.

هز الطويل رأسه متبرماً، كان واضحاً أنه لم يكن راضياً عما تفعله هذه السعنونة، انتظر حتى غادرت وطلب أن نتبعه، أدخلنا إلى إحدى صالات القصر الفارغة حتى من مقعد، ثم طلب أن ننتظر إلى أن تستيقظ الأميرة وتقرر ماذا يجب أن تفعل بنا. سرني أن هناك أميرة أخرى غير هذه المجنونة، مرت ساعة قبل أن يعود الطويل ويطلب منا مرافقته لمقابلة الأميرة، وفي طريقنا من صالة إلى أخرى ظهرت السعنونة التي تفاجأت بوجودنا فأخذت تصرخ على الطويل:

- لماذا لم تسجنهما وتعرفهما من أكون؟
- لقد طلبت والدتك الأميرة أن تتعرف إليهما أولاً.

سرنا خلف الطويل ومن ورائنا السعنونة تشتم وتتهمنا بأننا لصوص، وصلنا إلى ممر عريض يخلو من أي شيء، وفي آخره أربعة مقاعد على إحداها تجلس امرأة تشبه السعنونة حتى في ملابسها وتاجها، طلب منا الطويل أن نجلس وحمل الكرسي الرابع وأبعده، وكأنه أراد بذلك أن يمنع السعنونة من الجلوس. رحبت بنا الأميرة قائلة:

– أهلاً وسهلاً بكما، أنا أميرة مدينة النجوم، أعتذر منكما عن استقبال ابنتي لكما بهذه الطريقة الوقحة، ولكن أرجو أن تعذراها، فلم نعتد أن يدخل مدينتنا أحد من البوابة الخلفية، لهذا اعتقدت أنكما لصان أرسلتهما شرشريتا لسرقة نجمة القصر.

صرخت السعنونة من بعيد مقاطعةً والدتها بمنتهى الوقاحة:

– بل هم لصوص أرسلتهما شرشريتا لسرقة نجمتك يا أمي.

وبحركة من طرف عين الأميرة اقترب الطويل ورفع السعنونة عن الأرض وحملها على كتفه وابتعد بها وهي تصرخ "إنهما لصان يا أمي". واصلت الأميرة الأم حديثها.

– اعذراها فشرشريتا لم تترك مدينة إلا وسرقت منها شيئاً، وقد حاولت عدة مرات سرقة نجمة القصر لإهانتي فقط، ولهذا السعنونة مرعوبة وتشك في كل وافد جديد، والآن بما أنني أعرف أنكما لم تعبرا مدينتي لتقيما فيها، وصراحة لا أرغب في ذلك أيضاً على الرغم من حاجتي لزيادة عدد سكانها بعد أن سرقت شرشريتا الكثير منهم، مع هذا لا أستطيع أن أطردكما قبل مرور ثلاثة أيام، وأتمنى أن تكونوا لطيفين وتغادرا بأسرع وقت حتى لا تنزعج السعنونة أكثر ويصيبيكما مكروه.

نطقت مرح أخيراً:

- لن أشغل بالي بانزعاج السعنونة، ويروق لي أن أمضي الأيام المسموح بها في مدينتك، إلا أن وفرت لي الأجوبة التي أبحث عنها، ففي هذه الحال سأغادر فوراً.
- في مدينتي لن تجدي شيئاً، وإن كنت تبحثين عن خرافات قوة الشر فاختصري الطريق واذهبي إلى شرشريتا، فعندها ستجدين الأكاذيب كلها.
- ما دمت تعرفين هدفي، فلماذا لا تعرفيني باسمك وتخاطبيني باسمي؟
- أميرات المدن كلهن يعرفن من تكونين وعن أي شيء تبحثين، لهذا أشك في أن أحداً سيرحب بك باستثناء الأميرة باندا وأميرة الشمس، أنا لا أرحب بوجودك هنا، لهذا لا أرغب بمخاطبتكما باسميكما، ومع هذا لن أطردكما قبل مرور ثلاثة أيام ولن أتمكن أيضاً من حمايتكما من السعنونة إن لم تغادرا في الحال.

عادت مرح لوقاحتها المعهودة فقالت:

- لست بحاجة إلى مساعدتك.

استدارت مرح وخرجت بطريقة مهينة للأميرة، فما كان مني إلا أن تبعتها بعد أن ودعتُ الأميرة بطريقة مهذبة تليق بسنها ومكانتها. خرجنا من باب القصر المعاكس للباب الذي دخلنا منه وسرنا في طريق أوصلتنا إلى مدينة النجوم وعلى الرغم من جمالها فإنها لم تصل إلى روعة مدينة القمر وعظمتها، ولم يميزها إلا ذلك الهوس بكل ما له علاقة بالنجوم، بحيث

يستحيل أن ترى شيئاً هناك لم يأخذ شكل نجمة، حتى الأشجار هذبت أغصانها لتشبه النجوم. طوال جولتنا كنا نلاحظ أن السعنونة تراقبنا من بعيد دون أن تقترب وخلفها الطويل يراقبها، وفي طريقنا لاحظنا أن أغلب من صادفناهم من أهالي المدينة يتحاشون الاقتراب منا، وهذا استفزنا كثيراً، وحينما حاولت مرح أن تسأل عن مكتبة المدينة ابتعد عنها كل من تسأله.

بعد جهد جهيد وصلنا إلى المكتبة، فانشغلت مرح بمطالعة الكثير من الكتب، حاولت أن أفعل مثلها لأشغل نفسي ولكني لم أجد بينها ما أستطيع فهمه، وهنا لاحظت أن هناك امرأة في الثلاثين من عمرها تتسلل باتجاهي وهي حريصة ألا يراها أحد ثم قالت وهي تهمس:

- هل باستطاعتي أن أساعدكم
- لماذا يتحاشى أهل المدينة الاقتراب منا.
- أهل المدينة ودودون للغاية ولكن الكل يتحاشى إغضاب السعنونة فقد أوصت الجميع ألا يتحدث معكما، وبصراحة فإننا جميعا نتمنى أن تتمكنا فعلاً من سرقة نجمة القصر، وإن نجحتما في ذلك فسيكون هذا أسعد يوم في حياتنا.

قبل أن أسألها عما تقصده، اقتربت مرح وسألتها الكثير من الأسئلة عن محتويات المكتبة وأرشيفها، وحينما منحتها الإجابات التي تريدها، أسرعت مرح إلى المغادرة وهي تناديني أن أتبعها لنغادر المدينة. لم يرق لي أن أبدو كتابع لمرح فأصررت على أن أواصل حديثي مع المرأة المهذبة، إلا أن مرح قالت:

- لا داعي إلى أن تورط هذه الفتاة الظريفة بما لا طاقة لها به، يجب أن نبتعد بأسرع وقت عن هذه المدينة المملة وإلا لن نخرج منها أبداً.

أخذنا نسير في طريق معاكسة للطريق التي جئنا منها، فسألت مرح عن السبب، فأوضحت لي أن السعنونة تراقبنا ولن تسهل خروجنا من المدينة، فتعال لنلعب معها قليلاً ونوهمها أننا نسعى إلى الخروج من المدخل الرئيس، أسرعنا باتجاه البوابة الرئيسة وكانت السعنونة بانتظارنا هناك مع عدد كبير من حرسها والطويل يقف جانباً يراقب، حاولت مرح أن تقنعها بفتح البوابة والسماح لنا بالخروج إلا أنها ردت بأنها لن تسمح لنا بالخروج قبل عام.

لغة جسد مرح دلت على أن أمراً ما يقلقها، ولكن لا يعقل أن مثل هذه البلهاء قادرة على إخافتها وهي التي لم تخش من هم أعظم منها، شعرت بأن مرح تجاريها وهي تقول:

- لم لا، سنبقى لعام وعشرة أعوام إن وفرت لنا مكاناً نقيم فيه.
- ناما في الشارع.
- وهل تعرفين من أنا قبل أن تعبثي معي يا صغيرة؟
- لقد عرفت أنك كونتنيسا، وأخبرت الجميع عنك، ولهذا أريد أن أعبث معك لأثبت أن السعنونة قادرة على هزيمتك.
- هل تعتقدين أن فتاه سخيفة مثلك قادرة على هزيمة كونتنيسا؟
- نعم، وسأثبت للجميع أن السعنونة تستطيع أن تهزم كونتنيسا.

- أنت جريئة أيتها الفتاة، ولهذا سأقوم بجولة في المدينة، ثم سأعود لأخرج من هذه البوابة، وأنصحك أن تهربي قبل عودتي حتى لا أصنع منك مثلاً لأهل هذه المدينة.

استقبلت السعنونة ما قالته مرح ببهجة حتى إنها كادت ترقص فرحاً. تركناها خلفنا وأخذنا نتجول في المدينة، وحين سألتها إن كانت جادة في تحديها السعنونة، طلبت مني أن أستعد للركض بأسرع ما أملك من قوة حينما تطلب ذلك، وهذا ما حدث، فبعد ساعة حين وصلنا نقطة قريبتنا من القصر تركتني لاستكشاف الطريق، ثم عادت لتطلب مني أن أتبعها بهدوء. تسللنا الى القصر بهدوء مثل اللصوص وخرجنا من الاتجاه الآخر لنعدو في الطريق نفسها التي قدمنا منها. لم تتوقف مرح عن التلفت وراءها حتى خرجنا من الأقواس الخمسة وعدنا إلى نقطة البداية.

- لماذا هربت من السعنونة بهذه الطريقة المهينة؟
- صحيح أنني مغرورة كثيراً ولكنني لست حمقاء لأخوض معركة خاسرة. أنا لا أعرف شيئاً عن السعنونة، وفي الوقت نفسه من الواضح أن الكل يخشاها حتى والدتها الأميرة، علاوة على أنها في مدينتها وبين حراسها، فما أدراني بقوتها وما أعدّته لي، فلماذا أعطيها الفرصة لتهزمني وتذلني، في المقابل، لو تبين أنها مجرد مجنونة ولا تستحق كل هذا الحذر فأي نصر سأحقق من العبث معها، في هذه الحالة ستتفاخر بأن حارسة أبواب الشر قد تحدتها وسيسخر مني الجميع بصرف النظر عن النتيجة، حالياً الكل يعلم

أن لا أحد قادراً على الخروج من المدخل الخلفي وسيعتقدون أننا ما زلنا داخل المدينة، وهذا سيمنحنا الوقت للتسلل إلى بقية المدن والاطلاع على أرشيفاتها قبل أن تنتشر الأخبار وتصل إلى شرشريتا.

لم أعرف من تكون شرشريتا، وبدا أنه لا وقت لديها للإجابة عن أسئلتي، فلذت بالصمت، حتى اجتزنا القوس الثاني، وسرنا في الطريق نفسها، وتكرر المشهد نفسه، إلا أننا هذه المرة وصلنا إلى مدينة ظريفة، لم يتحاش أهلها الاقتراب منا، بل على العكس، كانوا ودودين جداً وأرشدونا إلى مكتبة مدينتهم وأرشيفها، فلم نهدر أي دقيقة، فتوجهنا إليها مباشرة، ومن تجربتي السابقة عرفت أن مرح ستقضي ساعات في البحث فاقتنصت أول فرصة غفلت فيها عن مراقبتي وخرجت في رحلة استكشافية في الطرقات القريبة من المكتبة، وهناك التقيت مجموعة من الأشخاص دعوني إلى مجالستهم، كانوا غاية في الظرافة، سألوني عن المدينة التي أتيت منها، فأخبرتهم أننا من مدينة النجوم، لم يصدقوا واعتقدوا أني أمازحهم، وعندما سألتهم عن السبب الذي يدفعهم إلى عدم تصديقي؟ أوضحوا لي أنه منذ مائة عام لم يسمح لأحد بمغادرة مدينة النجوم خشية شرشريتا التي أقسمت أنها ستخضع أميرة النجوم حتى لو دفعت حياتها ثمناً لتحقيق هذا الهدف، وحين سألتهم عن السعنونة، تفاجأت حينما أخبروني أنها لا تنام أبداً وأنها قادرة على شل أيّ كان بلمسة ولهذا الكل يخشاها.

وكالعادة، امتلأت جعبتي بالأسئلة، لكن مزق هذه الجعبة صفير ريح صاحبته عدة أصوات وكأن أحدهم يعزف لحناً يحاكي الطبيعة ويسر الأذن ويطرب القلب واللحن يعلو شيئا فشيئاً، إلا أن من أجالسهم طلبوا مني أن أغلق أذني، اعتقدت أنهم يمازحونني، وما كنت لأستجيب لطلبهم وأحرم نفسي من سماع ذلك الصوت الجميل، لكن امرأة اقتربت مني ثم أقحمت إصبعيها في أذني فضحك الموجودون، لم يرق لي ما فعلت، وبمنتهى التهذيب قلت لها إن هذا يزعجني، فابتعدت، ما أغضب الموجودين. عدت إلى الاستمتاع بتلك الموسيقى المذهلة وقبل أن أسألهم عن مصدرها انقلب الصوت إلى ضجيج لم أعهده من قبل، شعرت بألم شديد في رأسي فحاولت أن أحجب الصوت بكفي. حينها فوجئت بأن جميع الحاضرين أحاطوا بي وتعاونوا على تقييد حركتي لمنعي من إغلاق أذني لتعذيبي بذلك الضجيج الذي لا بد أنه سيصيبني بالصمم مع أنه لم يزعجهم. ازداد الألم فرجوتهم أن يبتعدوا عني، لكنهم لم يكترثوا، كان واضحاً أنهم يستمتعون بتعذيبي، صرخت بأعلى صوتي مستنجداً بمرح لتنقذني منهم. توقف الضجيج، وأخذ المجانين يتناوبون على الصراخ في أذني حتى انتابني شعور غريبة، لمحت مرح تنظر إلي دون أن تحرك ساكناً. وحينما انتهوا من تعذيبي وتركوني في حالي هزّت مرح رأسها وتبادلت معهم الابتسامات وكأنها تشكرهم على ما فعلوه. أخذت أشتم الجميع بأعلى صوتي ومرت عشر دقائق قبل أن أستعيد توازني. حينها أخبرتني مرح أن علينا مغادرة المدينة

بالسرعة القصوى، ففرحت لأنني سأفارق هؤلاء المجانين وطقوسهم المجنونة.

خرجنا من تلك المدينة بسهولة، مع أن صدى أصواتها يأبى أن يفارقني، ما أفقدني القدرة على التركيز. وعبر الأقواس وصلنا إلى حدود مدينة الظلال، فطلبت أن أنتظرها لأن حالتي لا تسمح بأن أرافقها، وبعد أن ذهبت لم أجد شيئاً أفعله سوى ضرب رأسي بجذع شجرة لعلي أتخلص من الصداع الشديد. عادت مرح إلى مدينة الظلال، فرجوتها أن تجد أي طريقة تخلصني من الصداع الفظيع الذي سكنني، فقالت إنه لو كان هناك شيء لتفعله لفعلته دون أن أطلب منها إلا أن الصبر سيكون كفيلاً بتلاشي الصداع.

انطلقنا من جديد، وفي هذه المرة وصلنا حدود مدينة الشمس. كانت أكثر حذراً وآثرت أن أنتظرها حتى تنهي تسللها للمدينة، وأوصتني ألف مرة ألا أقترب من الحدود، لم يختف ظلها حتى عادت، ويبدو أنها نجحت في مهمتها، كنت في حال أفضل فلم أعد أشعر بالصداع، وحان الوقت لأفهم ما يدور حولي فسألتها:

- ماذا حدث في مدينة الصدى؟
- ما حدث شيء جميل أراحني من ثرثرتك ساعات طويلة، ولعله يكون درساً لك في المستقبل أن تتوقف عن تصرفاتك الصبيانية في هذه المملكة اللعينة التي تفاجئنا كل يوم. الأصوات الجميلة التي سمعتها هي سبب تسمية مدينة الصدى بهذا الاسم، فهي

تنبعث عبر الحواجز الزمنية عدة مرات أسبوعياً، من اعتاد عليها لا تؤثر فيه، ومن يسمعها للمرة الأولى يصيبه ما أصابك، لهذا كان عليك أن تغلق أذنيك قبل أن يرتفع الصوت على الرغم من أنهم نصحوك بذلك، ولكن إن وصل الصوت إلى أذنيك أكثر من دقيقة فمن الخطر أن تغلقها، كان عليك أن تحتمل الضجيج حتى ينتهي وألا تحاول حجبه، ومن حسن حظك أن من كانوا برفقتك ساعدوك وصرخوا في أذنيك حتى يطردوا الضجيج بالضجيج وإلا استمر الصداع شهوراً طويلة، هذا في حال لم تصب بالصمم إلى الأبد، والآن كل هذا أصبح من الماضي، أما الآن فنحن مقبلون على لعبة خطرة أتمنى ألا تقدم خلالها على أي خطوة متهورة.

- وهل ألعابك السابقة كانت أقل خطراً؟
- لا شيء يقارن باللعب مع أميرة الشمس، فهي الأكثر دهاءً في مملكة الشر، علاوة على أنها لا تخضع لأي قانون إلا قانونها الخاص، من يدخل حدود مدينتها لا يحق له مغادرتها قبل انقضاء تسعين يوماً، وندر أن خرج أحد منها يوماً. نحن في أمس الحاجة إليها للوصول إلى علوم السحر، وعليّ إيجاد طريقة للقائها خارج حدود مدينتها حتى أتمكن من التفاوض معها دون أن أخضع لقوانينها.

انطلقنا نبحث عن منطقة محايدة، حتى وصلنا إلى حديقة نصفها في حدود مدينة الشمس والنصف الآخر خارجها، أشارت مرح إلى صف

من الأشجار، وحذرتني من تجاوزه مهما كان السبب وطلبت أن أسترخي لأن انتظاري سيطول. وكالعادة لم تشاركني مرح خططها، ولم تسمح لي بأي سؤال عن الأحداث المتوقعة، لكن الإجابة الأولى جاءتني دون أن أحتاج إليها، فقد اقترب منا مجموعة من الفتيات والفتيان الظرفاء. وبعد أن رحبوا بنا سألوا إن كنا بحاجة إلى أي خدمة يقدمونها لنا ودعونا إلى دخول مدينتهم، لم أمانع أن يحضروا لنا قليلاً من الطعام فقد مللت ثمار الأشجار حتى كدت أحس بأنني عصفور، لكن مرح أخرست الفكرة في رأسي قبل أن تتضح وتتحول إلى كلمات، ثم طلبت منهم أن يذهبوا إلى شرشريتا ويخبروها أن كونتنيسا في انتظار لقائها في الحديقة المحايدة. كم أحببت هؤلاء الفتية حينما سخروا من مرح ولسان حالهم يقول "من أنت لتطلبي هذا الطلب"، وهم يتضاحكون فيما بينهم قبل أن ينصرفوا. عدت لممارسة هوايتي باستفزازها فقلت ساخراً:

- هؤلاء الحمقى يبدو أنهم لا يعرفون مكانتك وإن عادوا فسأصفعهم عقاباً لاستخفافهم بك.

تجاهلتْ ما قلتُ ولم تعلق. أخذ الوقت يمر ببطء، كنت أتفاجأ بين الحين والآخر بأشخاص من مختلف الأعمار يأتون لزيارتنا، لكن الغريب أنهم يتميزون بالوسامة والظرف واللطف، كل منهم يعرض خدماته ويتحايل علينا حتى ندخل المدينة، وحينها تكرر مرح على مسامعهم الطلب نفسه،

فيسخرون منا ويتركوننا. مر اليوم الأول والثاني، والأحداث نفسها تتكرر، فسألت مرح.

- من أين يأتي هؤلاء؟
- نحن صيد ثمين يا حسن، والكل يسعى لاصطياده.

مر اليوم الثالث والرابع، واللعينة لا تمل كعادتها، أما أنا فقد قسمت وقتي بين الاسترخاء والنوم واستفزازها وتسلق الأشجار كالقردة في انتظار قدوم شرشريتا التي يخشاها الكل، حتى أنني رسمت في مخيلتي صورة لها، تخيلت أنها ساحرة عجوز شريرة تضع بين فخذيها مكنسة مهترئة وتطير من مكان إلى آخر.

لمحت في اليوم الخامس من أعلى شجرة كنت قد تسلقتها موكباً يضم عشرات العربات بينها هناك عربة ذهبية ارتطمت بها أشعة الشمس فعادت لتبهر عيني، حينها قلت لمرح بصوت مرتفع، يبدو أن شرشريتا قادمة لتنحني لجلالتك، وبقيت أعلى الشجرة حتى وصل الموكب إلى طرف الحديقة وتعذرت علي رؤيته فنزلت لأشاهد الآتي، كان هناك فرق كبير بين النظر من الأعلى وبين ما أراه عن قرب، عربة مذهبة فخمة ملكية لم أر شبيهاً لها، تجرها عشرة خيول بيضاء مزينة بالحرير والذهب، تسبقها عشر عربات لا يميزها شيء سوى أنها برفقتها، ومن خلفها عشر عربات مماثلة. دخل الموكب الحديقة وخرجت من إحدى العربات المرافقة ثلاث فتيات لم أر أجمل منهن في المدن التي زرتها، اقتربت إحداهن من مرح وانحنت أمامها ثم قالت:

– سيدتي، تدعوك لمقابلتها.

حتى أمام هذا المشهد المهيب لم تتنازل مرح عن غرورها ووقاحتها، فأمرتها أن تعود إلى أميرتها وتبلغها أن تأتي هي إلى كونتنيسا. امتعضت الفتاة ورمتها بنظرة احتقار، ثم عادت إلى العربة المذهبة لتخبر شرشريتا بما حدث، عادت الفتاة مرة أخرى، لتدعو مرح إلى مقابلة الأميرة في عربتها، فكان رد مرح كالسابق، إلا أن الفتاة نظرت إلى مرح ثم قالت:

– يا لوقاحتك.

واصلت الفتاة نقل الرسائل بين مرح والأميرة حتى شعرت بالملل، وفجأة تقدم مجموعة من الشبان وأخذوا يفرشون سجاداً مذهباً من العربة وصولاً إلى وسط الحديقة، وحين انتهوا فتح أحدهم باب العربة الملكية لتطل علينا شرشريتا. لم تكن ساحرة ولا عجوزاً كما تخيلت، لقد كانت امرأة يفوق جمالها الخيال، شعرها ذهبي نسج من خيوط شمس أساطير العالم العتيق، وجسدها يعجز الشعراء عن وصفه، بريقها سرق عقلي، شعرت بأني بحاجة إلى آلاف الحروف الذهبية لأعطي جمالها حقه، حتى مرح بدت مقارنة بها فتاة عادية. سارت على السجاد كملكة تحكم العالم كله، وحاشيتها تسير على إيقاع خطواتها، وحين اقتربت من نصف الحديقة كان عرشها الملكي قد سبقها، فجلست عليه، وأشارت إلى مرح بسبابتها:

– تقدمي يا كونتنيسا، لم أعرف أنك جبانة حتى تخافي دخول حدود مدينتي علناً، ألم يعلمك ذكاؤك أني كنت سأرحب بك؟

- أعلم ذلك يا سمو الأميرة، ومع هذا فضلت أن نلتقي في منطقة محايدة أولاً.
- ما الذي دفعك إلى أن تصري على لقائي خارج حدود مملكتي؟
- أردت أن أطلب منك أن تسمحي لي بالاطلاع على كتاب مدينة الشمس فقط.

ضحكت الأميرة ثم قالت:

- الكتاب الذي لم تجديه حينما تسللت إلى المكتبة مثل اللصوص، وهل كنت تعتقدين أنني لا أعرف ماذا فعلت في المدن الأخرى. على أي حال، لم تكن هناك حاجة إلى إهدار وقتي بالمجيء، فقد كان بإمكانك أن تطلبيه وما كنت لأرفض طلبك.
- معك حق، ولكني فضلت أن يكون هذا خارج حدود مدينتك حتى لا أخضع لقوانينك التي تجبر من يدخلها على البقاء فيها فترة من الزمن، إن وافقت أن تسمحي لي بالاطلاع على كتاب الشمس سأكون مدينة أن أجلب لك شيئاً آخر في المقابل وهكذا نتساوى بعيداً عن تعقيدات قوانين مدينتك.

صمتت الأميرة ثم قالت:

- لماذا تعتقدين أنك تملكين شيئاً قد يهمني لأسمح لك بتجاوز القوانين؟
- لأنك الآن تتحدثين معي.
- هات ما عندك.

- سأقدم لك نجمة قصر النجوم في المقابل.
- لا أحد يستطيع إخراج السعنونة من مدينتها، وما وصلني أنك هربت منها.
- هل عقدنا اتفاقاً؟
- وهل سيتم ذلك بإرادتها الكاملة؟
- هل عقدنا اتفاقاً؟
- لك ذلك، والآن رافقاني لأقوم بواجب ضيافتكما، وكتاب الشمس سيكون بانتظارك.

هنا أشارت مرح باتجاهي ثم قالت:

- هل تعطيني وعداً أن يكون هذا البشري خارج قانون لعبة مدينتك لأنني بحاجة إليه.
- سأتغاضى عن المدة المحددة التي يجب عليه البقاء في المدينة وبإمكانه المغادرة متى شاء ولكن لن أغير بقية القوانين إرضاء لك، وإن نجح أحد في استملاكه فهذه ستكون مشكلتك وحدك.
- إذاً من الأسلم أن أبعده عن مدينتك أولاً وبعدها أعود إليك.
- سأكون في انتظارك.

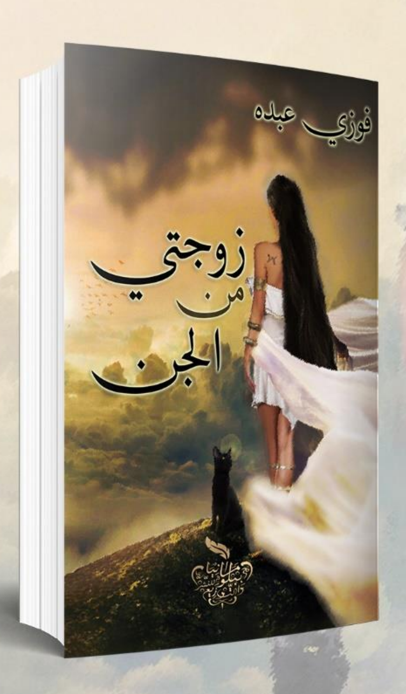
غادرت شرشريتا الذهبية وموكبها المهيب دون أن تتاح لي الفرصة أن أنصحها ألا تتحدث أبداً، فصوتها القبيح لا ينسجم وجمالها الساحر. وما إن اختفى الموكب عن نظري حتى أمطرت مرح بعشرات الأسئلة، لأتفاجأ بأنها قررت أن تعيدني إلى مدينة القمر، لأبقى هناك حتى تنهي مهمتها،

وطوال الطريق لمدينة القمر وهي تحذرني من عواقب أن يعرف أي كان بلقائنا بشرشريتا الذهبية، وفهمت أن هذا قد يتسبب بطردي من المدينة، لم أشعر بالراحة، فمرح مصرة على التلاعب بي حتى النهاية، أقنعتني أن أترك مدينة القمر وأن أرافقها للحصول على قوة الشر والمغادرة إلى عالم البشر فوراً، وهأنا مجبر على العودة إليها. وصلنا إلى مدينة القمر بناء على رغبتها، الشيء الوحيد الذي تغير أنني قد قررت أن أمتلك قراري وألا أسمح لها أن تملي عليّ أفعالي بعد اليوم، وللمرة الأولى شعرت قبل أن أودعها بألا رغبة لي بلقائها مجدداً.

****

ساعدونا على محاربة السرقة الأدبية

آلاف المواقع نشرت نصف مسودة أولية تحت اسم "زوجتي من الجن" وعشرات آلاف النسخ الورقية ملأت المكتبات دون أن تحمل اسم دار نشر أو اسم كاتب الرواية الحقيقي
النسخة الورقية الوحيدة الكاملة صدرت عن دار ببلومانيا للنشر وتحمل اسم الكاتب فوزي عبده



انطلقت لأبحث عن همانا، الرجل الذي كلفته الأميرة باندا مرافقتي، وعندما وجدته طلبت منه مساعدتي لأستقر وأترك كل شيء خلفي، فحثني في البداية على إيجاد عمل لأنال احترام الجميع، ووعدني أنه سيرافقني غداً بنفسه للبحث عن عمل، وقبل ذهابه وفّر لي كل ما يمكن أن أحتاجه دون أن يسألني عن الأيام التي اختفيت فيها. وفي اليوم التالي حضر كما وعد وتناقشنا كثيراً حول العمل الذي قد يناسبني، كان صبوراً معي حتى وجدت ضالتي بالعمل مساعداً في مجال يسمونه "الهندسة المائية". فطالما أعجبت بنوافير الماء المنتشرة على طول طرقات المدينة، ومازحني قائلاً:

- لو كنت أعلم منذ البداية أن هذا ما تبحث عنه لوجدت لك مئات الأعمال المشابهة.

لم يقصد العمل، بل المسؤولة عن العمل، خاصة أنها فتاة جميلة.

- إن نوافير الماء هي التي شدتني وليس جمال المسؤولة.
- إذاً، لا تعبث معها حتى لا يصيبك البلل.

طلبت من باب الفضول أن يحدثني عن باقي المدن فقال:

- لكل مدينة قوانينها الخاصة وأكثرها شراً مدينتا الظلال والشمس، حيث تتنافس الأميرتان على سرقة مواطني بقية المدن، في مدينة الشمس يحق لأي شخص أن يستعبد أياً كان مقابل ثمن زهيد.
- لم أفهم.
- في مدينة الشمس كل شيء له ثمنه، فلو طلب أحدهم كأس ماء فعليه أن يعرض شيئاً مقابله، وإن لم يملك ما يمنحه فعليه أن

يوافق أن يتم تملكه، ويمتد التملك من دقيقة واحدة إلى عام، بناءً على قيمة الشيء الذي تريده، في مدينة الشمس يمكنك أن تنال أي امرأة مهما كان جمالها إن وافقت على أن تتملكك لمدة من الزمن.

- ومن يمانع أن تتملكه امرأة جميلة.
- معك حق، ولكن إن تملكتك مدة تزيد على 3 أيام فستكون لها عبداً تأمرك بما تشاء، وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، فبإمكانها بيعك لمن تشاء أو استبدالك فهذا حقها حسب قوانين مدينتهم القذرة.
- هل زرت مدينة الشمس؟
- إن من يدخل المدينة لا يخرج منها أبداً، فأغلب أهلها ماكرون وبارعون في الإغراء ويملكون ألف طريقة وطريقة لتملك أي كان، خاصة أتباع شرشريتا المباشرون، لقد فقدت ثلاثة من أصدقائي بعد أن تمكنت شرشريتا من تحويلهم إلى عبيد.

فهمت لماذا كانت مرح حريصةً على ألا أقترب من مدينة شرشريتا. بعد هذا الشرح المرعب عن هذه المدينة المجنونة، قررت قراراً لا رجعة فيه ألا أغادر مدينة القمر مهما كان السبب. في صبيحة اليوم التالي بدأت عملي الذي اقتصر على حمل الأدوات وأداء بعض الأعمال البسيطة التي لا تتطلب جهداً أو خبرة، وبرع الجميع في مساعدتي حتى أتمكن من الاندماج

سريعاً في أجواء العمل. أما المسؤولة عن الفريق فكان اسمها ساريز، وربما صدق همانا، فهي أحد الأسباب التي جذبتني إلى هذا العمل.

مضى اليوم الأول ولم أجد فرصة للحديث معها، وفي اليوم الثاني حصلت على فرصتي، سألتني عن المدينة التي جئت منها؟ فلم أجد منطقاً أن أخبرها أني من عالم البشر، تهربت من السؤال، ولاحظت ذلك فلم تلح عليّ، اقتصر حديثنا حول العمل فقط، وكان لا بد أن أثرثر قليلاً فسألتها:

- كيف يرتفع الماء إلى هذا العلو دون وجود أي آلة ميكانيكية تساعد على ذلك؟

ضحكت بسعادة ووضعت كفها على فمها لتكتم ضحكتها حتى لا يسمعها الآخرون ثم قالت:

- يا إلهي، أنت قادم من عالم البشر.
- أشعر بأنك كمن اكتشف كنزاً، كيف عرفت ذلك؟
- سأخبرك لاحقاً.

عند انتهاء العمل سألتني إن كنت أوافق على تناول الغداء معها في بيتها، وما كنت لأرفض، وحينما وصلنا، فوجئت بفخامة بيتها الذي لا يقارن بالبيت الحقير الذي منحوني إياه، أخذت تتباهى بأنها صممته بنفسها. وحينما انتهينا من الحديث حول بيتها وتناولنا الغداء سألتها:

- كيف عرفت أنني من عالم البشر؟

- لأن أهل هذه المدن والوافدين الجدد من الكونيين لا يجدون غرابة في ارتفاع الماء دون آلة تساعد على ذلك، وهذا الأمر لا يثير انتباه أحد إلا إن كان قادماً من عالم البشر.
- ربما نحن لم نصل بعد إلى هذه التقنيات ولكننا صنعنا العجب العجاب.

اعتقدت أنها ستسخر مني ولكنها فاجأتني حينما فتحت ذراعيها وقالت:

- أنا أيضاً من البشر.
- هل تمزحين؟
- كلا، لا أمزح، أنا من البشر.
- اعذريني، لا أستطيع أن أصدق ذلك، فأنتِ تشبهين الجن كثيراً، إن كنتِ من البشر فكيف استطعت الدخول إلى هنا.
- قبل زمن طويل كنت أعاني من مرض خطير، فاصطحبتني والدتي إلى مكان ما ومن ثم طلبت أن أغمض عيني وأن أسير إلى الأمام دون توقف ففعلت وعندما فتحت عيني وجدت نفسي في مدينة القمر. ساعدتني أميرة القمر على التأقلم مع حياتي الجديدة، ومع مرور الزمن عرفت أنني لن أرى عائلتي مرةً أخرى، فأصبح أهل هذه المدينة هم عائلتي الحقيقية.

أشعلت قصتها داخلي آلاف الأسئلة، لكن الانزعاج الذي بدا عليها خلال الحديث عن الماضي دفعني إلى أن أطفئ أسئلتي المشتعلة، وأغير دفة الحديث:

- أنت تشبهين الجنيات كثيراً بجمالك وطبيعة عملك التي تحتاج ذكاء خارقاً لا يملكه البشر؟

أخرجها سؤالي وإطرائي على جمالها من حزنها فقالت:

- لا فرق بين بنات البشر والجنيات من حيث الجمال، فالجمال متفاوت في العالمين، الفارق الوحيد أن الجنيات لا يهرمن بسرعة، أما في هذه المدن فالبشر والجن يتشاركون الخواص نفسها، وستكتشف هذا الأمر بنفسك بعد سنوات طويلة، الروح هنا هي التي تهرم إن لم يحرص صاحبها على ألا يحدث ذلك، أما العلوم المائية التي أبهرتك، فصدق أن حضارة البشر القديمة هي من أوجدها بالإضافة إلى الكثير من العلوم، وحينما تزور مكتبة المدينة وتتعلم كيف تقرأ اللغات القديمة ستتفاجأ أن أغلب العلوم منبعها حضارة البشر القديمة. حتى الجن يقرون بذلك ويعترفون بتميز البشر وتفوقهم الكبير عليهم. ومدن المملكة الخمسة ساهم البشر في بنائها، حتى إنه يقال إنها كانت في الأصل للبشر، ولم يكن الخروج منها أو الدخول إليها صعباً قبل آلاف السنين. العلم الوحيد الذي تفوق فيه الجن على البشر هو "علم الزمن"، خاصة أن البشر لا يعمّرون كثيراً بالمقارنة مع الجن.
- هل هناك بشر؟
- هناك الكثير ويستحيل أن تميزهم عن الجن لطبيعة خواص المنطقة.

لا أعلم إن كان علي أن أكذّب أم أصدق ما تقوله، ما يهمني حالياً هو إحساسي بأنها فعلاً إنسية، وهذا كان كافياً إلى إدخال السرور إلى قلبي، كان بودي أن أسألها عن عمرها الحقيقي، فلا يبدو أنها تجاوزت الثلاثين، ولكني خشيت أن أحرجها أو أكتشف أنها بعمر جدتي هي الأخرى، وأفسد علي متعة صحبتها. تطورت العلاقة بيننا بسرعة الضوء، فلم تسألني عن قصتي إلا بعد أيام، أخبرتها أن قصتي أغرب من ماضي البشر وحاضر الجن، ولم أشعر بأن علي أن أخفي عنها شيئاً سوى ما حذرتني مرح منه وبضعة أمور أخرى، أخذنا الحديث فلم نشعر بالوقت، وبحركة مفاجئة من ساريز اقتربت مني، وألقت رأسها على صدري كطفلة صغيرة، كانت هذه هي المرة الأولى التي ألمسها، داعبت شعرها فنامت دون أن تتطور الأمور. أفقنا في الصباح فتناولنا الإفطار وخرجنا للعمل معاً... حضر مرافقي همانا ليطمئن إلى حالي كما اعتاد أن يفعل في الأيام الماضية وقبل أن ينطق بكلمة قالت له ساريز:

- سأريحك من حسن هذا الأسبوع، سيبقى معي إلا إذا أراد عكس ذلك.

اقتربت من همانا مبتسماً ثم قلت:

- أرأيت كم أنا ملتزم في عملي؟

ابتسم همانا بدوره، وبدا سعيداً لأنه تخلص مني ووجد من يتحمل المسؤولية عنه. انتهى يوم العمل وعدنا إلى بيتها، وبعد أن ارتحنا قليلاً قالت:

- اليوم سنحتفل، فأنا سعيدة، أود أن أرقص وأحضن القمر.

دخلت غرفتها وعادت وهي تردي ثوباً سحر عقلي، ولولا عذوبة ابتسامتها التي سحرتني منذ اليوم الأول لكان صعباً أن أعرفها، خاصة أنني مذ عرفتها وهي تنتعل حذاء رياضياً وترتدي بنطالاً وقميصاً. كانت غاية في الأناقة، ارتدت فستاناً أسود قصيراً كشف كتفيها، وغطى نهديها وأبرز تضاريسهما بعد أن طوقهما عقد كأنه يأبى أن يفارقهما، فيما كان ظهرها يتلألأ بعد أن ضمت شعرها بتسريحة لافتة. ابتسمت وغمزتني بطرف عينها ومدت ذراعها فتأبطها. خرجنا نتجول في طرقات المدينة حتى وصلنا إلى البرج العظيم الذي ينحدر من أعلاه شلال قوس قزح، وقد كنت رأيت هذا الشلال من خلف الضباب حينما التقينا الحارسة بندارا. وكان أكثر ما شدني بعد الأهرام في يومي الأول في المدينة. سألتني:

- هل وقفت يوماً فوق الغيوم؟
- أتقصدين أن نصعد قمة هذا البرج، ربما سنحتاج يوماً للوصول إلى قمته.

ضحكت ثم قالت:

- هيا إذاً حتى لا يضيع الوقت.

سايرتها فما دمت بصحبتها لن يضرني طول المسافة.

سرنا نحو خمس دقائق داخل البرج حتى وصلنا إلى مصعد زجاجي، وحين ولجنا داخله، أغلق الباب ثم فتح في اللحظة نفسها، فخرجت من المصعد، أما أنا فبقيت في المصعد مستغرباً خروجها، فنظرت إلي وهي تضحك ثم دعتني للخروج لأننا وصلنا. ظننت أنها تمازحني، ولكن ما أراه وراءها

قطع الشك باليقين. وكعادتي بدأت الأسئلة تنطلق يمنة ويسرة، لكنها قاطعتني واعدةً أنها ستشرح لي كل شيء بعد أن نجلس.

دخلنا إلى قاعة أحتاج نحو عشرين دقيقة حتى أصل إلى نهايتها، سقفها الزجاجي يرتفع دون أعمدة وكأنه علق في الهواء، ينيرها ضوء القمر وكأنه لا يبعد عنها سوى عدة أمتار، جدران القاعة من زجاج إن لم تخدعني عيني، هذا إن كان لها جدران، تحيط بها الغيوم من كل جانب وتغص بالزهور والورود والأشجار والنوافير، حتى كأنها حديقة معلقة من حدائق بابل. شبان وشابات ينتشرون في أرجائها سعداء دون أن يأبه أحد بالآخر، اصطحبتني ساريز إلى وسط الحديقة أو أعجوبة الزمان لتعرفني إلى الكثير من الجالسين هنا وهناك، كانوا جميعا ظرفاء، ثم أشارت إلى أحد أطراف القاعة وقالت:

- هنا سنجلس، فهذا ركني المفضل. ويوماً ما سيتحقق حلمي وأصمم بنفسي مثل هذا المكان.

جلسنا على مقعدين يجمعان بين الراحة والجمال، وللحق فإن كل الروعة التي أراها في هذا المكان لم تشغل تفكيري عن طريقة الصعود إلى قمة البرج، فسألتها.

- كيف صعدنا البرج في رمشة عين؟
- قانون الجاذبية الذي تعرفه هو محاولة ضعيفة لوصف قوى الجاذبية بين الأجسام غير المشحونة، لكن الجاذبية أعظم من

ذلك بكثير فقوتها هائلة خارقة يصعب تصورها فهي تستطيع من شدة قوتها جذب أي شيء حتى الضوء...

قاطعتها سريعاً:

- لقد فهمت!

فقد أدركت أن عقلي لن يستوعب أياً مما تقوله، إلا إذا تمكنت الجاذبية من جذب عقلي إلى معناها. بدأ أصدقاء ساريز بالتوافد، وكان واضحاً من كلامهم واعتذار بعضهم عن التأخّر أنها صاحبة الدعوة، فارتبكت قليلاً خاصة أنني أعددت نفسي لجلسة رومانسية، لكن بعد أن عرّفت أصدقائها بأني صديقها ولم يكونوا فضوليين واكتفوا بتقديمها لي، اندمجت في الأجواء بسرعة، رقصنا وضحكنا... وفجأة علا صراخهم وهتافهم وتصفيقهم ليملأ أجواء القاعة. أخذت أبحث عما أثار تصفيقهم، فإذا هي فتاة تجر أمامها عربة مزينة ووسطها زجاجة كبيرة، اقتربت ساريز من الفتاة وهمست في أذنها فهزت الفتاة رأسها وذهبت، أخذ أحدهم يملأ الأقداح من الزجاجة وأنا أراقب كل صغيرة وكبيرة... ما لفت انتباهي هو عودة الفتاة من جديد وقد أحضرت بيدها قدحاً مليئاً بشراب يشبه ما في الزجاجة، ثم قدمته لساريز وهي حريصة على ألا يراها أحد. اقتربت ساريز من الأقداح ووضعت القدح بجانبها، انتظرت حتى سُكب الشراب، فحملت قدحين ثم قالت:

- سنشرب نخب صديقي وزميلي حسن ترحيباً به بيننا.

قدمت القدح، فأخذته ورفعته مثلهم وتظاهرت بأني أشرب منه، ثم أعدته إلى الطاولة بهدوء وقد اعتراني القلق. عاد الجميع إلى الرقص واللهو من جديد، جلست ساريز بالقرب مني وأمسكت يدي:

- ما بك يا حسن، لماذا أنت مهموم، هل ضايقك أحد؟
- أنا مرهق قليلاً.
- هل ترغب في العودة إلى البيت؟
- أريد أن أكون صريحاً معك، التجارب التي مررت بها صارت تدفعني إلى أن أشك في كل شيء، حتى هذا القدح.

فطنت ساريز إلى ما ألمح إليه فضحكت، ثم قالت:

- إن كان هذا ما يزعجك فمعك حق، سأشربه أنا.

رفعت القدح وشربت ما فيه دفعة واحدة، ثم تابعت حديثها:

- لم أرد أن تشرب من هذا الشراب، لذلك أحضرت لك شراباً عادياً. فهذا الشراب يسكر من يشربه للمرة الأولى، ولو كنا وحدنا لما مانعت أن تشربه، ولكن إن أردت أن تشربه فتفضل ولكني لن أكون مسؤولة عما سيحدث لك.

أزال حديثها كل أثر للشك في قلبي، فعدت معها لأجمل سهرات العمر، إلا أن فضولي اللعين لم يتركني في حالي، فقد دفعني إلى أن أمد يدي إلى أحد الأقداح لأرتشف منه عدة رشفات، أنعشتني، ففقدت الشعور بالمكان والزمان.

فتحت عيني فوجدت نفسي في سرير ساريز ورأسها على صدري تغط في نوم عميق ومن النافذة رأيت الشمس فأدركت أننا في ظهيرة اليوم الثاني. دق قلبي حينما رأيت على جسدها ومن حولي آثار معركة جميلة. استيقظت ساريز، فأغمضت عيني فوراً متظاهراً بالنوم. ولم أشعر بالراحة إلا حينما عادت تلف جسدها بمنشفة زرقاء وشعرها مازال مبللاً دون أن تبدو عليها علامات الانزعاج، فتجرأت وسألتها:

- ماذا حدث بالأمس يا ساريز؟
- لا شيء، قليل من الفضائح، وقليل من الفوضى، وقليل من الإحراج، حتى استطعت أن أوصلك إلى البيت، وبعدها قليل من الشراسة، وقليل من الإضاءة، وكثير من الجنون.

تناولنا الإفطار وضحكنا... حتى قالت ساريز فجأة:

- صحيح، نسيت أن أخبرك. غداً ستشهد المدينة يوماً لا مثيل له، حيث تستقبل الأميرة باندا، أميرة الشمس الشريرة للمرة الأولى.
- ما المثير في الموضوع؟
- أنت لا تعرف قصة أميرتنا مع أميرة مدينة الشمس الحقيرة.

انفعلت ساريز واغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول:

- أنا أكرهها... أنا أكرهها... وحزينة على أميرتنا، التي يلزمها البروتوكول أن تستقبل أي أميرة تزور مدينتنا، مسكينة، غداً ستلاقي ألد أعدائها.
- ما سر هذا العداء بين الأميرتين؟

- أميرتنا لا تكره أحداً ولا تعرف الحقد، أميرتنا تحب الجميع، لهذا نسميها "الأميرة البريئة"، وأميرات المدن الأربع يكرهنها، وخاصة اللعينة شرشريتا التي تكبرها بمئات السنين، ومع هذا استطاعت أن تسرق زوج أميرتنا وتسترت بقانون الجنيات لتخفي هدفها الحقيقي، وهو إهانة الأميرة، كم أكره هذا القانون وأجده سخيفاً، ولو كنت جنية لما التزمت به.

التزمت الصمت ولم أعلق. لكنني حاولت أن أجد أي طريقة حتى لا أرافقها إلى ذلك الاحتفال، لكنها أصرت، فرضخت ورافقتها في اليوم التالي إلى حفل استقبال أميرة الشمس. توجهنا إلى جنوب المدينة، ولم يكن من السهل أن نجد مكاناً بين الحشود الكبيرة التي توافدت إلى ساحة الاستقبال ووصلت قبلنا... مرت ساعة تقريباً حتى بدأ الهتاف والتصفيق، ووقفت ساريز وأخذت تهتف هي الأخرى ثم قالت:

- قف، لقد وصلت الأميرة باندا.

توقفت في طرف الساحة عربة خرجت منها الأميرة باندا ثم جلست في المكان المخصص لها. كنا في مكان يبعد عن موقع الأميرة نحو ثلاثمائة متر.

- لو أننا بكرنا لوجدنا مكاناً أقرب إلى الأميرة، انظر كم هي حزينة وهي تحاول أن تخفي انزعاجها من هذا العدد الكبير الذي حضر لأنها تظن أننا حضرنا حتى نرى أميرة الشمس، ولا تعلم المفاجأة التي أعددناها من أجلها.

- ماهي المفاجأة؟
- اصبر قليلاً.

مرت ساعة أخرى، واتجهت العيون إلى مدخل الساحة البعيد بعد أن بدأت تجتازه عربات تجرها الخيول، وحينما اقتربت تبين أنها تزيد على ثلاثين عربة، توقفت على طرف الساحة بعيداً عنا، مصطفة بنظام، بعد دقائق دخلت عربات أخرى بالعدد نفسه واصطفت في الاتجاه المقابل، وبعدها دخل صف كبير من العربات بنظام، ووسطها عربة شرشريتا الذهبية. كان واضحاً أنها استفزت الحضور بطريقة دخولها الاستعراضية.

خرجت من العربات التي اصطفت إلى اليمين أكثر من ستين فتاة غاية في الجمال، أثوابهن قصيرة حمراء موشحة بخيوط ذهبية تكشف ظهورهن وخواصرهن، ويبدو أن مصمم الأثواب كان معنياً بإظهار مفاتنهن التي زادها فتنة شعورهن الذهبية. ثم خرج من العربات التي اصطفت إلى اليسار، عدد مماثل من الشبان يرتدون ملابس سوداء موشحة بخيوط ذهبية، وكان واضحاً أن شرشريتا اختارتهم من بين الآلاف بحيث تكون أحجامهم وأطوالهم متناسقة.

تراجعت العربات باستثناء عربة أميرة الشمس الذهبية، وتحلق الشبان والشابات حول عربتها بطريقة استعراضية منظمة ثم اقترب نصفهم من منصة الأميرة باندا وتوقفوا دون حراك، فيما بدأ النصف الآخر يفرش السجاد أمام العربة المذهبة وصولاً إلى منصة الاستقبال.

وقفت الأميرة باندا في انتظار خروج شرشريتا من عربتها المذهبة لترحب بها وتصحبها إلى القصر ومن ثم ترافقها في جولة في المدينة وفق البروتوكولات المتعارف عليها.

كان الجميع متلهفاً لظهور أميرة الشمس، خاصة أن أغلبهم سمع بها دون أن يراها... اقترب شاب من العربة وفتح بابها لتطل أميرة الشمس وهي ترتدي ثوباً امتزج فيه اللونان الأحمر والأسود بطريقة عجيبة، وانسدل عليه شعرها الذهبي كأنه قطعة من طرف الشمس... وما إن استقرت قدماها على أرض الساحة حتى بدأ الحاضرون إغاظتها بشكل مفاجئ منشدين أنشودة جميلة بلحن ملائكي تشيد بالأميرة باندا وتواضعها وروحها الصافية وتبين مدى سعادة سكان مدينتها بعدالة الأميرة التي جعلت الحياة فيها أنموذجاً فريداً.

توقفت أميرة الشمس في انتظار انتهاء النشيد الذي لا يرحب بها، لتواصل استعراضها وأنا على ثقة بأني لو كنت أقرب إلى الأميرة باندا لرأيت الدموع في عينيها تأثراً بهذه الكلمات الممزوجة بالحب. انتهى النشيد وبدأ الحضور بالانسحاب لإغاظة شرشريتا أكثر، وقبل أن نتحرك، أشارت ساريز باتجاه منصة الاستقبال وقالت:

- انظر، ما أجملها.
- من تقصدين؟

فأشارت بيدها باتجاه الواقفة بجانب شرشريتا، وحينما انتبهت صعقتني رؤية مرح تقف إلى جانب الأميرتين.

- إنها الجنية مرح التي رافقتني في رحلتي.
- الجنية مرح التي جاءت معك!! كيف ذلك، لقد رأيتها تخرج من عربة الأميرة.

أضحكتني ردة فعلها فقلت لها:

- إنها داهية ولا أستبعد عنها شيئاً.
- لن تكون أكثر دهاءً من أميرة الشمس؟

أخذنا نتجول في طرقات المدينة، ومع ذلك فقد كانت جولة دون أي فائدة لم أطلع فيها على أي جديد، إذ إن ساريز أمطرتني خلالها بعشرات الأسئلة عن مرح وعلاقتها بي، ومع كل إجابة تمتلئ جعبتها بعشرات الأسئلة حتى إنها ذكرتني بأدق تفاصيل رحلاتي مع مرح. الغريب في الأمر أن ساريز لم تعر مرح أي اهتمام سابقاً.

حين وصلنا إلى بيتها رجوتها أن تعفيني من طرح الأسئلة، لأن صوتي بح من كثرة الإجابات.

خرجنا في اليوم التالي إلى العمل وكنت مشغول البال بمرح، وعند عودتنا إلى البيت كانت المفاجأة... وجدنا مرح تجلس في الصالة رافعة ساقاً على أخرى. أخذت مرح تتفحص ساريز من أخمص قدميها إلى رأسها ثم قالت:

- أنت جميلة أكثر مما كنت أتصور، هكذا سأغار منك !!

كلمات جميلة سبقها صفير ورافقتها نظرات ساخرة استفزت ساريز وأخرجتها عن تهذيبها المعتاد فقالت:

- من أنت أيتها الوقحة؟ وكيف سمحتِ لنفسك بدخول بيتي؟

ردت مرح بهدوء مستفز:

– ساريز يا صغيرتي الجميلة، يبدو أنك متعبة من العمل، هيا اذهبي واستحمي لتهدأ أعصابك، فيما أتحدث مع حسن قليلاً ثم أرسله إليكِ.

برعت ساريز بتقمص حركات مرح المستخفة فجلست على مقعد ودون أن تنبس ببنت شفة أوضحت لمرح أن هذا بيتها وأنها صاحبة القرار فيه. لكن مرح تجاهلتها مجدداً.

– كيف أنت أيها العامل النشيط؟ لقد اشتقت إليك.

قابلت ما قالته مرح بابتسامة، الأمر الذي استفز ساريز وفجر غضبها، فأخذت تشتم مرح دون وعي.

غمزت مرح بعينها اليسرى وعضت على شفتها ثم قالت:

– اصمتي، يبدو أنك نسيت أنك فارقت عالم البشر وعدوانيتهم، مع أن السنين الطويلة كان يجب أن تكون كفيلة بنزعها منك. لقد حان الآن موعد نومك، أحلام سعيدة يا صغيرة.

ما إن أنهت مرح كلامها حتى غطت ساريز في نوم عميق على مقعدها. أقلقني ما حدث لساريز فجأة فاقتربت منها لأطمئن إلى أنها بخير.

– لا تخف، إنها نائمة فقط، كفاني سخافات هذا اليوم، وتعال نجلس في مكان آخر فقد تشاءمت من هذه الصالة.

جلسنا في الشرفة ثم سألتها:

– ما سر هذه الزيارة؟

- لقد وجدت الطريق إلى قلعة أكزانتوس ويجب أن ترافقني حالاً قبل أن تنتبه أميرة الشمس إلى غيابي.
- في السابق لم يكن أمامي أي خيار، لكن الوضع الآن مختلف، فما الذي سيدفعني إلى ترك هذا النعيم وخوض مغامرة لا أعلم أين ستنتهي.
- معك حق، أنت في أمان وتستطيع أن تمضي بقية حياتك في أحضان ساريز، ولكن اسأل نفسك، هل هذا ما خاطرنا معاً من أجل الوصول إليه، هذه المملكة ليست أكثر من وهم، بُنيت لدراسة مسلكيات الجن والبشر، ويوماً ما ستنجح شرشريتا في السيطرة عليها، وعندها لن تكون إلا عبداً لها، فكر جيداً بالأمر واستعد حينما أعود لترافقني.
- وإن لم أرافقك فماذا ستفعلين يا مرح؟
- إن لم ترافقني بإرادتك الكاملة سأسحبك من رموش عينيك، والآن سأتركك غارقاً في وهم هذه المدينة لأعود لاحقاً.

مزجت مرح المزاح بالجد في كلمتها الأخيرة، ثم اختفت. عدت إلى ساريز التي كانت تغط في نوم عميق فجلست إلى جانبها وأيقظتها بهدوء، وحين أفاقت التفتت حولها ثم سألتني:

- أين ذهبت؟ ماذا حدث؟ هل جاءت لتأخذك معها إلى مدينة الشمس؟
- لن أذهب يا ساريز، أعدك بذلك.

ابتسمت ودموعها ترسم خطوطاً فوق وجنتيها، عانقتني واضعة رأسها على كتفي، فشعرت وأنا أحضنها بالراحة حين تأكدت أنني لم أعد أثق بمرح وأنني لن أرافقها إلى أي مكان مجدداً، وأنني لن أتراجع عن هذا القرار، فالماضي لم يعد يعني لي شيئاً، وغادة بخير، وقبة النور مجرد أكذوبة كبقية الأكاذيب التي غرقت فيها، وما عدت بحاجة إلى علوم السحر والقوة والمزيد من المغامرات الغبية، وفي ذروة حماسي. قلت لساريز وهي لا تزال تعانقني.

– ما رأيك أن نتزوج؟
– صعب يا حسن، أنت متزوج ولا يمكنك الزواج مرة أخرى.
– ولكنني متزوج من جنية، وأنت من البشر.
– لو كنت متزوجاً من إنسية لكان الأمر أسهل.
– لا تقولي إن هذا بسبب قانون الجنيات.
– أنا إنسية ولا علاقة لي بقوانين الجنيات، ولكنك لا تعرف ماذا يعني عهد الارتباط لهن، أنا لا أريد أن أتعدى عليه فقط، بإمكاننا ترك الأمور كما هي ولا حاجة للدخول في تعقيدات نحن في غنى عنها.
– إذاً، من المسؤول عن الزواج هنا؟
– الزواج هنا شأن شخصي، لا علاقة لأحد به، وأكثر شيء يمكن فعله وهو ليس إلزامياً، أن يتم إبلاغ أميرة المدينة به كنوع من الاحترام.

- لماذا لا نسأل الأميرة، فربما وجدت مخرجاً؟

صمتت ساريز قليلاً ثم قالت:

- مقابلة الأميرة ليست بهذه السهولة.

سرني أن ساريز لم تعارض الفكرة، لذلك طلبنا في اليوم التالي عبر الطرق المتبعة مقابلة الأميرة، ونحن نعلم أننا سننتظر طويلاً قبل أن نقابلها، لكننا تفاجأنا بأنها أرسلت في طلبنا في اليوم نفسه، وعندما حان موعد اللقاء توجهنا إلى قصر الأميرة التي استقبلتنا وأخذت تمازحنا كأصدقاء مقربين حتى وصلنا إلى الموضوع المهم، فقلت لها:

- جئنا لنبلغك أيتها الأميرة بنيتنا الزواج.

نظرت الأميرة إلى ساريز، فأحنت حبيبتي الجديدة رأسها خجلاً.

قالت الأميرة.

- مبارك لكما.
- ولكن أنت تعلمين المشكلة؟
- المشكلة مشكلتك أنت يا ساريز.
- أعلم أيتها الأميرة، لقد قلت له إن هذا مستحيل.

ضمت الأميرة شفتيها متعجبة ثم قالت:

- هذا ليس مستحيلاً، فبإمكانك تجاهل ارتباطه السابق ولن يلومك أحد على أمر حدث خارج حدود المملكة، فهنا لا شيء يرتبط بالماضي.
- من يعلم أيتها الأميرة، فربما دخلت غادة يوماً المملكة؟

- احتمال ضئيل، ولكنه قد يحدث.

أقحمت نفسي بالحوار قائلاً:

- إذاً ما العمل، ألا يوجد حل؟

ابتسامة الأميرة ونظرتها إليّ لم تكن ودية:

- لماذا تريد الارتباط بساريز بهذه السرعة؟
- لأني أحبها وبحاجة إلى استقرار حقيقي في حياتي.

ابتسمت ثانيةً وكأنها تشكك في صدقي، ثم ردت بطريقة جافة:

- هذا شأنكما، وليس من حقي التدخل فيه.

انتهت المقابلة أسرع مما توقعنا، لكنها تركتنا في حيرة من أمرنا، وعندما عدنا إلى البيت وجلسنا لنتحدث غطت ساريز فجأة في نوم عميق، فعرفت أن مرح قادمة، وما هي إلا لحظات حتى أطلت مرح بطريقتها الاستعراضية المستفزة، وعلى الفور قلت لها:

- إياك أن تعبثي بساريز مرة أخرى.
- لقد كانتْ بحاجة إلى قليل من الراحة فمنحتها إياها، وستشكرني حينما تفيق.
- ماذا علي أن أفعل حتى تتركيني وشأني، صدقيني، لم أعد كالسابق، لقد تغيرت كثيراً ولا أطمح إلا إلى الاستقرار.
- هذه المملكة مبنية على الأوهام، لن تجد فيها الاستقرار، وعشيقتك الجديدة ليست أكثر من كذبة، ولن يطول الوقت حتى تكتشف ذلك بنفسك.

- ساريز هي الحقيقة الوحيدة، وأنا فعلاً أحبها وسأتزوجها عما قريب وأنجب منها أبنائي.
- عن أي شيء تتحدث أيها المعتوه؟ هل رأيت في هذه المدن طفلاً واحداً؟ أيعقل أنك لا تدرك ما يدور حولك؟ وكادنتا، هل نسيتها بهذه السهولة؟
- لم أكذب على غادة، لقد أحببتها فعلاً، وإرادة الله أقوى من كل شيء، فهي من الجن وأنا من البشر، ولا أريد أن أكذب على نفسي أكثر، والقدر أقوى منا جميعاً.
- وعالم البشر، وعائلتك، وأمك المريضة هل نسيتها أيضاً.
- لا شيء أمامي لأفعله، فأنا وأنت نعلم أننا لن نخرج من هذا المكان.
- لقد وجدتُ ما نبحث عنه، وحالياً سأتركك لتعانق عشيقتك الجديدة وتغرق معها في حلم جميل لتواجه حقيقتك وتتخذ قراراتك، كن مستعداً لمرافقتي في اللحظة التي أقررها.

اختفت مرح، فهممت أن أوقظ ساريز، ولكن النعاس دهمني فجأة، فلم أفق إلا على صوت دقات ناعمة متواصلة أشبه بقرع طبل في ليلة مقمرة. فتحت الباب لأجد فتاة على الطرف الآخر تطلب أن أجلب ساريز وأرافقها للقاء الأميرة فوراً. أيقظت ساريز فانطلقت بنا الفتاة بعربتها باتجاه القصر وما زلت أسمع صدى إيقاع قرع الباب في رأسي، استقبلتنا الأميرة باندا، وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة حزينة، ثم قالت:

- لقد أرسلت في طلبكما لأنه حان الوقت لتواجها الواقع وتتخذا القرار المناسب بخصوص ارتباطكما. الخبر السعيد أن عهد الارتباط الذي بين كادنتا وحسن غير قانوني لأنها لم تكن قد بلغت السن القانونية لاتخاذ أي قرار، فحتى لو كان هذا الزواج من كوني من بني جنسها فلن يُعترف به أيضاً، وسيعتبر عبث أطفال لا أكثر، ولكن إن أصرت على التمسك بهذا العهد بعد بلوغها السن القانونية، فسيصبح هذا العهد قانونياً حتى لو كان مع بشر. المشكلة الوحيدة المتبقية أن كادنتا سعيدة ومتمسكة بهذا العهد، وإن بقيت على موقفها فستفقد الفرصة في التحرر منه، وستصبح أسيرة له طوال حياتها.

التفتت إلي وتابعت حديثها:

- عليك أن تواجه الموقف يا حسن، وأرجو ألا تكذب على نفسك ولا على كادنتا وساريز، ومن أجل هذا وفرت لك فرصة التواصل مع كادنتا عبر الحواجز الزمنية، ستراها وتتحدث معها وكأنكما تتواصلان في الواقع، اذهب مع مرافقي إلى حديقة القصر، وسيرشدك كيف تتواصل معها.

تسمرت مكاني ولم أصدق ما أسمع فتسارعت دقات قلبي وارتجفت أوصالي. انتبهت الأميرة إلى ما أصابني فقالت:

- لا تخف، لن تتفاجأ برؤيتك، لقد تحدثت معها. وأخبرتها أنها ستلتقي بك، وأرجو أن تراعي أن كادنتا لا تعلم أين هي ولا تعرف عن

المملكة شيئاً، وكل ما تعرفه أنها في قصر إحدى أميرات عالم الكونيين الكبير، انتبه أيضاً إلى أنها ذكية وقادرة على قراءة أفكارك بسهولة، ولا تنس أنها ما زالت صغيرة، معك نصف ساعة فقط وإن لم تصارحها فسأفعل ذلك بنفسي.

سرت باتجاه الحديقة وأنا أشعر بالدوار وأسمع قرع الطبول. طلب مرافقي أن أدخل غرفة زجاجية داخل الحديقة، وبعد دقائق طلب مني الخروج منها، فشعرت أنني أخف وزناً، ثم بدأت أرى غادة تداعب غزالاً صغيراً في حديقة جميلة، تواريت خلف إحدى الأشجار، دون أن أجرؤ على الاقتراب منها. خفق قلبي بقوة حتى شعرت بأنه سيقفز من صدري، كانت تدفع الغزال بيديها، فيبتعد عنها قليلاً ثم يعود، تضحك وتدفعه من جديد ... ثم تجلس بجانب نافورة تفتح يديها فيأتي الغزال إليها مسرعاً، وما إن يصل حتى ترشقه بالماء فيهرب، فتبدأ بالضحك، ثم تفتح يديها من جديد لتغريه أن يعود إليها. يقف الغزال متردداً خائفاً من أن تغدره مرة أخرى، تزيح شعرها إلى الخلف، أما الغزال فلا يجرؤ على الاقتراب منها، لكنها تقترب منه وتحضنه، وتحمله وتضمه إلى صدرها وتقبله ... تقترب من إحدى الأشجار فيعلق شعرها بغصن الشجرة فتتألم، تنظر إلى الشجرة بغضب ثم تطلق سراح شعرها... وفجأة التقت عيوننا، فوقفت مذهولة، خفق قلبي بقوة حتى شعرت بأنه سينفجر، فتحت ذراعيها وصرخت وهي تركض نحوي وما إن اقتربت حتى عانقتني وهي تضحك وتبكي، فلم أتمالك نفسي في تلك اللحظة، فبكيت بكاء شديداً، وكلما التقت نظراتنا اشتد

بكاؤنا، لم أحتمل الموقف، خاصة أنني لم أرها تبكي بهذه الطريقة ... مر وقت طويل وهي تعانقني بقوة دون أن تنبس بكلمة... جلسنا على العشب، فأخذت تمطرني بعشرات الأسئلة دفعة واحدة، ضحكت، فطريقتها ذكرتني بلقائنا الأول في حديقة منزلي، حين سألتها عشرات الأسئلة دفعة واحدة، فقلت لها مازحاً:

- اسمعي يا غادة، إن كنت تريدين أن أجيبك، فأبدئي بسؤال واحد، وبعد أن أجيبك اطرحي السؤال الثاني.

ضحكت غادة وفهمت ما أعنيه. ثم قالت:

- من أنت ومن أين جئت؟ ومن أي عالم أنت؟
- من عالم غير عالمك، أبي وأمي ليسا من الجن، وبما أني ابنهما فأنا كذلك.
- هل أنا أحلم؟
- أنت لا تحلمين، وإن أردتِ التأكد، قفي على قدميكِ.

وقفت على قدميها، فضحكنا معاً، واندفعت تتحدث بحماس وأخذت تذكرني بلقائنا الأول في عالم البشر، ورحلتنا في باطن الأرض، وتضحك على مواقفي السخيفة في ذلك الوقت، ثم، سألتها:

- كيف قبضوا عليك يا غادة؟

ابتسمت ساخرة:

- من غبائك يا حبيبي، والآن أخبرني ماذا حدث معك أنت؟
- كنت ألعب مع أختك كونتنيسا.

ما إن لفظت الاسم حتى رمقتني بنظرة غريبة وصمتت، ثم قالت:

- كيف عرفت أن اسمها كونتتيسا، ولماذا لا أستطيع قراءة أفكارك، لماذا تخفي أفكارك عني، ما الذي حدث معك، أخبرني يا حسن؟

أي ورطة أنا فيها، كيف أخبرها وماذا أقول لها، فعمدت إلى تغيير الموضوع لعلي أجد مدخلاً أبدأ منه حديثي، بدأ الوقت ينفد وأنا في حيرة من أمري، وازداد الأمر تعقيداً حينما أخذت تشرح لي عن خططها المستقبلية في العودة إلى عالم البشر، فقلت:

- غادة، ألم تفكري للحظة أننا قد لا نلتقي إلى الأبد...
- لا تقل هذا، سنلتقي متى نريد، فالأمر ليس بالتعقيد الذي كنا نظنه، لم يتبق إلا بعض الوقت وسأبلغ السن القانونية وسترفع عني الرقابة، وأعود حرة من جديد، وسأراك متى أريد، ولن يكتشف أحد ذلك، فقد تعلمت أشياء كثيرة، وحتى لو عرفوا فهم لن يفعلوا شيئاً لأن زواجي منك كان قبل أن أبلغ السن القانونية.
- ولكن يا غادة أنتِ من الجن وأنا من البشر، ولن نستطيع أن نستمر في ذلك؟
- لماذا تقول ذلك الآن؟ لقد حذرتك منذ البداية وأنت لم تهتم، لقد بقيت مخلصة لك ولم أتأثر بمختلف الضغوط، أنت كل شيء لي يا حسن.
- ألم تفكري ولو للحظة أنني من الممكن أن أكون قد تزوجت أو أحببت واحدة أخرى؟!

ابتسمت ثم اقتربت مني أكثر وطوقت عنقي بذراعيها، وتركت أنفها يلامس أنفي ونظرت في عيني ثم قالت:

- لا يمكن أن أفكر في ذلك، كنت متأكدة أنك ستنتظرني وكنت واثقة من حبك لي، وإلا لما رضيت أن أتزوجك.

كلما تحدثنا ازداد الأمر تعقيداً، دعوت الله أن يقبض روحي قبل أن أنطق بكلمة واحدة تمسها، حتى أخرج من المأزق الذي أنا فيه، ثم فقلت:

- ولو قلت لك يوماً إني ككل البشر بحاجة إلى أن يكون لي ابن يحمل اسمي، وهذا لن يحدث إلا من خلال زواجي بواحدة من البشر؟
- أرجوك يا حبيبي، لماذا تتعمد استفزازي؟
- ولو أنني مت مثلاً، ماذا ستفعلين؟ فكري قليلاً، طبيعتنا تختلف كثيراً، نحن البشر نهرم ولا نعمر طويلاً وأنتم عكس ذلك، ألم تفكري ماذا سيحدث بعد ذلك، ولماذا تربطين مصيرك بإنسان فانٍ؟
- مهما حدث ستبقى حبيبي وسأبقى مخلصة لك إلى الأبد...

آلمني حبها وإخلاصها لي فقلت:

- وماذا لو عرفت أنني خنتك أكثر من مرة، مع جنية ومع أنسية أيضاً...
- لن أصدق حتى لو رأيت ذلك فكفاك استفزازاً؟

شددتها وضممتها إليّ بقوة وأنا أحاول أن أكبت ثورة حبي وعواطفي حتى لا تتفجر وتصطدم مع الواقع من جديد... أنا أعلم أنني فقدتها ولن تعود إلي أبداً حينما تعلم ما فعلت وما كنت أنوي أن أفعل، ولكني لا أريد أن تفقد نفسها بسببي، ولا أستطيع أن أكذب عليها... من بعيد لمحت الأميرة وساريز قادمتين بالاتجاه الذي نحن فيه، فكدت أفقد الوعي خاصة حين رأيت الإصرار في عيني الأميرة باندا على إنهاء هذه القضية. وقفت غادة احتراماً للأميرة، وبأدب جم سألت الأميرة إن كان بالإمكان مشاركتنا الحديث، فالتفتت غادة إليّ وعيناها تقولان "لا"، لكن خجلها دفعها للموافقة، خاصة أنني عجزت عن الكلام.

– كادنتا، أعرفك على صديقتي ساريز، وساريز أعرفك على كادنتا.

ابتسمت غادة وهزت رأسها ورمقتني بنظرة خاطفة خجولة، ربما لأن الأميرة نادتها باسمها الحقيقي وظنت أنني أسمع هذا الاسم لأول مرة... ابتسمت ساريز ومالت نحوي وهمست في أذني:

– لقد ظننتها مرح، إنها تشبهها كثيراً.

اكتفيت بهز رأسي، وعيناي تهربان من الجميع، مازحت الأميرة غادة ثم قالت:

– ما هي خططك المستقبلية يا كادنتا؟

– لا شيء سأبقى كما أنا...

– كادنتا المشاغبة لا تخطط لشيء، هذا مستحيل.

ابتسمت غادة ورمقتني بنظرة خاطفة دون أن تتكلم.

- هل ستنوين الإصرار على عهد ارتباطك مع حسن بعد أن تبلغي السن القانونية؟

هزت غادة رأسها مؤكدة أنها مصرة على ذلك، فقالت الأميرة:

- لكن يا كادنتا الحياة تتغير والأيام لا تبقى كما هي.

حركت غادة رأسها إلى الخلف لتعيد ما مال من شعرها على وجهها ثم قالت:

- لن يمنعوني من حبه مهما فعلوا.

أثناء الحديث استدارت ساريز إلى الخلف وأخذت تبتعد وتبتعد وما عدت قادراً على رؤيتها وكأنها قررت أن تغادر عالمي من غير رجعة، رمقتني الأميرة باندا بنظرة غاضبة ثم قالت بحزم:

- وأنت يا حسن، تفضّل قل لنا رأيك؟

عجزت عن الكلام وأطرقت رأسي خجلاً، فلم أجرؤ أن أواجه عيني غادة أو أن أزعزع ثقتها بي، وبذلت جهدي لأمنعها من قراءة أفكاري... أغمضتُ عيني وأنا أكاد أفقد الوعي، وفجأة قلت في داخلي ساعديني يا مرح، فظهرت كلمح البرق وكأنها كانت قربي تنتظر هذه اللحظة، غمزتني بطرف عينها واقتربت من أختها غادة.. آلاف الصور والكلمات الصامتة تمت في لحظات، حالة من الذهول أصابتني وأنا أسمع قرع الطبول، اقتربت مرح مني ثم قالت:

- حسن، غادة واثقة من أنك تحبها أكثر من أي شيء آخر، فاتخذ قرارك الآن بإرادتك الحرة فوراً.

التفت إلى غادة وهي تبتسم وتهز رأسها مؤكدة كلام مرح أو أني أظن ذلك وفجأة، اختفى كل شيء من حولي وكأنه لم يكن... وفجأةً وجدت نفسي في البيت وساريز ما زالت نائمة، لم أعد متأكداً إن كان ما حدث حلماً أم واقعاً، ولكن قرع الطبول لم يفارقني، شعرت بأني أكرر المشهد نفسه، فتحت الباب، ولكن هذه المرة كانت مرح ففوجئت، لأنني لم أعهدها مهذبة تطرق الأبواب. طلبت أن أرتدي ملابسي وأن أتبعها على الفور، سرت خلفها حائراً إن كنت مستيقظاً أم أنني في حلم داخل حلم، أمسكت يدي وحثتني على أن أسرع أكثر حتى توقفت بجانبنا عربة تقودها الفتاة التي رافقتني في حلمي أو واقعي لمقابلة الأميرة، فولجنا العربة لتنطلق بنا بسرعة تسابق الريح، وفجأة خاطبت مرح الفتاة قائلة:

– سألقاك في المكان المتفق عليه، فلا تتوقفي لأي سبب.

اختفت العربة كلمح البصر، فأيقنت وقتها أنني لا أحلم، حاولت أن أتحدث مع الفتاة لعلي أفهم ما يدور حولي، فلم أفلح في دفعها لنطق حرف واحد، حتى حين كنت أطلب منها أن توقف العربة لدقائق كانت تتعمد استفزازي وتزيد من سرعتها. وهنا قررت أن أطلق العنان لخيالي حتى لا أفكر في المستقبل. توقفت العربة بعد وقت طويل فقفزت منها لأجد نفسي وسط غابة، بحثت عن مكان لقضاء حاجتي فلم تسمح حارستي الجديدة لي بالابتعاد عن العربة، كانت متوسطة الجمال وفي عينيها شراسة لبؤة، وسعياً لاستفزازها بيّنت لها أنني لا أجد مانعاً من أن ترافقني أثناء قضاء حاجتي، لكنها هي من استفزتني حين همت بمرافقتي، فعدلت عن قضاء حاجتي.

مر الوقت ولم أنجح باستفزازها أو دفعها للإجابة عن أي سؤال. فجأة ارتسمت على شفتيها ابتسامة وأطل الحب من عينيها، لأكتشف أنها تبتسم إلى مرح التي ظهرت فجأة من خلفي، وقبل أن أنبس ببنت شفة، خاطبت مرح الفتاة:

- هل أزعجك حسن بأسئلته؟
- لا، لقد كان مهذباً ولم يزعجني حتى بسؤال واحد.

ضحكت الاثنتان وتبادلتا الهمسات. علمت أن الفتاة اسمها ريكافا حين تركناها والعربة خلفنا بالغابة وانطلقنا نشق طريقنا بين الأشجار سيراً على الأقدام، وهنا أمطرت مرح بعشرات الأسئلة، هل التقيت غادة وأين كنت وأين نحن وكيف عدت إلى البيت وهل فعلاً زرت قصر الأميرة...

- كل أسئلتك لا قيمة لها أمام ما ستشهده ولك أن تفخر أنك رافقتني لتشهد إطلاقي علوم السحر القديمة لإخضاع المستحيل.
- وماذا سأستفيد إن خضع المستحيل لك أم لم يخضع، فما أنا إلا شخص مسلوب الإرادة تقودينه من مكان إلى آخر دون أن يمتلك حق اختيار أي شيء.
- عزيزي حسن، أنت لم تقم بشيء إلا بإرادتك الحرة فلا توهم نفسك بأنك ضعيف.
- عن أي إرادة حرة تتحدثين، لن أرافقك، سأعود إلى مدينة القمر لأحيا فيها ما تبقى من عمري، فلا حاجة لي بعلوم السحر وكل هذا الهراء.

- بإمكانك أن تفعل ما تشاء، اجلس، نم، عد إلى مدينة القمر أو الشمس... لا يمكن أن أجبرك على مرافقتي إلى القلعة، ولكن يجب أن تعلم مسبقاً أن بوابة القلعة لا تفتح إلا إذا اجتمعت إرادة حرة من عالمين، ووصولنا إلى هنا لم يكن لأن أحداً تهاون معنا بل لأن هناك عهداً قديماً يمنع اعتراض طريقنا، أما إن رغبت أن تفوت الفرصة فلن أمنعك.

أدخلتني مجدداً في حيرة من أمري:

- على الأقل كوني صادقة معي لمرة واحدة، هل كان لقائي مع غادة حقيقةً أم حلماً؟
- ما الفارق إن كان حلماً أم حقيقة، أنت كنت بحاجة إلى أن تختبر مشاعرك وتقارن حبك لها بحبك لأي امرأة أخرى، ربما بإمكاني أن أصنع لك حلماً، ولكن يستحيل أن أزوّر مشاعرك، وحتى أكون صادقة معك كادنتا بخير وستبقى كذلك ما دمت أنت بعيداً عنها.
- هل ستفين بوعدك وتعيدين غادة إليّ بعد أن تنتهي مهمتنا اللعينة؟
- وعدتك أن تلتقي بها وأوفيت بوعدي، ولا يهم إن كان في الحلم أم في الواقع، ولتعلم أنني ما كنت لأضحي بمستقبل أختي من أجل أي شيء في العالم، أما إن كنت قد أحببت كادنتا يوماً فأرجو أن تتمنى لها السعادة فقط، وأنا أعدك أن أجد الطريق لإعادتك إلى عالم البشر، والآن ساعات تفصلنا عن القلعة وستدخلها معي بإرادتك الحرة من أجلك وليس من أجل أي أحد.

كان بإمكانها أن تكذب وتعدني مرة أخرى بوعودها ولكنها لم تفعل. كان لا بد أن أختبر صدقها قبل أن أخطو خطوة واحدة، فأشحت بصري عنها حتى لا تتسلل إلى أفكاري:

– ما هو الشيء الذي أستطيع أن أفعله من أجلك حتى نعود أنا وغادة معاً؟

– لن أناقش معك حتى هذا الموضوع.

– هل ستعيدينني إلى عالم البشر بعد إخراج العلوم القديمة أم سأبقى عالقاً في هذا العالم؟

– لا قيمة لهذه العلوم إلا في عالم البشر ولا يمكن إخراجها من هذه المملكة إلا بوعي بشري، ومصيرنا واحد، إن لم تخرج فسأبقى عالقة إلى الأبد، لهذا اطمئن سأكون حريصة عليك أكثر من حرصي على نفسي.

دار حديث طويل بيننا، وعدتني فيه بالقليل، ولم تمارس الخداع كعادتها. فرافقتها لأني أردت ذلك بكامل إرادتي. لم تكن الطريق إلى القلعة سهلة وعلمت أننا نسير في المنطقة الحرام بين المدن، كان هناك الكثير مما يشد الناظر إليه ولكنها منعتني من التوقف في أي محطة. كانت بارعة في كل خطوة تخطوها وهذا دل على أنها وصلت إلى هذا المكان في وقت سابق.

وصلنا إلى أحد الكهوف في اليوم التالي، وسرعان ما وجدت طريقاً مخفياً أوصلنا إلى كهف آخر، أخذ ينحدر ويضيق تدريجياً حتى تحول إلى نفق،

سرنا فيه أكثر من ساعة لنصل إلى طريق مسدودة، لكنها وجدت ممراً عبر شقوق الصخور التي حاصرتنا وخيل إليّ أنها ستطبق عليّ في أي لحظة لأبقى عالقاً بينها حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة. تنفست الصعداء حينما تحرر جسدي من الصخور لننزلق نحو كهف ضخم جداً يمتد طوله وعرضه أميالاً، كان مضاء بضوء أخضر خافت، تبين لي بعد دقائق أن مصدره نباتات غريبة نمت بعشوائية على أرض الكهف، كان السير داخل هذا المكان مريحاً فلم أحتج إلى تلمس طريقي، قطعنا مسافة ربما زادت على ألف متر إلى أن اعترض طريقنا لوح صخري لم يميزه شيء إلا ضخامته ورسوم تعد بالآلاف، أمعنت النظر فيها، فتفاجأت بأنها رسوم لراحات أيد ولكن بأحجام مختلفة، حينها طلبت مرح أن أبحث عن الرسم الذي يلائم راحة يدي فيما تبحث عن الرسم الذي يماثل راحة يدها. وبعد بحث مضن، وجدنا ضالتنا، حينها أخبرتني مرح بما سأردده حين نضع راحتينا على الرسم المناسب. وقبل أن نبدأ حدقت في عينيها وحدقت في عيني وكأننا استشعرنا ما نحن مقدمان عليه.

– أنا كونتتيسا، ابنة نازك، ابنة الكونيين، بإرادتي الحرة أعلن فتح قلعة أكزانتوس.

– أنا حسن، ابن صفية، ابن البشر، بإرادتي الحرة أعلن فتح قلعة أكزانتوس.

– نحن من البشر والكونيين، بإرادة حرة واحدة متحدة، نعلن فتح قلعة أكزانتوس.

انشق الجدار الصخري مصدراً صوت احتكاك مزعج ليظهر شق صغير عبرناه بصعوبة بالغة، ثم عاد لينغلق مجدداً، ساد الظلام الدامس عدة دقائق، قبل أن ينبعث ضوء أزرق خافت، كنت أتوقع أن أرى العجب العجاب، لكنني لم أر سوى غرفة كبيرة لا يزيد طولها على عشرة أمتار وعرضها نحو تسعة أمتار، أما ارتفاعها فلم يتجاوز الأمتار السبعة، كان واضحاً أن الغرفة منحوتة في قلب صخرة عملاقة بطريقة بدائية جداً، توسطت الغرفة مصطبة حجرية على شكل دائرة وحولها خمسة مقاعد نحتت من قطع صخرية بطريقة غاية في البساطة دون أي لمسة فنية، أما أرضية الغرفة فرصفت بقطع حجرية غير متناسقة، حتى أنني كدت أتعثر فيها أكثر من مرة، عندما اعتادت عيناي على الضوء الجديد فوجئت بأن الرسوم والأرقام والرموز تحتل كل جوانب الغرفة وسقفها وحتى أرضيتها وكأن من نقشها أراد أن يستغل كل مساحة متوافرة فيها، قطعت مرح الصمت لأول مرة منذ دخولنا الغرفة.

- لا تترك رسمة أو حرفاً أو رقماً دون أن تنظر إليه.
- هناك رموز بعيدة لا أستطيع رؤيتها.
- اترك عينيك تحدقان في كل ما تراه وكأنك تلتقط صورة لكل رمز أو رسمة أو رقم.

كانت حريصة أن أفعل ذلك بالشكل الصحيح، تركت عيني تلتقطان الصور بالطريقة التي أرادتها، وحين انتهيت، دفعتني إلى أن أكرر العملية أكثر من مرة، فعرفت أنها تريد أن تستغل ذاكرتي لتخزن فيها ما تحتاجه حتى

تستخرجه لاحقاً، أطعت أوامرها والتزمت الصمت وقررت أن أقيد لساني هذه المرة، لكن مع تكرار التقاط الصور، بدأت الأسئلة كعادتها تتدافع للخروج من فمي.

أصابني تكرار التحديق بالجدران والسقف ونقص الهواء بدوار شديد أفقدني السيطرة على نفسي لولا أنها أمسكت بي وساعدتني على الجلوس. أخذت أراقبها وهي تمسح بعينيها الجدران والأرضيات والسقف بسرعة فائقة وحينما انتهت اقتربت من المنصة الحجرية واعتلتها برشاقة وهي تبتسم، ثم قالت:

– أصغ إلى إحساسك قبل عقلك، واعلم أن أسرار الكون الحقيقية تختبئ دوماً بين الأوهام، وتنتظرنا على الحد الفاصل بين النوم واليقظة.

فتحت ذراعيها وأخذت تدور حول نفسها فتطاير شعرها من حولها، تمتمت بلغة غريبة لم أفهم منها إلا تكرارها اسمها، حتى انبعث من أسفل المنصة مزيج من الأضواء وانتشر دخان كثيف لم يرتفع عن الأرض أكثر من متر، وفجأة ظهر في الجدار المقابل للمنصة باب صغير اندفع عبره هواء بارد أعاد التوازن إلى أجواء الغرفة، في الوقت الذي واصلت فيه مرح رقصتها الغريبة وبصوت مرتفع أخذت تردد:

– أنا كونتتيسا ناني نازكاديدنا، قادمة إليكم من ماضي أكزانتوس، ****** ***** *****، أحمل إليكم عهد أم الأمهات، نور المنير، عهد المعاهد، إن زرعتم ظلاً قطفت قمراً، إن جمعتم الرابع كانت الخامس، إن جئتم بالتاسع مدت جسر الواحد، إن همستم

باسمها سمعتم همسها، إن كنتم عينين كانت الثالثة، من أحبكم
أحبته، ومن عاداكم عادته، إن نطقتم نطقت، إن أصغيتم همست،
من دعاها لحلم زارته، لم تنقض عهداً، لم تقطع ظلاً، لا تكون
ناراً دون تراب ولا ماء دون هواء والخامس معها، بين النوم واليقظة
تلقاكم،***** ******* ****.

كررت تعويذتها عشرات المرات، بلغات عرفتها ولغات لم أعرفها، حتى انتهى هذيانها، وكلي شوق إلى دخول البوابة الصغيرة لأرى إن كانت قوة الشر تنتظرنا أو جني ينحني ويدعونا لدخول القلعة العجيبة العظيمة ومن ثم يقدم العلوم على طبق من ذهب، لكن لا شيء من ذلك حدث.

ارتمت مرح على الأرض جراء الإعياء الشديد وصدرها يهتز من شدة خفقان قلبها، فسألتها:

- ماذا ننتظر، ألا يتوجب علينا دخول الباب؟
- إنه باب الصدى، الصدى الذي يصل إلى كل الأكوان، سننتظر حتى تفتح لنا بوابة الخروج.

عادت مرح لالتقاط أنفاسها، فيما فضلت أن ألوذ بالصمت حتى لا أنطق بحرف يستفز أهل هذه القلعة، أو يصل صداه إلى مختلف الأكوان. طال انتظاري، لم يظهر ملك أو جن أو إنسي، ولو أطل أحدهم لاكتفيت بأن يصحبنا خدمه إلى مكان عجيب يليق بحجم الخرافة أو يفتح لنا البوابة لنغادر هذا المكان. ثم فاض صبري فقلت:

- وماذا بعد، كم من الوقت سننتظر في هذا المكان الذي نتنفس فيه العفن، ألا توجد نافذة تفتحينها لنتنفس بعض الهواء النقي، ثم إلى أين ستوصلنا البوابة التي ننتظرها، هل ستوصلنا إلى علوم السحر، هل ستقدم العلوم لنا قبل رحيلنا أم سترسل إلينا بالبريد لاحقاً؟

أشع من عينيها بريق لم أره من قبل، ثم قالت بثقة وهدوء:

- لقد حققنا المستحيل، ووصلنا إلى علوم السحر القديمة. إنها بحوزتنا الآن، نصفها معي والنصف الثاني معك، ولم يبق أمامنا إلا أن نخرج من هنا ونجد الطريق إلى عالم البشر.

حاولت أن أضبط أعصابي، فأنا داخل صخرة غامضة في عالم مجهول، وليس من الحكمة أن أستفز أهلها، هأنا أحمل نصف العلوم العجيبة، وكل شيء جائز في هذا العالم الغريب، ربما بعد أن أخرج سأجدها في جيبي ولكن ما استفزني فعلاً أن مرح لا تعرف الطريق للخروج من هذا المكان ولا الطريق إلى عالم البشر، والصبر دون هواء لم يكن بالأمر السهل، وبعد مرور ساعات أو دقائق (فلا مجال لمعرفة الزمن في مثل هذا المكان) انفتحت بوابتان، فأشارت مرح أن أخرج من إحداهما، وحينما خطوت الخطوة الأولى خارجها شعرت أني أطأ بقدمي الفراغ، عدت إلى الخلف من فوري، فحثتني مرح ألا أخاف وأواصل السير، وعلى الرغم من ذلك لم أتجرأ أن خطو خطوة واحدة؛ خشية أن أسقط في فراغ لا أعرف منتهاه، فقالت:

– إما أن يثق أحدنا بالآخر وإما سنحشر هنا إلى الأبد، فقرر بسرعة قبل أن ينغلق الباب.

وماذا سيحدث أكثر، توكلت على الله، وعدت من جديد لأخطو الخطوة الأولى فالثانية، وإذ بي وسط حقل كبير من الأعشاب نبت فيه عدد من قليل من الأشجار المتناثرة. بحثت عن مرح فلم أجدها، وكنت أتوقع أن الباب سيوصلنا إلى المكان نفسه، مثلما كان يحدث سابقاً، انتظرت ساعة ثم قررت أن أواصل سيري، فمرح في النهاية بارعة في إيجادي أينما كنت، أخذت أبحث عن موقع يمنحني الشعور بالأمن والقدرة على مراقبة أكبر مساحة ممكنة، حتى أتعرف إلى هذا المكان، سرت عدة ساعات حتى وصلت إلى مجموعة أشجار اصطفت كجدار، فتجاوزتها بسهولة وواصلت طريقي، ومن بعيد شاهدت مدينة، فواصلت السير نحوها حتى أدركت أنني أمام إحدى مدن المملكة، سرني ذلك، فهذا معناه أن هناك أميرة ستستقبلني وستكرر اللعبة مرة أخرى، ولكن الرعب خيّم علي حينما تذكرت السعنونة، فخشيت أن أكون في طريقي إلى مدينتها، لذا قررت أن أستكشف الأمر قبل دخول المدينة، سرت أكثر من ساعة حتى وصلت أطرافها وهناك سألت أحد المارة عن اسم المدينة، فتجاهلني ثم سألت رجلاً آخر ففعل كسابقه، وهنا أدركت أنني وصلت مدينة النجوم، لكن من طريق غير تلك التي دخلتها في المرة السابقة، بعدها بدأت ألاحظ ظلالاً تحيط المدينة فتيقنت أنني أمام مدينة الظلال، المدينة التي لم تسمح مرح أن أرافقها إليها سابقاً، خطر ببالي أن أسأل عن أميرة المدينة مثلما كنا نفعل سابقاً أو أن

أنتظر حتى تحضر عربة تصحبني إليها، انتظرت ساعات وساعات دون أن يحدث شيء ثم قررت أن أدخل المدينة وأقوم بجولة استكشافية لقتل الملل لعل مرح تجدني خلالها. كان أول مكان شدني ساحة دائرية وسطها عمود رخام يرتفع مئات الأمتار إن لم يكن أكثر لاستحالة رؤية قمته، والأغرب أن لهذا العمود العديد من الظلال بأحجام مختلفة، أثناء تأملي هذا المشهد الغريب، اقترب رجل في الأربعينات من عمره يرتدي ملابس رمادية ورحب بي وأخذ يشرح لي كدليل سياحي عن هذه الساعة الشمسية، تاريخها ورمزيتها لأهل المدينة، ثم اقترح أن يرافقني في جولة داخل المدينة فلم أمانع. سألته بدوري إن كان بإمكانه أن يعرفني على نفسه، فأخبرني أنه مواطن عادي يشعر بأن من واجبه الترحيب بأي ضيف، ثم سألني إن كنت بحاجة إلى أي خدمة فخطر ببالي حينها ما قاله همانا عن أن مدينة الظلال تشبه مدينة الشمس نوعاً ما، وبالتالي لا بد أن يكون لكل شيء فيها مقابل، وعلى الرغم من إحساسي بالجوع والعطش فقد كنت حذراً، فسألته عن المقابل الذي يريده لأني لا أملك شيئاً أعطيه إياه، وقبل أن يجيب اقترب عدة أشخاص وسألوه عني فقال لهم إنني ضيفه، وأمرهم أن يبتعدوا من فورهم وإلا شكاهم للأميرة، تراجعوا ورأيت في عيونهم حسداً وكأنه سبقهم إلى فريسة، وهذا أثار ريبتي أكثر، سألني إن كنت أرغب أن يريني كيف يمكن أن يكون لي تسع ظلال في الوقت ذاته؟ وعندما لاحظ أنه أثار فضولي، أشار إلى المكان الذي يجب أن أقف فيه بجوار العامود، ففعلت لتنتشر على الأرض ظلالي التسعة، فنظرت إليه مستغرباً، فقال

"سأشرح لك وأرافقك إلى أكثر الأماكن غرابة في مدينتنا مقابل أن تكون صديقي وتعطيني أحد ظلالك التسعة". ما طلبه يدل على سذاجة، وما كنت لأتردد في إعطاء ظلي لمن يقدر على الإمساك به، ومع هذا خشيت أنه يتلاعب بالكلمات، فألححت عليه أن يعيد طلبه أكثر من مرة حتى لا يكون في الأمر خدعة، وحين انتهى لم أجد أنه يسعى إلى شيء مريب، لكن كان عليّ أن أتذاكى، فأشرت إلى أحد الظلال على الأرض وقلت له "أمسك به فهو لك"، ففرح كثيراً وقال "نعم، أنا لا أريد أكثر من ظلك، ولكن هل تسمح لي أن أختار أحد ظلالك بنفسي". فقلت له ساخراً "اختر يا صديقي فلن أبخل عليك بأحد ظلالي". أخذ يدور حولي حتى اختار أحدها ثم سألني إن كنت موافقاً على يكون هذا الظل ملكاً له، وقبل أن أمنحه موافقتي سمعت مرح تصرخ دون أن أراها:

- أطبق شفتيك ولا تنبس بحرف، واخرج من دائرة الظلال حالاً.

خرجت من دائرة الظلال، فتفاجأ الرجل بظهورها وهي تخاطبه قائلة:

- لا، هو غير موافق على هذا، ونحن سنغادر مدينتك الرائعة الآن، فهلا تكرمت علينا وأخبرتنا عن طريق الخروج؟

فأشار والغضب يكاد يتفجر من عينيه باتجاه الغرب ثم قال:

- أبواب مدينتنا لا تفتح إلا بين الشفق والفجر.

- لسنا في عجلة من أمرنا سنقوم بجولة حتى ذلك الوقت.

تركناه خلفنا، وأخذنا نتجول في المدينة، وحين غاب عن بصرنا قالت:

- عد فوراً من الطريق التي دخلتها ولا تتوقف لأي سبب كان، سآتي في أثرك لأنه يستحيل أن أرافقك من الطريق نفسها.

عدت من حيث أتيت دون أن تواجهني أي عقبة، حتى وجدتها في انتظاري، ولكنني شعرت بأنها تتحاشى خوض أي حديث معي، سوى أنها طلبت أن أتبعها، فسألتها عن السبب إلا أنها تجاهلتني وكأن عليّ أن أتبعها دون نقاش. شعرت بالإهانة وتسمرت مكاني ثم سألتها:

- ماذا حدث؟ لماذا كل هذا التجاهل؟

انفجرت في وجهي:

- اللعنة عليك وعليّ معك، هل تعتقد أنك في رحلة مدرسية يحق لك فيها أن تمارس مغامراتك الصبيانية، ألم نتفق إن افترقنا لأي سبب كان أن تلزم مكانك حتى أجدك، أي مستهتر أنت لتتجاوز حدود المدن وتخاطر بكل ما أنجزناه فقط لتلهو قليلاً.

انتظرت حتى هدأت وحاولت أن أبرر لها أن دخولي مدينة الظلال كان صدفة، وأنني كنت حذراً حتى أنني لم أطلب طعاماً أو شراباً، لكنها انفجرت مجدداً:

- كنت تعلم جيداً أنك تسير في اتجاه مدينة منعتك من دخولها، وكان بإمكانك التراجع، لكنك لم تفعل، أما حذرك الشديد فقد جعلك توافق على منح ظلك لأول عابر طريق، ولم تفكر للحظة أن كرمك الحاتمي كان سيفقدك حريتك إلى الأبد، فمن لا يملك ظله

لا يملك حريته، ومن حسن حظك أن الأميرة لم تعرف بوجودك وإلا لاستحال عليك مغادرة مدينتها إلى الأبد.

- أنت محقة، وأنا أعتذر منك وأعدك ألا أتهور مرة ثانية.

مرت ساعات وأنا أسير خلفها دون أنبس ببنت شفة حتى أتجنب استفزازها، وحين شعرت بأنها هدأت سألتها:

- ما هي وجهتنا القادمة؟

- إن رحلتنا في نهايتها، وقد نحتاج أسبوعاً واحداً حتى نجد الطريق إلى عالم البشر، أما وجهتنا الحالية فستكون البحث عن طريق تعيدنا إلى المكان الذي تركنا فيها ريكافا.

كان واضحاً أن مرح لا تملك أدنى فكرة عن المكان الذي نحن فيه ولا الطريق التي يجب أن نسلكها، مر يوم والطرق التي كنا نمر منها لم تختلف عن أي بقعة في عالم البشر، حتى واجهنا سلسلة صخور غاية في الضخامة ترتفع مئات الأمتار، أخذنا نسير بمحاذاتها ساعات وساعات حتى وصلنا إلى نفق، فوقفنا أمامه، كان بإمكاننا أن نرى النور في آخره، اقترحت عليها أن نعبره لعله يختصر الوقت ونجد ما نأكله ونشربه بعدها. ترددت ثم قالت:

- من الأسلم تسلق الصخور، أما عبور هذا النفق فإني أحس أن فيه مخاطرة.

- لن أغامر في تسلق مثل هذه الصخور، فالطريقة التي اصطفت بها تجعل من المستحيل تسلقها، وإن فعلت فإن احتمال سقوطي من أعلاها وارد جداً، ما رأيك أن تستكشفي نهايتها وتعودي إلي.
- أنا لا أعرف المكان، وخواصه مجهولة بالنسبة لي، لهذا لن أغامر بتركك وحيداً.

هنا لم يعد أمامها من خيار إلا المغامرة ودخول النفق. سرنا فيه، كان أطول مما توقعنا، وأثناء سيري أخذت أسمع صوتي يهمس في أذني مردداً اسمي، فسألتها إن كانت تسمع ما أسمع فأجابت بالنفي، بعد قليل بدأت أسمع عدة أصوات تشبه صوتي وتنادي علي، ثم أخذ عدد الأصوات يتزايد حتى شعرت بالصداع، وهنا لفت انتباهها ما يحدث لي، فقالت لا تخف إن الرموز التي رأيتها في قلعة أكزانتوس هي التي تهمس لك وعليك أن تسرع حتى نتجاوز هذا النفق فهناك شيء ما قد حركها. سرنا عدة أمتار ورأينا عدة أشخاص بأعمار مختلفة يسيرون شاردي الذهن لا ينتبهون لوجودنا أو أنهم لا يروننا، تجاوزناهم وخرجنا من النفق، فوجدنا أنفسنا نسير على بساط متناسق من العشب الأخضر، كان واضحاً أن يد مخلوق قد اعتنت به وهذبته ليبدو بهذا الشكل، انحنيت ولامسته لأتأكد أننا لا نشاهد وهماً كما حدث سابقاً، كان ملمسه رائعاً، سرنا مئات الأمتار، أخذت الطبيعة تفتننا بجمالها، ورود وأشجار لم أر مثلها سابقاً، سألت مرح:

- هل دخلنا حدود مدينة ما من اتجاه آخر؟

- لا، نحن داخل حديقة صممها شخص ما ولم أر في كل المدن شبيهاً لها.
- وهل زيارتك الخاطفة للمدن كانت كافية لتصلي إلى هذه النتيجة.
- المدن الخمسة صغيرة جداً وعدد سكانها محدود وكان بإمكاني اكتشاف كل المدن في عدة ساعات.
- أشعر بأنك تبالغين كثيراً، فما رأيته عكس ذلك.
- لقد كنت مبهوراً بما رأيت حتى أنك لم تنتبه لضيق مساحة المدينة كما أن جميع طرقها ملتوية ولو كانت بخط مستقيم لاكتشفت أن المساحة الحقيقية لكل مدينة أصغر بكثير مما تبدو عليه وأن الأرض الحرام التي تفصل المدن وتحيط بها أكبر منها بآلاف المرات.
- أيعقل أن أهل المدن لم يسعوا إلى توسيع حدود مدنهم؟
- من يسكن هذه المدن يفقد الرغبة في الاكتشاف، والتوسع الوحيد الذي يسعون إليه هو الحصول على السكان، ومن رأيتهم في النفق لا بد أنهم أشخاص سعوا لاكتشاف حدود مدنهم ففقدوا الإحساس بالزمن.
- روعة هذه الحديقة تثير ريبتي، فهل من الأسلم العودة؟
- أنا مرتابة أيضاً ولكن العودة من النفق مستحيلة، فلا يبدو أن له مخرجاً وإلا لتمكن هؤلاء من عبوره بدل السير داخله وكأنهم

يسيرون في طريق لا نهاية لها، تعال لنستكشف الحديقة حتى نجد طريقنا للخروج.

غمرتني الحديقة بالبهجة والسرور، عناصر الطبيعة اجتمعت فيها بتناسق رائع، فيما عزفت نسمات الهواء أجمل الألحان، لم يتجمد الزمن في هذا المكان ولم تكن الحديقة كبيرة لنضيع فيها لأيام فقد كان بالإمكان رؤية نهايتها والأراضي القاحلة التي تحيط بها، أخذت أبطئ خطواتي لعلي أبطئ الزمن معها ولا أخرج من هذه الجنة الصغيرة، تساءلت أي أحمق يترك مثل هذا المكان ويذهب إلى تلك الأرض الشرسة بمحض إرادته، عندما وصلنا إلى الحد الفاصل بين الأرض الخضراء والأرض القاحلة الميتة سرني أن مرح قررت أن نمضي عدة ساعات حتى تتبين الطريق الأقصر الذي سيوصلنا إلى حيث تركنا ريكافا والعربة، طلبت أن أتسلق إحدى الأشجار وحينما فعلت طلبت أن أحيط جذع الشجرة بذراعي وأشبك أصابعي فجاريتها فأخذت تضحك وعلمت أنها تسخر مني، وحينما حاولت أن أبعد يدي عن الشجرة لم أستطع، ضحكت وهي تقول:

- تخيل أن الشجرة امرأة جميلة وواصل عناقها حتى أستكشف طريقنا وأعود إليك سريعاً.

سألتها مستاء لماذا تفعل هذا بي فردت:

- بصراحة لا أثق بأن تبقى في مكان واحد ولا أعلم أي الأصوات قد تسمعه ويأخذك بعيداً، وأنت هكذا ستكون بأمان حتى أعود.

وبلمح البصر اختفت وتركتني عالقاً أعانق الشجرة، لم تغب سوى دقائق حتى بدأت أسمع أصواتاً غريبة تهمس في أذني فأصابتني بالصداع، أخذت أغني لأسمع صوتي فأخذت الأصوات تغني معي. عادت مرح وحينما سمعت صوتها تلاشت الأصوات تحررت يداي فهبطت إلى الأرض. ضحكت مرح واعتذرت مني وأخبرتني أننا لا نبعد عن ريكافا إلا عدة ساعات فقط، لكن من الأفضل أن ننتظر حتى يحل الليل وننطلق، وكانت فرصة لقضاء المزيد من الوقت في الجنة الخضراء نلهو ونستمتع بكل لحظة قبل أن يحل موعد رحيلنا، كانت لدي رغبة قوية في النوم ولكني منعت نفسي فلا أريد أن أفوت علي أي لحظة، وهنا قررت مرح أن تعذبني فخلعت ما ترتديه من ثياب وأخذت تستحم عارية تحت شلال ماء يصب في واحة صغيرة، فقرر دفء المكان إلى جانب جمال الطبيعة والنسيم العليل دعوتي إلى أن نحتفل معاً، وحينما رأتني أقترب منها، أشارت بإصبعها أن أتوقف، تجاهلت إشارتها واقتربت منها وما كان منها إلا أن ابتسمت وخرجت من تحت الشلال عارية واقتربت مني فاعتقدت أنها ستعانقني وسنغرق معاً في الشهوة إلا أنها تركت إبهامها يلامس شفتي وقالت:

- لن تنالني أبداً وما حدث في الماضي كانت له أسبابه، اطرد الأوهام من رأسك ولا تجرؤ أن تنظر إليّ بهذه الطريقة مرة أخرى.

استدارت وأخذت تسير بين الأشجار، دون أن تكلف نفسها عناء ستر جسدها، حتى توقفت قرب شجرة وأخذت تضحك وهي تنادي علي لأشاهد

معها وردة عجيبة، ترددت بالاقتراب منها بعد أن صدتني بتلك الطريقة المهينة، وحين كررت طلبها كتمت غيظي واقتربت، فرأيت وردة عجيبة جمعت في أوراقها الكثير من الألوان، وللوهلة الأولى خيل إليّ أنها تبادلنا الابتسامات، كانت مرح مبهورة بجمال الوردة حتى أنها أخذت تبتسم لها ببلاهة، وفاجأتني حين أمسكت كفي وشدت عليه بحرارة. هذه المخلوقة تتعمد أن تثير جنوني فأخذت أتأملها وأتأمل معها الوردة العجيبة، وحين شعرت بأنني سأغرق مرة أخرى في جسدها العاري دفعني كبريائي إلى أن أبتعد سريعاً إلى شلال قريب لأطفئ شغفي بمياهه المنعشة وحينما انتهيت وارتديت ملابسي لاحظت أن مرح ما زالت في مكانها متسمرة تتأمل الوردة، الأمر الذي أثار ريبتي فاقتربت منها لأجد أنها تجمدت داخل لحظة التأمل أو دخلت في غيبوبة، فتحدثت لألفت انتباهها ولامست كتفها وحين لم يبدر عنها أي ردة فعل أخذت أهزها من كتفها لتصحو فلم ترمش عيناها، وعلى الفور أدركت أنها تحت تأثير سحر ما له علاقة بهذه الوردة العجيبة، حملتها إلى ظل شجرة وجلبت ثيابها وألقيتها عليها احتراماً لها ورحمة بنفسي، صبرت عدة دقائق وحين لم تستعد وعيها، أخذت أجرب كل ما أعرفه من طرق لإيقاظها من سباتها الغريب، عاد إليها وعيها وجن جنونها، تتطاير الشرر من عينيها وشرعت في دفعي وركلي وأسرعت لستر جسدها كفتاة صغيرة باغتها أحدهم وهي عارية، عضت على أسنانها وهي تنظر إليّ نظرات كلها تهديد ووعيد بأنها ستقتلني فوراً، أمسكت رأسي وأخذت تحدق في عيني فلم يخف عليّ أنها تقرأ ذاكرتي، وما إن انتهت حتى

تلاشى غضبها وبدأت تعتذر مني، حينها جاء دوري لأفرغ غضبي من الطريقة الحقيرة التي عاملتني بها فور استعادة وعيها، وقلت لها إنني لم أصل إلى هذه الدرجة من القذارة لأستغل فقدانها وعيها وأعبث بجسدها، فلم يبدر عنها أي ردة فعل بل إنها صبرت حتى أفرغت غضبي فاقتربت مني وطبعت قبلة على خدي وقالت:

- أنا آسفة، وأقدر لك أنك لم تفعل.
- ماذا كانت ستفعلين لو أنني قمت بهذا الفعل المشين؟
- كنت سأقتلك أولاً وبعد ذلك سأندم لأنني كان علي أن أقتلك بعد إنجاز المهمة.
- أقسم أنك مجنونة يا مرح!
- نعم أنا كذلك، هيا لنتحرك بسرعة ونغادر هذا المكان الملعون.

تحركنا على عجل وفي الطريق فهمت منها أن هذا المكان يسرق الزمن من الجن ولا يؤثر على البشر، ولو لم أبعدها عن الوردة لبقيت في غيبوبة لأشهر، وأنها تشك في أن الأشخاص الذين صادفناهم في النفق حدث لهم الشيء نفسه، فسألتها:

- من يقف خلف هذا المكان ولماذا لم تتأثري بسحره منذ دخلناه؟
- لا أعرف، ربما كان لهذا النوع من الورود تأثير خاص، وربما الوصول إلى هذا المكان عبر النفق لا يترك تأثيراً وربما لأني خرجت وعدت من طريق ثانية خضعت لتأثيره، وما يثير قلقي فعلاً أن هذا المكان يديره من يمتلك خبرة بعلوم السحر القديمة.

- هل تعتقدين أن واحدة من أميرات المدن تقف خلف هذا المكان؟
- أميرات المدن يملكن الحرية داخل المدن الخمسة فقط، ولا تجرؤ واحدة منهن على الابتعاد عن حدودها مسافة تزيد على مائة متر، وإن زارت إحداهن مدينة أخرى فيجب عليها اتباع طرق خاصة معقدة لهذه الغاية، علاوة على أن أعمارهن أصغر من أن تمكنهن من امتلاك مثل هذه العلوم...

لم نواجه أي مصاعب في طريقنا، لكنها استغرقت الكثير من الوقت. ومع شروق الشمس وصلنا إلى حيث تركنا ريكافا والعربة، ومن الحديث الذي دار بينهما، فهمت أن خطة ما تم الإعداد لها للإيقاع بالسعنونة، وأن تأخرنا غير المتوقع دفع ريكافا لإلغائها، وأنهما قررتا أن تعدا خطة جديدة. انطلقنا إلى المدخل الرئيس لمدينة السعنونة، وحين سألتها عن السبب ردت بأنها مضطرة إلى سرقة نجمة القصر مهما كلف ذلك من ثمن بناءً على اتفاقها مع شرشريتا... وصلنا الأرض الحرام بين المدن ووجدنا طريقنا إلى بوابة مدينة النجوم الرئيسة، أوقفت ريكافا العربة على بعد عشرة أمتار من البوابة وأخذت تنادي على حرس البوابة لكنهم اكتفوا بمراقبتنا فقط، فعرفت أن خروجهم خطوة واحد خارج حدود البوابة يجعلهم خارج نفوذ مدينتهم. ابتسمت مرح وطلبت من ريكافا أن تذهب إلى الحراس وتطلب منهم فتح الباب وفرش السجاد لاستقبال كونتتيسا، ذهبت ريكافا وبعد دقائق عادت تضحك وضحكت معها مرح دون أن تنطقا بحرف واحد، كان واضحاً أن هناك خدعة ما اتفقتا عليها مسبقاً، طلبت مرح ألا أخرج من العربة لأي

سبب كان وألا أزعجها لأنها ترغب في أن تغفو قليلاً، فهددتها بأنني لن أتوقف عن إزعاجها حتى تجيب عن أسئلتي، فقالت اسأل ريكافا وستجيبك، فسألتها وأجابتني على طريقة معلمتها:

- نحن هنا لسرقة نجمة القصر، راقب بصمت ولا تسأل أكثر.

مرت ثلاث ساعات لم أتوقف فيها عن إزعاج ريكافا دون أن أحصل على إجابة، فُتح باب صغير في الباب الكبير لتطل منه السعنونة التي أخذت تتفحص عربتنا وكانت حريصة هي الأخرى على ألا تخطو خطوة واحدة خارج البوابة، وهنا قادت ريكافا العربة وتقدمت خمسة أمتار أخرى فصرنا أقرب من البوابة وريكافا، حينها أخذت تخاطب السعنونة بنبرة تهكمية تستفز الحجر:

- لماذا لا تفتحين الباب يا فتاة، ألا تعرفين أن كونتنيسا هي من في العربة؟

حاولت أن ألفت انتباه ريكافا إلى أن السعنونة هي التي تقف وراء الباب وليس أي فتاة أخرى، لكنها أشارت أن أصمت، وعلى وقع كلمات ريكافا اشتعلت السعنونة غضباً وقالت:

- ألا تعرفين من تخاطبين أيتها الحشرة، اقتربي لأعرفك من أكون.
- ومن تكونين أيتها الوقحة لتخاطبي مساعدة كونتنيسا بهذه الطريقة.
- اقتربي يا كلبة كونتنيسا لأعرفك من أكون.

قفزت ريكافا من العربة ووقفت قبل البوابة بعدة خطوات وأشارت إلى السعنونة:

- هل تحتمين بالرجل الطويل الذي يقف خلفك أيتها الخادمة؟

لم تكمل جملتها حتى قفزت السعنونة باتجاهها ولكن يد الطويل أمسكتها قبل أن تخرج من الباب، وهنا قالت ريكافا:

- أنت أحقر من أن أخاطبك، وأنت أيها الطويل، أصدر أمرك للحرس بفتح البوابة وإبعاد هذه الحشرة عن الطريق.

جن جنون السعنونة فأفلتت من قبضة الطويل، وحين حاول أن يمسك بها مرة ثانية لمسته بكفها وبقدرة قادر تجمد في مكانه، قفزت من الباب كلبؤة وأخذت تطارد ريكافا التي دب الرعب في قلبها إلى أن اختبأت خلف العربة، حينها أمسكتها وشلت حركتها، ثم دفعتها لتركع على ركبتيها فأخذت تتوسل:

- أرجوك أيتها النجمة لم أعرف أنك السعنونة فسامحيني.

كنت ومرح نراقب ما يدور من نافذة العربة وحين أمسكت السعنونة بشعر ريكافا وشدته إلى الخلف وسألتها من تكون الحشرة الآن، ترجلت مرح من العربة وقالت:

- أنت الحشرة أيها السعنونة فهل تجرئين على التحدي؟
- نعم أتحداك، والآن قبل أن تهربي كما فعلت سابقاً.
- وأنا أقبل التحدي، وبما أنك عرضت علي التحدي خارج حدود مدينتك، فمن حقي أن أختار الأميرة التي ستشهد على ذلك، وأنا أختار شرشريتا، وأمامك خياران، إما أن ترافقيني وتثبتي فعلاً أنك

نجمة القصر وإما أن تنحني أمامي وتعلني هزيمتك لأسمح لك بالعودة والاختباء في حضن أمك أميرة النجوم.

نظرت السعنونة إلى الخلف ويبدو أنها أدركت أنها خارج حدود مدينتها فبدا عليها القلق وقالت:

- وما أدراني أنك لا تخططين لبيعي لشرشريتا؟
- لك عهدي إن انتصرت أنا عليك فسأحرص أن تعودي لمدينة النجوم معززة مكرمة، هيا حرري الفتاة ورافقيني.

اقتربت السعنونة من العربة لترافق مرح، وفور أن لمحتني رمتني بنظرة احتقار فتراجعت إلى الخلف، ثم قالت إنها لن تركب العربة بجواري، وهنا طلبت مرح أن أخرج وأجلس بجوار ريكافا على المقعد الخارجي المخصص لسائق الخيول، انتظرنا خمس دقائق حتى استعادت ريكافا توازنها بعد أن تحررت من سحر السعنونة لتقود العربة في طريقنا إلى مدينة الشمس، وحين وصلنا إلى بوابات القصر الخارجية سمح لنا بالمرور إلى الحدائق والساحة الخارجية، فجاءت الذهبية وحاشيتها لاستقبالنا، ترجلت مرح والسعنونة وفتحت الذهبية ذراعيها وقالت:

- اقتربي يا سعنونتي الصغيرة لأعانقك، واغفري لي فلم أعلم بقدومك وإلا لاستقبلتك على حدود المدينة، والآن هل هناك ما يمكن أن أقدمه لك لتسامحيني على تقصيري في استقبالك؟
- لا تحلمي أن أطلب منك شيئا يا شرشريتا، لقد جئت فقط لتشهدي على التحدي بيني وبين كونتنيسا وهي من اختارتك ولست أنا.

- سأشهد، ولكن إن هزمتك كونتنيسا فستكونين ملكاً لها وحينها ستقدمك هدية لي.
- لن تهزمني أبداً، ولو حدث ذلك، فقد عاهدتني أن تعيدني إلى مدينتي.

وهنا انقلبت الذهبية من الرقة والنعومة إلى الغضب والخشونة وقالت لمرح:

- الاتفاق بيننا أن تقدمي لي السعنونة بإرادتها لا أن تأتي بها لأراها.

رمقتها مرح بنظرة استهزاء وتجاهلتها ووجهت كلامها إلى السعنونة:

- قبل أن نبدأ التحدي يتوجب عليك أن تعرفي أن المهزومة يتوجب عليها الاعتراف بهزيمتها أمام الأميرة، والإقرار بأن الثانية أفضل منها، فهل اتفقنا؟
- أنا موافقة.
- قبل أن نبدأ التحدي تعالي لنتعارف قليلاً يا صغيرتي، واسمحي لي أن أنير عقلك وأخبرك أن القوة التي وهبت لك لا قيمة لها داخل أي مدينة أخرى، أما أنا فلا أنتمي لأي مدينة، فما رأيك أن أسمح لك باستخدام كل قوتك ضدي قبل أن نبدأ التحدي، وبعدها سأسمح لك أن تقرئي أفكاري لتعلمي ما أنا قادرة على فعله.

أخذت السعنونة تحرك ذراعيها وأصابعها وكأنها تؤدي رقصة بلهاء ثم اقتربت من منافستها ولامستها أكثر من مرة، وحين انتهت لم تجد غير السخرية. حينها اقتربت منها مرح وهمست:

- غوصي في عيني يا نجمة القصر لتعلمي ألا أحد قادراً على هزيمة كونتتيسا.

تراجعت السعنونة إلى الخلف مرتعبة ونظرات عينيها تعلن سلفاً هزيمتها حتى قبل أن يبدأ التحدي، فقالت مرح:

- الآن لتشهد الأميرة شرشريتا على هذا اللقاء التاريخي الذي سأذل فيه نجمة القصر، وبما أن الأميرة لا تحب تملك الضعفاء فإنني أعلن بإرادتي الحرة أن التي ستنتصر في هذا اللقاء ستقدم نفسها لشرشريتا لتتملكها، فهل توافقين يا سعنونة بإرادتك الحرة على هذا العرض.

- نعم، أنا موافقه بإرادتي الحرة، ويسرني أنني غير قادرة على هزيمتك يا كونتتيسا، سأفخر بأنني كنت السبب في تمليكك لشرشريتا.

- بعد دقائق فقط سيعرف الجميع من هي الأقوى والأفضل.

كانت الذهبية تراقب مثلنا جميعاً ولا تجد تفسيراً لجنون مرح وعرضها السخي لكنها أعلنت بدء التحدي، ارتعبت السعنونة وأخذت تصرخ وكأنها تجمع شجاعتها لمواجهة ما ينتظرها من عذاب:

- افعلي بي ما تشائين فأنا لست خائفة منك.

لم تحرك مرح ساكناً وفاجأتنا حين قالت لشرشريتا:

- أنا أعترف وأقر بأني غير قادرة على مواجهة السعنونة وأعلن هزيمتي أمامها لأنها الأقوى والأفضل، فاشهدي بذلك أيتها الأميرة.

ابتسمت السعنونة لهذا الانتصار السهل وبرقت عينا الذهبية وقالت:

- وأنا أشهد أن السعنونة قد هزمت كونتنيسا حارسة أبواب الشر وسأنشر الخبر في المدن الخمسة وأعلن أن نجمة قصر مدينة النجوم هي الفائزة في هذا التحدي التاريخي.

فتحت شرشريتا ذراعيها وعانقت السعنونة وهنأتها على فوزها السهل ثم قالت:

- والآن يا نجمتي الصغيرة، اذهبي مع مساعدي ليختار لك الثياب المناسبة لترتديها ويرشدك إلى المكان الذي ستنامين فيه ليوفر لك بعدها كل ما تحتاجينه.

هنا انقلبت ملامح السعنونة واعترضت، إلا أن الذهبية مسحت الاعتراض عن وجهها حينما ذكّرتها بموافقتها على شرط مرح أن الفائزة ستملك نفسها لها، غادرتنا السعنونة لتنضم إلى أملاك الذهبية، ولم أفهم السر وراء لقب نجمة القصر ولا حاجة الذهبية لها فجاء الجواب حينما قالت مرح:

- والآن بعد أن قدمت لك السعنونة بملء إرادتها لا بد أن أمها ستهرول إليك لتفاوضك من أجل استرجاعها وبهذا أكون قد وفيت ديني كاملاً.

فردت عليها الذهبية:

– نعم لقد وفيت دينك كاملاً ولست مدينة لي بشيء، فهل هناك شيء يمكن أن أقدمه لك كعربون صداقة.

– ربما، إن سمحت لي بمقابلة الخياط.

ضحكت شرشريتا بأعلى صوتها وقالت:

– ألن تكفي عن مطاردة الأوهام يا كونتتيسا، الخياط خرافة مثله مثل علوم الشر التي تبحثين عنها، لم يكن له وجود يوماً.

– أنا أحب الخرافات، فهل ستوافقين على أن أقابله يا شرشريتا.

– أنت بارعة يا كونتتيسا، فهل تعتقدين أن مملكة الشر بأكملها قادرة على إخفاء من هو مثل الخياط، لو لم يكن خرافة اخترعها الأجداد.

– نعم، هو خرافة مثل خرافة الأثواب، وسأكتفي بأن أقابل من يحيك لك الأثواب يا سمو الأميرة.

لا يبدو أن أحداً ممن يستمع إلى هذا الحوار كان قادراً على فهمه، ولكن كان واضحاً أن الذهبية استُفزت لدرجة صعب عليها أن تتظاهر بعكس ذلك ثم قالت:

– حبيبتي كونتتيسا، لسانك طال أكثر مما ينبغي، وسأمهلك عدة ساعات لتغادري مدينتي، وتذكري ألا أحد يخرج من مملكة الشر، وأعدك أنني سأجد طريقة لاستضافتك مرة أخرى.

– لا خيار أمامي يا شرشريتا، إما أن أغادر عالمك إلى الأبد وإما أن أبقى وأبحث عن مكانتي في عالمكن، وهذا لن يسرك أنت

وبقية الأميرات. اسمحي لي أن أقابل الخياط وأعدك بأنني سأكون مجرد ذكرى لا أكثر.

تظاهرت شرشريتا بالضحك ثم اقتربت من مرح وقالت:

– لنفترض أن هناك شيئاً اسمه الخياط فما حاجتك إليه؟

– لا حاجة لي به شخصياً وإنما هو الوحيد الذي يعرف مكان كتاب أكزانتوس الذي من خلاله سأجد طريقي إلى خارج هذه المملكة اللعينة لأغادرها ولا أعود إليها يوماً ويجب أن يسرك هذا الأمر.

رفعت الذهبية يدها فابتعد كل من حولها مسافة كبيرة، ورفعتها مرة أخرى فابتعدوا مسافة أكبر، ثم قالت لمرح:

– ربما سأعثر لك على الخياط مقابل أن تملكيني نفسك ساعة واحدة فما هو ردك؟

– لن أكون ملكك ثانية واحدة، فساعديني على أن أغادر عالمك بسلام.

ابتسمت شرشريتا بخبث وعرضت أن تستضيفنا ثلاثة أيام وخلالها ستفحص إن كان للخياط وجود، فشكرتها مرح وأبلغتها أنها تفضل انتظار الجواب خارج حدود مدينتها. عدنا إلى الرقعة المحايدة وأمضينا ثلاثة أيام من الملل وحين سألت مرح عن الخياط وما حاجتها إليه أجابت كعادتها:

– أحتاجه ليحيك لي ثوباً جميلاً.

مع غياب شمس اليوم الثالث جاء من يدعو مرح لمقابلة الذهبية، فذهبت وتركتني في حراسة ريكافا بعد أن أوصتها أن تمنعني من القيام بأي رحلة

استكشافية، وحارستي الجديدة كانت هذه المرة أكثر ليونةً وأقل تحفظاً، تبادلنا الحديث حول عالم البشر ومدن المملكة فعرفت أنها من مدينة الظلال، وفاجأتني حينما قالت إن أعداد سكان المدن مجتمعين لا يتجاوز عدة آلاف وإن مدينة النجوم هي الأكبر مساحة والأقل سكاناً بحيث لا يتجاوز عدد سكانها المائة وإن الحياة في المدن مملة لدرجة لا تطاق، وحين سألتها لماذا لم تختر السكن في مدينة القمر فاجأتني بوصفها بأنها أكثر المدن مللاً وأن الضياع في الأرض الحرام أفضل من الحياة فيها، أجابتني ريكافا عن أغلب أسئلتي، وامتنعت عن التعليق على أي سؤال حول علاقتها بمرح أو من تكون هي حتى راودتني بعض الشكوك بأن مرح ربما وعدتها باصطحابها معنا إلى عالم البشر، طال غياب مرح أكثر مما كان متوقعاً.

عادت مرح في اليوم الثاني وبرفقتها شاب بهي الطلعة، وما إن لمحته ريكافا حتى أشع السرور من وجهها، أشارت مرح إلى الشاب وكأنها طلبت منه ألا يتبعها، اقتربت منا، وعلى الفور سألتُها إن كان هذا هو الخياط الذي سعت لمقابلته، فضحكت ريكافا، وفي اللحظة نفسها قالت مرح:

- ها قد وفيت ديني يا صديقتي والخيار يعود لك وحدك.
- هل رافقك أم أجبرته على ذلك؟
- لا يا صديقتي لعبة الاستعباد لا أحبذها، الإقناع هو أسلوبي المفضل وها قد تخلى عن كل شيء من أجلك بإرادته الحرة.

- وماذا تتصحيني أن أفعل الآن هل أعانقه وأغفر له، ماذا كنت لتفعلي لو كنت مكاني يا كونتتيسا.
- هذا قرارك أنت فقط، والآن أنا راحلة وسأعود إليك لاحقاً لأطمئن عليك.

أشارت مرح أن أتبعها لنستقل العربة وننطلق في طريقنا، إلا أن ريكافا استوقفتها وطلبت أن تتمهل قليلاً، أخذت أراقب لقاء العاشقين الذي يبدو أن مرح قد جمعت بينهما بعد فراق، اقترب الشاب من ريكافا التي وقفت أمامه بكبرياء، ركع على ركبتيه وأخذ يطلب منها أن تسامحه على ما مضى، وحين ابتسمت وقف ليعانقها فصفعته على وجهه ثم قالت:

- أسامحك لأنك لا تستحق أن أغضب منك، اذهب فما عاد لي حاجة بك.

أصاب الشاب الذهول، استدارت ريكافا وعادت إلينا ولحق بها الشاب وخاطب مرح قائلاً:

- أنت أخبرتني أنها ما زالت تحبني.
- لم أكذب عليك، إنها تحبك فعلاً، ولكن تبين أنها تحب نفسها أكثر.

انطلقنا تاركين الشاب في حيرة من أمره وأنا كنت أكثر منه حيرة، ماذا حدث؟ لماذا؟ كيف؟ سألت من باب الفضول دون أن أحصل سوى على ابتسامات غامضة، فتجاهلت بدوري كل ما حدث واكتفيت بأن عرفت أننا في طريقنا إلى مدينة الظلال، وحينما اقتربنا من الحدود ودعت مرح ريكافا

وطلبت منها أن تختفي عن الأنظار حتى توافيها لاحقاً، أخذنا نشق طريقنا سيراً على الأقدام وبعد إزعاج وإلحاح أخبرتني أن شرشريتا سمحت لها بمقابلة الخياط دقيقة واحدة فقط شرط ألا تسأله أكثر من سؤال واحد، وقد علمت منه أن كتاب أكزانتوس قد تم إخفاؤه تحت مركز مدينة الظلال. وسألتها عن حاجتنا إليه، فأخبرتني أنه يحوي المعلومات والخرائط التي من خلالها سنجد طريقنا إلى عالم البشر. هذه الجنية لا تكل ولا تمل، وحين وصلنا إلى حدود المدينة طلبت أن أتسلق شجرة لتقيدني بها حتى تكمل بحثها وتعود فسخرت منها، وقلت ألم يكن من الأفضل أن تتركي ريكافا لتحرسني بدل تعذيبي، فردت إن اقتراب ريكافا إلى هذه المسافة من الحدود قد يعرضها للأذى، فاقترحت عليها أن أعطيها عهداً أنني لن أتحرك من مكاني حتى تعود، فأوحت لي أنها موافقة ثم قالت:

- تسلق الشجرة وعانقها ثم أعطني عهدك.

ففعلت وسرعان ما تشابكت أصابعي ولم أستطع فكها فقلت لها:

- لقد أعطيتك عهدي.
- وعودك كثيرة كثيرة ولا قيمة لها وأنا أفعل هذا للحفاظ على سلامتك فقط.

اختفت كلمح البصر ولم تعد إلا بعد ساعات للاطمئنان علي، أزالت سحرها عني وبعد نصف ساعة دون أن أشعر قيدتني مرة ثانية واختفت، غابت وقتاً أطول، ثم عادت، ومعاً تسللنا إلى أطراف مدينة الظلال وحتى وصلنا إلى منطقة مهجورة لا يبدو أنهم حرصوا على استصلاحها، ومنها دخلنا

عبر نفق أوصلنا إلى صالة فخمة واسعة مزينة بالتماثيل مفروشة بسجاد تفوح منها روائح عطرة، ويبدو أن ذرة غبار لم تجرؤ على زيارتها، مثل هذه الفخامة تليق بخرافة ومع هذا لم أشعر بالراحة في هذا المكان ولا إلى سرعة وصولنا إليه، فسألت مرح:

- هل هنا سنجد كتاب أكزانتوس الذي سيوصلنا إلى عالم البشر أم ستنفتح بوابة تأخذنا إلى مكان أعظم.

لم أكمل جملتي حتى انغلق الباب من خلفنا وانفتح باب آخر في الاتجاه المقابل وامتلأ المكان بضوء أصفر خافت، ساد الصمت فسألتها "ألا يتوجب علينا أن نعبر البوابة الثانية". لكنها لم تعلق وأوحت ملامحها أن أمراً مريباً يدور حولنا، وحين كررت السؤال طلبت أن ألتصق بالجدار البعيد، دون حراك وأن ألتزم الصمت مهما كان السبب، وما هي إلا لحظات حتى انفتحت بوابة داخل الكهف وانبعث من خلفها دخان كثيف، وحينما انقشع أطل من البوابة رجل أصلع أشار بيده أن نتبعه، وعاد من البوابة، لم تتحرك مرح وكأنها ترفض الدعوة، وسرعان ما سمعنا قرع طبول وعلى إيقاعها خرج تسعة رجال حليقي الرؤوس يرتدون زي جنود الإمبراطورية الرومانية ثم اصطفوا على يمين البوابة، بعد ذلك خرجت تسع نسوة حليقات الرؤوس يرتدين الملابس نفسها، اصطففن في الجهة المقابلة، ساد الصمت مجدداً وأنا في انتظار أن يطل علينا رجل عملاق يرتدي تاجاً ويعرف على نفسه بأنه الملك أو الملكة أكزانتوس ويرحب بنا ويقدم لنا الكتاب الذي سيرشدنا إلى الطريق إلى عالم البشر، لكن ظني خاب حينما أطل علينا

رجل حليق الرأس قصير القامة يحمل في يده صندوقاً مذهباً ثم سار بين الصفين وقال:

- لقد دعوناكما لتعبرا البوابة فلماذا لم تفعلا؟

- لم نحمل معنا ما يليق بمن سيستقبلنا، لهذا لم ندخل.

بدا أن الأصلع في عجالة من أمره أو لم يجد الكلمات التي يرد بها على مرح فقال:

- في هذا الصندوق ستجدين الكتاب، وعليكما الآن الركوع أمام الصندوق والإعلان بإرادتكما الحرة أنكما قد ملكتما نفسيكما لصاحبه.

وأشار بيده وقال بنبرة آمرة:

- تقدم يا حسن بن صفية، واركع أمام الصندوق وأعلن بإرادتك الحرة أنك ملك صاحبه.

لم يرق لي أنه سألني قبل مرح، فطلبت منه أن يطرح السؤال عليها أولاً، فأشار إليها ثم قال:

- تقدمي يا كونتنيسا بنت نازك واركعي أمام هذا الصندوق.

- لا يجوز أن يخالفك إنسي بما شرفته به وعليه الركوع أولاً.

ثم وجهت حديثها إليّ قائلة:

- إنه لشرف عظيم لك يا حسن أن تركع لصاحب الكتاب، لعله يسمح لك بالعودة إلى عالمك، هيا أيها العبد، افعلها ولا تتردد.

لم يرق لي استخدامها كلمة عبد، فاعترضت وطلبت من الأصلع أن يشرح لي ماذا يوجد في الصندوق، وما يقصده بالتملك؟ وما قلته استفز مرح فقالت:

- أيها اللعين، لقد خاطرنا بكل شيء من أجل هذه اللحظة وأنت ستطرح أسئلة لا قيمة لها، هيا كن عبداً مطيعاً لصاحب الكتاب.
- أنا لا أخشى إلا الله، ولن أركع بإرادتي لأحد سواه.

اشتعلت مرح غضباً وأخذت تعزف على الكلمات التي تستفز كل ذرة في كياني حتى إنها قالت:

- خير لك أن تركع وتكون عبداً لصاحب الصندوق على أن تبقى كما أنت.

وعلى أثر ما قالت شتمتها فتجاهلتني وخاطبت الأصلع طالبة منه أن يمهلها بعض الوقت لتتمكن من إقناعي بالركوع لكن الأصلع أسعدني بقوله:

- لا وقت لدي، فإما أن تركعا الآن أو لن تخرجا من هذا المكان إلى الأبد، ولا يهمني من يركع أولاً هيا اركعي يا كونتتيسا.
- لن أركع بوجود هؤلاء الخدم، فاطلب منهم أن يستديروا أو يعودوا إلى الداخل.
- طلبك مرفوض، عليك أن تركعي فوراً أو ستفوت عليك الفرصة.

تفاجأت حين خاطبته مرح بصيغة المؤنث:

- ألا تعلمين أنني من نسل زاتا.

- لا يهمني، اركعي الآن.

أخذت تنظر خلف رأسه ثم قالت:

- اخرس أنت، فأنا أتحدث مع سيدتك التي تقف خلفك.

فالتفت الأصلع إلى الخلف باحثاً عمن يقف خلفه وبأسرع من التفاته كانت مرح قد اختفت، وكأنها كانت عاجزة أن تفعل ذلك إلا بعد أن أبعد عينيه عنها، عاد الأصلع ليخاطبني:

- والآن يا إنسي، بعد أن تخلت عنك كونتنيسا وهربت، هل ستركع أم تبقى سجين هذا المكان إلى الأبد؟

لم أفهم ما يدور حولي، ومع هذا لم أفقد ثقتي بمرح، فأخذت أجاريه وأطرح عليه الكثير من الأسئلة ولكنه رفض أن يجيب عن أي سؤال ثم أشار إليّ أن أتقدم نحوه وكدت أن أجيبه إلى طلبه لولا أنني تذكرت أن مرح طلبت مني أن ألتصق بالجدار وألا أتحرك مهما كان السبب، استُفز الأصلع وعلى الفور تقدم باتجاهي مجموعة من حليقي الرؤوس لجلبي إلى قائدهم وما إن كادوا يمسكون بي حتى ظهرت مرح من خلف الجميع واضعة كف يدها على رأس الأصلع كلبؤة تصطاد أرنباً، ويبدو أنها قد أخضعته بطريقة ما، فرفع يده بدوره ليعودوا إلى داخل البوابة، ابتعدت عنه وجالت بأرجاء الكهف بصمت وبعد دقائق قالت له:

- أخبر الحقيرة شرشريتا أن كونتنيسا لم ولن تركع لأحد يوماً.

- نعلم أننا ما كنا لنحتفظ بك هنا فترة طويلة ولكن كان علينا أن نحاول، فلا تفخري كثيراً فهذا المكان صمم ليمنع خروج البشر.

– أعلم ذلك جيداً وربما حان الوقت لأتركه لكم وأتفرغ لبناء مملكتي الخاصة على أنقاض مدنكم.

مرت دقائق من الصمت قبل أن تلتفت إليّ مرح وكانت أكثر هدوءاً ثم سألتني:

– لماذا لم توافق أن تركع وتملك نفسك لصاحب الكتاب؟

فقلت ساخراً:

– ربما كنت سأركع لامرأة جميلة لا لجني أصلع.

ضحكت مرح بأعلى صوتها ثم قالت:

– إذاً، اركع الآن لي، فأنا جميلة جداً.

سرني أنها عادت لطبيعتها فسألتها:

– وهل كنت ستركعين فعلاً لو لم تكتشفي أن في الأمر خدعة؟

– لو وافقت على الركوع كما طلبوا منك لاكتشفت إن كنت سأفعلها أم لا.

كانت إجابتها غامضة فسألتها:

– هل أنت جادة، ولو ركعتُ هل كنتِ ستركعين بعد أن أغرقتني بغرورك وجنون العظمة الذي ترتدينه ليل نهار.

– اكتشف ذلك بنفسك.

– ربما هناك الكثير من الأمور التي أنا بحاجة لاكتشافها لاحقاً، ولكن كيف اكتشفت خدعة شرشريتا وخياطها؟

- يبدو أن الأشهر التي قضيتها برفقتك علمتني التهور، لقد استهنت بشرشريتا وأثبتت أنها أكثر براعة مني، لقد وفرت لها كل ما تحتاجه لتنصب لي هذا الكمين وثلاثة أيام كانت كافية لتدفع أميرة الظلال لتتعاون معها في إعداد المكان المناسب لحجزك إلى الأبد وحجزي أنا لفترة من الزمن قد تقصر وقد تطول، الخبيثة سمحت لي بلقاء الخياط وسؤالي الوحيد قادني إلى هذا الكمين، لا ذنب للخياط ولا علاقة له بكل هذا، لقد تهورت ولم أدقق في إجابته، هذا الكمين اللعين أعد ببراعة ودهاء، وكان سيكتمل لو عبرت البوابة الثانية، خطأ شرشريتا أنها بالغت في الطقوس واختارت شخصاً تخلو عيناه من الكبرياء ليقوم بدور حارس الكتاب، وما كان لي أن أتفوق عليهم إلا بعد تشتيت انتباههم.
- هل يحق لهم خداعنا ليتملكونا على افتراض أننا ركعنا لهم؟
- لا خداع في الأمر، لقد وصلنا إلى هذا المكان بإرادتنا والأصلع طلب منك أن تركع لصاحب الكتاب بإرادتك ولا يهم من يكون ما دمت لم تسأل عن صاحبه، هذه كانت مجرد محاولة لأن شرشريتا تعرف جيداً أني ما كنت لأركع لأحد، وطموحها كان أن تدخلني البوابة الثانية لتتمكن من حجزي فترة طويلة وكل هذا لا يهم حالياً فقد حققت هدفها بالكامل وتمكنت من تملكك.
- كيف حدث ذلك دون أن أوافق؟

- لا حاجة لموافقتك، ستبقى هنا سجيناً حتى تطلب منها أن تخرجك، وعندها سيكون المقابل تملكك، لديها الكثير من الوقت بعكسي أنا.
- وما العمل الآن وكيف سنخرج من هذا المكان؟
- لا فكرة لدي، أنا بإمكاني الخروج، أما أنت فيستحيل عليك ذلك وستبقى برفقة حليقي الرؤوس.
- هل أنت جادة، كيف ستتخلين عني؟
- ربما عليّ أن أفعل ذلك، فالكل عرف أن مصيري ارتبط بمصيرك، وسيسعون إليك ليل نهار للنيل مني ولن أتمكن من حمايتك إلى الأبد، حالياً أنت أسير هذا الكهف اللعين ولا خيار أمامنا إلا التفاوض مع شرشريتا.
- ألم تلاحظي أنني منذ عرفتك وأنت تنقلينني من ورطة إلى أخرى، وبغرورك عاديت كل الأميرات، وإن لم نصل إلى عالم البشر فلن نجد لنا مكاناً في أي مدينة.
- لا تقلق يا حسن، إن لم نتمكن من الخروج والوصول إلى عالم البشر فسأبني لك مدينة خاصة بك، أملؤها بالنساء لتعشق كل يوم واحدة، والآن لم يعد أمامنا خيار إلا أن توافق على أن تتملكك شرشريتا حتى أجد حلاً.
- هل تقبلين أن أكون خادماً لشرشريتا بهذه السهولة؟

- وماذا يمكنني أن أفعل، الحقيرة حاصرتني ولم تترك لي أي خيار، إن تركتك سيعذبك حليقو الرؤوس دون رحمة انتقاماً مني، والآن وافق على أن تتملكك ولك عهدي أن أجد حلاً لاستعادة حريتك.

ودون أن تستشيرني قالت للأصلع الذي ما زال واقفاً يحمل الصندوق دون أن يجرؤ على الحركة:

- أبلغ سيدتك أن بإمكانها تملك البشري وأن لها عهدي أنني بنفسي سأصحبه إليها.

ابتسم الحقير ثم سألني:

- هل توافق على أن تملك نفسك لأميرة الشمس مقابل أن تخرجك من هذا المكان؟

نظرت إلى عيني مرح، فأشارت أن أوافق، فوافقت وكلي ثقة أنها لن تخذلني. لم يكتف الأصلع بموافقتي بل طلب أن أكرر خلفه أنشودة الإذلال، وما إن انتهيت حتى انفتح الباب مجدداً وطلب أن نتبعه، وهنا سألت إن كان بإمكاني أن أرى ما في الصندوق اللعين فضربتني مرح بكوعها، وقالت تحرك لا شيء فيه. قادنا الأصلع من طريق غير تلك التي دخلنا الكهف منها وفي الخارج كانت هناك عربة انطلقت وفي الطريق همست لمرح:

- لماذا لا تدقين عنق الأصلع ونهرب فلا أرى أن هناك من يحرسنا؟
- الهرب لن يجدي نفعاً، ما زلنا بحاجة شرشريتا.

عبرنا مدينة الظلال وعند وصولنا البوابة فتحها الحرس على الفور، فعلقت مرح ساخرة:

- إن عدت يوماً إلى عالمك فأخبرهم أن أميرتي الظلال والشمس قد تصالحتا بعد عداء طويل واتحدتا معاً للتخطيط لأسرك، وهكذا سيعرف الجميع كم أنت مهم.

لم يرق لي ما قالته، فهذا يعني أنني ربما لن أعود، وبرفقة الأصلع عبرنا حدود المدينة ووصلنا إلى مركزها، وحين اقتربنا من بوابة ساحة القصر، أمالت مرح رأسها إلى الخلف وهمست:

- لا تيقظني قبل أن يفتحوا البوابة.

أغلقت عينيها وكان واضحاً أنها تتظاهر بالنوم، لم أفهم ما قصدته من هذه الحركة، ولكن بعد مرور ثلاث ساعات من الانتظار دون أن يسمح لنا بالمرور فهمت أن الماكرة مرح شعرت بأن شرشريتا ستتعمد فعل ذلك لإهانتها، ولهذا تظاهرت بالنوم لتفوت عليها فرصة إذلالها، وحينما فتحت البوابة سمح لعربة الأصلع بالمرور، كانت مفاجئة أخرى، بانتظارنا، السعنونة ترتدي تاجاً عليه شعار الشمس يرافقها بعض الخدم، استقبلتنا وهي تصدر الأوامر بأن نرافق الخدم ونذهب للاستحمام حتى تسمح لنا بمقابلة شرشريتا، وعلى الفور سخرت منها مرح قائلة:

- هل أنت رئيسة الخدم الجديدة يا سعنونة؟

كلماتها كانت كافية لتستفز السعنونة التي أخذت تدافع عن نفسها وتقول:

– أنا نجمة هذا القصر أنا لست خادمة أنا أنا...

تجاهلتها مرح وسارت باتجاه بركة ماء حوافها من الذهب تتوسط الحديقة ولحقت بها السعنونة وهي تصرخ:

– لا يسمح لك بالاقتراب من مسبح الأميرة، اذهبي مع الخدم وسيرشدونك إلى المكان المخصص لأمثالك.

لم تتجح باستفزاز مرح التي قالت:

– ما رأيك يا سعنونة أن تساعديني في خلع ملابسي لأني قررت أن أسبح عارية.

وقبل أن تنطق السعنونة بحرف واحد كانت مرح قد تعرت وألقت جسدها ليطفو فوق الماء غير مكترثة بأحد، هذه المجنونة لا تتوقف عن إثارة جنون الجميع في أي مكان أو زمان ويعصف بها الغضب لو لمحها أحد عارية دون رغبتها، وعلى أثر صراخ السعنونة أطلت شرشريتا ثم اقتربت من المسبح، فلحقها خدمها وهم يحملون مقعدها المذهب، جلست عليه وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة صفراء كلون شعرها، أخذت تراقب مرح وحينما انتهت المغرورة من السباحة خرجت من الماء ثم خاطبت شرشريتا وهي ترتب خصلات شعرها المبتلة:

– اطلبي من خادمتك الجديدة أن تحضر لي منشفة.

أخذت السعنونة تصرخ بأعلى صوتها:

– أنا لست خادمة، أنا نجمة القصر.

فقالت شرشريتا متأففة:

- أنت لست خادمة، أنت نجمة القصر، اذهبي وأحضري لها منشفة بسرعة.

أحضرت السعنونة المنشفة لكن مرح تعمدت أن تجفف شعرها أولاً، وهنا قالت الذهبية وكأنها تسعى لاستفزازها:

- أتجدين متعة في استعراض جسدك العاري أمام عيون الخدم.
- لم أنتبه لوجود أحد، فهل هناك من لا أراه يا شرشريتا؟
- هل وجدت كتاب أكزانتوس يا كونتنيسا؟
- سأجده يوماً ما، والآن يا شرشريتا، بما أنك فزت في هذه الجولة، ماذا تريدين بالضبط مقابل حرية هذا الإنسي.
- أريد أن ترتدي ثيابك فوراً وبعدها سأخبرك الثمن الذي عليك دفعه لأعتق هذا الإنسي.

تباطأت مرح في ارتداء ثيابها وبعد أن انتهت، سألت شرشريتا عن الثمن المطلوب فردت الذهبية:

- لن أطلب منك ما ينتقص من قدرك، على العكس سأرفع من شأنك وأعطيك عربتي المذهبة لتقومي بجولة في المدن الأربع ليعلم سكانها أنك صديقتي، إن وافقت سأعيد لصديقك حريته على الفور وسيبقى في ضيافتي معززاً مكرماً، وحين تعودين ستقدمين لي عدة ساعات من وقتك لمساعدتي في أمر صغير وهكذا لن تعودي مدينة لي بأي شيء.

وافقت مرح على إتمام المهمة الغامضة والغريبة، لكني تساءلت عن حاجة شرشريتا إلى استعراض مرح في المدن الأخرى وكأنها واحدة من الأميرات، لم أشعر بالراحة كثيراً، خاصة بعد أن شعرت بأن مكرها يفوق مكر مرح، وتذكرت أيضاً نصيحة بندارا لها أن تتجنب الاقتراب من مدينة الشمس لأنها ستتعرض للإذلال فيها، لم يمر الكثير من الوقت حتى غادرت مرح وتركتني في رعاية الذهبية ولا يبدو أنني رقت لها كثيراً، كنت آمل أنها ستخصص لي جناحاً في قصرها العظيم ولكنها تركتني بعهدة أحد خدمها الذي بذل كل جهده لإقناعي أن أطلب من الأميرة البقاء في المدينة، وما كنت لأرغب بذلك حتى لو وفرت لي كل ما حلمت به يوماً.

مرت ثلاثة أسابيع مملة قاتلة برفقة الخدم في انتظار مرح حتى عادت من جولتها وجاءت لتطمئن على حالي، وحينما وجدتني مهموماً حزيناً سخرت مني قائلة:

– ألم تجد امرأة تعشقها لتزيل عنك همومك أم أن عشقك لي كان أقوى من مغريات مدينة الشمس وفاتناتها؟

– لقد دعتني أميرة الشمس أكثر من مرة إلى فراشها، لكنني أبيت أن أخونك يا مرح.

– إذاً، رافقني لمقابلة العاهرة لعلي أقنعك بخيانتي.

توجهنا إلى القصر، وعلى البوابة مُنعت من الدخول لكن مرح أصرت أن أرافقها، بعد دقائق خرجت شرشريتا وطلبت أن نجلس في الحديقة وكأنها فعلت ذلك لتتجنب إدخالي إلى القصر لأمر ما لا أفهمه أو ربما لم ترغب

أن يملي عليها أحد ما تفعله، عندما وصلت إلى المكان الذي ترغب في الجلوس فيه أحضر الخدم مقعدين فقط، جلستْ على واحد وأشارت إلى مرح أن تجلس على الثاني، فشعرت بأنها تسعى إلى إهانتي فقط، ولم أفهم لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟ وكم قدرت لمرح رفضها الجلوس حتى تجنبني الإهانة، قطعت مرح محاولة شرشريتا إهانتي بسؤالها:

- ما الأمر الذي أنت بحاجة إليّ فيه عدة ساعات؟
- ستساعديني في اجتذاب المزيد من الرجال والنساء إلى مدينتي، فمنذ زمن لم أفلح بالاستحواذ إلا على أعداد قليلة فقط.
- وكيف سأساعدك وأنت أعلم مني بأن لا أحد يرغب بالاقتراب من مدينتك؟
- سأقيم احتفالاً عظيماً وأعلن في مدن المملكة عنه وأدعو إليه كل من يرغب بحضوره.
- لا أعتقد أن أحداً من خارج مدينتك سيوافق على حضور احتفالك يا شرشريتا.
- ستتفاجئين بأن المئات من المدن الأربع سيأتون لاهثين للفوز بالجائزة الكبيرة، هم بحاجة إلى أمر مثير يشدهم للقدوم إلينا وأنا وفرت لهم ذلك.
- ما هو الشيء المثير الذي سيدفع الكثيرين للتلهف للمشاركة باحتفالك؟

- أنت يا حبيبتي، أنت حديث الناس لقد أشغلت تفكيرهم حتى اعتقدوا أنك ستكونين أميرة الشمس الجديدة، وقد قررت أن أقدمك جائزةً لعدة ساعات لمن يفوز بمسابقتي اللذيذة، وتصوري كم الأمر مثير، كونتتيسا حارسة أبواب الشر الحسناء صاحبة الصيت اللاذع ستُقَدَّم جائزةً للفائز، فكم من الرجال والنساء تعتقدين أن الفكرة ستثيرهم.

أخيراً اكتشفت السر وراء إصرار الأميرة على ذهاب مرح إلى المدن الأربع، وتساءلت في سرّي يا تُرى ما المطلوب من مرح أن تفعله، فجاء الجواب حينما سألت مرح شرشريتا السؤال نفسه:

- ستكونين مطيعة تنفذين ما يطلب منك مهما كان من غروب الشمس إلى شروقها.

شر البلية ما يضحك، ضحكت مرح من شدة غيظها ثم قالت:

- وهل أفهم أنني سأتحول إلى عاهرة تلبي رغبات عبدك الجديد خلال هذه المدة؟
- إنها عدة ساعات فقط تضحين بها لسداد ثمن حرية صديقك الذي تحتاجينه بشدة للبحث عن القوة التي ستحكمين بها العالم، أليس هذا حلمك؟

توقعت أن تترك مرح شعرها يتطاير في الهواء وتحطم القصر فوق رأس الأميرة، لكنني لم أتوقع أن تحافظ على هدوئها وهي تقول:

- سأفكر في الموضوع بجدية، والآن عليك أن تسمحي له أن يغادر مدينتك دون أن يعترض طريقه أحد.
- لديك كل الوقت لتفكري ما دمت في حدود مدينتي، أما صديقك فبإمكانه الرحيل الآن إن رغب في ذلك، وأعدك أن أحداً لن يجبره على القيام بأمر لا يريده، ولكن لن أمنع أحداً أن يتملكه بإرادته، وأنت وأنا نعلم جيداً أنه لن يغادر هذه المدينة يوماً.

تركتنا شرشريتا ومع كل خطوة كانت تطلق ضحكة تغيظ الجماد، اللعينة لم تفوت لحظة واحدة للاستمتاع بالمأزق الذي وضعت مرح فيه، وللمرة الأولى أشعر بأنني السبب وراء ما يحدث، وحين ابتعدت الذهبية قالت مرح:

- حسن، إن لم تغادر حدود هذه المدينة، فسأبقى أسيرة هذه اللعينة إلى الأبد ومصيري الملعون ارتبط بك، فهل بإمكاني الاعتماد عليك هذه المرة؟
- سأفعل أي شيء حتى لو طلبت أن أقتل الأميرة الصفراء؟
- لا أريد أن تقتل الصفراء ولا الحمراء، كل ما أريده هو أن تتمالك نفسك وتقاوم أي إغراء تواجهه حتى تخرج من حدود هذه المدينة الملعونة، شرشريتا لن تمنعك من المغادرة ولكنها ستوظف كل سكانها لإغرائك وتملكك، لا تتحدث مع أحد لا توافق على أي شيء، أغمض عينيك وأغلق فمك حتى تتجاوز حدود المدينة.

- الأمر بسيط ولا يحتاج إلى أن تشعري بالقلق ولكن إلى أين سأذهب وماذا أفعل بعد ذلك؟
- هذه المدينة قادرة أن تتغلغل إلى كل فكرة تخزن في وعيك، لا تفعل شيئاً. لا تخطط ركز فقط في الخروج من حدود مدينتها وبعد ذلك لكل حادث حديث.

سألتها في أي اتجاه أسير وكم من الوقت سأحتاج لأصل الحدود، وإن احتجت الطعام والشراب فماذا أفعل؟

- هذه المدينة صغيرة جداً ولكن طرقها ملتوية، فاسلك أي طريق وستصل إلى الحدود، لا تحاول البحث عن طرق مختصرة، أنا واثقة بأنك ستتدبر أمرك ولن تموت إن صبرت على الجوع والعطش حتى تغادرها.

ودعتها وأخذت أشق طريقي، وأنا واثق بأنها ستجد طريقة ما للخلاص من مأزقها وستجدني بطريقة أو بأخرى، شحنت نفسي بالطاقة الإيجابية واستعددت لمواجهة دهاء شرشريتا وإغراءاتها للحيلولة دون خروجي من المدينة، لم أبتعد عن القصر طويلاً حتى اعترضت طريقي حسناء تعرض علي أن توصلني بعربتها إلى أي مكان أريد. مجنون فقط من يرفض عرضاً بهذا الجمال، لكني فضلت أن أعمل بنصيحة مرح.

في الساعة الأولى بعدها تجاهلني كل من مر بجانبي، إلى أن اقتربت مني فتاة لم تكن أجمل من سابقتها، سألتني إن كان بإمكاني مرافقتها فتجاهلتها ومضيت في طريقي، وبعد دقائق جاءت أخرى دعتني إلى

زيارتها في بيتها فتجاهلتها. كانت الأمور أسهل مما اعتقدت ولم أجد أي صعوبة في تجاهل الجميع فقررت أخذ قسط من الراحة على أحد المقاعد، وكنت حريصاً على أن أتجنب الانبهار بسحر المدينة وجمال نسائها، بعد دقائق اقترب شاب يتأبط ذراع فتاة فائقة الجمال وجلسا على مقعد مقابل وعلى الفور أشحت بنظري فخاطبتني الفتاة:

– لا تخف، نحن لن نطلب منك شيئاً ولا رغبة لنا في تملكك ولكن يشدنا الفضول لمعرفة حاجة الأميرة إلى تملكك حتى تعلن عن جائزة لمن ينجح في ذلك.

– الأميرة ترغب في الزواج مني وأنا رفضت.

فضحكا ثم قال الشاب:

– إذاً، لتعلم أنها ستجد طريقة لتملكك.

غمزتني الفتاة بطرف عينيها وأشارت بإصبعها وهمست:

– احذر السمراء القادمة فهي أشد من في المدينة مكراً.

تركاني وذهبا لتقترب سمراء اجتمع فيها جمال البشر والجن، حتى أن عينيّ تمردتاً وأبتا أن تصرفا النظر عنها، ارتعش جسدي وشعرت أنني خاضع لسحرها الذي أفقدني القدرة على التحكم بأي شيء، اقتربت وتركت أنفها يلامس أنفي ثم همست:

– هل توافق أن آخذك معي إلى نعيمي؟

كان كل شيء فيها مثالياً أما همساتها فأغرقت مخيلتي بما لا يخطر ببال، وحينما حاولت أن أستعيد توازني وأهرب للخلاص منها همست:

- ما رأيك أن أملكّك نفسي دقيقةً تفعل بي ما تشاء دون مقابل؟

وما قيمة الدقيقة وزيارة شفتيها تحتاج إلى ساعة، وإن قررت أن أمر على جسدها فسأحتاج إلى عقد من الزمن، فجأة وجدت نفسي أغرق في عينيها، وكلما حاولت أن أعوم ازددت غرقاً، همست بأذني:

- هل توافق أن أتملكك لعام وآخذك إلى نعيمي؟

همسها كان رقيقاً وساحراً، ومن يعترض على أن تتملكه امرأة تضج بالأنوثة، ولو كنا خارج مدينة الاستعباد هذه لرجوتها أن تتملكني، ولكن كلمتها البغيضة آلمتني كثيراً، فلا شيء يبطل سحر امرأة أكثر من استفزاز كبرياء رجل، استيقظت من سحرها وقلت:

- وما رأيك أن أستعبدك أنا لعام كامل.

لم تشعر بالإهانة وردت بسذاجة:

- ولكنني هكذا لن أفوز بجائزة الأميرة، أرجوك دعني أتملكك شهراً فقط وسأمنحك في المقابل كل ما حلمت به.

وما عاد لسحر جمالها الصارخ أي تأثير، فسخرت منها بنظراتي، أخذت تفاوضني على أن تتملكني شهراً ثم تنازلت إلى نصف شهر، أحببت صراحتها فسألتها وماذا ستفعلين حين تتملكيني؟

- سأتزوجك أولاً ومن ثم أبيعك للأميرة.
- وماذا سأجني مقابل تحويلي لعبد أباع وأشترى؟
- سأمنحك تسعة أيام تختبر فيه متعة لن تنساها في حياتك.
- واليوم العاشر أين اختفى، أليس من حقي أيضاً؟

- لا، في اليوم العاشر سأنقل ملكيتك للأميرة.

كان الحديث معها ممتعاً سرق مني الكثير من الوقت، وحينما يئستْ مني تركتني وانصرفت حزينة، تعززت ثقتي بنفسي فما دمت نجحت في مقاومة هذه السمراء فلا شك في أني سأنجو من كيد شرشريتا ونسائها، مضيت في طريقي وصادفت الكثير من الحسناوات وتكررت التجربة نفسها، وكنت أحسمها في دقائق معدودة، شعرت بالإرهاق فالتجأت مجدداً إلى أحد المقاعد إلى أن غلبني النعاس، وحينما أفقت وجدت أني مغطى بغطاء من الصوف وتجلس بجانبي فتاة لم تكن فائقة الجمال ولكن كان في عينيها ذلك البريق الذي أشعرني بالراحة وقبل أن أسألها قالت:

- لا تخف لقد غطيتك دون أي مقابل ولا أسعى لتملكك وليس كل أهل هذه المدينة أشراراً، فأغلبنا تعرض لخداع شرشريتا ونعيش هنا لأنه لا مكان آخر نذهب إليه.

لم أشعر أنها تسعى إلى شيء، ومع هذا كان لا بد أن أكون حذراً، دار بيننا حديث طويل ونصحتني ألا أرتعب من كل شخص أقابله لأن التملك لا يتم عبر الخداع إنما عبر موافقة كلا الطرفين بإرادة حرة، بعد توضيح ماذا سيأخذ كل طرف من الآخر، صارحتها بشكوكي حول نواياها ولماذا تطوعت لمساعدتي فقالت:

- إن أغلب سكان هذه المدينة لن يتوانوا عن مساعدتك لولا خشيتهم من غضب شرشريتا.

- ألا تخافين أنت أيضاً منها؟

- بالتأكيد أخشاها، ولكن لدي حجة، فأنا جئت إليك لمساعدة صديقتي على تملكك وهكذا أساهم في هذه اللعبة أيضاً.
- إذاً هناك نوايا شريرة؟
- بإمكانك أن تعتبرها كما تشاء وأيضاً بإمكانك الاستفادة منها، سأدعوك إلى بيتي وأقدم لك الطعام والشراب دون أي مقابل وحين تحضر صديقتي ستجرب حظها معك لعلها تفوز بالجائزة.

طرحت الكثير من الأسئلة ثم رافقت الفتاة وكان واضحاً من بين السطور أنها ترغب بمساعدتي بطرق ملتوية، وحين وصلنا قدمت لي كل ما أحتاجه وكانت تلمح إلى أن عليّ أن أكون أكثر ذكاء وأستغل من يحاول استغلالي، ولم يمض وقت حتى حضرت صديقتها وتعانقتا وشكرتها على إحضاري وجلست بجانبي وقالت:

- ما رأيك أن نتفق أن نمضي معاً ثلاث ساعات وخلالها لا يسمح لأي منا أن يعرض على الآخر شيئاً يكون له ثمن وبعدها سنقرر معاً الخطوة القادمة؟

لم أجد في هذه اللعبة خطورة وربما استفدت من الوضع لصالحي فأخذت أسألها وهي تجيب، حتى علمت أنني بحاجة لعدة ساعات لأصل حدود المملكة، طلبت أن أرافقها إلى بيتها فشدني الفضول إلى ذلك، وحينما وصلت تفاجأت بأني أقف أمام قصر يشبه قصر شرشريتا ولكنه أقل فخامة. دخلنا وكان في استقبالي كل حسناء صادفتها في طريقي حتى السمراء التي لن أنساها قدمت لي شراباً، راودني إحساس بأنني لن أخرج

من هذا القصر إلا عبداً وعليه قررت مغادرته، فاعترضت اللعينة طريقي وقالت:

- لقد اتفقنا أن نمضي ثلاث ساعات ولا يحق لك الإخلال بالاتفاق، فلماذا لا تستمع بوقتك ما دمت محرراً من أي التزام.

وهنا وجدت نفسي في ورطة لعينة، بدأت حفلة مجون وجنون تعرضت خلالها لعذاب لذيذ، ولكني، نجحت في كبح جماح نفسي، أشغلت نفسي بالتهام الطعام دون أن أقترب من النساء أو الشراب، اقتربت مضيفتي وجلست بجواري وبدأت تمارس علي ضغوطاً نفسية من كل الأنواع وخيرتني بين الضياع القادم والعذاب الذي سأواجهه وبين الحياة في هذه المدينة التي ستمنحني الفرصة لاختبار كل أنواع المتع، أخذت تصف الحرية المطلقة التي يتمتع بها كل من ملك نفسه لشرشريتا، لم تخرج الفتاة عن اتفاق الثلاث ساعات فهي لم تعرض علي شيئاً، وفي زاوية ما من نفسي تساءلت فعلاً هل يستحق جنون مرح أن أتبعها إلى مجهول نهايته ستعيدنا إلى أحضان شرشريتا أم أتقبل الأمر الواقع وأترك نفسي تغرق في جنون هذه المدينة، انتهت الساعات الثلاث وخرجت من القصر منتصراً على شهواتي وأفكاري، ولحقت بي الفتاة وسألتني بفضول:

- كيف فعلتها؟ لم ينجح أحد بالخروج من هذا القصر من قبل؟ ألم أوفر لك كل فكرة راودتك يوماً؟ أخبرني ما الذي لم نوفره لك لتبحث عنه بمكان آخر؟

- لا تلومي نفسك، لقد نجحت هذه المدينة بالتغلغل إلى أعماق نفسي ووفرت لي كل جنون أرغب باختباره، ولن أجد في مكان آخر أبرع منكم بمحاكاة خيالي، ولا ينقصكم إلا أمر واحد وهو القليل من الكبرياء، هذا مرض ابتليت به، ويبدو أن شرشريتا قد شفتكم منه.

تركت الفتاة في حيرة من أمرها وانطلقت وعذاب ما شاهدته في القصر يصارعني طوال الطريق وبين لحظة وأخرى كانت تراودني فكرة العودة إلى القصر، فكنت أهرب من أفكار تغرس مخالبها في روحي بالركض السريع، وكلما اقترب مني أي كان كنت أركض أكثر، وفجأةً وجدت أني أخطو على رمال فنظرت خلفي لأجد مدينة الشمس قد اختفت، ألقيت نفسي على الرمال لأرتاح قليلاً، وأخذت أردد ساخراً من نفسي "لقد نجوت من النعيم وألقيت نفسك في الجحيم"، وبعد راحة وقفت فرأيت من بعيد عدة أشجار تبعد الواحدة عن الأخرى عشرات الأمتار وكل ما يحيط بها صحراء لا نهاية لها وبجوار إحدى الأشجار جلست عجوز قبيحة أثارت فضولي فكل من رأيتهم في مدينة الشمس تميزوا بالوسامة، وأنا أشتاق إلى القليل من القبح لأعيد الثقة إلى نفسي، لم أقترب منها وفضلت الجلوس تحت ظل شجرة قريبة منها، سألتها إن كنت قد خرجت من حدود مدينة الشمس فأشارت أن أقترب منها لتسمع ما أقوله، فاقتربت وأعدت السؤال فطلبت مني الجلوس ففعلت، وخرجت ضحكاتها من كهف لا تحرسه أسنان ثم قالت:

- نعم، لقد نجوت من شرها، فإياك أن تعود إلى حدود مدينتها.

لم أستبعد أن تكون هذه العجوز جزءاً من اللعبة ولم أنس الخداع الذي تعرضت له في عالمي من عمر، وكان عليّ أن أكون حريصاً وأتأكد، فسألتها أكثر من سؤال فأكدت أني خارج الحدود وما عاد لأحد أي تأثير عليّ ونصحتني أن أواصل طريقي حتى لا يأتي من يقنعني بالعودة لحدود مدينة شرشريتا. تنفست الصعداء وقلت في سري "لقد هربت من الحسناوات وهأنا أجلس مع هذه الشمطاء القبيحة في جحيم الصحراء، كم أنا محظوظ". ثم سألتها عما تفعله هنا وحيدة فقالت:

– لقد سلبت مني الأميرة جمالي قبل سنوات ونفتني لأعيش بأطراف مدينتها، وحينما سمعت أن هناك جائزة لمن يتمكن من تملكك قررت أن أنتظرك خارج الحدود لعلي أنجح بإقناعك بالزواج مني مقابل أي شيء أمنحه لك.

– أما كان يجب أن تفعلي هذا في حدود المدينة؟

– داخل المدينة هناك من هن أجمل مني ولكن هنا فرصتي أكبر بكثير.

– وكيف ستفعلين ذلك وأنا خارج الحدود؟

– سأحاول إقناعك بالزواج، وإن وافقت بإرادتك سآخذك وأبيعك لشرشريتا مقابل أن تمنحني ثوباً يعيد جمالي.

– وهل ثوب من شرشريتا سيعيد لك ما مضى من عمرك؟

– أغلب سكان المدينة يرتدون أثوابها.

– صدقيني لو قابلتك بالمدينة ما كنت لأمانع الزواج منك وكيف أقاوم جمالك الفتان؟

– إذاً، عد معي وتزوجني، فحدود المدينة لا تبعد كثيراً.

أخذت تقص علي مغامراتها، وحينما أزعجتها الشمس انتقلت إلى ظل الشجرة، لحقت بالظل أيضاً وجلست بجوارها ووجدت فيها خير أنيس، فهي والشجرة تمثلان الحياة الوحيدة في هذه الصحراء، ولا مكان آخر أذهب إليه، وإن لم تعد مرح قريباً فربما سأطلب من هذه الشمطاء أن تتزوجني ونسكن معاً تحت هذه الشجرة، أغرقتني بقصصها وكانت ظريفة ثم قالت:

– أنت قبيح جداً ومع هذا لن أمانع في أن أتزوجك.

– وأنت حسناء جداً ولسوء حظي لم أقابلك في المدينة.

– وما رأيك أن توافق على الزواج مني، هيا وافق، واطلب مني شيئا ألبيه لك بالحال.

– سأوافق على الزواج منك وتمليكك نفسي مقابل حمام بارد ووجبة طعام دسمة.

– لا هذا كثير. اطلب شيئاً بمقدوري تلبيته.

– سأوافق على زواجي منك إن دفعت مهري كأساً من عصير الليمون البارد.

وأثارت فزعي وقرفي حينما خرجت الكلمات من فمها مبللة بلعابها وقالت:

– لك ما طلبت يا زوجي العزيز.

أخذت ترفع يديها إلى الأعلى وتكرر ما طلبته وكأنها تطلب من أحد أن يحضره ثم قالت:

- اصبر يا زوجي دقائق وسيحضر الليمون.

جدّيتها أثارت قرفي فقررت أن أتوقف عن المزاح وأمضي في طريقي:

- يحزنني أيتها الحسناء أن أتركك ولكني مضطر للرحيل.
- لن أسمح لك بالرحيل يا زوجي الحبيب، انظر لقد حضر الليمون الذي طلبته بلسانك.

التفتُ إلى العجوز فزعاً وهي تحمل بين يديها كأساً لا أعرف من أين جاءت به، ثم قدمته وهي تقول:

- اشرب بالهناء يا زوجي.

اقشعر بدني وخفق قلبي وما زلت آمل انها تمازحني فقط، فسألتها:

- هل يجوز أن تملكيني عبر الخداع وخارج حدود المدينة؟
- لم أخدعك ولم أجبرك على شيء دون إرادتك ولم أحدد لك ما تطلبه مقابل زواجك مني ولم أجبرك على العودة لحدود المدينة، فعندما سألتني كنا نجلس في الشمس خارج حدود المدينة وعندما انتقلت إلى ظل الشجرة لم أطلب منك أن تتبعني ولكنك تبعتني، والظل في حدود المدينة والاتفاق تم برغبتك ورغبتي، وأنا لم أضع الكلمات في فمك لتنطقها.

خدعتني العجوز القبيحة بثلاث خطوات تفصل الظل عن الشمس، ولم أشعر بأن هناك ما يلزمني، فقلت لها ساخراً:

– أنت طالق طالق طالق أيتها العجوز الخبيثة.

– وأنت زوجي حبيبي سأسعدك قدر طاعتك لي، هيا تعال معي وتذكر أن الزوجة يحق لها أن تعاقب زوجها إن لم يطعها.

– لن أتبعك، فهل هناك طريقة لإجباري على أن أفعل ذلك؟

– إن استطعت أن تبعد نظرك عني فافعل.

طلبت أن أتبعها وسارت أمامي فتسمّرت مكاني غير مصدق هذا الجنون، لم تبتعد عني عشرة أمتار حتى شعرت بالاختناق وكأن الهواء انقطع فجأة، أسرعت خلفها قبل أن أموت اختناقاً، وحين اقتربت منها عاد الهواء، كررت التجربة عدة مرات لعلي أجد مخرجاً حتى تبين أنني لن أتمكن من الابتعاد عنها أكثر من عشرة أمتار، كنت أعتقد أنها ذاهبة لبيعي لشرشريتا، وبالنسبة لي كان هذا أفضل من رفقتها، ولكني تفاجأت حينما جرتني خلفها إلى قرية فيها مئات البيوت الحقيرة، دخلت خلفها إلى أحد البيوت، وهل لي أن أعترض وقد وقعت أخيراً في الحب الحقيقي الذي يمنع الهواء عن العاشق إن غابت معشوقته عن ناظريه أو ابتعدت عنه عدة خطوات، ذهب خيالي إلى أنها ستحبسني داخل هذا البيت الحقير حتى تنهي إجراءات بيعي، ولم يخطر ببالي أنني سأواجه أسوأ كوابيسي، تربعت زوجتي العجوز على فراش قذر وأخذت تشرح لي ما تحب وتكره، وأن أول الممنوعات هو الخروج من بيتها الحقير دون إذن منها، وحذرتني من النظر إلى أي من الجارات وإلا ستفقأ عيني إن فعلت ووعدتني أنها ستكافئني إن كنت مطيعاً ثم انتقلت من التهديد إلى الترغيب فقالت:

– والآن يا حبيبي، أريدك إن تتغزل بي وتصف جسدي بأرق الكلمات.

وأين أجد كلمات لتصف قبحها فحاولت أن أتهرب من طلبها بسؤالها.

– لماذا لا تبيعني إلى شرشريتا بسرعة؟

– بإمكان شرشريتا أن تنتظر حتى ينتهي عام العسل.

ولم يكن أمامي مفر إلا التغزل بها لأوفر عليّ عذاب الاختناق إلا أنها فتحت ذراعيها وطلبت أن أقبلها، ترددت وبعد أن اختنقت قبلتها على جبينها فاعترضت وقالت:

– وهل هكذا تكون قبلة عاشق لمعشوقته؟

وبحركة من إصبعها منعت عني الهواء وأجبرتني على تقبيلها فتقيأت على الفور لكنها لم تأبه وأصرت أن أواصل تقبيلها، وبعد أن انتهت غمزتني ثم قالت:

– حان موعد المكافأة.

أخذت تتعرى ولم تترك شيئاً يستر جسدها، فأغمضت عيني من هول ما رأيت، ثديان مهترئان وجلد مكسو بطبقات كاوشوكية لا تعد ولا تحصى، كل قرف العالم اجتمع في ترهلات جسدها.

– لماذا تغمض عينيك يا حبيبي وتحرم نفسك من الاستمتاع بجمالي؟ هل ترغب أن تموت اختناقاً بحبي؟ هيا تغزل بجسدي قبل أن تتذوقه.

أجبرتني اللعينة على التغزل بها وقصرت المسافة فلم أعد قادراً على التنفس إلا في أحضانها، تفننت في تعذيبي واغتصابي، ولم تبخل عليّ بالطعام، ولكن القرف الذي كان يرافقه منعه من الاستقرار بمعدتي فكنت أتقيأ ما أكلت على الفور، استجمعت طاقتي لأقاوم ولأول مرة منذ أن قمت بهذه الرحلة المجنونة تمنيت الموت للخلاص منها حتى أنني جربت الهرب والاختناق بعيداً عنها، وفي كل مرة أجد نفسي أعود لألقي رأسي بين أحضانها وأفعل ما تأمرني به، مرت أيام لم أتمكن من عدها ولم تمر ساعة دون أن أفكر بطريقة للخلاص من حياتي، وفي أعماقي كنت أستنجد بمرح لعلها تخلصني من هذه الشمطاء اللعينة، لم تظهر مرح ولم تتوقف العجوز عن استنزاف كل ذرة طاقة من جسدي، كنت أشعر بأنها تسعى لامتصاص عصارة شبابي حتى القطرة الأخيرة، شعرت بإعياء شديد وبدأت التجاعيد تغزوني، ووجد اليأس طريقه إلى نفسي.

****

عاد الأمل مع إشراقة شمس مرح المفاجئة، ظهرت فجأة دون أنتبه هل عبرت من الباب أم اخترقت الجدار، لا أدري، وما إن رايتها حتى كدت أقفز لأعانقها وأحتمي بها من معذبتي الشمطاء، لكني لم أجرؤ فقد شعرت بحرج كبير لأنني كنت عارياً بين أحضان زوجتي الشمطاء، هزت مرح رأسها أسفاً ثم قالت:

- ألم يبق في العالم إلا هذه القردة لتنام بأحضانها يا حسن؟
- ارفعي عينيك عن زوجي واخرجي من بيتي في الحال أيتها القبيحة.

تجاهلتها مرح وقالت ساخرة:

- لا أعلم من ستغار عليك الآن أكثر كادنتا أم ساريز، ألم تجد غير هذا الثقب الأسود ليؤنس وحدتك، تباً لك... كيف أغرتك هذه القردة؟

عادت إليّ الحياة فأجبتها متناسياً عقاب زوجتي اللعينة:

- كوب من الليمون البارد، هذا الثمن الذي دفعته لتستعبدني.

قهقهت بأعلى صوتها ثم قالت:

- لقد دفعت فيك أكثر مما تستحق، وحتى أصدقك القول لم أكن لأتفاجأ كثيراً، لو وجدتك في أحضان حسناوات شرشريتا، لقد أثبت أنك بارع بمفاجأتي، فكيف لي أن أتصور أني سأعثر عليك في أحضان هذه العجوز، والآن عليّ أن أكون مهذبة وأرحل لأتركك تتعاشق مع حبيبتك الجديدة.

استدارت لتخرج من الباب فرجوتها ألا تتركني. وهنا تدخلت العجوز ومنعت عني الهواء وأخرستني، فالتفتت مرح إليها وقالت لها:

- ماذا تريدين ثمناً له؟
- لا أعتقد أنه سيوافق على ترك زوجته ليرافق قبيحة مثلك، اسأليه إن أردت.

رمتني اللعينة بنظرة تهديد ووعيد وحذرتني بصمت أن أنطق بحرف، فانتبهت مرح للعقاب الذي سيقع علي إن أجبت بعكس ما تشتهي العجوز فقالت:

- أعلم أنه لا يستطيع فراقك وسأجبره على ذلك، والآن ماذا تريدين مقابل تركه؟
- أريد أن أعود شابة كما كنت فهل بإمكانك فعل هذا أيتها القبيحة؟
- هذا مستحيل، فقد عبرت حدود الشباب منذ قرون ولم ترض بما كنت عليه لهذا وصلت إلى هذه القباحة.
- إذاً خذي جسدي وأعطني جسدك.
- أنا لست من البشر ويستحيل أن يسكن أحدنا جسد الآخر، فاطلبي أمراً معقولاً.
- إذاً لا شيء آخر لديك أحتاجه فاخرجي من بيتي.
- ولا أنا بحاجة للحديث لعبدة مثلك فأين سيدتك.
- سيدتي شرشريتا ولا أحد سواها.

- إن كانت شرشريتا سيدتك فلماذا لم تأخذي صيدك وتذهبي إليها لبيعه؟
- أحتاج أن أتذوقه وأتعافى قليلاً، وبعد ذلك سأرسله إليها.
- وهل أشبعت رغباتك القذرة منه أم تحتاجين إلى المزيد؟
- اخرجي من بيتي فلا يحق لك سؤالي عن شيء.

ضحكت مرح ثم أخذت تخاطب كائناً غير موجود:

- ألم تملي يا سنوسا من مراقبة عبدتك المعتوهة تضاجع إنسياً، اظهري ولا تهدري وقتي ووقتك بلعبة الاختباء.

علت ضحكة غريبة من المجهول وعلى أثرها ظهرت من العدم امرأة في الخمسينات من عمرها وقالت:

- لقد استحققت سمعتك يا كونتنيسا، والآن أخبريني كيف اكتشفت أني من أملك هذه المعتوهة؟
- ومن في هذه المدينة المجنونة يملك دهاء وصبراً ليحتفظ بهذا الإنسي ويخفيه عن شرشريتا غير سنوسا التي اختفت منذ ألف عام وتركت حفيدتها تستولي على عرشها.

ضحكت سنوسا ثم سألتها:

- ولماذا استغرقت كل هذا الوقت لتصلي إلى هنا، فما أعرفه أنك الوحيدة القادرة على إيجاد هذا الإنسي في أي مكان يكون فيه؟
- لست حمقاء لأواجه عبدة عجوز تختبئ في بيت قذر تخفي كنزاً ولا تتعجل في بيعه لشرشريتا، كان عليّ أن أعرف من يقف خلفها،

اعذريني فأنا جبانة، أحب أن أعرف من أواجه أولاً، لهذا لم أكن في عجلة من أمري، وما كنت لأحرمك أيضاً من الاستمتاع بمراقبة شذوذ الطبيعة، والآن يا سنوسا أشفقي على عيني واطلبي من عبدتك أن تخرج حتى لا أشمئز أكثر، وأخبريني لماذا أنت بحاجتي لتبذلي كل هذا الجهد لجذبي إليك؟

- كونتنيسا الصغيرة توقفي عن ألعابك الصبيانية بالتغلغل إلى أفكاري فهذه لعبتي حتى قبل أن تولد أمك.
- كان عليّ أن أحاول يا سنوسا، والآن ماذا تريدين مني؟
- لم أقرر بعد إن كنت سأحتاجك في شيء، ولكن إن تمكنت خلال أسبوع من اكتشاف السر الذي أخفته شرشريتا حول شخصيتها فسأمنحك ثقتي وستجدين ما يسرك.
- ولماذا لم تكتشفي هذا السر بنفسك ألست سنوسا العظيمة.
- لا حاجة لي أن أكتشف ما أعرفه، هو اختبار صغير لتثبتي أنك جديرة بثقتي.
- ولماذا أنا بحاجة إلى أن أثبت نفسي لسنوسا العظيمة؟
- دون مساعدتي ستبقين عالقة داخل هذه المملكة إلى الأبد، إن نجحت بهذا الاختبار سنتعاون معاً، وبمساعدتي فقط ستتمكنين من إعادة صديقك إلى عالمه، ومن يدري ربما يوماً ما تنجحين بإعادة علوم السحر القديمة إلى عالم البشر وتتمكنين من فك رموزها ليتحقق حلمك.

شيء ما أقلق مرح وظهر ذلك جلياً في نبرة صوتها حينما قالت:

- إن كنت تؤمنين بخرافات علوم السحر القديمة فلماذا لم تسعي للحصول عليها بنفسك، فأنت سنوسا العظيمة ولن تعجزي عن إيجادها.
- على الرغم من دهائك يا كونتتيسا فما زلت جاهلة بأن هذه العلوم إن وجدت فعلاً فسيستحيل على أحد فك رموزها، وأنا ما كنت لأضحي بواقع لأطارد أوهاماً.
- اطمئني يا سنوسا العظيمة فأنا أيضاً انتهيت من مطاردة الخرافات، والآن كيف أتأكد أنك فعلاً قادرة على مساعدتي فربما تكونين وهماً آخر من أوهام هذه المملكة؟
- لم تصلي إليّ يا صغيرة إلا بعد أن درست تاريخ المدن وفككت الألغاز وعرفت من أكون، هيا انطلقي ولا تهدري الوقت وكوني على قدر السمعة التي حظيت بها.
- وماذا عن حسن؟
- سأحتفظ به بعهدتي لتتذكري أنني خيارك الوحيد يا كونتتيسا.
- أتمنى حين أعود أن يكون قد تبقى منه شيء لإعادته إلى عالمه.
- أنت محظوظة فهو ليس نوعي المفضل، اذهبي الآن بسلام ولترعاك زاتا دوماً.

اختفت مرح كعادتها ولم تكلف نفسها عناء وداعي، تركتني بصحبة سنوسا، فأصابني الفزع من فكرة أن تعيدني لأحضان عبدتها المتوحشة، قرأت أفكاري ورمتني بنظرة ساخرة ثم قالت:

- ارتد ملابسك ولا تخف يا ولد، أنت لست هدفي ولا متعة لي في تعذيبك، وما حدث سابقاً كان للضغط على كونتنيسا فقط، سأمنحك حرية الحركة فلا تحاول أن تهرب لأنك لن تجد إلا عبدتي في انتظارك، والآن حدثني عن خططك المستقبلية.

تنفست الصعداء واسترخيت على وقع كلمات سنوسا الراقية، وانطلق لساني يسرد عليها قصتي ولكنها سرعان ما قاطعتني قائلةً:

- أعرف كل هذا، وقد تابعتكما منذ دخولكما مدينة القمر، فأنا أتابع كل ما تتابعه شرشريتا ولا حاجة لي بالمزيد من التفاصيل، سألتك عن خططك المستقبلية لأنك الوحيد الذي صادفته يسير ولا يشغل باله بالغد.

أثارت فضولي حينما ذكرتني ببعض التفاصيل الصغيرة فسألتها وكيف تعرفين كل هذا وأنت مختبئة فقالت:

- مئات السنوات من الاختباء علمتني الكثير، ومملكة الشر ملعبي الصغير، فهل تعتقد أنه سيخفى علي شيء فيها، حدثني عن خططك المستقبلية فقط.

أربكني السؤال وتساءلت في سري هل أملك أي خطة أو هدف في حياتي، وقلت لها:

– لا خطة لدي وأسير وفق أهواء مرح.

– وستبقى هكذا إلى الأبد، لا أحد يتقدم من هي مثل كونتنيسا.

وكعادتي سرعان ما تخلصت من مخاوفي وعدت لإشباع فضولي فمكانتها الغامضة تدل على أنها تعرف كل شيء، ولم يكن سهلاً جرها إلى حديث، وبعد تحايل اشترطت علي أن أروي لها طرفة إن أضحكتها أجابتني عن سؤال، فنجحت بعد جهد بإضحاكها وسألتها:

– ما هي العلوم القديمة أو ما يسمى قوة الشر؟

– الخير والشر مزيج متكامل لا يمكن فصل الواحد عن الآخر، فما تراه شراً يراه غيرك خيراً، لعبة الشر والخير يا فتى هي لعبة من يجيدها، لذلك أشك في أن غيركما سيهدر وقته في البحث عن أسطورة من الماضي، وحين تنجح كونتنيسا باكتشاف سر شرشريتا وتساعدني في القضاء عليها، فبإمكانكما أن تطاردا معاً أحلام الأسلاف وأوهامهم، ولن يضرني أن تغرقا في هذا الوهم وإن تمكنتما من إيجاد هذه العلوم وكانت لها قيمة فاحكما العالم وتعالا إلي لأطيعكما أيضاً.

اختتمت حديثها بإطلاق ضحكة ساخرة تجاوزت حدود الخير والشر معاً. لم تمنحني إجابة تشفي غليلي، فحاولت أن أحدد سؤالي حتى أعرف أصل الخرافة فردت:

– هناك الكثير من الأساطير الموغلة في القدم حول هذا الموضوع ولكن المشترك بينها أن هذه العلوم صنعتها كانا وزاتا للسيطرة

على عالم البشر والكونيين معاً. وهذا تسبب بحرب دمرت الحضارات القديمة. يقال إن البشر والكونيين تحالفوا معاً وانتهت الحرب بتدمير مملكة أكزانتوس ودفنها مع علوم السحر في أعماق الأرض وقيل إن هذه العلوم لن تخرج مرة ثانية إلا بإرادة متحدة من عالمين، وحتى لا تتحقق النبوءة تم الفصل بين الكونيين والبشر، ومنعهم من التواصل فيما بينهم إلا في هذه الرقعة من العالم، هذه إحدى الأساطير، فيما تتحدث أخرى عن أن كانا وزاتا كانتا قديستين، لكن أغلب الأساطير أجمعت على أنهما الشر المطلق، والسبب الرئيس في خراب العالم، وفي النهاية هي أساطير خرافية تشحذ الخيال.

– إن كانت هذه الأساطير خرافية فلماذا استخدمت اسم زاتا أكثر من مرة في حوارك مع مرح.

– بالنسبة لي هي كلمات لا قيمة لها، ولكني لا أمانع من تكرارها إن كانت تسر من يسمعها. وبالنسبة لكونتيسا وبعض الكونيات فإن زاتا وصلت حدود الكمال، هن يعتقدن أن جرأة الكونية وكبرياءها امتداد لروح زاتا، وقد توارثن هذا الجنون جيلاً بعد جيل حتى انبثق عن هذا الجنون الكثير من القوانين السرية المتطرفة، أما عالمنا فلا يختلف عن عالمكم من حيث الخرافات وفلسفات الجنون، وتذكر يا إنسي أنك لو صادفت كونية وأخبرتك أنها من

نسل زاتا فاعلم أنك لن تكون أكثر من تابع لها، فلا تطمح إلى أن تكون يوماً أكثر من تابع لكونتنيسا.

– لن أكون تابعاً لأحد يوماً ما، ربما أنا في مرحلة تدفعني لصرف النظر عن الكثير من الأمور، ففي عالم البشر اعتدنا أن نقول "يوم لك ويوم عليك".

– هذا شأنك، وكل ما يعنيني حالياً أن تعود صديقتك ومعها إجابة وإن لم يحدث هذا فأعتقد أن الأيام القادمة ستكون عليك وعليها ولن تجدا يوماً واحداً لكما.

راودني إحساس غريب حول الإجابة التي تنتظرها سنوسا من مرح، فأغمضت عيني حتى لا تقرأ أفكاري ثم قلت لها:

– وإن أخبرتك أنا بسر شرشريتا فماذا ستعطيني في المقابل؟

– سأجعل منك ملكاً.

– لا أريد أن أكون ملكاً يكفيني أن تكوني مدينة لي فهل توافقين؟

كنت مغمض العينين ولم أرى وجهها، لكن نبرة صوتها دلت على غضب شديد:

– هل جننت لتبلغ بك الوقاحة وتتمادى لتطلب مني هذا الطلب؟

أدركت أن كلماتي فسرت في غير محلها فحاولت أن أوضح لها أنني لا أقصد بالدين العبودية أو التملك أو هذه السخافات، فنجحت بامتصاص غضبها، ولكني أفسدت علاقتي بها، فلم تعد تشعر بالراحة للحديث معي،

وقررت المغادرة فطلبت منها أن تنتظر لأخبرها سر شرشريتا، التفتت إلي باستهزاء ثم قالت:

- أخبرني أيها الإنسي بما عجزت عنه كونتتيسا؟
- شرشريتا حفيدك وتظاهر أنه أنثى ليسيطر على مدينة الشمس.
- كيف اكتشفت ذلك أيها الأبله؟

شعرت بنشوة الانتصار فقلت لها:

- لقد قرأت أفكارك يا سنوسا، وربما كانت حواسنا نحن البشر تتفوق على حواسكم يا معشر الجن، وعدم اتباعنا المنطق بالتفكير يكون مفيداً أحياناً.
- دعك من هذا الهراء، لا أحد يستطيع قراءة أفكاري فأخبرني على أي أساس بنيت هذا التخمين.
- صدقيني إنها مجرد حاسة راودتني حينما رأيت الذهبية للمرة الثانية، لقد شعرت بأن هناك أمراً خاطئاً يحيط بها على الرغم من أنها أجمل من وقعت عليه عيني يوماً فهل أصبت يا سنوسا.
- أصبت في نصف تخمينك فقط.
- وهل نصف الجواب سيمنحني الحرية؟
- نصف الجواب لا يمنحك شيئاً، ولكنني سأكون كريمة معك وأسمح لك بالخروج من هذا الكوخ الحقير لتستمتع روحك بجمال الطبيعة.

دقت على جدار الكوخ وانفتح باب وخرجت أمامي فتفاجأت بأن هذا الكوخ الحقير قد أوصلنا إلى حديقة مترامية الأطراف تسر الناظرين وتنعش الروح، أشارت سنوسا إلى شجرة بلغ ارتفاعها ما يزيد على الخمسين متراً ثم قالت:

- تجول كما تشاء ولكن لا تبتعد عن هذه الشجرة، هل تعدني بذلك يا حسن؟
- لك وعدي ما دمت لن ترسلي عبدتك إليّ مرة ثانية.

ضحكت واختفت على طريقة مرح، لم أجد ما أفعله سوى التأرجح وأحياناً تسلق الأشجار في محاولة لرؤية شيء أبعد من الحديقة، ومع هذا كنت في غاية السعادة والسرور ربما لأني كنت خارج أسر العبدة العجوز وهيمنتها، وأي شيء آخر يبعدني عنها وعن كوخها الحقير سيكون بمثابة الجنة، الفضول دفعني إلى التجول وكنت حريصاً ألا أبتعد عن الشجرة، وسرعان ما اكتشفت أنني في المكان الذي دخلنا إليه أنا ومرح من النفق، هذا الاكتشاف كان كافياً إلى أن ألتصق بالشجرة ولا أبتعد عنها دون الحاجة إلى أن يقيدني أحد، مر يومان قبل أن تعود سنوسا لتخبرني أن مرح قد عادت، ولكنها ما زالت داخل الكوخ تبحث عن طريق للوصول إلينا، فسألتها لماذا لا ترشدينها إلى الباب السري، فقالت إن عليها أن تكتشف الطريق بنفسها أو تبقى عالقة في ذلك الكوخ الحقير، لا أشك في أن مرح ستجد طريقها وأسعدني أن سنوسا عادت تعاملني بلطف مرة أخرى، فسألتها عن هذه الحديقة التي أنا فيها فأخبرتني أن صديق قد صممها في أطراف مدينة الشمس لأنه علم أني سأحتاجها يوماً ولم يدخلها

أحد وخرج منها بوعيه إلا أنت وكونتنيسا لأني سمحت بذلك فقط، انتظرنا عدة ساعات ولم تظهر مرح فضحكت سنوسا وهي تقول.

- هيا اذهب وأنقذ صديقتك قبل أن يصيبها الجنون.

فسألتها عما عليّ أن أفعله فأرشدتني إلى عدد الخطوات التي علي أن أخطوها في عدة اتجاهات ليظهر أمامي باب فأفتحه لتدخل منه، وقبل أن أفتح الباب ضحكت سنوسا وطلبت مني ألا أفوت الفرصة وأشمت بها، فتحت الباب السري لتلج منه مرح فتجاهلتني وتجاهلت الحديقة وعلمت أنها فعلت ذلك لتفوت علينا فرصة الشماتة بفشلها، اقتربت من سنوسا فدار بينهما حوار بلغة العيون لدقائق وكأنهما اتفقتا أنه لا يجوز لي معرفة سر شرشريتا أو ربما من الخطورة أن أعرف، تبادلتا الابتسامات ثم قالت مرح:

- والآن يا سنوسا ما هي الخطوة القادمة؟
- ستساعدينني على إيصال رسالة للخياط وبمساعدته سنقلب عالم شرشريتا رأساً على عقب.
- الوصول إلى الخياط أصعب من المستحيل، فأنت تعلمين أن شرشريتا تحتفظ به في أعماق الأرض ولا مدخل إليه إلا عبر قصرها وأنواع الحراسة عليه تفوق تلك التي على أبواب الشر مجتمعة.
- وهل ستعجز كونتنيسا عن إيجاد طريقة لذلك؟

- ما عجزت عنه يا سنوسا عبر مئات السنين لا تطلبي أن أنجح فيه بأيام.
- أنا وأنت سنصنع المستحيل، فقط تعلمي الصبر لا أكثر.
- سأتعلم كل شيء منك إلا الصبر فأنا لن أنتظر عشرات السنوات حتى تقدمي على هذه الخطوة، والآن جاء دورك لتساعديني على إعادة حسن إلى عالمه قبل أي شيء آخر.
- وهل أنت حريصة عليه أكثر من حرصك على نفسك؟
- دليني كيف أعيد حسن إلى عالمه وسأبقى حتى تنتهي مهمتك بسلام.
- الخياط يا صغيرتي هو الحل لكل مشاكلنا وهو الوحيد الذي يعرف الطريق إلى عالم البشر ومن دونه سنبقى عالقين معاً.
- وإن وصلنا إليه كيف سنخرجه من سجنه يا سنوسا؟
- لا حاجة لإخراجه فهو يعلم كيف يخرج، كل ما نحن بحاجة إليه هو أن توصلي إليه رسالة مني.
- أنت تعلمين أن شرشريتا لن تسمح لي بلقائه مرة ثانية.
- ستسمح لحسن إن وافقتِ على شروطها يا كونتنيسا.
- هل جننت يا سنوسا حتى تطلبي مني أن أكون عاهرة لأحد عبيدها الجدد؟
- أنت عاهرة يا كونتنيسا، ولن يضرك ذلك.

اشتد غضب مرح ثم قالت:

- أنا عاهرة بمزاجي دون أن يجبرني أحد على ذلك، وشرشريتا ليست بهذا الغباء ليخدعها إنسي.
- عزيزتي كونتنيسا، شرشريتا أذكى منك أنت فقط، فلا تنسي أنني جدتها وأعرف عنها كل شيء.
- وكيف أنسى أن سنوسا العظيمة مختبئة في ظلال مدينة الشمس وشرشريتا هي من تحكم مدينة الشمس وثلث مدينة الظلال، وعاجلاً ستحكم مملكة الشر بأسرها.
- هذا صحيح يا كونتنيسا، ولهذا طلبت منك أن تعرفي سرها الصغير حتى تتفهمي الأسباب التي منعتني من مواجهتها طوال هذا الوقت، والآن يا صغيرتي، لا خيار أمامك إلا الموافقة على المشاركة في لعبتها، وثقي أنها ستوافق إن اشترطت عليها أن يذهب حسن إلى الخياط في المقابل.
- خطة رائعة، ولكن شرشريتا لن تسمح بذلك قبل أن تتغلغل في أعماق ذاكرته، فلا تستهيني بها يا سنوسا.
- من المؤكد أنها ستفعل ذلك، ولكنها لن تهدر وقتها في الغوص عميقاً، خاصة أنها ستخطط لإبقاء حسن في سجن الخياط إلى الأبد، لقد أخبرتك أن هذه لعبتي، سأزرع في ذاكرته رسالة، وحين يصل إلى الخياط، أنا على ثقة أنه سيجدها بسهولة، وأول ما سيقوم به هو إيصال حسن إلى عالم البشر، وبعدها سيعود إلينا ونحن الثلاثة معاً سنلحق الهزيمة بشرشريتا، وعندها بإمكانك أن

تعودي إلى صديقك لتحققي حلمك وجنونك بعيداً عني وعن عالمي.

- وكيف أضمن عدم خيانتك لي، وخاصة أنك بارعة في حجب أفكارك عني.
- وأنت أيضاً تفعلين المثل ولكن لك مني عهد زاتا يا كونتنيسا.
- لم تؤمني يوماً بزاتا لآخذ منك عهدها.
- إذاً لم يبقى أمامك إلا الثقة بعهدي أنا، وإن بحثت في تاريخي فستعلمين جيداً أنني ما نكثت عهداً يوماً ما وسأقبل منك أنت عهد زاتا ألا تخونيني.

أطرقت مرح عدة دقائق، وبعد ذلك مدت يدها وصافحت سنوسا ثم قالت:

- لتحل على من تخون فينا لعنة زاتا.
- لتحل لعنتها على من تخون يا كونتنيسا والآن حان الوقت لينسى حسن كل ما شاهده ونتركه لزوجته الشمطاء لتبيعه لشرشريتا مقابل ثوب يوهمها بالشباب، فانطلقي إلى القصر الذي أوهمتِ مراقبي شرشريتا أنك تقضين فيه وقتاً ممتعاً واتركي الباقي لي.

ضحكت مرح وقالت بنبرة ساخرة:

- حتى أنت تراقبيني يا سنوسا؟
- أنا أراقب الجميع، بإمكانك خداع شرشريتا، أما أنا فلا أحد يخدعني يا صغيرتي.

انطلقت مرح دون وداع فاقتربت مني سنوسا التي أثبتت أنها تتحكم بكل صغيرة وكبيرة في هذه المملكة، ووضعت كفها على جبيني وطلبت أن أنظر في عينيها، فرفضت قائلاً:

- لن أسمح لك بفعل هذا قبل أن تخبريني من يكون الخياط وبعدها تلاعبي بأفكاري كما شئت.
- كان بإمكانك أن تكون أكثر تهذيباً في سؤالك لا أن تتمادى وتملي علي شروطك، هل ستتعاون معي أم أبحث عن طرق أخرى؟

لم أرغب في أن أستفزها في هذه المرحلة الحساسة، فاعتذرت عن أسلوبي في طرح السؤال، وبأدب جم أوضحت لها أن الأمر يعود إليها في الرد على سؤالي. فأخبرتني ان ابنتها والدة شرشريتا، تآمرت عليها وسجنت الخياط في مكان سري تحت الأرض وتكرر الأمر حينما تآمرت شرشريتا على أمها واحتفظت بالخياط لنفسها، لكنها لم تفصح عن هوية الخياط وأهميته وطبيعة علاقتها به.

فتح الباب ودخلت العبدة القذرة ثم ركعت على الأرض وأثارت قرفي بتحديقها بي، كان واضحاً أنها لا ترى سنوسا وتخضع لسيطرتها بطريقة غريبة، ارتعبتُ عندما اقتربت وحضنتني ثم أثارت قرفي بقبلة قبل أن تغلق عينيها وتغيب عن الوعي، ضحكت سنوسا وطمأنتني إلى أن هذا المشهد لن يتكرر، ثم أخذت تلامس جبيني وتحدق بعيني ففقدت توازني وغرقت في حلم استيقظت منه على حقيقة واحدة وهي أنني ما زلت في أحضان الشمطاء القذرة، قبلتني وأثارت قرفي ورمتني بنظرة مجنونة ثم قالت:

– لقد اكتفيت منك يا زوجي، وحان الوقت لبيعك.

جرتني خلفها دون أن أقاوم وحين وصلنا إلى قصر شرشريتا، لم ننتظر طويلاً حتى جاءت الذهبية ونظرات الاستهزاء تعلو وجهها:

– أرى أنك هربت من الحسناوات لتقع في براثن العجوز الشمطاء أيها الإنسي.

التفتت إلى العجوز وسألتها:

– ماذا تريدين في المقابل؟

– أريد أن تعيدي ثوبي وتسمحي لي بالعودة للسكن في المدينة مثل السابق يا أميرتي، وفي المقابل سأحرر زوجي وأمنحك إياه ليكون عبداً لك.

ضحكت شرشريتا وقالت:

– سأشتري بضاعتك فأنا ينقصني خادم مثله.

أشارت إلى خادمها وطلبت أن يتم استضافتنا معاً، سرنا خلفه فأدخلنا غرفة زجاجية سرعان ما أخذت تضيق وتضيق حتى استحال على أحدنا تحريك إصبعه دون أن يؤلم جسد الآخر، فأخذت الشمطاء تصرخ:

– لم أعهدك تخونين كلمتك يا شرشريتا، لماذا تريدين سجني؟

اقترب منا رجل عيناه صفراوان وأخذ يدور حولنا وهو يحملق في عيوننا، وبعد أن انتهى جاءت امرأة لتفعل مثلما فعل، وخلفها شرشريتا التي حدقت في عيوننا طويلاً، بعد ذلك أشارت بيدها وعادت الغرفة الزجاجية إلى

الاتساع بعد ضيق، وسمح لنا الخادم بالخروج منها. قالت شرشريتا للعجوز:

– أنا لا أخون كلمتي، ولكن كان علي فحص بضاعتك أولاً، فما كنت لأثق بأحد قبل أن تدخل كونتنيسا عالمنا، فكيف سأفعل ذلك بوجودها.

اقترب خادم يحمل ثوباً من الحرير قدمته شرشريتا للشمطاء فخلعت ملابسها على الفور أمامنا وارتدته لتنقلب من فورها إلى فتاة حسناء، ثم قالت لها شرشريتا:

– اذهبي وعيشي في المدينة حرة وتذكري أنني في المرة المقبلة لن أكتفي بخلع ثوبك فقط.

انحنت القبيحة التي تحولت إلى حسناء احتراماً للأميرة ووعدتها ألا تكرر خطأها مرة أخرى، التفتت بعد ذلك شرشريتا نحوي ثم قالت:

– أما أنت فستبقى مديناً لي إلى الأبد لأني حررتك من هذه العجوز، وما عدت تملك خياراً إلا ما أختاره لك.

أشارت إلى خدمها فصحبوني معهم وقدموا لي الطعام ولم يتركوا لي حرية الحركة إلا بمرافقة أحدهم وفي المناطق التي يسمح للخدم بالتجول فيها. مر اليوم الأول لطيفاً، فأي مكان في العالم بعيداً عن العجوز القبيحة سيكون جنة، في اليوم الثاني اصطحبني خدمها إلى حديقة القصر، وهناك رأيت شرشريتا ومرح، الأولى سعيدة والثانية غاضبة، اقتربت من أحد المقاعد لأجلس فلم تسمح لي شرشريتا وقالت بعجرفة:

- لقد قررت أن أهديك لصديقتي كونتتيسا مجدداً وأتمنى ألا تفقدك مرة أخرى.

علقت مرح:

- ثمنك كان باهظاً يا حسن، وأتمنى أن تستحقه فعلاً.

خاطبت شرشريتا مرح:

- والآن يا صديقتي، حان الوقت لأن أعلن عن موعد الاحتفال.

ضحكت مرح وقالت:

- لا يا حبيبتي، لن ألعب دور عاهرتك مقابل حسن فقط، عليك أن تسمحي لي بلقاء الخياط أولاً وبعدها سأوافق على شروطك.
- ربما سأسمح لك بمقابلة ثانية بعد الاحتفال فقط.
- سأتنازل عن مقابلته إن سمحت لحسن بمقابلته وقضاء ما يحتاجه من وقت ليعرف منه الطريق إلى عالم البشر لا إلى كهف آخر تأسرينا فيه، وحينما ينتهي احتفال عهرك ستتركينني وحسن نخرج معاً بسلام.
- سأحتاج منك عهداً يا كونتتيسا، قبل أن أفكر بالرد على طلبك.
- أعاهدك باسمي ومكانتي أن أنفذ ما سيطلبه الفائز بلسانه.
- هذا العهد ما عاد ينفع لأنه لم يعد لك مكانة يا كونتتيسا.
- إذاً ما هو العهد الذي تريدينه.
- عاهديني بعهد زاتا أن توافقي على كل شروط الاحتفال وسأقبل عهدك.

- وما قيمة هذا العهد عندك يا شرشريتا؟
- لا يعنيني ولا قيمة له عندي ولكني أعرف أنه من أقدس العهود عندك.
- هل تريدين أن أعاهدك بعهد أم الأمهات أن أتحول إلى عاهرة لأحد عبيدك القادمين؟
- لا يا حبيبتي، لن تكوني عاهرة، ستكونين مطيعة ليوم واحد فقط، والآن إما أن تعاهديني بعهد زاتا وإما لا اتفاق بيننا.
- ليكن، لك مني عهد زاتا أن أنفذ كل ما سينطق به الفائز في لعبتك خلال اليوم المحدد إن سمحت لحسن أن يقضي ما يحتاجه من الوقت مع الخياط.

ابتسمت شرشريتا ابتسامة امتزج فيها الخبث بالدهاء وشعرت بأنها تخطط لأسر مرح إلى الأبد مستغلة عهودها وقوانينها السخيفة، وعلى الرغم من أنني لم أصل إلى دهاء الاثنتين فقد وجدت أنها قد تمكنت من مرح عبر هذا العهد، ولن يصعب عليها أن تأمر العبد أن يتملك مرح إلى الأبد، ولكن بعد أن نطقت مرح العهد ما عاد هناك مجال للتراجع. أتمنى أن تكون مرح قد انتبهت إلى هذه الثغرة.

وقفت الذهبية وطلبت أن أسير خلفها إلى أن دخلنا القصر، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُسمح لي فيها بدخوله، أخذت تتنقل من صالة إلى أخرى دون أن يرافقها أحد حتى اقتربنا من باب، فأمسكت مقبضه وأمرتني أن أغمض عيني ثم أخذت ترشدني أين أسير، خطوة هنا وعشر هناك

وهكذا دواليك، حتى وجدت نفسي داخل حمام لم أر أفخم منه حتى في خيالي. فاجأتني حينما أمرتني أن أخلع ملابسي وأستحم، انتظرت حتى تخرج، ولكنها أشارت بتكبر، ففهمت أنها لن تغادر، وقفت أمامها عاريا بعد أن أخذت حماماً دافئاً، فأشارت أن أتبعها لأجد نفسي في غرفة نوم تسكنها الأساطير، وبنظرة سريعة إلى الثياب المعلقة في الغرفة كان بإمكاني أن أعرف أنها تخصها، فاجأتني مجدداً حين أمرتني أن أستلقي على السرير وهي تتفحصني، فراودتني ألف فكرة، لكن أجملها فكرة أن أراها عارية هي الأخرى، وأشبع غروري البشري وأنال من الذهبية المتعجرفة، أثارتني الفكرة أكثر مما أثارني جسدها، أظلمت الغرفة فجأة وقطعت أفكاري، وما إن عاد النور بعد هنيهة حتى وجدت نفسي مستلقياً على بلاط بارد وكل ما في الغرفة اختفى إلا الذهبية ما زالت تقف في مكانها، لا أدري كيف انتقلت إلى غرفة أخرى بهذه السرعة. تسلل البرد إلى عظامي وأخذت أرتجف بقوة، أخذت تنظر إلي وأنا أحاول أن أدفئ جسدي بيدي ثم سألتني "كيف تشعر الآن؟ هل ما زلت ترغب بي؟". اللعينة تتعمد إذلالي ومعاقبتي على ما مر بخيالي من أفكار، تجمد الدم في عروقي فأيقنت أنني هالك لا محالة. أشارت إلى كوب يبعد عني عدة أمتار فزحفت على الجليد حتى وصلته، لمسته فوجدته دافئاً فأخذت أرتشف منه دون أن أبالي إن كان سماً أو سحراً ما دام سيبعث الدفء في عروقي، وماهي إلا دقائق حتى عاد الدفء إلى جسدي، بدأت أرى أن شرشريتا تحولت إلى اثنتين واحدة تراقبني والثانية تبتسم. أشارت إحداهما إلى حذاء

وثياب ملقاة على الأرض فارتديتها وفوجئت أنها كانت تناسبني تماماً، انفتح باب الغرفة الجليدية فسارت أمامي شرشريتا فتبعتها، ومن خلفي شرشريتا الثانية، ربما كان هذا بسبب الشراب وربما هي خدعة أخرى من خدع الجن، وربما هناك فعلاً شرشريتا ثانية. عبرنا نفقاً مفروشاً بالسجاد يبدو أنه أعد ليسير عليه الملوك حتى وصلنا إلى غرفة وفور أن دخلناها أنا وشرشريتا حتى أغلقت شرشريتا الثانية الباب وراءنا وبقيت في الخارج. خرجنا من باب آخر لنجد أنفسنا في صالة واسعة فيها رجلان مقيدان بسلسلة طويلة تخرج من حلقة مثبتة بجدار تسمح لأحدهما بالتحرك والوصول إلى أي جزء في الصالة ما دام الآخر ملاصقاً للحلقة. اقتربنا من باب عليه قفلان، فأشارت إلى أحد الرجلين فاقترب ونظر إلى عينيها، أعطته المفتاح فأخذه وفتح القفل وعاد إلى مكانه، أشارت إلى الرجل الثاني فتقدم ونظر في عينيها، فمدت يدها بالمفتاح فلم يلمسه وعاد إلى مكانه، لم تغضب لأنه خالف أوامرها بل ابتسمت وعادت من حيث أتت، اختفت للحظة ومن ثم عادت إلى المكان نفسه، وأشارت إلى الرجل الذي تجاهلها فتقدم منها ونظر إلى عينيها فقدمت له المفتاح فأخذه وفتح القفل الثاني وابتعد.

فتحت الباب وسارت أمامي حتى وصلنا إلى مصعد، فدخلناه وبعد دقائق خرجنا منه وسرنا مسافة في نفق ومنه إلى مصعد آخر وتكررت العملية عدة مرات حتى وصلنا إلى صالة، وهناك كان في انتظارنا رجل مقيد هو

الآخر بسلسلة فطلبت منه أن يصحبني إلى الخياط، وتركتني بعهدته وعادت أدراجها.

رافقني الرجل حتى باب الصالة، وكان واضحاً أنه يستحيل عليه تجاوزها بسبب قصر السلسلة. فتح الباب واستقبلني رجل آخر، فطلب منه أن يصحبني إلى الخياط، وهكذا أخذت أتنقل من رجل إلى آخر حتى وصلت إلى صالة كان فيها الكثير من الرجال والنساء ولم يكن أي منهم مقيداً بالسلاسل. رحبوا بي وكانوا ودودين للغاية، وحينما سألتهم عن الخياط أخبروني أن عليّ الانتظار قليلاً. مرت ساعات حتى جاءت فتاة وطلبت أن أرافقها، سرت معها حتى وصلنا إلى غرفة متواضعة، كنت أرى ظهر رجل شعره كث يحيك قطعة قماش فأيقنت أنه الخياط، أخذ يحدثني دون أن يلتفت إليّ:

- أي ثوب اختارته لك شرشريتا لأحيكه لك وكم دفعت ثمنه؟
- لم آت من أجل أن تحيك لي ثوباً.
- نبرة صوتك تعلمني أن لون الظلال يليق بك أكثر من اللون الرمادي الذي ترتديه.

التفت إليّ فرأيت رجلاً عجوزاً تحمل عيناه كبرياء عالمي الجن والبشر معاً، نظر في عيني فشعرت بأنه يجول في أفكاري ثم قال:

- أنت رفيق تلك الفاتنة العجولة الحمقاء، وأرى أنكما قد هربتما من كمين شرشريتا إلى كمين أشد لعنةً منه.

عاد الخياط إلى حياكة القماش وتجاهلني، فقلت:

- إن الأميرة قد سمحت لي أن أسأله عن أي شيء أريده.
- لا تتعجل، فأنت لن تخرج من هنا إلى الأبد، والآن أخبرني قصتك، فمنذ زمن لم أسمع قصة جديدة.
- ما الذي ترغب في سماعه؟
- لا فرق عندي، أترك لك حرية اختيار القصة التي تريد أن ترويها.
- أليس من اللائق أن تلتفت إليّ حتى أشعر بالراحة والاحترام.
- معك حق، لقد نسيت كيف أكون مهذباً، اذهب الآن وانتظرني في الحديقة وسآتي إليك.
- وهل في هذا السجن حديقة أيضاً؟
- نعم، لقد وفرت لي شرشريتا كل ما أحتاجه.

تركتُه لأبحث عن الحديقة حتى وجدتها بسهولة، لم تكن حديقةً عظيمةً كما تخيلتها، لكن الأمر الذي أثار استغرابي أنها تغص بالزهور مع أن الشمس يبدو أنها لم تصلها يوماً، وفور أن جلست حتى تجمهر حولي الكثير من الرجال والنساء وكلهم شوق إلى سماع قصتي، حتى جاء الخياط وقال لهم:

- لا تتعجلوا، ستستمعون إلى قصته ألف مرة حتى تملوا منها.

انفض الحشد من حولي مفسحاً الطريق للخياط الذي جلس إلى جانبي ثم قال:

- لا شيء نفعله هنا إلا تبادل القصص وتكرارها آلاف المرات، هؤلاء المساكين حكم عليهم بخدمتي إلى الأبد، وما عدنا نميز من

يخدم الآخر فينا، هيا أخبرني ما الذي يدفع شرشريتا إلى سجن إنسي في سجني الجميل؟ فأنا أرى الضياع في عينيك وفوضى أفكارك تصعّب عليّ قراءتها، وسيسرني أن أستمتع بسماع حكايتك من لسانك.

رويت له قصتي بالكامل حتى اللحظة التي وافقت فيها مرح أن تباع بمزاد شرشريتا مقابل حريتي، فضحك وقال:

- ربما وجدت شرشريتا في مرح من يشبهها، وأنت لم تحصل إلا على سجن أبدي.
- للمرة الأولى أجد أن أحداً من الجن يطلق على كونتنيسا اسم مرح؟
- أنا مسجون هنا حتى قبل ولادتها لهذا لا فارق بين الاسمين لديّ، صحيح أنه يجب أن يُخاطب الأشخاص بأسمائهم الحقيقية وإلا عُد الإحجام عن ذلك إهانةً، ولكنني فقدت اسمي منذ زمن وما عاد لأسماء الآخرين أي قيمة عندي، كما أن قوانينهم لا تلزمني.
- هل ستخبرني عن الطريق إلى عالم البشر؟
- هل أنت ساذج إلى هذه الدرجة؟ ألا تدرك ما يحيط بك؟ انظر حولك جيداً، أنت لن تخرج من هنا إلى أي مكان، فما سرك؟ أخبرني فلا يعقل أنك تنال كل هذا الاهتمام وتجهل ما يحيط بك.
- لقد أخبرتك قصتي كاملة ولم أخف عنك شيئاً.
- أعلم أنك لا تكذب ولا تحاول إخفاء شيء، لهذا أنا في حيرة من أمري، افرض أنني أعرف الطريق إلى عالم البشر، فما الفائدة

التي ستجنيها من المعرفة، تأقلم مع وضعك الجديد فأنت جزء من هذا المكان ولن يتغير شيء.

- إذاً، أنت لن تخبرني كيف أصل إلى عالم البشر؟
- لم يصل أحد إلى مملكة الشر وخرج منها يوماً، وقبل أن تحلم بذلك عليك أن تخرج من سجن شرشريتا أولاً.
- ولكني سمعت عكس ذلك.
- لقد سمعت حكايات وأساطير وخرافات لا أحد يستطيع أن يثبتها يوماً، قصتك مثل الأثواب التي أحيكها فهي لا تتعدى الوهم وكل من يرتديها يتحوّل إلى كائن جميل لكن حقيقته لا تتغير، وأنت يا صديقي يبدو أنك ستبقى هنا إلى الأبد، فشرشريتا لا تسمح لأحد أن يجالسني أكثر من دقيقة، وما دمت قد أمضيت هنا ساعات فهذا يعني أنك لن تخرج أبداً. ربما سأعلمك الحياكة لتقتل وقتك فهنا الوقت لا نهاية له.
- الحمد الله، أنني إنسيٌّ وحياتي قصيرة.
- فعلاً أنت تجهل ما فعلته بك شرشريتا، لا حاجة إلى أن أفسد عليك أحلامك وأخبرك أنك ستكون بصحبتي أكثر مما قد يتخيل عقلك الصغير.

مر الوقت بسرعة ولم أحصل منه على ما أريد من معلومات، ستقتلني مرح بلا شك. أخذت أطارد الخياط الذي بدأ يتجاهلني، فهذا الرجل اعتاد الصمت مئات السنوات وما عادت أي قصة تثيره، استفزني حينما طردني

وأغلق الباب خلفه. أشفق الآخرون على حالي ونصحوني أن أبتعد عنه، فهو مزاجي جداً، وأن أنتظر حتى يخرج إلى الحديقة وأخبره طرفة، انتظرت وحين خرج رويت له طرفة فقال:

- طرف البشر ما عادت تضحكني منذ زمن، فما رأيك أن تعيد عليّ حكايتك مع الشمطاء وكيف وافقت أن تتزوجها مقابل كوب ليمون.

أخذ يقهقه بأعلى صوته، فلم أمانع أن أعيد على مسامعه القصة حتى بتفاصيلها المملة، ولم أخجل من أن أحدثه عن زواجي من تلك المقرفة وقبلاتها المقززة، فلم يتوقف عن الضحك، وفجأةً شده شيءٌ ما في حديثي فطلب أن أعيد القصة على مسامعه ولكن من النهاية إلى البداية. لا يبدو أنه نسي القصة لكني لم أمانع أن أروي له القصة مرة أخرى، وفجأة رفع يده أن أصمت ثم اقترب مني وطلب أن أكرار عدة كلمات وحين كررتها فقدت توازني وشعرت بصداع شديد وأخذت الأفكار تتدفق من رأسي كشلال انبثق من سد، كم هو فظيع أن يُمسح جزء من ذاكرتك والأشد فظاعةً أن يعاد إليك دفعة واحدة، قبل هذه اللحظة لم يكن لسنوسا وجود في ذاكرتي، والآن هأنا أراها في عيني الخياط، لا ألومها فقد وافقتُ أن تمسح ذاكرتي، ولو لم تفعل لاكتشفت شرشريتا خطتها بسهولة، وعلى الرغم من الصداع والألم فقد شعرت بالراحة لأنني هنا ضمن خطة مدروسة. قدم الخياط لي الكثير من الماء وطلب أن أغمض عيني ولامس جبيني ونجح في طرد جزء من الصداع الذي أصابني وأخذ بعدها يمازحني قائلاً:

- كم أنت محظوظ أيها الإنسي فقد وصلت إلى ما لم يصل بشر إليه من قبل.
- هل بإمكانك أن تساعدني الآن على الوصول إلى عالمي كما وعدتني سنوسا؟
- من أجل سنوسا سأبذل حياتي لأفي بوعدها، ولكني أشك في أن صحتك ستحتمل مثل هذه الرحلة حتى دون أن تسممك شرشريتا.
- ماذا تقصد بالسم، هل سأموت؟
- لا، لن يتلف جسدك ما دمت داخل هذه المكان، حالك كحال الجميع هنا، ولكن إن خرجت من السجن وتغير المناخ فسيسري السم في عروقك لتهرم بسرعة تفوق خيالك، وحتى لو لم تسممك هي، أنت لست بصحة جيدة ولن تحتمل مثل هذه الرحلة، لذلك القرار يعود إليك وحدك.
- صحتي على خير ما يرام، وأنا قادر على القيام بهذه الرحلة.
- السم سينتشر إن عدت إلى مملكة الشر وشرشريتا كانت حريصة على ألا تخرج من هنا أبداً، لكن لا أعتقد أن السم سيؤثر بك في عالمك، لست متأكداً، لكن المشكلة أنك مريض فعلاً وعبورك إلى مملكة الشر هو ما منع تدهور صحتك.

امتعضت بعد أن أغلقت أمامي الأبواب كلها، فإن خرجت من السجن سينتشر السم وسأهرم سريعاً، وهذا معناه أنني لن أصل إلى عالمي يوماً، وقبل أن أسأله أجاب:

– إن قررت أن تخوض هذه المغامرة فلن نصعد إلى الأعلى حتى لا يكون للسم تأثير على جسدك، طريقنا ستكون إلى الأسفل، ومع هذا ما زلت أشك في قدرة جسدك العليل على احتمال هذه الرحلة، لذلك سأمنحك وقتاً للتفكير قبل أن تتخذ قرارك.

– لست بحاجة إلى التفكير، فلا خيار أمامي إلا العودة إلى عالمي.

– هذا قرارك وحدك فاستعد لأن أمامنا رحلة طويلة وشاقة جداً.

– كيف يمكن أن نخرج من هنا، بوجود كل هؤلاء الحرس المقيدين بالسلاسل.

ضحك وقال:

– شرشريتا طفلة صغيرة وأمامها الكثير لتتعلمه قبل أن تقرر أن تسجن أحداً مثلي، ولو أردت الخروج لفعلتها منذ زمن، ولكني فضّلت أن أحيك الثياب التي ستكون سبب هلاكها يوماً، أنا صبور والوقت لا قيمة له عندي، أما الحرس فهم سجناء أيضاً ولا أعتقد أن سجيناً سيحرس سجيناً آخر، على كل حال لن نحتاج إلى تجاوزهم، هيا اتبعني في هذا السكون فما عاد أحد مستيقظاً ليدرك ما يدور حوله.

وصلنا إلى المخيطة فاستدعى خدمه ومساعديه المقربين وأبلغهم أن وقت المغادرة قد حان وأن عليهم الالتزام بالخطط القديمة بحذافيرها، ووعدهم أنه سيبذل جهده لإيجاد علاج لسم شرشريتا حتى يتمكنوا من العودة إلى الحياة في الخارج، كان وداعه إياهم وداعاً مؤثراً. وحين تركونا أزاح ستارة وحرك

حجراً كشف عن سرداب ضيق، دخلنا إليه ومنه إلى سرداب أوسع، وعبر السراديب استمرت رحلتنا أكثر من ساعة، أخبرني أن أصدقاءه قد تناوبوا على حفر هذه السراديب من أجله وأنه يعز عليه فراقهم. طلب أن أتبعه بحذر شديد، أخذنا نزحف بين شقوق الصخور التي أحدثتها الطبيعة ولم تمض ساعة حتى شعرت بإرهاق شديد، في البداية حاول أن يشجعني حتى أواصل الزحف ولكنه بعد قليل نظر إلي مشفقاً، فتركني أزحف وفق قدرتي، زحفت وزحفت حتى وصلنا إلى فسحة واسعة وعندها كنت قد استنفدت كل طاقتي فلم أعد قادراً على الحركة.

- خذ قسطاً من الراحة، فلم يعد هناك داع للعجلة.
- هل هناك ما يمكن أن تفعله لتعيد إليّ طاقتي، فما عدت قادراً على السير خطوة واحدة؟
- للأسف، جسدك عليل ولا شيء أقدمه لك سوى مساعدتك على النوم. هيا، أمسك يدي أمعن النظر في وجهي كأنك تريد أن ترسمه بدقة، اطرد أي أفكار من رأسك، اترك جسدك ليرتاح كما يشاء، أمعن النظر في وجهي...

ارتخا جفناي فأغمضت عيني، فتحتهما مجدداً فرأيت الخياط ممسكاً يدي وينظر إليّ بهدوء، فقدت الإحساس بجسدي، ومع ذلك ما زلت أشعر بأن الخياط يمسك يدي، اجتاحني طوفان من الذكريات دفعة واحدة، بدأت أرى أمي وهي تلاعبني لأجد نفسي في المدرسة فالعمل... لم يبق إنسان رأيته في حياتي إلا وظهر أمامي وكأني أراه الآن. وفجأةً اختفى الألم والإرهاق

والقلق... أحسست بأنني أخف وزناً حتى خيل إليّ أنني أطفو خارج جسدي، أرى نفسي ممداً على الأرض وعيناي مغمضتان والخياط يمسك يدي ويتحسس جبيني، لم أفهم كيف كنت قادراً على مراقبة جسدي النائم! هل أنا في حلم؟ التفت الخياط نحوي، وقال:

- أعط بصرك الفرصة ليتكيف مع المحيط بهدوء ولا تتعجل، حاول ألا تبعد بصرك عني .

مر وقت حتى عاد كل شيء إلى أفضل من طبيعته، شعرت بأن طاقتي عادت إلي أفضل من السابق، وكأني لم أكن قبل قليل عاجزاً عن الحركة.

- أشكرك أيها الخياط، لقد أعدت إلي قوتي ونشاطي بسرعة كبيرة.
- لا علاقة لي بكل هذا.
- تواضعك يزيد احترامي لك.
- اجلس الآن لأشرح لك ما أنت عليه، فرحلتنا ازدادت خطورة ولا أريد أن تضيع قبل أن تصل عالمك.

شعرت هذه المرة بأن فضولي قد اختفى وأنني لا أرغب بأي معلومة جديدة، ربما كان السبب رغبتي الملحة في العودة إلى عالمي، انطلقنا مجدداً، والغريب أنني بت ألح عليه أن يسرع، حتى إنني سبقته في أحد الممرات فغضب غضباً شديداً، ثم قال:

- إياك أن تبتعد وإياك أن تنسى وجهي، أمعن النظر في وجهي مجدداً.

ضحكت في سري، فقد مللت النظر في وجهه، صحيح أن وجهه يدفعك إلى احترامه، ولكنه ليس وجه حسناء فاتنة حتى أواصل التمعن فيه.

سرنا وقتاً طويلاً ومن طريق إلى ممر إلى نفق إلى شقوق وصلنا إلى بركة ماء كبيرة، حينها قال:

– استعد للغوص ورائي ولا تبتعد عني قيد أنملة.

هنا تذكرت رحلتي مع غادة وكيف كانت تمدني بالهواء من فمها، حينها ضحكت في سري وأنا أقول لن يسرني أن يقبلني الخياط من فمي. فإذ به يقول:

– ولن يسرني هذا أيضاً، لا حاجة إلى أن أقبلك، فقط اتبعني، سنحتاج وقتاً لنعبر هذه البركة والقنوات التي تليها، سيكون ذلك شاقاً عليّ لا عليك.

– من المستحيل أن أغوص تحت الماء وقتاً طويلاً دون أن أموت.

– لا خطر عليك من الموت هنا، الخطر الحقيقي هو أن تفقد أثري وتتوه في أعماق هذه الأرض، اتبعني فقط.

شعر بترددي، فابتسم وأخرج من حقيبته قطعة قماش ولفّها حول فمي وطلب أن أغمض عيني ثم قال:

– قطعة القماش هذه ستمدك بالهواء حتى لا تختنق، أما الوقت الذي سنستغرقه في الغوص فليس طويلاً، هيا اتبعني.

غصت وراءه مدة تزيد على النصف ساعة، وحينما خرجنا من الماء سألته عن القماش العجيب فضحك وهو يقول:

- يصلح إلى أن تمسح به مؤخرتك فقط، فهو لا يحتوي على أي شيء، الحقيقة أنك كنت بحاجة إلى جرعة من الوهم لأنك لا تريد أن تفهم ما يدور حولك، لقد أخبرتك ألا تخشى الموت.

لم أفهم شيئاً مما قاله، واعتقدت حينها أن لهذا الماء خواص غير خواص الماء في عالمي وحينما سألته قال:

- الماء هو الماء لم يتغير فيه شيء.

لم أفهم لماذا يصر على إثارة فضولي كلما سألته عن شيء، سرت خلفه ساعات طويلة حتى وصلنا إلى أرض حمراء، كان واضحاً أن تربتها لزجة وشعرت بأنها ستبتلعني إن عبرتها وما كان هناك داع لأشرح له عن مخاوفي فقال:

- عودتك إلى عالمك ستكون أسهل بكثير لو أنك سمحت لي أن أشرح لك ما أنت عليه حالياً، ولكن يبدو أن عنادك لن يستوعب ما استجد فلا حاجة إلى أن أزيد الأمور تعقيداً، الآن أمسك يدي وأغمض عينيك حتى أسمح لك بفتحهما.

سرت خلفه فترة من الزمن دون أن أرى شيئاً حتى طلب أن أفتح عيني من جديد، لأجد نفسي في الطرف الآخر من الأرض الحمراء، نظرت إليها فأدركت أنها تشبه الرمال المتحركة، فسألته:

- هل هذه الأرض مسحورة؟

- أتعلم، لا يوجد فيها شيء عجيب هي تربة تشبعت بالماء فقط ولو عبرها أي شخص كان سيغرق فيها حتى ركبتيه وتتسخ ثيابه لا شيء أكثر من هذا سيصيبه، أما أنت فكنت ستغرق فيها بأفكارك.

واصلنا تقدمنا فلاحظت أننا نمر من أماكن تشبه تلك التي زرتها مع غادة، وحينما وصلنا إلى جرف صخري مرتفع أيقنت أنه يستحيل علي تسلقه فأخبرته بذلك فقال:

- ستتجاوزه بسهولة دعني أقودك فقط ولا تحاول أن تسأل كيف، اتفقنا.

أمسكني من يدي وما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي برفقته في أعلى الجرف، حتى كاد يغشى علي حينما نظرت إلى الأسفل وسألته كيف؟ عض على أسنانه وهو يقول:

- ارحمني يا حسن، أرجوك.

اقتربنا من صخور تلمع وما إن تجاوزناها حتى وجدت نفسي وسط حقل من الألماس، تذكرت حينها أنني رأيت هذا المكان في السابق خلال رحلتي مع غادة، وفجأة شعرت بألم شديد في باطن قدمي ورأيت آثار دمائي خلفي فطلبت منه أن نتوقف لأضمد جراحي وهنا فقد صبره وقال:

- حسن، رحلتنا طويلة ولا وقت لإهداره بأوهامك؟ كيف يمكن أن أقنعك بأنه يستحيل أن تصاب بأي جرح، تفحص نفسك ولا تثر جنوني أرجوك.

حين تيقنت أنني واهم، أخبرته أن ما يحدث معي سببه قلة النوم، وربما لو نمت قليلاً لغادرتني الهلوسات، وهنا صرخ بي:

- افعل أي شيء إلا النوم، إن نمت لن أتمكن من إيقاظك، أنت بحاجة إلى أن تدرك خطورة وضعك أكثر من حاجتك للنوم.

واصلنا سيرنا حتى مررنا بأنفاق ضيقة وحينما عبرناها شعرت بأنه يجاريني فطلبت من أن يعذرني فأنا لست من الجن لأجاري سرعته، فهز رأسه وقال:

- لولا خوفي أن تتوه لأخبرتك أنك قادر على أن تسبق الجن، لا تسأل، أنا أمازحك فقط اتبعني بصمت أرجوك.

تبعته وتذكرت الألماس ولو أني حملت معي القليل لأهديه لأمي وأختي لعلهما تغفران لي غيابي، حينها لم أشعر بنفسي إلا وأنا أسير بسرعة تفوق قدرتي على تخيلها وأعود إلى موقع الألماس وأختار ما أشاء، وحينما انتهيت لم أجد أي أثر للخياط، فهممت أن أبحث عنه إلا أنني فضلت البقاء وانتظاره ليجدني فهو أخبر مني بهذا العالم، وكان قراري حكيماً، فلم تمر عدة ساعات حتى جاء إلي ووبخني قائلاً:

- إن كررتها مرة أخرى فسأتركك وأعود أدراجي فلا وقت لدي لأطارد طيفك اللعين، هيا اتبعني.

عدنا نشق الطريق الأولى ومنها إلى غيرها حتى بدأت أشعر بأننا قريبون من عالم البشر فأكد الخياط ذلك، وبعد عدة ساعات وصلنا إلى سلسلة من الكهوف فطلب مني أن أجلس وأصفي ذهني ثم قال:

- لقد وصلنا إلى المحطة الأخيرة التي أستطيع أن أرافقك فيها، سأنتظر معك قليلاً حتى أطمئن إلى أنك بخير وسأرسم لك الطريق التي عليك اتباعها لتوصلك إلى عالم البشر، ستمر عبر الكثير من الأنفاق والكهوف وما تسلل إليها من نور الشمس سيرشدك إلى الطريق، لا تخف لن تتوه فيها، وهكذا يا صديقي أكون قد وفيت بوعد سنوسا.
- كم من الوقت سأحتاج للوصول؟
- وفق حسابتي ستخرج من الكهوف قبل غروب الشمس بكثير، لهذا أنصحك أن تمنح عينيك الوقت الكافي للتكيف مع النور في الخارج، وعليك أن تتجنب السير تحت الشمس إن استطعت حتى لا تؤذي بصرك وإن كان ذلك صعباً فاحتم بالظلال، سيكون أكثر أمناً أن تنتظر غروب الشمس وتشق طريقك ليلاً، وحين تخرج أنصحك بشدة أن تتجاهل الجميع ولا تشغل بالك بالتفكير بتجاهلهم لك، واعلم أن أموراً غريبة ستواجهك وستحتاج إلى الكثير من الوقت لفهم ما يدور حولك.

أغرقني في الغموض ولكن في أعماقي كنت أشعر بالثقة به، ثقة لم أشعر بها تجاه أي شخص آخر لا في عالم الجن ولا عالم البشر، وسأشك في نفسي قبل أن أشك في أن هذا الرجل قد يخدعني، فسألته ممازحاً:

- أخبرني يا صديقي هل أنا في طريقي فعلاً إلى عالم البشر أم أن هناك خدعة ما سأكتشفها لاحقاً.

أغرقني بنظراته المشفقة ثم قال:

- هل تعلم كم من الوقت مضى منذ أن خرجنا من سجن شرشريتا والمجهود الكبير الذي بذلته لأوصلك إلى هنا وكم مرة تهت مني وبحثت عنك ساعات طويلة لقد أثرت جنوني بما فيه الكفاية، اطمئن يا صديقي بعد ساعات ستكون فعلاً في عالم البشر، ولكنك لن تراه مثلما كنت تراه في السابق، لهذا اترك كل شيء خلفك وركز فقط على فهم ما يدور حولك.

نبرته الجادة أثارت القلق في نفسي ورجوته أن يفسر كلامه فقال:

- منذ أسابيع وأنا أحاول أن أشرح لك ولكنك تأبى أن تصغي، لا يا عزيزي لم يتغير عليك شيء، وما حدث معك أمر طبيعي إن فهمته فقط، ربما أنت بحاجة إلى وقت حتى تدرك ذلك، والآن لدي بعض الأسئلة وما كان يجوز لي أن أسألها قبل أن أوصلك إلى عالمك، وسأحترم إن رفضت إجابتي:

ضحكت وسألته:

- هل تسخر مني؟ وأنت الأكثر براعة في قراءة أفكاري، فما حاجتك لجواب بإمكانك الحصول عليه سواء وافقت أو رفضت؟
- سأخبرك أمراً، ولدي إحساس أنك ستحتاجه مستقبلاً، الجن أضعف مما تعتقد وليس جميعهم قادراً على قراءة أفكار البشر، الذاكرة مثل قلعة فيها عشرات الآلاف من الغرف ولكل غرفة مفتاح، يستحيل ولوج أي غرفة من دونه، والبارعون باقتحام ذاكرة الآخرين

مثل صديقتك لا يصلون إلا إلى الغرف المفتوحة أو التي يدفعونك لفتحها، ما أقصده من حديثي أنك لم تكن يوماً عاجزاً عن منع الآخرين من الولوج إلى ذاكرتك، لهذا بإمكانك منعي إن أردت ذلك، ما يثير اهتمامي حالياً أن هناك الكثير من الغرف في ذاكرتك مغلقة ومموهة كأن لا وجود لها، ويستحيل على أي كان حتى أنا رؤيتها، لقد اكتشفت ذلك عندما أعدت لك ما أخفته سنوسا في ذاكرتك، ربما إن ساعدتني بإيجاد المفتاح فسنعلم أنا وأنت ماذا تم إخفاؤه فيها ومن قام بهذا ومسح آثاره بهذا المستوى العالي من الاحتراف، فهل ترغب بمساعدتي ومساعدة نفسك لتفهم؟

- لا أشعر بأنني أحمل أي أسرار لأخاف عليها أو اخفيها بهذه الطريقة المعقدة ولا أملك المعرفة لأفعل هذا بنفسي ولم يعبث أحد بأفكاري غير مرح وسنوسا، هيا أخبرني كيف أساعدك:
- لا يا حسن، مثل هذه البراعة لم أعهدها يوماً إنها تفوق قدراتنا جميعاً، والآن صف لي القلعة وكيف وصلتما إليها وماذا رأيتما داخلها.
- لا شيء يستحق الوصف لأصف ما تسميه القلعة، لم تكن أكثر من مغارة بدائية حفرت بالصخر، ولم أجد فيها ما يدل على عظمة حتى الرسوم التي نقشت على جدرانها كانت غاية في البساطة وعلى رأي سنوسا هي خربشات لا قيمة لها.

- سنوسا ما زالت صغيرة لتفهم أن قوى الماضي أعظم من أي شيء سيتم اكتشافه في المستقبل، هل بإمكانك أن تعود إلى تلك اللحظة التي ظهرت فيها الرموز على جدران القلعة حاول أن تتخيل ذلك إن أمكن.

أخذت أصف له القلعة وما فيها وحتى طقوس مرح الغريبة، وحين أردت أن أصف له ما رأيته على الجدران لم أعد أرى إلا الفراغ وكأن أحداً حذفها من ذاكرتي، فلم ينزعج ولكنه سألني:

- هل رأيت أي طيف في القلعة؟
- لم أر غير مرح.
- حاول أن تصف لي الرقصة التي أدتها مرح على المنصة الحجرية وهل شعرت بأن هناك امرأة أخرى ترافقها؟
- لا أتذكر، ولكنني شعرت بأن هناك الكثير من الأنوار تحيط بها، ولكن هل يتوجب أن أفهم من حديثك أن علوم السحر حقيقية بعكس ما يقول الجميع؟
- ما أعرفه عن علوم السحر هو نقطة في محيط، ومن هذه النقطة صنعت أثواباً تحول القباحة إلى جمال، فتخيل ماذا سيحل على عالمينا لو وصل مجنون إلى هذه العلوم، والحقيقة أنا في حيرة من أمري، كيف تمكنت مرح من العثور على القلعة وكيف اخترقت جدارها وإن حدث هذا فعلاً، فلن يعرف أحد ما حصلت عليه وما تخطط له هذه المجنونة، وإن كان هناك سر فأنا على يقين أنها

أخرجته معك، لهذا كانت حريصة عليك أكثر من حرصها على نفسها.

- لم أحمل معي إلا هذا الألماس.

مددت يدي إلى جيبي لأخرجه فلم أجد له أثراً، فضحك وقال:

- سرعان ما ستكتشف ما أصبحت عليه، والآن هل بإمكانك أن تعدني أنه لو حدث يوماً والتقيت مرح ألا تسمح لها بإخراج أي شيء من ذاكرتك.

شيء ما يقلق الخياط ولا أجد له تفسيراً، فقلت له:

- لو كان هناك شيء تم إخفاؤه في ذاكرتي دون علمي لتمكن هو من الوصول إليه ومن قبله سنوسا وشرشريتا.
- أتمنى أن أكون واهماً وألا تخطط مرح لإحياء علوم كانا وزاتا، سأتركك الآن، ومن يدري ربما زرتك يوماً ما.

ودعت الخياط فعاد أدراجه، سأشتاق إليه في أعماقي، ولا أدري إن كان سيعرف يوماً أنني في حالة عالية من صفاء الذهن لم أعهدها من قبل، وقد تعمدت إخفاء الكثير من التفاصيل عنه، وتساءلت لماذا يخشى هو أيضاً خرافة كانا وزاتا.

****

لولا حاجتنا لمساعدتكم لما قاطعناكم، نعتذر مرة أخرى

إن وجدتم أن هذه الرواية تستحق القراءة وقررتم نصح أصدقائكم بها فكلنا أمل أن توضحوا لهم أن أي نسخة إلكترونية أو ورقية لا تحمل اسم الكاتب فوزي عبده ليست أكثر من نصف مسودة أولية نشرت وطبعت دون إذن الكاتب.



الطريق إلى سطح الأرض كانت أسهل مما تخيلت وأغلب القنوات والكهوف التي مررت بها كانت من صنع الطبيعة، لم أرى أي أثر يدل على تدخل بشر أو جن في شقها، كان نور الشمس يستقبلني تدريجياً وتزيد حدته كلما انتقلت من كهف إلى آخر واشتياقي إلى عالم رحلت عنه منذ زمن أنساني نصيحة الخياط، فأسرعت بالخروج من الكهف لتستقبلني الشمس وتعجز عيني عن مواجهتها فعدت أدراجي، وكلما قررت المحاولة لم أكن أرى إلا نوراً يمنع عني رؤية أي شيء، خشيت أن أكون قد فقدت بصري ولكني صبرت حتى غربت الشمس، وعادت الطمأنينة إلى نفسي بعدما تمكنت من رؤية سلسلة من الجبال، انطلقت في طريقي لا يشغل بالي إلا اللقاء القادم مع أمي وأختي. اعترضت طريقي لافتة طرق تشير إلى الاتجاهات وأسماء المدن فعرفت أنني خارج حدود بلادي، ارتعبت، فوطني ليس ككل الأوطان، إن غادرته يستحيل علي العودة إليه، سرعان ما مررت بجوار مجموعة من النساء على طرف الطريق فاقتربت منهن لأقطع الشك باليقين فتجاهلن وجودي ربما اعتقدن أنني أتحرش بهن، لكن لهجتهن أكدت أنني في بلد مجاور، فاتخذت قراري أنه مهما كلفني الثمن يجب أن أجد طريق العودة، لم يكن هناك مجال لإهدار الوقت بالبحث عن حلول عقلانية، فقررت أن أعود متسللا إلى وطني، وصلت الحدود كيف ومتى وكم استغرقني من وقت لا أعرف، لقد ضاع مني الزمن وقبل أن أبحث في ذاكرتي عن إجابة وجدت نفسي في بلادي، وما عدت أميز إن كنت في حلم أم في واقع، أخذت أتنقل من حلم إلى حلم دون أن تسجل ذاكرتي

شيئا أستطيع العودة إليه، تكرر الأمر نفسه، ووجدت نفسي بالقرب من مدرسة الطفولة التي تبعد عن بيتنا مئات الأمتار فقط، اشتياقي إلى أمي كان أقوى من البحث عن إجابات، والفضول تراجع إلى الخلف حينما وقفت على عتبة بيتي، ارتعبت من اللقاء وعدت إلى الخلف لآخذ وقتي وأحضر أجوبتي للامتحان الذي ينتظرني، وأول ما خطر ببالي هو اختبار قدراتي العقلية قبل المواجهة، قمت بإجراء عدة عمليات حسابية والعد من الواحد إلى الألف وأخذت أردد أسماء أقاربي وأصدقائي واستذكرت العديد من المواقف حت تيقنت أن ذهني صاف، بل لم أعهده بهذا الصفاء والتركيز من قبل على الرغم من الزمن المفقود، وكلما حاولت الاقتراب من الباب تراجعت كتلميذ صغير هرب من المدرسة وعلم أن عائلته قد اكتشفت فعلته، فأخذت أدور حول البيت لأتخلص من الإرباك والانفعال العاطفي الذي أصابني، فلا أريد أن أقابل أمي وأختي، وبينما أنا في هذا الارتباك لاحظت من نافذة غرفة الضيوف رجلاً غريباً يحضن أختي سروة بطريقة غير لائقة، وحين دخلت أمي الغرفة جلست ثم سألت سروة:

- هل أرضعت حسن يا سروة؟
- نعم أرضعته قبل قليل يا أم حسن.

تاه عقلي، هل أنا في حلم أم واقع، من هذا الحسن الجديد الذي بحاجة إلى إرضاع؟ ومن هذا الرجل الذي يجلس في بيتنا، هل يعقل أن أختي تزوجت وأنجبت طفلاً وأسمته حسن؟ هذا يعني أنني قد غبت عنهم أكثر مما خيل لي، وهذا الأمر زاد ارتباكي، لذا قررت أن أصبر قليلاً قبل أن

أفاجئهم لعلي أفهم كم هي المدة التي غبتها وماذا تغير في غيابي؟ خرجت أختي ومن أعتقد أنه زوجها من غرفة الضيوف تاركين أمي وحدها، حاولت أن أتمهل أكثر ولكنني لم أقو على الصبر فاستجمعت شجاعتي ودخلت إلى البيت ومباشرة إلى غرفة الضيوف اقتربت من أمي بهدوء حتى لا أفاجأها، نظرت باتجاهي فسالت من عينيها دموع أحرقت قلبي قبل أن تمسحها وتشيح وجهها عني، عذرتها فيحق لها ألا تنظر إلي بعد غيابي الطويل ولكني لم أتمالك نفسي فأخذت أبكي بحرقة وأطلب أن تسامحني، لكنها استمرت في تجاهلي، أمسكت يدها فأخذت تحرك أصابعها وأجهشت هي الأخرى بالبكاء وسحبت كفها الحنون من بين أصابعي وأخذت تمسح دموعها، ابتعدت عنها وجلست على المقعد المقابل لأفسح لها المجال لتنفس عن غضبها وتنتهي من مسح دموعها، وكم كنت أتوق أن تضمني إلى حضنها، نظرت باتجاهي وأمسكت مسبحتها وأخذت تتمتم بأسماء الله الحسنى واستمرت بتجاهلي، فصبرت وأنا أعلم أنها غاضبة وستحتاج إلى القليل من الوقت لترضى، ولكني لم أتوقع أن تتكئ إلى طرف المقعد لتقف وتسير ببطء باتجاه غرفتها دون أن تعيرني أي انتباه فلحقت بها ورجوتها أن تسامحني إلا أنها استلقت على سريرها وتجاهلت وجودي، فاستلقيت كطفل صغير بجانبها ووضعت رأسي على الوسادة وأخذت أنظر في عينيها وهي تنظر في عيني فسالت الدموع من عينيها، لكنها أدارت رأسها بالاتجاه الآخر، كففت عن إزعاجها لأفسح لها المجال لتتغلب على غضبها وتصفح عني، غادرت غرفتها لأبحث عن أختي، ولكني شعرت

بالإحراج منها فهي بصحبة زوجها، عدت إلى الحديقة التي طالما هربت إليها وسرني أنه لم يتغير فيها شيء، وكأن أمي حرصت على تركها على حالها في انتظار عودتي يوماً ما، لم أشعر بالوقت كيف مر إلى أن انفتح باب البيت وخرج زوج أختي المفترض ومر من الحديقة ولم ينتبه لوجودي فقررت العودة إلى غرفتي فوجدت فيها أثاثاً جديداً فابتسمت، يبدو أن أمي الحبيبة قد استبدلت ما حطمته مرح في تلك الليلة المشؤومة، وأعدت الغرفة لعودتي، كان في غرفتي أيضاً عدة صناديق وسرير طفل صغير، استلقيت على السرير وغصت في بحر من الذكريات ومن النافذة رأيت الشمس تميل إلى الغروب فشعرت بأن الوقت قد سرقني، رائحة القهوة ألهبت داخلي نار الاشتياق إلى سروة واللحظات السعيدة التي كنا نجلس فيها معاً نحتسي القهوة، أعلم أنها غاضبة مني ولكنها ستتفهم ما حدث معي مثل كل مرة، فجأة سمعت صوت طفل يبكي فدق قلبي اتبعت الصوت إلى غرفة أختي، كان الباب مفتوحاً لم تكن هي بالداخل لم أشعر بحرج واقتربت أكثر فرأيت ملاكاً أعتقد أنه بلغ من العمر عاماً أو أقل، يا إلهي هل يعقل أن هذا ابن سروة وأنني خاله، أخذت أحدثه:

- خالي حبيبي، انظر إلي.

صمت الطفل وابتسم لي، وضعت إصبعي على جبينه وأخذت أتحسسه فدخلت سروة وابتسمت هي الأخرى، فتحتُ ذراعي لأحضنها ولكنها تجاهلتني وقالت:

- هيا يا حبيبي، أتريد أن ترضع؟

حملت طفلها وخرجت إلى المطبخ فلحقت بها، أعلم أنني مذنب وحقير ولكن لا يجوز لهم معاملتي بهذه القسوة، جلست على الكرسي وكشفت عن صدرها لترضع ابنها فأشحت بصري وانتظرتها حتى انتهى الصغير من الرضاعة، نظرت إليها فتجاهلتني ولكن الدموع سالت من عينيها فجأةً وعلى أثرها أخذت أعتذر:

- أنا آسف يا حبيبتي، لم يكن الأمر بيدي، اعذريني.

نظراتها زادتني حيرة، فاجأنا الرجل باقتحام مطبخنا دون إذن، تجاهلني هو الآخر وقبّل أختي على خدها والتقف الطفل منها وأخذ يلاعبه فقالت له:

- خذ حسن إلى جدته وتعال لتناول العشاء.

اللعنة، ألا يرغب في أن يتعرف إلى أخ زوجته أم هو الآخر قد اتفق معهم على تجاهلي. هل قرر الجميع معاقبتي بهذه الطريقة التي تخلو من الإنسانية؟ لا بأس سأجاريهم في لعبتهم هذه قدر المستطاع ولنر من سيصمد فينا أكثر، شعرت بغضب شديد فخرجت إلى الشارع لأنفس عن غضبي كما اعتدت أن أفعل سابقاً، التقيت جارنا وتمنيت لو أجد أي طريقة لأتحاشاه، ولكني كنت مضطراً إلى مواجهته لأنه ينظر باتجاهي وكم كانت صدمتي حينما مر من جانبي دون أن يلقي علي التحية فضحكت وقلت: حتى أنت يا أبو العصافير تشاركهم اللعبة. وسرعان ما مر آخر وتجاهلني وتساءلت إن اتفق الجميع على تجاهلي، تجولت من مكان إلى آخر تائهاً حزيناً عدت إلى البيت مرة أخرى، فتعمدوا تجاهلي، غضبت ولكني لم أشتمهم حتى في سري فأنا أعلم أني المذنب وسأتركهم حتى يحين الوقت

ليغفروا لي غيابي، سامحهم الله، ليتهم وجدوا طريقة لتأنيبي غير هذه الطريقة، تركتهم يوماً كاملاً ثم عدت لعلي أجد طريقة لإجبارهم على إنهاء لعبة التجاهل البغيضة، لكنني فشلت أمام براعتهم في تنسيق خطواتهم ونظراتهم لإيهامي أنه لا وجود لي. تساءلت إن كانوا قد تدربوا لأشهر طويلة على القيام بهذا الدور.

تذكرت ما قاله الخياط لحظة وداعي، لن ترى عالمك كما كنت تراه سابقاً، تساءلت: هل يعقل أن يكون الجن قد سحروني وحولوني إلى رجل خفي أرى الجميع دون أن يراني أحد، أم أن سُم شرشريتا الدافئ هو ما أخفاني عن عيون الجميع، هذا التفسير أكثر منطقية من قدرة أمي على أن تمنع نفسها من احتضاني وشتمي وهي تبكي مثل ما تفعل كلما غبت عنها. خرجت لأختبر حقيقة أن الجن قد أخفوني بسحرهم اللعين فاقتربت من الغريب والقريب دون أن يعيرني أحد أي اهتمام.

الغريب أيضاً أن الأشخاص القلائل الذين لم يتجاهلوني تبين أنهم تائهون أكثر مني وهم بحاجة إلى من يساعدهم، وادعوا هم أيضاً أن لا أحد يراهم، تركتهم إلى هذيانهم وهربت منهم أيضاً، وفي رحلة البحث عن الحقيقة، شاءت الصدف أن ألتقي رجلاً قرر ألا يتجاهلني ولم يكن يهذي، تعارفنا وتحدثنا لساعات وكان الوقت برفقته يمضي سريعاً، سألني إن كان بالإمكان أن نلتقي مرة أخرى في المكان نفسه، فأخبرته أنني لا أمانع والحقيقة لا شيء أفعله غير هذا، وخاصة أنه الوحيد العاقل الذي لم يتجاهلني، فتكررت لقاءاتنا، كنت بحاجة إلى أن أنفس عما بداخلي حتى

لو اعتقد أنني جننت فأخذت أروي له قصتي بحذر شديد وشجعني إصغاؤه واهتمامه على مواصلة قصتي، كان مهذباً في طرح أسئلته ولا يلح علي حينما كنت أمتنع عن الإجابة، علاقتنا كانت رائعة ولكن كالعادة لكل شيء جميل نهاية، بعد أن انتهيت من سرد قصتي سألته:

- لماذا لا يراني الجميع ؟
- وكيف تفسر ما يدور حولك حالياً يا حسن؟
- لو كان لدي تفسير لما سألتك، يا صديقي.

استفز وجودي حينما أخذ يهذي وقال:

- أنت تعيش حالة إنكار، إن لم تترك عقلك مرناً قليلاً لاستيعاب ما سأخبرك به فستبقى تائهاً.

امتعضت، فلست بحاجة إلى أن يخبرني أي كان كيف أكون مرنا في تفكيري، وبعد ذلك يغرقني بفلسفة علم النفس وأن ما حدث لي لا يتعدى الأوهام، فاتخذت قراراً أن أتركه وأذهب في حال سبيلي، استأذنته، فسألني:

- هل سألتقيك مجدداً؟
- ربما، إن سمحت الظروف.

وقبل أن أتركه باغتني بسؤال، شعرت معه أنه يسعى من خلاله إلى منعي من المغادرة:

- متى كانت آخر مرة تناولت فيها الطعام يا حسن؟
- لا أذكر.

- وهل يعقل أنك تذكر أدق التفاصيل رحلتك إلى عالم الجن ووصف أنواع طعامهم وشرابهم والآن تعجز عن تذكر آخر مرة تناولت فيها الطعام منذ عودتك إلى عالم البشر.
- ربما ضعفت ذاكرتي قليلاً لهذا لا أذكر.
- لا علاقة لضعف الذاكرة بما أنت عليه، والدليل أنني لو سألتك عن الأيام الماضية فستتذكر أدق تفاصيلها وستجد صعوبة بالغة في تذكر أي شيء له علاقة بالوقت، والآن سأسالك مرة أخرى متى شربت ماء أو قضيت حاجتك، إن لم تذكر أكون قد نجحت في أن أغريك لتبقى قليلاً وتستمع لما سأقوله لك.

نعم لقد نجح في لفت انتباهي وأثار فضولي ولكني حذرته من ألا يحاول أن يتهمني بأني قد فقدت رشدي أو جننت، كان مهذبا في رده:

- على العكس يا حسن، أنت بكامل وعيك وفي أحسن أحوالك، ولكن هناك حقائق يأبى عقلك أن يقر بها، وهذا أيضاً أمر طبيعي جداً يحدث مع أغلب البشر فور مغادرتهم أجسادهم المادية، وأتمنى ألا تتوتر، وأن تجاريني قليلاً حتى أتمكن من إيصالك إلى ما تحتاج معرفته.
- هل تقصد أن الجن استولوا على جسدي مثلاً؟
- لا علاقة للجن بما يحدث معك، أنت طيف وقد غادرت جسدك في مكان ما، وحتى أبسّط عليك الأمور، أنت بمفهوم الأحياء ميت، لهذا يستحيل عليك التواصل معهم.

كنت أتوقع منه أن يبدأ باتهامي بأنني غارق في وهم لا نهاية له ولم أتوقع أن يتفوه بهذه السخافات فسألته ساخراً:

- وهل يموت الشخص ولا يعرف أنه ميت، ومن أنا الذي أقف أمامك وأحدثك الآن؟
- أنت طيف يا صديقي، وستحتاج وقتاً حتى تتقبل واقعك الجديد وتقر بهذه الحقيقة.

أعلم جيداً أن قصتي تتجاوز حد الجنون وما كنت لألوم أحداً لو اتهمني بالجنون، فأنا كنت سأفعل المثل، ولكن أن يتهمني أحدهم بأنني ميت، فهذا هو الهذيان بحد ذاته، وكيف أرد عني مثل هذه التهمة المجنونة هل علي أن أصرخ بأعلى صوتي أم أقسم الأيمان أنني حي أرزق، هل علي أن أغضب أم أحزن، وكان لا بد أن أسخر منه قليلاً فقلت له:

- أليس غريباً أنك تجد صعوبة في تصديق قصتي والجن، ومع هذا لا تجد صعوبة بإقناع نفسك أني ميت أين المنطق في هذا؟
- ولما لا تطرح هذا السؤال على نفسك يا حسن، أتجد صعوبة في تصديق أنك طيف على الرغم من قناعتك بأنك قد وصلت إلى ما لم يصل إليه بشر، تعال لنضع النقاط على الحروف، أنا أصدق قصتك ولم أشكك فيها، ولا أخفي عليك أن بعض التفاصيل لن يستوعبها عقلي بسهولة، وأجد أن الكثير من الأماكن التي وصفتها أقرب إلى عالمي البشر والأرواح، ومع هذا فأنا لست في موقع يسمح لي أن أنفي وجود عالم الجن، فهل بإمكانك أن تعاملني

بالمثل وتترك عقلك منفتحاً على وجهة نظري حول وضعك، إن فعلت ذلك فسيكون سهلاً علينا أن نحدد الوقت والمكان الذي غادرت فيه جسدك.

نجح هذا الشخص في أن يهزني من أعماقي ويدفعني إلى التفكير باتجاه آخر لا علاقة له بسحر الجن، ومع هذا أجد صعوبة في تقبل هذه الفكرة البغيضة، أنا طيف ميت، كيف حدث هذا وأين، هل لعقلي أن يستوعب أنني تركت جسدي يتعفن في مكان ما، قررت أن أجاريه وكلي أمل أن أثبت أنه مخطئ، خضنا معاً نقاشاً طويلاً حول تفاصيل قصتي منذ لقائي غادة ورحلتي معها إلى باطن الأرض، حتى وصلنا إلى مرح وقومار، فحاول أن يثبت لي أنهم كانوا بحاجتي لأنني كنت بارعاً في الطواف خارج الجسد لفترات طويلة والعودة إليه، وقد استغلوا هذه الميزة التي لم أكن أعلم بها، وأكد وجهة نظره بالاستناد إلى مرافقتي غادة ووصولي إلى مكتبة الجن دون أن أخرج من غرفتي، وإلى أن مرح دفعتني لأكشف الطريق التي أوصلتنا إلى مدينة درب الحكمة، انسجمت معه في الحديث واحترمت المنطق الذي يستند إليه، وحينما اقتربنا من الجزء الذي وصلت فيه إلى سجن الخياط حاول أن يثبت أن سم شرشريتا هو ما تسبب في موتي، وأن الخياط قد تركني أموت في تلك الفسحة التي طلب مني أن أنام فيها، وربما يكون قد دفنني هناك ورافق طيفي إلى عالم البشر، لم أشعر بالراحة في مجاراته فانفجرت غاضباً:

- سأثبت لك أنك مخطئ وأنني لست ميتاً.

تركته دون وداع، هربت من هذيانه لأبحث عن إجابات لأسئلة أخذت تطاردني بشراسة، من أنا؟ وهل علي أن أسلم بالأمر الواقع وأعترف أنني لست أكثر من طيف؟ ولكن أين المنطق في هذا؟ أليس الأقرب إلى العقل أن زيارتي لقلعة أكزانتوس وما خزن في ذاكرتي من علوم السحر القديمة هو ما أثر بي؟ وأنني لن أجد من يساعدني إن لم أساعد نفسي، أفكار مجنونة راودتني وحثتني أن أبحث عن طريق تعيدني إلى مملكة الشر، عدت إلى نقطة البداية المدخل إلى أبواب الشر، استعدت ذكريات اللحظات التي قضيتها مع مرح حاولت البحث بدقة وكان كل شيء على ما هو عليه كل صخرة وحجر حتى إنه كان بإمكاني أن أتذكر كل خطوة سرت بها خلف مرح أو بجانبها ولكني لم أجد الطريق إلى الأقواس، مرت أيام وأنا أحاول حتى يئست، وهنا قررت أن أبحث عن المكان الذي خرجت منه بعد أن أوصلني الخياط، لم أجد في ذاكرتي ما يدلني عليه، أخذت أتنقل من مكان إلى آخر حتى ما عدت أميز الليل من النهار، ولا أجد الراحة إلا في حديقة بيتنا، أجلس وأنا أراقب الجميع بصمت، ترتجف أوصالي ويدق قلبي كلما رأيت أمي تقترب من الحديقة وتنظر باتجاهي، فأشعر بأنها تراني فأقفز فرحاً ثم يخيب أملي حينما أرى الدموع تنسل من عينيها وتتجاهل وجودي، فأهرب وأهرب، ثم أتجول هنا وهناك، أتمشى وأجلس وأرقص وأغني وأصرخ وأبكي، وكلما وجد اليأس طريقه إلى قلبي كنت أعود إلى البيت، أراقب ابن أختي سروة، فيبتسم وعيانه الصغيرتان تقولان: أنا أراك يا خالي، تلك الابتسامة البريئة كانت تشحنني بالطاقة

والأمل بأنني يوماً ما سأجد الحل لمشكلتي، ومن الأماكن المفضلة التي لم أتوقف عن زيارتها ليلاً كانت بناية مرتفعة تطل على المدينة وتشرف على تقاطع طرق، كنت أجلس هناك لساعات طويلة أراقب أضواء المدينة وأراهن نفسي أن إحدى الطرق سيمر منها أكبر عدد من السيارات، وكم كان يسرني حينما أفوز وأشعر بالحزن حينما أخسر، وذات ليلة لن أنساها بينما كنت أعد السيارات، باغتني صوت هز كياني:

- مساء الخير يا حسن.

ارتعش قلبي وقفز من بين ضلوعي، إنه صوت الحياة، الصخب، الجنون، الإثارة... تقف أمامي، هي هي لم يتغير فيها شيء تنظر إلي بعينيها السوداوين وتقول:

- هل انتهيت من تفحصي؟ هل بإمكاني الجلوس الآن؟

نعم هي هي، اقتربت، جلست إلى يساري وأزاحت شعرها ومالت برأسها وأخذت تسخر مني بعينيها وضحكت ثم قالت:

- هل اعتقدت أنك ستهرب مني بسهولة يا حسن؟ ألم أخبرك أن مصيرنا واحد؟

يا إلهي، كم أفتقد هذا الصوت، يا إلهي كيف تمكنت عدة كلمات أن تعيد النبض إلى قلبي وتنفض الغبار عن روحي بعد أشهر طويلة من الغربة والرتابة والوحدة القاتلة، وبعفوية مددت يدي لألامسها لكني تراجعت بسرعة خشية أن تنفجر غاضبة فلا شيء يستفز هذه المجنونة أكثر من ملامسة جسدها دون رغبة منها، فابتسمت وقالت:

- لا تخف، بإمكانك أن تمسك يدي حتى تتأكد أنك قادر على ملامسة شيء.

أمسكت كفها فشعرت بدفئها، أخذت أشد عليها بقوة وكأني أخشى أن تهرب مني، لم أنطق بحرف وحينها تساءلت إن كنت فعلاً قادراً على النطق، بعد صمت الأسابيع الماضية فقالت لي:

- هيا اسأل المليون سؤال؟

تحرر لساني وتزاحمت آلاف الكلمات لتشق طريقها إليه ليحررها من عالم الصمت.

- ما أخبارك، ماذا حدث، كيف وصلت، الخياط، سنوسا، الاحتفال شرشريتا... مئات الأسئلة تسابقت للفوز بالإجابة؟

تركتني حتى انتهيت من أسئلتي ثم قالت:

- لقد مر عام كامل يا حسن منذ رحيلك برفقة الخياط وما زلت تفكّر بشرشريتا، لو عرفت أنها ما زالت تسكن عقلك لأحضرتها معي.

أعلم أنها تمازحني فلم يعاملني أحد باحتقار مثلما فعلت الذهبية، ولن أصدق أن عاماً كاملاً مر بهذه السرعة فتجاهلت ما قالت وحثثتها على الإسراع في أن تروي لي كل ما حدث وكيف نجت ووصلت عالم البشر وألا تعذبني بنار الفضول أكثر فضحكت ثم قالت:

- سار كل شيء على ما يرام، عاد الخياط ووفت سنوسا بوعدها، وبمساعدتهما وجدت طريقي إليك، والآن نحن أحرار وانتهت القصة.

يا إلهي كم أكره أسلوبها المستفز وبراعتها بالعزف على أوتار فضولي وأعشقه في الوقت نفسه:

- قصة مثيرة فعلاً، أما كان بإمكانك اختصارها أكثر بدل إغراقي بكل هذه التفاصيل.
- بصراحة لم أشأ أن أطيل الحديث خشية أن تكون مشغولاً، ولكن إن كنت تملك الوقت فسأروي لك التفاصيل.
- نعم أنا مشغول جداً وبالكاد أملك الوقت لأحك رأسي، ولكن لا بأس سألغي مواعيدي هذه الليلة لأتفرغ للاستماع لك فقط.
- كم أنت رائع يا حسن، لقد غمرتني بعطفك فعلاً، ولكني سأكون مهذبة وسأختصر قدر الإمكان، لنبدأ من ذلك اليوم الذي رافقت فيه شرشريتا لتصحبك لمقابلة الخياط، بقيت في حديقة القصر متسمرةً في مكاني إلى حين عودتها ولا أخفيك سراً أنني كنت مرعوبة من إمكانية عودتك مرة أخرى، وبعد ثلاث ساعات عادت شرشريتا وأكدت لي أنك برفقة الخياط وتركتني بخباثة ألج إلى أفكارها لأتأكد من أنها صادقة، عندها تنفست الصعداء لخلاصي منك، وكان علي أن أماطل أطول فترة ممكنة حتى أفسح المجال للخياط لاكتشاف الرسالة التي تحملها إليه في ذاكرتك، وكنت على يقين أن عشرة أيام ستكون كافية، أقامت شرشريتا احتفالها وأعلنت أنني سأكون الجائزة، نجحت في استقطاب أعداد كبيرة من كل المدن، ولا أخفيك أنني سررت، لأن هناك الكثيرين من المهوسين

بي؛ الأمر الذي أرضى غروري، حينها كنت أملك الخطة المناسبة التي ستمكنني من النجاة، كانت المفاجأة في حضور أميرة الظلال وأميرة النجوم الاحتفال، فعلمت أن هناك مؤامرة شيطانية دبرتها الأميرات الثلاث لإذلالي، ولم يصعب عليهن اختيار أقبح رجل في المملكة ليفوز باستعباد كونتنيسا حارسة أبواب الشر، ليطلب مني ما يشاء من غروب الشمس إلى شروقها، وتم إعداد خيمة وسط ساحة مدينة الشمس ليتمكن الجمهور من متابعة الحدث، سار القبيح اللعين كملك باتجاه الخيمة وسط تصفيق الجمهور، وجاء دوري لأشق الطريق نفسها خلفه حسب الاتفاق، وحتى قبل وصولي هتف الجمهور مطالباً القبيح بأن يخلع الخيمة وألا يحرمهم متعة المشاهدة.

صمتت الخبيثة لتثير فضولي أكثر فسألتها:

- ماذا حدث؟ ماذا فعل؟ هل؟؟ تحدثي بسرعة
- أتغار علي يا حسن؟
- أنا أغار من هدوئك وجنونك أكملي القصة.
- سرت في طريق الإذلال بكبرياء واثقة ساخرة وقبل أن أقترب من الخيمة اكتشفت أن شرشريتا أبرع مني بكثير، انتهت تلك الليلة على خير.
- كيف مرت على خير؟ ماذا حدث؟ هل وافقت على أن تكوني عبدة أم سحرته؟

- لا، للأسف شرشريتا لعينة وكانت حريصة في هذه النقطة، أخذت مني عهد زاتا على ألا أؤثر على عقله ولا أسلب إرادته وألا أمارس أي نوع من الخداع مارسته الجنيات من قبل.
- وأنت بذكائك الخارق قيدت نفسك بعهد زاتا الغريب.
- عهد زاتا ما كان ليذل امرأة في الكون ولا يكون ملزماً أن تناقض مضمونه، لهذا اعتمدت على هذه الخطة للنجاة، والخبيثة كانت تعرف هذا سلفاً فتركتني أعتقد أنني سأتمكن من خداعها وأنفذ من هذه الثغرة، وفاجأتني حين اكتشفت أنها جمعت الأميرات واستخدمت قوتهن لتحصين رجلها وفرض طوق ناري من حولي، وهذا أضعفني وتركني عاجزة عن فعل أي شيء إلا الالتزام باتفاق الإذلال.

شردت بخيالها وقفزت من عينها دمعة سقطت على قلبي فألهبته، وإن كان للقصة تتمة فالدمعة أخبرتني أن نهايتها لم تكن سعيدة. شعرت بغضب شديد وأنا أطرد الصور التي رسمها خيالي للإذلال الذي قد تكون تعرضت له. تلعثمت وأنا أحاول أن أنتقل إلى موضوع آخر لأجنبها الإحراج وأوفر على نفسي ألماً أكبر مما شعرت به وأخيراً سألتها:

- كيف نجحت في الخروج من مملكة الشر؟

نظرت إلي بحنان ثم أخذت تحدق بعيني، كان في عينيها بريق لم أعهده من قبل، ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة لم أجد لها وصفاً، لقد كانت نقية تخلو من أي خبث وبصوت يخلو من أي مكر قالت:

- أتعلم يا حسن، هذه المرة الأولى التي أحس فيها بأنك تعشق روحي وكبريائي أكثر من جسدي، الآن فقط بإمكاني أن أقول إنك ستكون صديقاً جيداً.

سرني ما قالت ومازحتها بملامح وجهي قبل أن أقول:

- صديق فقط يا مرح؟
- صديق فقط يا حسن.

الكلمات الأخيرة أخرجتني من أجواء اشتياقي لمعرفة المزيد حول خروجها من مملكة الشر وأدخلتني في أجواء الحزن على حالي، شعرت بالضياع وعاد إلي السؤال؟ من أنا؟ وسألتها:

- هل تحولت فعلاً إلى طيف أم أنني أخضع إلى سحر ما؟
- لا علاقة للسحر بما حدث معك، لكل جسد عمر افتراضي ودورة الحياة لن تتوقف، وكل ما ينمو يفنى، الآن عليك التأقلم مع وضعك الجديد.
- وهل علي أن أتقبل فكرة أنني ميت؟
- تقبل فكرة أنك ما عدت داخل جسد مادي، هذا كل ما تغير في وضعك.
- ولماذا لا أشك في أنكم أنتم من حولتموني إلى طيف لا يراني إلا عدد قليل من البشر؟
- قد تجد الراحة بهذه الأفكار السخيفة لفترة قصيرة من الزمن، تأقلم مع واقعك الجديد، لا أحد يستطيع تحويلك إلى طيف.

- ولكني تحولت إلى طيف حينما تجاوزت التلال لأكتشف الطريق التي أوصلتنا إلى درب الحكمة وبعدها عدت إلى جسدي، فلماذا لا يحدث معي هذا الآن؟
- مغادرة الجسد والعودة إليه ليس بالأمر المستحيل إن كان ذلك لفترة زمنية قصيرة، وفي ذلك الوقت كان جسدك بحالة جيدة نوعاً ما.
- هل قتلتني شرشريتا بالسم الذي أجبرتني على احتسائه؟
- لا لم يقتلك أحد، كل ما في الأمر أن المرض قد تمكن من جسدك فور مغادرتك مملكة الشر.
- عن أي مرض تتحدثين، لقد كنت بخير قبل أن أشرب سم شرشريتا.

زمت شفتيها ورفعت عينيها إلى الأعلى وقالت:

- في الماضي كنت أتفهم حاجة عقلك الباطن لإنكار مرضك، وطريقته في إيهامك أنك بصحة وعافية كانت مذهلة فعلاً، ولكن حالياً لا أجد مبرراً للاستمرار في هذا الإنكار. عزيزي حسن، لقد كنت مريضاً حتى قبل أن تعرفني بكثير، وحذرك الأطباء من حماقة توقفك عن تناول الدواء، والحقيقة أن دخولك مملكة الشر هو ما تسبب في إبطاء المرض.

أنا قريب جداً من تقبّل فكرة أنني طيف لعين، كل الدلائل تشير إلى هذا، ولكن من الصعوبة البالغة أن أقر بأنني كنت مريضاً يوماً ما، وكيف

أصدقها وهي التي أغرقتني في الأوهام ومارست علي كل خدع العالم، وما قيمة إن صح ما تقوله أم لم يصح في وضعي الحالي فسألتها:

- وهل عاد لأحد حاجة بي بعد أن تحولت إلى لا شيء، ووعودك السابقة ما قيمتها في وضعي الحالي.
- لم أحتج جسدك يوماً، لقد كان عبئاً عليك وعلي، لقد أخطأ قومار حينما اعتقد أنه يستحيل دخول أبواب الشر إلا بمرافقة جسد بشري، ومن المضحك أن أغلب التعقيدات التي واجهناها كانت لأنك رافقتني بجسدك لا بطيفك ولو أن قومار كان بسيطاً في تفكيره وفهم أن طبيعة البشر تغيرت عبر عشرات الآلاف من السنين لكنا وصلنا إلى مملكة الشر في ساعات وما تكبدنا كل ذلك العناء، إيماني العميق بعبقرية قومار أعماني عن رؤية الحقيقة، وهي أن الدخول سهل والخروج هو المستحيل. الآن أنت حر، بإمكانك الانتقال إلى أي مكان في أي وقت. ما عاد الكاتو قادراً على إيذائك أو حتى إيجادك لو سعوا إلى ذلك، وأمامك الكثير لتكتشفه، وحينما تتأقلم مع وضعك ستتفاجأ كثيراً بروعة الحرية الحقيقية.

وسألتها عن أمر شغل بالي كثيراً ولم أجد الإجابة عليه يوماً:

- ما الذي ميزني حتى ألاقي هذا الاهتمام من غادة ومنك ومن قومار، هل أنا محظوظ إلى هذه الدرجة أم ملعون؟

- لقد أجبتك عن هذا السؤال أكثر من مرة، حسناً، سأبدأ بكادنتا، ولتكن هذه المرة الأخيرة التي سنأتي فيها على ذكرها، كادنتا فتاة بريئة أحبتك بجنون، والحقيقة أن شخصيتك سحرتها، فانقادت خلفك دون وعي أو تفكير، لقد كانت على استعداد أن تضحي بأي شيء مقابل لحظات تكون فيها برفقتك، وحين عرضتَ عليها الزواج وافقت على ذلك إرضاءً لك فقط، الحقيقة أنك من كنت يسيطر عليها وليس العكس، الكونيات يا حسن، أكثر من بنات الإنس جنوناً، وإن أحبت إحداهن فإنها تضحي بكل شيء من أجل من أحبت، ولهذا أنت محظوظ لأنك أوقعت كونية في حبك، وللأسف جمالها بهرك ولم تدرك كم هي بريئة وأن علاقتها بك ستؤذيها. صدقاً حينما علمتُ بعلاقتكما كان هدفي فقط أن أحميها منك وأعيدها إلى حياتها الطبيعية بهدوء دون أن يترك هذا الأمر تأثيراً على حياتها، وأوهمتها أن الأمور قد خرجت عن سيطرتي، وأن الكاتو هم من يقرر مصيرها، كنت أعتقد أنها ستخاف وتقطع علاقتها بك، وكم كنتُ متفاجئة حينما ارتبطت بك، والمفاجأة الأكبر أنها هربت لأنها اعتقدت أن عقابها سيكون كبيراً، الشقية لم تعلم أنني كنت على استعداد أن أؤذي نفسي قبل أن أؤذيها، كنت قادرةً على القبض عليها بسهولة ولكني فضلت أن أكون صبورةً وأدفعك إلى أن تتخلى عنها، وهكذا ستنساك وتعود إلى حياتها، وكانت الفرصة وتمكنت من إعادتها، لكنها فاجأتني أنها

هددتني بأنها ستنهي حياتها إن لم أعطها عهداً بأنني لن أؤذيك، عاهدتني أنها ستتساك ولن تكرر حماقاتها، فعاهدتها ألا أؤذيك يوماً، وكلي إيمان بأنك أيضا سعيد لعلمك أنها بخير.

لم أشعر بالاستياء مما قالته، وفي أعماقي كنت سعيداً لأن حبيبتي بخير، وفي الوقت نفسه لا ألوم مرح، فمن حقها حماية أختها، ولكن ذلك اللقاء في حديقة الأميرة باندا كان أكبر من حلم، فسألتها عنه، فقالت:

– كان علي أن أفي بوعدي لك بأنك ستلتقي كادنتا، وصناعة حلم ليس بالأمر الصعب علي ما دمت أعرف طبيعة تفكير من سيظهر فيه، وقد نجح الأمر وساعدك في مواجهة نفسك واتخاذ القرار المناسب في حينه.

– سؤال أخير إن كنت أعطيت عهداً لغادة أن تتركيني في حالي، فلماذا لم تفعلي بعد أن أخرجتها من حياتي؟

– أولاً، أنا وعدتها ألا أؤذيك، وقد وفيت بهذا الوعد، أما اهتمامي بك يا صديقي فلم يكن سببه شخصيتك الساحرة، وإنما جاء بالصدفة، كادنتا ببساطتها اعتقدت أن كل البشر قادرون على الطواف خارج الجسد، وهذا ما دفعها إلى أن تجرب ذلك معك، ولحسن حظك أن تجربتها الطفولية البريئة لفتت انتباهي وأذهلتني، ما ميزك أنك كنت مريضاً تمضي ساعات طويلة بعيداً عن جسدك، وهذا نادر الحدوث، فأغلب البشر كان بإمكانهم الطواف دقائق فقط وأحياناً لا يتمكنون من العودة إلى أجسادهم، أما أنت،

فقد كنت بارعاً ولم تدرك هذه الحقيقة يوماً، لهذا وجدت أنك الشخص المناسب لاصطياد قومار، وعلمت أنه سيلتقط الطعم ويكتشف فيك هذه الميزة، وتطورت الأمور لاحقاً، هل كنت تعتقد أنك قادر على التواصل مع كادنتا بهذه السهولة لو لم تملك هذه الميزة. سأخبرك بأمر تجهله، الكثير من اللقاءات التي جمعتني بك كانت تتم خارج جسدك، مثلما يحدث الآن، وهذا أحد الأسباب التي جعلتك تحافظ على وعيك وذاكرتك على الرغم من مغادرتك جسدك، هذه كل الحكاية يا حسن.

حديثها كان مشوقاً ولم يكن مقنعاً في الوقت نفسه لهذا لم أرغب أن أخوض فيه أكثر. فسألتها عن علوم السحر القديمة والحديث الذي دار بيني وبين الخياط لعلها تساعدني في أن أنظم الفوضى التي ملأت رأسي فقالت:

– لا شيء أضيفه إلى ما عرفته سابقاً، هي علوم قديمة تمكنت من إخراجها عبر وعيك، والخياط حاول بشتى الطرق أن يمسحها من ذاكرتك، وحين فشل حاول خداعك بالطرق القديمة بأن تسمح له أنت بالولوج إلى ذاكرتك، ولم يعلم أن من نقل العلوم إلى وعيك ما كان ليسمح لأحد بالعبث فيها، وها نحن والعلوم معنا بعد أن تغلبنا على كل الصعاب.

– هل أفهم أنني أحمل الآن قوى الشر في ذاكرتي؟

– تحمل نصف العلوم، والعلوم النقية والخيرة أيضاً.

قلت ساخراً:

- إذاً سأكتفي بأن أحكم نصف العالم وأترك لك النصف الآخر.
- لن تحكم دجاجة، هي علوم قديمة وسنحتاج سنوات طويلة لفك رموزها، وما يهمني حالياً أن هذه العلوم قد عادت إلى مكانها الأول ويوماً ما سأصحح التاريخ الذي حول زاتا وكانا إلى أسطورة ظلامية.
- نصف العلوم التي أحتفظ بها هل ستأخذينها الآن؟
- لا ستبقى معك، لأنه من الصعب أن نجمع النصفين معاً في مكان واحد، ولن نتمكن من فك أكثر من رمز واحد كل مرة.
- وأنا ما هو دوري في كل هذا؟ وماذا سأفعل الآن؟
- توقف عن البكاء واستمتع بوقتك، لن أتركك. سأتواصل معك دائماً، ولكن لا تلتصق بمكان واحد، اذهب واكتشف العالم، وسأجدك حينما أحتاج إليك، فمصيرنا واحد، سأشرح لك الآن كل ما تحتاج أن تعرفه وكيف تحافظ على وعيك ومما يجب أن تحذر، حتى يصبح تواصلنا معاً أسهل.
- هل سيستمر الكاتو بمطاردتي؟

أطلقت ضحكة خيل إليّ أنها أيقظت كل نائم في الجوار ثم قالت:

- أتحتاج إلى أن يطاردك أحد لتشعر بأنك موجود، لا تقلق يا صديقي، تحررك من جسدك سيجعلك تواجه مستقبلاً مخاطر لم تخطر على بالك يوماً. أما الكاتو فعليهم أن يخشوك لا أن

تخشاهم، ولكن هناك الكثير ممن سيسعون في أثرنا يوماً ما وعلى رأسهم الخياط.

– لا أصدق، لولا الخياط لما وصلت إلى عالم البشر، إنه الجني الوحيد الذي شعرت بأنه كان صادقاً معي، أليس هو من دلك على الطريق أيضاً.

– الخياط ليس كونياً يا حسن، وليس هو من ساعدني على الخروج من مملكة الشر.

– بالمناسبة، أكملي قصة خروجك من مملكة الشر وأرجو أن تتجنبي قصة الخيمة.

– يا صديقي الرائع، لا تخف علي من الحرج، ما حدث لن أنساه يوماً ولا أمانع أن تشاركني فيه، وصدق حتى أنا أحياناً أكون بحاجة إلى لحظة أشارك فيها فرحي وحزني مع أحد، ذلك اليوم الذي وقفت فيه على مدخل خيمة الإذلال كان من أسوأ أيام حياتي، وكل لحظة فيه كانت مؤلمة بشدة، وأعترف بأني لم أختبر كيف يكون الإحساس بالعجز والخوف كما اختبرته في تلك اللحظات التي وقفت فيها على مدخل الخيمة، حتى خيار الموت بكبرياء حرمتني منه شرشريتا بعد أن تفوقت عليّ بمكرها، كانت تعلم أنني أتنفس الكبرياء، وكنت أعلم جيداً أنها لن تكتفي بأن يذلني عبدها، لقد أرادت إذلالاً يشارك فيه الجميع حتى لا أتعافى منه يوماً، وقفت عاجزة أمام مكرها محاطة بالأعداء وطوق من

نار جردني من كل شيء، والاتفاق الذي وقعت عليه بغروري منحهم الحق في استعبادي وإذلالي، تجمدت مكاني وبكيت فلا مكان أهرب إليه، صرخت شرشريتا وهي تأمرني أن أدخل الخيمة فوراً التزاماً بالاتفاق، لم تترك وصفاً جارحاً إلا وصفتني به، ضجيج صوتها القبيح لم يمنع وصول همسات ناعمة تحقق حلم طفولتي، حين تجلى أمام عيني طيف زاتا، مسحت دموعي وهمست في أذني: "لن تكتمل دائرة دون أن تجمعي نصفيها يا كونتنيسا، اتبعي طرق كانا القديمة وبنات البشر لتنقذي نفسك." شعرت بقوة لم أشعر بها من قبل فقفزت إلى داخل الخيمة وباغت القبيح بقطع لسانه، أخضعته وسألته إن كان قادر على النطق ليأمرني بشيء لألبيه له حسب الاتفاق، فلم يستطع أن ينطق بعد أن وقع لسانه على الأرض، همست بأذنه أرأيت يا عبد شرشريتا كم أنا مطيعة، ما حدث في الخيمة يا حسن كان أجمل ما حصل في حياتي، لقد رأيت زاتا واستمتعت بممارسة الطرق القديمة لكانا وبنات البشر وتعلمت أن زاتا استمدت قوتها من كانا، وكانا استمدت قوتها من زاتا، وأنه لا يجوز أن نتبع واحدة ونتجاهل الثانية.

لم أرغب بمقاطعتها وهي تتحدث عن زاتا وكانا بحماس وفخر، وعندما فاض صبري طلبت منها أن تكمل القصة وتعود لاحقا لزاتا وكانا فضحكت وقالت:

- كان علي البقاء في الخيمة وإخضاع القبيح حتى لا يهرب إلى حين انتهاء الوقت المحدد، ولو لم أغير هذه الفكرة لتورطت أكثر، ما أعرفه عن تاريخ كانا ساعدني على خلق الفوضى التي أحتاجها، فدفعت العبد القبيح خارج الخيمة وخرجت خلفه بكبرياء وأعلنت أنني سأنتقم من الجميع، الجمهور لم يعتد على هذا النوع من العنف فدبت الفوضى، وأميرة النجوم يبدو أنها صدقت خدعتي فارتعبت هي الأخرى، وتسببت في إضعاف الطوق الناري، رأيت أن هذه هي فرصتي للهرب قبل أن تستعيد شرشريتا زمام المبادرة، أحزنني أنني كنت مضطرة إلى الهرب ولم أستمتع بمراقبة ذهول الجميع. بعد ذلك انضممت إلى سنوسا وانتظرنا حتى عاد الخياط، ولك أن تتخيل ماذا يمكن أن يحدث إن اتحدت خبرة سنوسا مع جنوني ضد شرشريتا وشقيقها، ففي الشهر الأول أبطل الخياط سحر كل ثوب حاكه عبر مئات السنين فانفض معاونو شرشريتا وحرسها عنها، أما سنوسا فقد جمعت من حولها بنات جيلها والمنبوذين، وأنا استمتعت كثيراً حينما أطلقت سنوسا يدي لأفعل ما أشاء بحرية مطلقة خاصة أن قوانين مملكة الشر غير ملزمة لي لأنني لست من سكانها، لم تمض ثلاثة شهور حتى عادت سنوسا إلى قصرها، أما شرشريتا وشقيقها فهما الآن يستمتعان بقضاء إجازة مفتوحة في سجن الخياط. القصة كانت ستنتهي هنا لولا أن الخياط بذل كل جهده ليحجزني داخل مملكة الشر إلى

الأبد، ونجح فعلاً في حجزي في حديقة سنوسا عدة أسابيع، لكن سنوسا أثبتت أنها عظيمة قولاً وفعلاً، فقد قررت أن تحافظ على عهدها رغم أنف الخياط، حتى أنها أرشدتني إلى أول الطريق التي من خلالها بإمكاني تتبع أثرك، وهأنا أتحدث معك.

– من هو شقيق شرشريتا؟

– هذا هو السر الذي أرادت سنوسا أن أكتشفه حتى تثق بي وتتعاون معي، شرشريتا توأمان متطابقان، ذكر وأنثى، ويستحيل التمييز بينهما، ولهذا حرصا على التناوب على لعب دور شرشريتا، ولم يكتشف سرهما أحد، أما سنوسا التي كانت تعرف السر طبعاً فقد كان صعباً عليها أن تهزمهما إلا إن اجتمعا في مكان واحد، وهذا ما لم يحدث أبداً، فإن ظهرت شرشريتا اختفى التوأم الآخر عن الأنظار، والحقيقة أن هذا كان سبب هزيمتي أنا أيضاً.

استمتعت إلى أبعد الحدود بهذه النهاية الجميلة، دار بيننا حديث طويل أدركت في نهايته أنه سيمر وقت طويل قبل أن نلتقي مجدداً، حينها سألتها:

– ماذا سأفعل حتى ذلك الحين؟

– استمتع بالحرية التي تملكها، العالم واسع وهناك الكثير لتكتشفه، وفي الوقت المناسب سأجد طريقي إليك.

– الوحدة يا مرح ستقتلني، فما عدت قادراً على التواصل مع أحد، فأنا مجرد طيف.

- ستتفاجأ مما أنت مقبل عليه، لن أفسد عليك المتعة سأتركك تكتشف ذلك بنفسك.

غادرتني مرح وهذه المرة أعلم أن غيابها سيطول كثيراً، ما أخبرتني به كان كافياً ليعيد لي الأمل، قررت أنه قد حان الوقت لأتصالح مع ذاتي وأتقبل وضعي الجديد وإن كانت مرح صادقةً، فالأمر ليس بذلك السوء. كان علي أن أجد طريقة للتواصل مع أهلي قبل أن أقوم بأي أمر آخر، عدت إلى البحث عن الشخص الذي حاول كثيراً أن يوضح ما أنا عليه. لم يكن العثور عليه سهلاً، لم أيأس وواصلت التردد على الأماكن التي التقينا بها سابقاً حتى وجدته فرحب بي وقال:

- هل تعلم أن لقاءنا الأخير مر عليه ثلاثة أشهر يا حسن؟

دار بيننا حديث طويل ومشوق، كان أكثر صراحةً وكنت أقل حساسيةً، ومع ذلك اختلفنا على الكثير من النقاط واتفقنا حول بعض الأمور. حاول أن يقنعني أن هناك بعض التناقضات في قصتي وأن الكثير من الأماكن التي وصفتها هي أقرب إلى عالم البشر، وأن أماكن وشخصيات قصتي تلائم عالم الأرواح، مع أنه أقر بأن علوم السحر القديمة دفنت فعلاً في الجزء المنسي من الأرض وحرستها الأرواح، لم نترك أمراً لم نناقشه من بداية قصتي وحتى لحظة لقائنا، طلبت منه مساعدتي كي أتواصل مع أمي وأختي. لم يوافق في البداية ولكنه عاد ووعدني بأنه سيفكر في الموضوع بجدية، وبعد أسبوع وافق على زيارة أهلي لينقل لهم رسالة مني.

وحينما سنحت الفرصة التقى أختي سروة:

- مرحباً، أنا أعتذر لحضوري دون موعد، أنا صديق مقرب من حسن عندما كنا أسيرين في السجن. وقد أخبرني في آخر لقاء عن نيته السفر إلى بلاد بعيدة فهل تعرفين متى سيعود؟

أربكته أختي حين أجهشت بالبكاء ثم قالت:

- "لن يعود أبداً".

إجابتها أربكتني أيضاً وتساءلت إن كانت تعرف ما حدث لي وكيف يمكن لها أن تعرف، فألححت على صديقي أن يسألها فسألها:

- وماذا تعرفين عن البلاد التي ذهب إليها ولماذا لن يعود؟
- هل أخبرك حسن عن مرضه؟
- لا أعرف أن حسن كان مريضاً.
- حين عرف حسن أنه مريض لم يتقبل الأمر وقرر أن يعيش ما تبقى له من الحياة دون أن يزعج نفسه بالتفكير بالمرض، وكنا نجاريه إيماناً مناً أنه يحق له أن يعيش كل ساعة بالطريقة التي يختارها، كانت أمنيتنا الوحيدة أن يتزوج ويترك لنا من يخلد اسمه، وفي النهاية الأعمار بيد الله، ويبدو أنه اتخذ قراراً مفاجئاً وسافر إلى بلاد لا يعرفها إلا الله، ونحن لم نتوقف عن البحث عنه حتى

وصلنا إلى قناعة بأنه فعل هذا ليوفر علينا عذاب رحيله عن الدنيا.

ألححت عليه حتى يسألها عن غادة وما تعرفه ليكون ذلك مدخلاً لإخبارها أنني بخير، لكنه سألها:

- أين تعتقدين أنه يمكن أن يكون الآن؟
- لقد توقفت عن التفكير منذ زمن بعد أن أقنعت نفسي بأنه سعيد في مكان ما، وأن الله لن يتركه وحيداً.

ألححت عليه أن يخبرها بأنني بخير، ولكنه تجاهلني وودعها، غضبت منه كثيراً لأنه لم يلتزم باتفاقنا، فأكد لي لاحقاً أنه لا يحق له أن يدخل أهلي في دوامة أسئلة لا نهاية لها، وشدد على أن ترك الأمور على ما هي عليه أفضل، ولامني لأنني لم أخبره بمرضي فأقسمت له أنني لم أتمكن يوماً من تذكر هذه الحقيقة، فسخر مني وقال:

- والأيام التي أمضيتها في المستشفى هل كانت فعلاً بسبب حزنك العظيم على فراق حبيبتك، دماغنا يا صديقي يصنع المعجزات إن تعلق الأمر بإنكار أمر نرفضه.

كل الحقائق تشير فعلاً إلى أنني كنت مريضاً مع أنني لا أجد أي تفسير لهذا الإنكار، لم أرغب بشيء أكثر من أن أخبر عائلتي أنني بخير، ولكن صوت المنطق غلب على عواطفي، فأمي وأختي تقبلتا الأمر الواقع، ومن الأنانية أن أقحمهما بما لا يمكن تفسيره.

لم أتوقف عن زيارة صديقي وأهلي بين الحين والآخر، وصدقت مرح حين أخبرتني أن هناك الكثير مما يستحق الاكتشاف، أشتاق لغادة هي أجمل ما قدمته لي الحياة، وأفضل ما يمكنني أن أقدمه لها هو الابتعاد عنها، لن أسعى إلى لقائها وإن حدث ذلك يوماً فسأهرب بعيداً، وحاليا لدي الكثير مما يشغلني لسنوات، ويوماً ما ستعود مرح وسأكتشف ما تسعى إليه، سأشتاق إليها وأعلم أنها لن تكون يوما أكثر من صديقة.

النهاية

والحياة لا تنتهي بعد غروب الشمس

حسن كان يعيش بيننا يوماً

وقد تكون هذه الرواية من نسج خيال الكاتب!!

وإلى لقاء في رواية جديدة

فوزي عبده

Fawzi.h.abdo@hotmail.com

www.JarretDahab.com

مزيد من روايات الكاتب فوزي عبده

www.facebook.com/jarret.dahab

روايات فوزي عبده

زوجتي من الجن

جورجيت ذات الخمار

المنطق السداسي

جرة ذهب

ان أعجبتك الرواية لا تبخل علينا بتعليق أو مشاركة على صفحتك